ISSN:2707-8183

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة محكمة

تصدر عن الاتحاد الدولي للمؤرخين للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية

العدد التاسع ايلول سبتمبر 2020

يتضمن العدد ملفان

الاول بعنوان الامراض والاوبئة في التاريخ .. دراسات من العهد العثماني

الثاني بعنوان دراسات في طبيعة الامراض وتاثيراتها وتداعياتها

من اعمال المؤتمر الدولي للاتحاد الدولي للمؤرخين وبالتعاون مع اللجنة الوطنية العر اقية للتربية والثقافة والعلوم جامعة سيدي محمد بن عبدالله وجامعة سليمان الدولية الذي عقد تحت عنوان

الاوبئة والامراض في التاريخ .. تجارب ودروس
10-11 حزيران 2020

محتويات العدد التاسع

ت	الباحث	الموضوع	الصفحة
1	المحتويات	المحتويات	1
2	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	2
3	السياسات والقواعد	السياسات والقواعد	3-8
4	د. سمية سالم الشعالي	أنتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب ١٨٣٥.١٩٣٤م أبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي	9-20
5	د.هند فخري سعيد	طاعون بغداد عام ١٨٣١ م ..دراسة في ظروف الحرب و الوباء	21-40
6	د. الزرقاء سالم محمد حسين	الأوبئة وطرق مكافحتها في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١	41-52
7	د. فاتح رجب قدارة	الجوائح الوبائية في ليبيا العثمانية: القرن التاسع عشر إنموذجا	53-74
8	بن صحيح حورية، حدو سناء	وباء الطاعون في الجزائر في أواخر العهد العثماني(١٧٠٠-١٨٣٠م).	75-84
9	الباحث صلاح خيراني	الحجر الصحي - الكرنتينا- في مواجهة الأوبئة بالدولة العثمانية (١٨٣١-١٩٢٣)"	85-102
10	أ. م. علي كامل حمزة السرحان	الأوبئة والأمراض التي اجتاحت العراق في العهد العثماني وطرق الوقاية منها	103-128
11	خالد أوعيل	"أوبئة الجزائر خلال العهد العثماني و انعكاساتها على المجتمع و اقتصاده".	129-148
12	الدكتور أنور فاضل علي صبي الخالدي	دراسة مقارنة بين كوفيد-١٩ – والإنفلونزا الإسبانية الاقتصاد – الإجراءات – التأثير الدروس المستفادة	149-160
13	ناهض سالم أبو منديل	دور المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي المجتمعي في ظل جائحة كورونا	161-180
14	د. البشير البونوجي / المغرب	التأثيرات السياسية والاقتصادية لفيروس كورونا على النظام الدولي	181-206
15	أ. د/ فلة موساوي- القشاعي	وباء الطاعون.. طبيعته، أنواعه، عدواه، دوراته وسلّم حدّته	207-226
16	الدكتور عبدالمجيد النوري	إشارات مركزة، في سياق جائحة كورونا، حول ظاهرة الكوارث والأوبئة.قانون التكرار، التداعيات، وأشكال التفاعل عبر الأزمان.	227-276

هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني

نائب رئيس التحرير

الدكتور عثمان برهومي تاريخ تونس

مديرة التحرير

الدكتورة وفاء سمير نعيم اجتماع مصر

الهيئة العلمية الاستشارية

- الأستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتورة جنان عبدالجليل هموندي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور ميلاد مفتاح الحراثي علوم سياسية ليبيا
- الأستاذ الدكتور حاجي دوران اجتماع تركيا
- الأستاذ الدكتور حسين جبار شكر تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور محمد سالم الطراونة تاريخ جامعة السلطان قابوس
- الأستاذ الدكتور علي علام تاريخ المغرب
- الدكتور لحسن اوري تاريخ المغرب
- الدكتور حاتم الصديق محمد احمد تاريخ السودان

ملف بعنوان

الامراض والاوبئة في التاريخ

دراسات من العهد العثماني

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

السياسات والقواعد والاجراءات

ترحب المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية البحوث العلمية المكتوبة وفقا للمعايير العلمية في اي من الحقول الدراسات التاريخية او العلوم المساعدة ذات العلاقة ويشمل ذلك كل العلوم نظرا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاطات الانسانية كافة مع مراعاة عدم تعارض الاعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، والا تتخذ ايه صفة سياسية والا تتعارض مع الاعراف والاخلاق الحميدة، وان تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية وتكتب بلغه سليمه واسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية الى استيعاب رو افد كل الافكار والثقافات ذات البعد التاريخي ويسعدها ان تستقبل مساهمات الافاضل ضمن اقسام الدورية البحوث والدراسات عروض الكتب عروض الاطاريح الجامعية وتقارير اللقاءات العلمية.

هيئه التحرير

تعطي هيئة التحرير الأولوية في النشر والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية الواردة للمجلة، ووفقا لاعتبارات علمية و فنية تراها هيئه التحرير.

وتقوم هيئه التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من تو افر مقومات البحث العلمي وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

يحق لهيئة التحرير اجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار تنسيق النص في عمودين مع مراعاة تو افق حجم ونوع الخط مع نسخه المقال المعياري.

هيئه التحكيم

يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصيه هيئه التحرير والمحكمين، اذ تجري عملية التحكيم السري للابحاث المقدمة وفقا لاستمارة خاصة بذلك.

يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث الى المدى ارتباط البحث بحقل المعرفة والقيمة العلمية لنتائجه ومدى اصاله افكار البحث وموضوعيه ودقه الادبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، فضلا عن سلامه المنهج العلمي المستخدم في الدراسة ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث وسلامه تنظيم اسلوب العرض من حيث صياغة الافكار ولغة البحث وجوده الجداول والاشكال والصوروووضوحها.

البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات جذريه عليها تعادل الى اصحابها لأجرائها في موعد اقصاه اسبوعين من تاريخ ارسال التعديلات المقترحة الى المؤلف اما اذا كنت التعديلات طفيفة فتقوم هيئه التحرير بإجرائها.

تبذل هيئه التحرير الجهد اللازم لإتمام عمليه التحكيم من متابعه اجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة حتى التوصل الى قرار بشأن كل بحث مقدم من قبل

النشر بحيث يتم اختصار الوقت الازم لذلك الى أدني ممكن.

في حاله عدم مناسبه البحث للنشر تقوم الدورية بأخطار الباحث بذلك، اما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها واستوفت قواعد وشروط النشر بالمجلة فيمنح كل باحث افاده بقبول بحثه للنشر.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الاعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها وتقديمها للنشر في مجله الكترونيه او مطبوعة اخرى.

يجب ان يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه متو افقا مع عنو انه.

التزام الكتاب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات و اقتباس الافكاروعزوها لأصحابها وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الاصول العلمية في اعداد وكتابه البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع مع الالتزام بعلاقات الترقيم المتنوعة.

اعطاء مساحة واسعة للتحليل والاستنباط والقراءات الفكرية والتوقعات المستقبلية بالنسبة للموضوعات التي تأخذ بعدا تاريخيا سياسيا.

ارشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي الا يزيد حجم البحث على ثلاثين ٣٠ صفحه ولا يقل عن ١٢ صفحة حجم A4 ،مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميا بشكل البحوث بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل ملخص مقدمه موضوع البحث خاتمه ملاحق الاشكال الجداول الهوامش المراجع .

عنوان البحث

يجب ان لا يتجاوز عنوان البحث عشرين ٢٠ كلمه وان يتناسب مع مضمون البحث ويدل عليه او يتضمن الاستنساخ الرئيسي.

نبذه عن المؤلف والمؤلفين

يقدم مع البحث نبذه عن كل مؤلف في حدود ٥٠ كلمه تبين اخر درجة علمية حصل عليها واسم الجامعة والكلية والقسم التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة والوظيفة الحالية والمؤسسة او الجهة او الجامعة التي يعمل لديها والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية مع توضيح عنوان المراسلة العنوان البريدي وارقام التليفون الموبايل الجوال والفاكس.

صور شخصية

ترسل صوره واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع .

ملخص البحث

يجب تقديم ملخص باللغة الانكليزية للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود ١٠٠ الى ١٥٠ كلمة، اما البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود ١٥٠ الى ٢٠٠ كلمة.

الكلمات المفتاحية

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشره كلمات يختاره الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث وفي حاله عدم ذكرها تقوم هيئه التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وادراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث اثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكه الانترنيت.

مجال البحث

الإشارة الى مجال تخصص البحث المرسل العام والدقيق.

المقدمة

تضمن المقدمة بوضوح دواعي اجراء البحث والهدف وتساؤلات وفرضيات البحث مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

موضوع البحث

يراعي ان تتم كتابة البحث بلغة سليمه واضحه مركزة، وبأسلوب علمي حيادي وينبغي ان تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحه وملائمه لتحقيق الهدف وتتوفر فيها الدقة العلمية مع مراعاه المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدا عن الحشو تكرار السرد.

الجداول والاشكال

ينبغي ترقيم كل جدول شكل مع ذكر عنوان يدل على فحواه والإشارة اليه في متن البحث على ان يدرج في الملاحق ويمكن وضع الجداول في متن البحث اذا دعت الضرورة الى ذلك.

خاتمة البحث

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث على ان تكون موجزه بشكل واضح ولا تأتي مكرره لما سبق ان تناوله الباحث في اجزاء سابقه من موضوع البحث .

الهوامش

يجب ادراج الهوامش بطريقة الكترونية في اسفل كل صفحة في شكل ارقام متسلسله لكل صفحة، ووفقا لدليل شيكاغو.

حجم ونوع الحروف

تعتمد المجلة الدولية للدراسات التاريخية حرف Sakkal Majalla حجم ٢٠ غامض للعنوان الرئيسي وحجم ١٨ غامض للعنوان الفرعي وحجم ١٦ غامض للمتن وحجم ١٤ عادي للهوامش.

عروض الكتب

- تنشر المجلة المراجعات التقييمية للكتب العربية والأجنبية حديثه النشر.
- يجب ان يعالج الكتاب احدى القضايا او المجالات التاريخية المتعدة ويشتمل على اضافه علميه جديده.
- يعرض الكتاب ملخصا و افيا لمحتويات الكتاب مع بيان اهم اوجه التميز واوجه القصور و ابراز بيانات الكاتب كامله في اول عرض اسم المؤلف المحقق المترجم الطبعة الناشر مكان النشر سنه النشر السلسلة عدد الصفحات .
- الا تزيد عدد الصفحات العرض عن ٨ صفحات.

عروض الاطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الاطاريح الجامعية رسائل الدكتوراه والماجستير التي تم اجازتها بالفعل ويراعي في الموضوعات المعروضة ان تكون حديثه وتمثل اضافة علمية جديدة في احدى حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة. وخاصة التي تعالج

موضوعات فكرية تاريخية تسهم في وضع اطار نظري لمدرسة تاريخية جديدة.

- ابراز البينات كما وردت في اول العرض اسم الباحث اسم المشرف الكلية الجامعة الدولة سنه الإجازة.
- ان يشمل العرض على مقدمة لبيان اهمية موضوع البحث مع ملخص لمشكلة موضوع البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وادواته وخاتمة لاهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.
- ولا تزيد عدد صفحات عرض الاطروحة او الرسالة عن ٨ صفحات.

تقارير اللقاءات التعليمية

- ترحب المجلة بنشر التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية سينمار الحديثة الانعقاد والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية.
- يشترط ان يغطي التقرير فعاليات اللقاء نوه مؤتمر ورشه عمل سينمار مركزا على الابحاث العلمية واوراق العمل المقدمة ونتائجها واهم التوصيات التي يتوصل اليها اللقاء.
- لا تزيد عد صفحات التقرير عن ٦ صفحات.

قواعد عامة

ترسل كافه الاعمال المطلوبة للنشر بصيغه وورد, ولا يلتفت الى اي صيغ اخرى .

المساهمون للمرة الاولى من اعضاء هيئه التدريس بالجامعات يرسلون اعمالهم مصحوبة بسيرهم العلمية وفقا أحدث نموذج مع صورة شخصية واضحة.

ترتيب الابحاث عند نشرها في المجلة وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث او قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئوليه كامله عما يقدمه للنشر بالمجلة وعن توفر الأمانة العلمية به سواء لموضوعه او لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الاشارة الى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والافكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن راي أحد غيره وليس للمجلة او هيئة التحرير ايه مسئوليه في ذلك.
- ترسل المجلة لكل صاحب بحث منشور نسخة الكترونية متكاملة للعدد الصادر.
- يحق للكاتب اعاده نشر البحث بصوره ورقيه او الكترونيه بعد نشره في المجلة دون الرجوع لهيئة التحرير ويحق للمجلة اعاده نشر المقالات والبحوث بصوره ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للمجلة اعاده نشر البحث المقبول منفصلا او ضمن مجموعه من المساهمات العلمية الاخرى بلغتها الأصلية او مترجمة الى

ايه لغة اخرى وذلك بصوره الكترونيه او ورقية لغايات غيرربحيه.

- لا تدفع المجلة ايه مكافئات ماليه عما تقبله للنشر فيها وبعد ما ينشر فيها اسهاما معنويا من الكتاب في اثراء المحتوى الرقمي العربي.

الاصدارات والتوزيع

- تصدر المجلة الدولية للدراسات التاريخية بشكل دوري فصلي، ومن الممكن ان تصدر شهريا وفقا للابحاث المقدمة والملفات العلمية.
- المجلة متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الالكتروني على شبكه الانترنيت.
- ترسل الاعداد الجديدة الى كتاب المجلة على بريدهم الالكتروني الخاص.
- يتم الاعلان عن صدور الدورية عبر المو اقع المتخصصة والمجموعات البريدية والشبكات الاجتماعية.

رسوم النشر: ١٠٠ دولار

المراسلات

ترسل الاعمال المطلوبة للنشر الى رئيس التحرير

historical.magazine2015@gmail.com

أنتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب ١٨٣٥. ١٩٣٤م أبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي .

د. سمية سالم الشعالي
عضو هيئة تدريس بقسم التاريخ والآثار.
كلية الآداب. جامعة سرت. ليبيا

تعرضت ولاية طرابلس الغرب كغيرها من الولايات العربية العثمانية للأمراض والأوبئة أدت هذه الموجه بفتك الأهالي نظراً لمعاناتهم من الإهمال الصحي ، انتشرت العديد من الأمراض ومنها الطاعون ، والكوليرا ، المجاعة ، الملاريا ، الجدري ،و قد ساهم الطب الشعبي ببعض علاجها مع اتباع خطوات إجراءات الوقاية للحد من الانتشار، ونظراً لتردي الحوال الصحية فقد تأثرت بقية الأوضاع كالاقتصادية و الاجتماعية سلباً بسوء المعيشة و ضعف الاقتصاد و هجرة أغلب الأهالي من الولاية .

الأهمية والهدف :.

تكمن أهمية و هدف اختيار موضوع الصحة و الأمراض المعدية من المواضيع المهمة نظراً لارتباطها بالمواطن مباشرةً ، و غالباً ما يكون ضحيتها أعداداً كبيرة منهم ، فتؤدي إلي انخفاض بنسبة السكان و تأثر بالتعداد السكاني للولاية .

Summary

Epidemics and methods of combating them in the western state of Tripoli (Libya) during the second Ottoman era, 1835-1911

Dr.. Zarqa Salem Muhammad Hussein / Department of History / College of Arts / University of Sirte / Libya

The study of the spread of epidemics and diseases in the western state of Tripoli is linked to the economic, political and social conditions in the country. The state has witnessed the spread of many epidemics that have killed many residents, especially in light of widespread poverty and famine.

The importance of studying epidemics is evident in identifying the most important species that spread in the country during the second Ottoman era, especially the plague epidemic and cholera epidemic, and the resulting damage

and death among the population, and knowledge of the treatment methods that the population used to treat them.

As for the problematic of the study, it is concentrated in answering many problems, namely:

What types of epidemics spread in the western state of Tripoli during the second Ottoman era?

How did the epidemics spread to the state and within the state?

What is the role of the Ottoman authorities in combating epidemics and limiting their spread?

منهج البحث:

سيتم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي وفق المصادر التاريخية و ما يقتديه البحث.

.إشكاليات البحث:

١. هل تأثرت الولاية أوضاعها الصحية بتعدد الولاة؟

٢. هل ساهمت حكومة الحكم العثماني الثاني بتحسن الولاية صحياً؟

٣. هل ساهم فرض الضرائب العثمانية على تردي الأحوال الصحية و تفشي الأمراض و الأوبئة بالولاية؟

٤. كيف ساهمت الحكومة الإيطالية من الحد لمنع انتشار الأمراض و الأوبئة بالولاية؟

قسمنا هذه المداخلة إلي مبحثين :

١. الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب إبان اعهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي ١٨٣٥.١٩٣٤م.

٢. الإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب إبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي ١٨٣٥.١٩٣٤م.

١.الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب إبان اعهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي ١٨٣٥.١٩٣٤م.

عندما نجحت الدولة العثمانية بسيطرتها على ولاية طرابلس الغرب بعد سقوط حكم الأسرة القرمانلية أصبحت الولاية في أشد حالات الفوضى، و الاضطرابات بسبب الصرعات السياسية و الحروب الأهلية، مما نتج عن ذلك سوء الأحوال الاقتصادية و هجرة الأهالي من المدينة إلي ضواحي الولاية و تشتت العديد من العائلات ، فمع عودة حكم الدولة العثمانية للولاية عادت الطمأنينة للأهالي و عاد منهم إلي بيوتهم و مزارعهم و عودة نشاطهم الاقتصادي و

التجاري للولاية، إلا أن الوضع الصحي خلال العهد العثماني الثاني أصبح مخزي بسبب ما عاناه الأهالي من أذي الأمراض الفتاكة و افتقار الولاية إلي الشروط الصحية ، سواء في نقص و ندرة الأطباء و الدواء، و عدم اهتمام المسؤولين بالمرافق الطبية و الصحية، و كانت الأمراض تحصد سنوياً العشرات من الكبار و الأطفال ، و لم يتحرك العثمانيون نحو الاهتمام بالصحة العامة، إلا في أواخر حكمهم ، و اقتصر على بعض المدن الكبرى كطرابلس ، و الخمس ، و بنغازي.[1]

فقد تعرضت ولاية طرابلس الغرب إلي أوبئة متعددة اجتاحت أحياء الولاية وفتكت بالأهالي، نظراً للإهمال الصحي بالولاية و من أبرز الأوبئة التي تعرضت لها الولاية هي:

١ـ الطاعون و الكوليرا (١٨٣٧ـ ١٨٥٠م) :ـ

تعرضت الولاية فيما سبق لوباء الطاعون و الكوليرا أبان العهد العثماني الأول ١٧١١ـ ١٨٣٥م، نظراً لتعرضها لفترات المجاعة المتعددة خلال عام ١٧٦٧م ثم تجددت بعامي ١٧٨٤م و ١٧٨٥م ، هذه المجاعات قد خلقت فيما سبق وراءها مرض الطاعون حيث اختلفت المصادر بذكر عدد ضحايا وباء الطاعون ،حيث انتهي الوباء في عام ١٧٨٦م مخلفاً حدثاً سلبياً على تطور الولاية اقتصادياً و اجتماعياً ، مما أدي إلي نهاية انهيار حكم الأسرة القرمانلية عام ١٨٣٥م.[2]

بعد عام من حكم العهد العثماني لولاية طرابلس الغرب بعام ١٨٣٦. ١٨٣٧م اجتاح الولاية وباء الطاعون، بسبب انتقاله من موانئ البحر المتوسط عن طريق الفئران الموبوءة بتلك الموانئ ،و لم يلبث أن أنتشر المرض مسبباً حالات الوفاء بين السكان ، فقد وصفت لنا الآنسة توللي الطاعون الذي انتشر عام ١٧٨٠م بالولاية من حيث الأعراض و العلامات و طرق العلاج المحلي بواسطة فتح الخراجات.[3] وسرعان ما انتشر الوباء بالولاية خلال عامي ١٨٣٦. ١٨٣٧م سببت حالات وفاء كثيرة ، فقد قدر عدد الوفيات باليوم الواحد (٣٥ـ ٤٠فرداً)، مما اضطر الأهالي لهجر الولاية و الهرب إلي المناطق المجاورة ، حتى أن قناصل الدولة الأوروبية و الجاليات اضطروا للهروب إلي مالطا و إيطاليا، مع بلوغ الوباء ذروته اضطر

[1] . تيسير بن موسي، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني . دراسة تاريخية اجتماعية،(ليبيا :دار الكتب الوطنية ، ١٩٨٨م)، ٢٦٥.

[2] .اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م ، ترجمة خليفة التليسي، (ط٢؛بيروت : دار الثقافة ، ١٩٩١م)، ٣٠٥.

[3] .الآنسة ريتشارد تولي ، عشر سنوات في بلاط طرابلس ، ترجمة عمر الديراوي ابوجحله، (لندن: دارف المحدودة ، ١٩٨٤م) ، ١٦٧.

الوالي طاهر باشا ١٨٣٦- ١٨٣٧م بنقل جنوده من طرابلس إلي غريان مدعياً أنه يقوم بإخضاع وحماية المنطقة.[١]

وقد أكتشف العالم الفرنسي باستور عامل المرض و صلته بالفئران و سبل الانتقال للإنسان في أواخر القرن التاسع عشر ، ثم ظهر وباء الطاعون ببرقة عام ١٨٧٤م ،ولابد من التنويه هنا إلي سبب كثرة ضحايا الوباء خلال هذه الفترة لم يتعرف على سبب المرض أو عامله الجرثومي، لذلك لم تتوفر الأدوية المعالجة للحد من أنتشار الوباء حتى في أوروبا في عام ١٨٥٠م ظهر وباء الكوليرا بطرابلس و توفي منه العديد من الأهالي فالمرض ينتقل عبر الموانئ و البواخر، فقد كان سريع الانتشار خصوصاً في المدن المزدحمة بالسكان حالات ثلوث المياه و أحياناً بعد عودة الحجاج من الحج ، إلا أن هذا الوباء أصاب و أحدث وفيات لبعض الجاليات الأجنبية منهم " القنصل ساردينيا " ، وبعض موظفي قنصليتي إسبانيا و إنجلترا.[٢]

كما تعرضت الولاية خلال فترة حكم أحمد عزت باشا الأولي ١٨٤٨-١٨٥٢م للوباء و فتك بالأهالي خلال ثلاثة أشهر مما اضطر الأهالي للهجرة إلي تونس القريبة. أما الرعايا الأجانب و القناصل فقد اتجهوا إلي مالطا ، وقبل حدوث الغزو الإيطالي للولاية ثبت خلال عام ١٩١٠م أن أحدي الآسر اليهودية القادمة من نابولي إيطالية أصاب أحد أفرادها بالمرض ثم انتقل إلي الجيران زمنها إلي الحارات و المحلات الأخرى، فقد بلغ عدد الوفيات ٢٠٠شخص تقريباً فقد اليهود حوالي أربعة آلاف نسمة .[٣] لهذا السبب حاولت السلطات المحلية داخل الولاية محاصرة حارة اليهود تخوفاً من زيادة انتشار العدوي ،إنما اليهود استغلوا الأمر للقيام بمظاهرات ضد سلطة الوالي تزعمها "مسيو صامان" اليهودي العامل بالقنصلية الإيطالية، ورفع المتظاهرون شعارهم " الحكومة تظلم اليهود، لا نريد الحكومة العثمانية ، نريد الحكم الإيطالي "،نجح الشعارفي استمالة فتدخل القنصل الإيطالي لحماية اليهود المصابين بالوباء، فاستغلت إيطاليا الفرصة للتغلغل في حين الحكومة العثمانية متخوفة من انتشار المرض لأنه سيلحق أضرارا بالغة بالأرواح ، فرأت فرض قرار حجز اليهود داخل حارتهم أو نقلهم إلي الحجر الصحي في باب الجديد الواقع داخل

[١] . خليفة محمد التليسي ، حكاية مدينة طرابلس لدي الرحالة العرب و الأجانب ، (طرابلس: الدار العربية للكتاب، د.ت)، ١٥٣.

[٢] . أتوري روسي ، المصدر السابق، ٤٣٦.

[٣] . خليفة سالم الأحول ، يهود مدينة طرابلس تحت الحكم الإيطالي ١٩١١-١٩٤٣م ، (طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين ، ٢٠٥م) ، ١٠٠.

المدينة القديمة بطرابلس، فنقلت بعض العائلات اليهودية و الأجنبية للحجر الصحي لمدة خمسة عشر يوما ، و منعتهم من الانتقال لمنزله خارج المدينة اشتباها بإصابة البعض بالمرض.[١]

كما تعرضت الولاية خلال العهد العثماني الثاني إلي العديد من الأمراض ، و سنحاول تسليط الضوء على أبرزها و على مناطق انتشارها بين الأهالي ، ومن هذه الأمراض :

أ ـ الدرن : عرف باسم السل فهو الاسم السل فهو الاسم الشعبي المتعارف عليه في حينها و هو مرض الرقيق ، ومن علاماته الضعف العام مع السعال الشديد و نفث الدم، ينتشر المرض بشكل خاص في حالات الازدحام بالسكان في المدن مع انتشار سوء التغذية و سوء التهوية ، مما يسهل نقل المرض بواسطة الرذاذ و التنفس ، قد لاحظ انتشار المرض خلال عام ١٨٨٠م بعد وصول قافلة من الرقيق من أواسط أفريقيا إلي ولاية طرابلس، و كان أحد أفراد القافلة مصاباً بالمرض الذي انتشر بشكل سريع بين الأهالي .[٢]

ب ـ الزهري : ويدعي الإفرنجي و يبدوا أنه جلب عن طريق البحارة الأوروبيين ، و انتشر في السودان وغيرها من الدول المجاورة للولاية، و هو مرض خطير ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي غير الشرعي أو استعمال ألبسة المريض.[٣] وقد كثر انتشار المرض في مدينة مرزق و كمحطة لقوافل التجارة و الرقيق مع ممالك أفريقيا، فقد عالج الأهالي المرض بطرق شعبية معتمدة على استخدام نبات الحنظل و أملاح النطرون، و خلال ولاية نامق باشا ١٨٣٦ـ ١٨٩٨م تمت السيطرة عل المرض بشكل كامل مع اخذ الحيطة والحذر من انتشاره.[٤]

ج ـ الجدري : وهو مرض سببه سوء التغذية وعدم الاهتمام بالنظافة ، و تكثر الإصابة به خلال موسم الأمطار والعدوي تنتقل غالباً من بلاد السودان ، فقد عمل العثمانيين على التلقيح ضد المرض فخفت سطونه المرض على المواطنين .[٥]

---

[١] . عبدالسلام أدهم ، وثائق تاريخ ليبيا الحديث الوثائق العثمانية ١٨٨١ـ١٩١١م ،
مراجعة :أحمد صدقي الدجاني ،(ليبيا: منشورات جامعة بنغازي ، ١٩٧٤م) ، ٢٨١.

[٢] . عبد الكريم بو شو يرب، "الأوضاع الصحية في المجتمع الليبي ١٨٣٥ـ ١٩٥٠م "، مجلة البحوث التاريخية ، (طرابلس ، منشورات مركز الدراسات و البحوث التاريخية ، ع ٢ ، ٢٠٠٠م)، ١٨.

[٣] .تيسير بن موسي ، المصدر السابق ، ٢٦٩.

[٤] .عبد الكريم بوشويرب ، المرجع السابق، ١٨.

[٥] .تيسر بن موسي ، المصدر السابق، ٢٩٦.

قد ظلت الولاية تحت رحمة هذه الأمراض و الأوبئة الفتاكة دون أن يتحرك العثمانيون نحو مكافحتها، و التقليل من انتشارها و الحد من خطرها إلا في السنوات الأخيرة من الحكم، شهدت الولاية نوعاً من الاهتمام الصحي من حيث بناء المستشفيات وتنوع الخدمات الصحية و الإجراءات الوقائية ، فهذا لا يعني أن الأمراض قد توقفت عن الانتشار، أنما عادة بالانتشار أبان حكم العهد الإيطالي للولاية.

٢. الإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب إبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي ١٨٣٥.١٩٣٤م.

ذكرت بعض المصادر التاريخية الإيطالية أنه عند دخولهم للولاية لم يلاحظوا أي نوع من الخدمات الصحية ، إلا أنهم استفادوا من بني المستشفى العسكري العثماني بشارع الزاوية ،و تم استكمال بقية الأقسام بجواره فكان نواة للمستشفى الإيطالي العام بالولاية و قد أشار الكاتب و الرحالة الإيطالي فرانشيسكو كورو بان أحوال الولاية مع بداية الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١م لم تكون هناك مبالغ مناسبة لتصرفها إيطاليا على مستشفى البلدية ، و على إنارة المدينة فالجانب الصحي كان يعاني الإهمال التام .[١]

ومن الأوبئة التي انتشرت أبان حكم إيطاليا لولاية طرابلس الغرب خلال السنوات الأولى من الغزو الإيطالي ، فقد كانت كثر فتكاً بالأهالي و باء الكوليرا ، و ازدادت بالارتفاع و أثرت في انتشار الفوضى وعدم توفر المياه و الغذاء و المستشفيات ، تسبب ذلك في انتشار حالات الو افيات من الأهالي و الإيطاليين أنفسهم ، خلال عام ١٩١٣م ظهروباء الطاعون في برقة و أثر ذلك على وصول أعداد كبيرة من الجنود الأريتيريين الذين جندوا لمحاربة المجاهدين ، إلا أن المرض انتقل إلي المواطنين و تسبب في وفيات أعداد من الأهالي في المدينة ، و فق تقرير د.راجاتسي مدير الصحة بولاية طرابلس الغرب أن أكثر من ٥٠٠ فرد من الجنود توفي ، و بدأ أنتشار الدرن بعد وصولهم إلي طرابلس عام ١٩٣٠م.[٢]

لقد تنوعت الأمراض خلال فترة الحكم الإيطالي فقررت الحكومة في حينها حملة

---

[١] . فرانشيسكو كورو ، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ، ترجمة : خليفة محمد التليسي؛ (طرابلس ، دار الفرجاني ، د.ت) ، ١٢٧.

[٢] . هلموث كانتر ، ليبيا دراسة في الجغرافيا الطبية ، ترجمة : عبد القادر مصطفي المحيشي، مراجعة : الزروق مصباح السنوسي؛ (طرابلس ، م.ج.ل.د. ت ، ٢٠٢م) ١٣٣.

توعيه من خلال إصدار المجلات الطبية بين الأطباء ، فكانوا يتسابقون على نشر حالات الأمراض الغريبة ، ففي عام ١٩٢٠م صدرت بطرابلس مجلة " الأرشيف الإيطالي للأمراض الاستوائية و الطفيلية " ، بالتعاون مع مدير المعمل الطبي بشارع الزاوية ، و نشرت المجلة العديد من الأبحاث الطبية حول الأمراض النادرة و المنتشرة في ليبيا و منها " البلهارسيا ،و الملاريا ، و الانكلستوما ، و الجذام " ، و بعض هذه الأمراض أدت إلي وفيات أعدد كبيرة من الأهالي و منهم الأطفال ، نظراً لتعرضهم للإصابة بمرض الحصبة أو المنمنم ، و من خلال ما ذكر من أمراض لا ننسي الأمراض الأكثر فتكة بالأطفال و منها " السعال الديكي ، و الكزار، و الدفتريا ، و شلل الأطفال " .[١]

٢. الإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب إبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي ١٨٣٥.١٩٣٤م.

بعد عودة حكم الأتراك للولاية بدأوا يفكروا بالإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأوبئة و الأمراض المعدية ، بدأت مراحل الإجراءات الوقائية و مكافحتها للحد من انتشارها و خطرها إلا بالسنوات الأخيرة ، من حكم العهد العثماني الثاني فشهدت الولاية نوعاً من الاهتمام الصحي ، تجلي ذلك في بناء المستشفيات و توفير عدد من الأطباء و الأدوية ، و كان سبب الاهتمام هو اشتداد الاحتجاجات و ارتفاع أصوات الشكاوي،و تولي الصحف الوطنية انتقاد الوضع الصحي السيئ الذي لحق بالولاية، فقد نشرت جريدة العصر الجديد الطرابلسية العديد من الانتقادات ما يخص الإهمال في الصحة العامة ، خاصة انتشار الطاعون ثم الكوليرا في الولاية عام ١٩١٠م.[٢]

كما نشط الأطباء بحملة توعية صحية بين الأهالي ، لتوعيتهم بمدي أهمية التقيد بالتعليمات و القواعد الصحية ، و الاهتمام بالنظافة و الابتعاد عن كل ما يضر بالصحة و الاهتمام بكتابة التقارير بين حين و آخر إلي والي طرابلس و المسؤولين عن الصحة، و كتابة تقارير من قبل مفتشي الصحة بالولاية للعمل على تنفيذ الإجراءات الصحية من أجل الأهالي.[٣]

ومن أهم الإجراءات الصحية التي أحدثها العثمانيون بولاية طرابلس الغرب و ضواحيها شملت المستشفيات، و الأطباء، و

[١] . هلموث كانتر ، المرجع السابق ، ١٣٣.١٣٧.

[٢] . المركز الليبي للمحفوظات و الدراسات التاريخية ، شعبة الصحف، صحيفة العصر الجديد ؛ (طرابلس، ع ١٢/٧شوال ١٣٢٨هـ).

[٣] . المركز الليبي للمحفوظات و الدراسات التاريخية ، شعبة الصحف ، جريدة طرابلس الغرب ؛ (طرابلس ، ع ٩٩/١٠٨٠رجب ١٣٣٢هـ).

الصيدليات ، و الأدوية ، و التلقيح ضد الأمراض المعدية إضافة إلي الحجر الصحي ، والاهتمام بنظافة المدن.[١]

عرفت الولاية نوعاً من المستشفيات في العهد العثماني الأول وكانوا يدعونها "بيمارستان" ، فقد كانت محدودة و تدار من قبل من برزوا في معالجة الأمراض عن طريق الممارسة ، و كانت مخصصة لبعض الأمراض غير السارية التي لا يمكن معالجتها، أما المستشفيات الحديثة ظهرت في عهد الحكم القرمانلي عن طريق البعثات التبشيرية ، و كان يشرف عليها أطباء أوروبيين متطوعين غير مستقرين.[٢]

أما أثناء العهد العثماني الثاني فقد أسسوا أول مستشفي عصري في الولاية عام ١٨٣٨م في منتصف شارع الزاوية ، و قد خصص لمعالجة الجنود و أسرهم بالمجان ، و سمحت لبعض المدنيين للعلاج به مقابل دفع تكاليف الدواء و العمليات ، وكانت سعت المستشفى تضم ٥٢٠سريراً ، و في عام ١٨٧٠م أنشأت بلدية طرابلس مستوصفاً داخل المدينة القديمة لتقديم الإسعافات الأولية و معالجة الأمراض و أجراء العمليات البسيطة.[٣]

كما تم إنشاء أول مستشفي مدنى بعام ١٨٧٨م أبان عهد الوالي أحمد عزت ضم العديد من الأقسام العلاجية ، و أفتتح بعام ١٨٨١م وضم ١٠٠سرير ، ثم أضيف إليه ٥٠سريراً يقع المستشفى بشارع ميزران بطرابلس ، و أضيف إليه قسم خاص بالأمراض الزهرية و التناسلية ، و عرف المستشفى باسم " مستشفي الغرباء".[٤] توسع العثمانيون بأنشاء المستشفيات كذلك في الخمس ، و زليتين ، و مسلاته ، ومصراته ، فكان مستشفي الخمس به ثلاثة أقسام منها قسم للأمراض السارية و أفتتح في عام ١٩٠٦م.[٥]

فقد شهد العهد العثماني الثاني مجموعة من الأطباء الأجانب و الأتراك عملوا في المستشفيات التي أنشأها العثمانيون، فكان في طرابلس عدد من الأطباء الليبيين المجازين من الكلية الطبية الملكية بالأستانة ، أو من الأشخاص الذين تعلموا الطب الحديث بالممارسة على أيدي أطباء مجازين ، و منحوا إذناً رسمياً بمعالجة الناس بعد اجتيازهم اختبارات نظرية و علمية من قبل

[١] . وفاء كاظم ماضي، قرأه في الأحوال الصحية و العادات الغذائية لمجتمع ولاية طرابلس الغرب ١٨٣٥. ١٩١١م ، مجلة كلية التربية الأساسية ، (جامعة بابل ، ع ١٣، ايلول٢٠١٣م)، ٦٦١.

[٢] . أتوري روسي ، المرجع السابق ، ٢٣٩.

[٣] . ناجي نوري، طرابلس الغرب ، ترجمة: أكمل الدين محمد إحسان ؛ (طرابلس ، دار مكتبة الفكر، ١٩٧٣م)، ١٩٣.

[٤] . فرانشيسكو كورو ، المصدر السابق، ١٢١.

[٥] . ميس توللي ، المصدر السابق ، ١٩٦.

كبار الأطباء، و منهم " الطبيب محمد التوعار، و الطبيب محمد بريون، و الطبيب محمد المغربي ، و الطبيب إبراهيم الجزيري، و الطبيب حسن حامد المصري".[١]

إضافة لإنشاء المستشفيات و توفير خدمة الأطباء رافق ذلك بتزويدهم بالأدوية المستوردة من أوروبا، فبعض الأدوية تستورد جاهزة و محضرة في مصانع الأدوية الأوروبية أو تستورد عناصر مكوناتها ، ويتم تركيبة الأدوية محلياً بأشراف صيدلي مجاز ، كما الحقة بكل مستشفى صيدلية خاصة به ، فتنوعت الصيدليات منها عامة و خاصة و صيدلية عسكرية اختصت لصرف الأدوية للعسكريين و أسرهم.[٢]

عندما اشتدت العدوى تم أجبار المواطنين على التلقيح ضد الأمراض المعدية و الأوبئة و ذلك بعد اكتشاف لقاح واقي منه كمرض الجدري، وقد اصدر السلطان العثماني أمراً في شكل قانون الزام فيه جميع رعايا الولاية بالتطعيم ، ضد مرض الجدري عام ١٨٩١م، كما نص القانون على أن يتم تلقيح مجاناً في المستوصفات و أدارت المعاينة، و أن يتم أجراء التلقيح بدون مقابل و تمنح للمريض شهادة بالتلقيح على أوراق رسمية أو عادية بتوقيع و أسم الطبيب ، و قد حدد القانون عقوبات لكل من يمتنع عن التلقيح و للأطباء الذين يمتنعون عن تلقيح غيرهم، و واجب القانون للأطباء يعزل المصابين و منعهم من الاختلاط بغيرهم.[٣]

ومن أهم الإجراءات الوقائية و التي أثرت إيجاباً على الوضع الصحي بالولاية ،أنشأ مجلس البلدية في عام ١٨٦٨م ، واهتمامه بالوضع الصحي أبان حكم الوالي علي رضا الجزائري ، و قد صاحب ذلك العديد من الإجراءات و منها:-

١ ـ تطور الأوضاع الصحية بالولاية.

٢ ـ تنظيف الشوارع و الأزقة.

٣ ـ تنظيم الأسواق و مراقبتها .

٤ ـ دفع مخالفات لمن يرمى النفايات و القمامة ، أمام الدكاكين أو المنازل.

٥ ـ وضع مخالفات لمن يسير ليلاً دون أن يحمل بيده فانوساً.

٦ ـ تسجيل المواليد و الوافيات.

٧ـ تسجيل تعداد السكان في السالنامات الخاصة بالولاية.

٨ ـ تكوين الحجر الصحي بالميناء.[٤]

لقد أهتم العثمانيون بعمليات الحجر الصحي خاصة عندما وصل إلي علم الولاية

---

[١] . تيسر بن موسي ، المصدر السابق، ٢٧٥.

[٢] . المركز الليبي للمحفوظات و الدراسات التاريخية ، شعبة الصحف ، جريدة طرابلس الغرب ؛(ع ١١٦١/ ٥ رجب ١٣٢٤هـ).

[٣] . المركز الليبي للمحفوظات و الدراسات التاريخية ، شعبة الصحف ، جريدة طرابلس الغرب ، قانون التلقيح ؛(ع ١١٩٢/٥ربيع الأول ١٣٥٠هـ).

[٤] . عبد الكريم بوشويرب ، المرجع السابق، ٨٧٠.

بانتشار مرض سار في المناطق المجاورة ، التي قدمت أو مرت منها السفينة التي تود الدخول إلي الموانئ الليبية ، كما شمل الحجر الصحي أيضاً القادمون من منطقة إلي أخري داخل الأراضي الليبية ، إذ انتشر مرض في جهة و لم يصل إلي غيرها، و عندما انتشر مرض الطاعون في منطقتي بنغازي و المرج عام ١٨٧٦م ، فرضت ولاية طرابلس الغرب الحجر الصحي على كل وافد من المنطقتين ، كما فرض الحجر الصحي على الحجاج العائدين من الديار الحجازية ، و أستمر الحجر خمسة عشر يوماً في ميناء طرابلس " الكرنتينا" ، و طبق الحجر على كل القادمين من موانئ أوروبا ، كميناء مرسيليا ، و نابولي ، و جنوه ، ومن الموانئ العربية كبيروت ، والإسكندرية ، ولم يقتصر الحجر على الأشخاص بل شمل أيضاً السلع و البضائع و الأمتعة الخاصة بالمسافرين ، حيث تعرضا إلي عمليات تطهير و تبخير.[١]

لقد استعرضنا من خلال الفقرة الأولي من المبحث إجراءات الحكومة العثمانية في المجال الصحي خلال عام ١٨٣٥ـ ١٩١١م ، لاحظنا بأن الحكومة كانت قد تأخرت بتنفيذ الإجراءات الصحية نظراً لقلة الإمكانيات المادية خلال هذه الفترة ، إضافة لتردي الأوضاع حتى سياسياً ، و عسكرياً ، واجتماعياً ، فقد أنعكس ذلك على الولاية سلباً، رغم ذلك بدأت تظهر ملامح الإصلاحات بالأحوال الصحية من خلال أنشاء المستشفيات و المستوصفات و الصيدليات ، وفق ما يتناسب قدراتهم من أجل حماية الأهالي ، وتوفير نظام صحي ملائم يحد من انتشار تفشي الأوبئة بالولاية و المناطق المجاورة لها ، فلم يقتصر الدور على العثمانيين فقط ، أنما استمر حتى فترة بدايات الاحتلال الإيطالي للولاية عام ١٩١١م.

عند الحديث عن تطبيق الإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب أبان فترة حكم إيطاليا ١٩١١ـ ١٩٣٤م ، كان من أول الأعمال التي قام بها الإيطاليون هو ردم المستنقعات بطرابلس و بنغازي ، ومنها بعين زارة ، و جنزور ، و الحرشة ، و الزاوية ، و تاورغاء ، و برك الجنوب ، ووادي الشاطئ ، و وادي لأجال ، و الحفرة ، ووادي حكمة ، كما قاموا بتغيير اتجاه وادي المجينين بدل مساره القديم عبر شارعي الوادي و ميزران تحول إلي الهضبة الخضراء ، و باب قرقارش حيث يصب بماء البحر.[٢]

[١] . المركز الليبي للمحفوظات و الدراسات التاريخية ، شعبة الصحف ، جريدة طرابلس الغرب ؛(ع ٧١٥ ، ١٥ ذي القعدة ١٣١٠هـ) .

[٢] . هلموث كانتر ، المرجع السابق ، ١٣٧.

أما المستشفيات الإيطالية أنشأت بقسمين ، واحد للرجال و الآخر للنساء ، و يرف على المستشفى بقسمية طبيب إيطالي ، كما أنشأت في عام ١٨٧٨م مستشفى صغير تحت رعاية قنصل فرنسا ، كما تم أنشاء مستوصف بدار من قبل المبشرين الطليان في الولاية .[١]

ومن الخدمات الطبية التي قدمتها إيطاليا ، تعيين طبيب بكل مدينة مثل :الخمس ،و زليطن ، و مصراته، وبني وليد ، و غريان ، وزوارة ، و الزاوية و غيرها ، ولكن على الطبيب أن يذهب إلي القري المجاورة في أيام محدودة رسمياً للكشف على المريض بهذه القري ،فكان الكشف دورياً بالمستوصفات القروية ، نظراً لانتشار مرض الدرن فقد أسس الطليان مستشفى (كانيفيا مبدئياً) لعلاج مرض الدرن الرئوي، إلا أنه تحول إلي مستشفى عسكري فيما بعد ، بسبب قيام الحرب العالمية الثانية و أفتتح مستشفى أبي ستة لأمراض الدرن عوضاً عنه ، رغم قلة الإمكانيات التي سخرت للمستشفيات المدنية الإيطالية في ولاية طرابلس الغرب ، إلا أنها سنحت بمعالجة الأهالي ، و مع نشوب الحروب و مواجهة إيطاليا لدول الحلفاء إلا أنها و فرت جل أموالها للجانب العسكري و للمستشفيات العسكرية ، بذلك أهملت الجانب المدني من الصحة في الولاية .

الخاتمة

١. تعرضت الولاية خلال الفترة التي اختيرت للدراسة ، كغيرها من الولايات العربية إلي جملة من الأمراض و الأوبئة كالطاعون و الكوليرا بعد انتشار المجاعة و الفقر و سوء التغذية ، نظراً للإهمال الصحي انتشرت الكوليرا مرتين بالولاية ، مما اضطر من العثمانيين إلي أنشاء المحاجر الصحية لحجر الأهلي و محاولة الحد من نشر الوباء.

٢ . افتقار الولاية إلي المستشفيات و المستوصفات الصحية في بدايات العهد العثماني و القرماني ، و أنشأت أبان العهد العثماني الثاني و فترة التوسع الإيطالي ، كما تم تدريب العديد من الأطباء الليبيين و منحهم الإجازة الطبية .

٣ . سعت كل من الدولة العثمانية و الحكومة الإيطالية خلال فترة حكمهما للولاية بالأهمام في الآونة الأخيرة بالجانب الصحي ، و بتطبيق الإجراءات الوقائية للحد من انتشار الأمراض و الأوبئة للولاية و للمناطق المجاورة .

[١] .تيسير بن موسي ، الصدر السابق ، ٢٨٥.

التوصيات

١ . الاستفادة من دراسة التاريخ الحديث و المعاصر للشعوب من كافة مجالاته و منها الصحية و خاصة الأمراض و الأوبئة أبان فترات حكم المستعمر.

٢. الأخذ بالإجراءات الوقائية كثيرة، ولكن أبسطها البحث عن صيغة لإنهاء الصراعات و الفتن .

٣ . دراسة الآثار التي خلفتها الأمراض و الأوبئة على الدولة اجتماعيا و ديموغرافيا و اقتصاديا.

٤ . باعتبار الأمراض و الأوبئة عابرة عبر الحدود من خلال القوافل التجارية و الموانئ البحرية ، عليه أن يتم التركيز على دراسة كيفية تطبيق الحجر الصحي السليم ، و نشر ثقافة الوعي الصحي و السلامة بين المواطنين.

طاعون بغداد عام ١٨٣١ م
دراسة في ظروف الحرب و الوباء

د.هند فخري سعيد
جامعة الموصل / كلية التربية الاساسية
قسم التاريخ

الملخص :

أثارت جائحة كورونا وخطرها الكبيرالذي عم العالم هذه الايام الكثيرمن التساؤلات والاستفهامات التي دفعت بالكثيرين كلاً حسب اختصاصه ليجد ضالته ، و بدورنا نحن كمؤرخين اخذنا بالبحث والتقصي في الكتب و الروايات التاريخية عن ما مر به العالم من جوائح و اوبئة لاستخلاص العبر والدروس والخروج باستنتاجات تساعدنا في استيعاب الخطر الذي نواجهه. و بعد جملة قراءات في مثل هذه الموضوعات انصب اهتمامي بحكم استطلاعاتي الكثيرة في التاريخ العثماني على الموجات الوبائية التي اجتاحت البلاد العربية في العهد العثماني امثال الجدري و الهيضة (الحمى الصفراء)و الكوليرا والطاعون ، وما كانت تخلفه من واقع تعيس و مأساوي يودي بأرواح الالوف و يحول المدن الى خرائب . و كثيراً ما تزامنت الحروب مع الاوبئة او احداهما كانت نتاج للاخرى .

وعلى سبيل النموذج لا الحصر في هذا النطاق اخترت احد هذه الموجات الوبائية وهو الطاعون الذي ضرب بغداد عام ١٨٣١، قادماً اليها من بلاد فارس بعد ظهوره الاول في تبريز في صيف ١٨٣٠ فدخل السليمانية ثم كركوك ووصل بغداد في اذار ١٨٣١ أخذاً بحصد أرواح الناس بارقام وصلت الذروة في منتصف نيسان ومع انتهاء هذا الشهر لم يبقى احد في بغداد لم يصيبه الطاعون والجثث في الشوارع ملقاة لاتجد من يدفنها والاحياء مستسلمين ينتظرون مصيرهم المحتوم .

هذا الوباء الاسود لم يكن وحده الذي يضرب بويلاته على بغداد، فقد كانت الحرب على ابوابها بالجيش الذي ارسله السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) بقيادة علي رضا باشا الالظ لانهاء حكم الوالي داؤد باشا باعتباره خارج عن طاعة السلطان وتنفيذ اوامره.

لكن هذا الوالي رغم الظروف القاهرة التي تعرض له بذل كل ما في مقدوره ليخفف على المدينة وطأة الوباء ،فقد سعى مع طبيب القنصلية البريطانية لاعداد منهج للحجر الصحي لكن لم يطبقه إلا القلة.

في حين التزم القنصل البريطاني ريج والكثير من الاوربيين والنصارى في بغداد بحجر انفسهم في بيوتهم و تجهزوا بمواد التموين فنجى الكثير منهم ، في حين لم يتعامل من بقى من اهالي بغداد بوعي مع المرض فحصد ارواحهم دون رحمة ، بل انتشرت الكثير من المظاهر التي زادت من وطأة الوباء ، منها ارتفاع الاسعار و جشع التجار ، تفشي عمليات السرقة والسطو و النهب. رافق ذلك كله فيضان نهر دجلة واصبح ربع المدينة تحت الماء فيما استمر الوباء بالانتشار الى ٣ حزيران توقفت الاصابات وبدأ الناس يعودون لمنازلهم بواقع غاية بالسوء و القذارة من مخلفات الوباء والفيضانات، ومع كل هذا كانت لاتزال الحرب تهدد بغداد ووالیها .

لكن ما ان تماثل الوالي داؤد باشا للشفاء حتى سارع للعودة الى بغداد و اخذ بنشر الامن والحراس لانتشال الجثث وتنظيف الشوارع ومحاسبة اللصوص والسراق، رغم الحرب التي تهدده الا انه اعلن استسلامه لجيش الوالي ليخفف على بغداد الويلات المتلاحقة ، فكانت حكمة منه نقلت صورتها للسلطان فخف غضبه عليه .

Abstract:

Corona's pandemic and its grave danger, which pervaded the world these days, raised many questions and inquiries that prompted many each according to its specialization to find its cause, and we in turn, as historians, have taken a research and investigation in books and historical accounts of what the world has gone through in terms of pandemics and epidemics to draw lessons and lessons and come up with conclusions that help us understand The danger we face. After a number of readings on such topics, my interest in the rule of my many polls in Ottoman history focused on the epidemiological waves that invaded the Arab countries during the Ottoman era, such as smallpox, haydah (yellow fever), cholera and plague, and what it left behind from the unfortunate and tragic reality that kills the lives of thousands and Turning cities into ruins. Wars often coincided with epidemics, or one of them was a

governor, despite the force majeure that he was exposed to, did everything in his power to relieve the city of the epidemic. He and the British Consulate doctor sought to prepare a quarantine approach, but only a few applied it. While the British consul Reg and many Europeans and Christians in Baghdad committed themselves to quarrying themselves in their homes and were equipped with catering materials, many of them survived, while the rest of the people of Baghdad did not consciously deal with the disease and claimed their lives without mercy, but many manifestations that increased the burden The epidemic, including high prices and greed of merchants, outbreaks of theft, robbery and looting. All this was accompanied by the flooding of the Tigris River, and a quarter of the city was under the water. As the epidemic continued to spread until June 3, the injuries stopped and

product of the other. By way of example, not exclusively in this range, I chose one of these epidemiological waves, which is the plague that struck Baghdad in 1831, coming to it from Persia after its first appearance in Tabriz in the summer of 1830, and he entered Sulaimaniyah, then Kirkuk, and reached Baghdad in March 1831, reaping the lives of people with peak numbers in the middle of In April, at the end of this month, no one was left in Baghdad, untouched by the plague and the dead bodies in the streets, lying to find no one to bury, and the living, surrendered, waiting for their inevitable fate. This black epidemic was not the only one to strike its woes on Baghdad, as the war was on its gates by the army sent by Sultan Mahmud II (1808-1839) led by Ali Reza Pasha, who was revered to end the rule of Governor Daoud Pasha, as he was out of obedience to the Sultan and the implementation of his orders. But this

people began returning to their homes in a very bad and dirty state from the epidemic's remains and floods. As soon as the governor of the same state, Dawud Pasha, recovered, he hurried to return to Baghdad and began deploying security and guards to retrieve the bodies, clean the streets, hold thieves and thieves accountable, and announced his surrender to the governor's army to relieve successive woes on Baghdad, so his wisdom conveyed his image to the Sultan and his anger abated him.

مدخل:

بغداد في العهد العثماني وموجات الأوبئة المستمرة (الاسباب والعوامل):

تعرضت بغداد في العهد العثماني لموجات وبائية فتاكة كالطاعون والكوليرا الجدري، ألقت بآثارها السلبية على حياة السكان ونشاطاتهم بكافة مجالات الحياة، فما هي الأسباب والعوامل وراء تعرض بغداد المستمر للأوبئة والأمراض؟

لم تكن ظاهرة الأوبئة التي اكتسحت بغداد بالظاهرة الجديدة أو الطارئة فقد كان لهذه الظاهرة جذورها وأسبابها التي جعلتها متواصلة ومندفعة بقوة وبدون انقطاع [١].

موقع بغداد، تقع ولاية بغداد جنوب غرب آسيا بين دوائر عرض ٢١-٣٢ وخطوط طول ٢٥-٤٤ [٢]، يحدها من الشمال ولاية الموصل ومن الجنوب ولاية البصرة، ومن الشرق بلاد فارس ومن الغرب ولاية حلب [٣].

يشكل المناخ في بغداد عامل رئيسي في ظاهرة الأوبئة المتلاحقة فصيفها حار جاف وترتفع درجات الحرارة في النهار لدرجة يقال على هوائها (سام) [٤] ويسبب الأمراض، وفي الشتاء تعتدل درجات الحرارة وأمطارها قليلة نسبياً، لكن ذوبان الثلوج في الشمال وغزارة الأمطار يؤدي إلى فيضان مستمر لنهر دجلة وما ينتج عن ذلك من كوارث انسانية سنوية في بغداد والمدن المحيطة بالنهر [٥]، فقد اعتاد نهر دجلة ان يطغى بحيث تصبح بغداد شبه جزيرة تحيط بها مياه الفيضان، وبذلك تنتشر الأوبئة وتكثر الحشرات ويسوء المناخ [٦].

ولم يكن العامل المناخي السبب الرئيسي فحسب في استمرار ظهور الأوبئة في بغداد، فقد تضافرت عوامل أخرى في استمرارها واشتدادها أهمها بيئة بغداد من طراز ابنيتها وشوارعها وسلوكيات وعادات سكانها.

---

(١) كمال رشيد خماس العكيلي، "الأمراض والإنتقالية في بغداد كما رواها الرحالة الأجانب في القرن التاسع عشر الميلادي"، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ٣٤، (تموز، ٢٠١٩)، ٢٩.

(٢) س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق: عصام محمد شحاتة، (بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٢)، ١٦٦.

(٣) أحمد الشرقاوي وآخرون، جغرافية الممالك العثمانية (القاهرة، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٨)، ٢٦٧

؛ عبدالحكيم حكمت، استكشافات طبية أو المسح الجغرافي الطبي لولايات اليمن، الحجاز، بغداد ١٣٠٤-١٣٠٦ رومية/ ١٣٠٥-١٣٠٨هـ/ ١٨٨٨-١٨٩٠م، ترجمة، محمود الحاج قاسم محمد، (الموصل، دار ابن الأثير، ٢٠١٤)، ٦٥.

(٤) الشرقاوي وآخرون، المصدر السابق، ٢٦٣.

(٥) أحمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، (بغداد، مطبعة الأديب، ١٩٦٦)، ٣٧٦.

(٦) العكيلي، المصدر السابق، ٣٠.

امتازت الدور والمنازل في بغداد بتصميم بسيط متواضع، إذ تحتوي على فناء وسطي تحيط به الغرف من جهتين أو ثلاث وتكون اطلالة الشبابيك عليه لا على الزقاق لمنع دخول الغبار والروائح الكريهة والضوضاء [١] وهي في الغالب قليلة ولا تساعد كثيراً على دخول ضوء الشمس [٢]. ويحتوي البيت البغدادي على ما يسمى (السرداب) وهو غرفة تبنى تحت الأرض لتكون مأوى بارد في ايام الصيف الحار، إلا ان جوها الرطب يسبب في كثير من الأحيان الحمى [٣].

لا توجد في الدور البغدادية مجار للمياه الثقيلة، والمرافق متصلة بالحفر المحفورة داخل المنازل، ويوجد بئر ذو ماء مالح في أغلب المنازل يستخدم للغسيل والتنظيف [٤]، في هذ الحال كانت تختلط مياه الأبار والمجاري ببعضها ما يسبب الأمراض وانتقال العدوى بين السكان [٥]، وكثيراً ما كانت توضع معالف الحيوانات في فناءات الدور مما يلوث الاجواء ويفقدها نقائها [٦].

أما شوارع بغداد وأزقتها، فلم تكن هي الأخرى بالتنظيم والنسق الذي يضمن بيئة نظيفة بل على العكس، فقلما نجد شارعاً مستقيماً في المدينة بل عبارة عن مجموعة من الأزقة والدرابين الضيقة [٧] غير المبلطة، فهي في الصيف مصدر دائم للغبار وفي الشتاء برك وأوحال يتعذر المشي فيها [٨]، وكان لضيق هذه هذه الشوارع يصعب على المارة المشي بسهولة دون التصادم مع بعضهم البعض، بل ان هذه الشوارع الضيقة كانت مزدحمة بالحمالين وعرباتهم وحيوانات النقل، كل ذلك افقد هذه الشوارع نظافتها لكثرة النفايات وفضلات الحيوانات التي يكثر عليها الذباب والحشرات الضارة [٩].

وبين هذه البيوت المزدحمة المتلاصقة والشوارع الضيقة تتداخل الاسواق والخانات والحمامات العامة، لتضبيق الخناق ببضائعها

(١) صبري فارس الهيتي، "تخطيط بغداد"، مجلة المورد، مجلد ٨، عدد ٤، (بغداد، ١٩٧٩)، ١٩.

(٢) حكمت، المصدر السابق، ٦٧.

(٣) وميض سرحان ذياب، موجات الأوبئة والكوارث الطبيعية في العراق خلال العهد العثماني ١٨٣٠-١٩١٧، (انقرة، ٢٠١٧)، ٤٩.

(٤) حكمت، المصدر السابق، ٦٧.

(٥) ذياب، المصدر السابق، ٤٩.

(٦) حكمت، المصدر السابق، ٦٧.

(٧) العكيلي، المصدر السابق، ٣١.

(٨) سليمان فيضي، مذكرات سليمان فيضي من رواد النهضة العربية في العراق، ط٤، تحقيق وتقديم: باسل سليمان فيضي، (بغداد، مطبعة الاديب البغدادي، ٢٠٠٠)، ٦٩.

(٩) ذياب، المصدر السابق، ٤٨.

ومستلزماتها واكتظاظ الناس على بيئة بغداد [١].

لكن أكثر ما زاد من سوء الوضع العام في بغداد وكان سبب مهم ومباشر لانتشار الأوبئة والأمراض هو سلوكيات العيش وعادات أهالي بغداد، فعلى الرغم من وقوع بغداد على نهر دجلة، إلا ان سلطة الولاية لم تعمد إلى مد انابيب لتزويد المدينة بالمياه واستغلال قرب النهر منها، لذا اعتمد الاهالي على تأمين حاجياتهم من الماء على السقايين الذين كانوا ينقلونه بواسطة (القرب) الجلدية على ظهورهم أو على ظهور الحيوانات. وهذه المياه كانت تستعمل للشرب والطهي وهي بالعادة ملوثة لتعدد استعمالات الأهالي لمياه النهر منها قيام النساء بغسل الملابس وخرق الأطفال فتختلط أقذارها بماء النهر، ولا يخضع الماء بعد وصوله إلى المنازل لأي تعقيم سوى وضعه في (الزير) لتركد عنه الشوائب. انتشار فضلات الحيوانات وبقايا الحيوانات المذبوحة في المجازر الموجودة خارج المدينة وتركها في العراق وما ينبعث منها من روائح كريهة وتجمع للحشرات الضارة، وكذلك نقل الكثير من القمامة وفضلات الحيوانات إلى داخل المدينة وأسواقها بالقرب من الحمامات لإستعمالها كمحروقات [٢].

تنوع الأسواق واختلاف ما يعرض فيها من بضائع وتداخل هذه الأسواق مع بعضها البعض دون تنسيق وتنظيم أفقد داخل المدينة النظافة والجمالية، فكانت أسواق الغزل والصفارين وبيع المواشي وبيع المحاصيل الزراعية متداخلة ومتجاورة وبالقرب منها المقاهي والحمامات وكلها ترمي بالأوساخ والفضلات لتتكدس دون وعي وادارك لمخاطرها ووضعها المزري [٣]، حيث تجمع القمامة في الولاية وتنقل بواسطة السلال المحملة على الحيوانات إلى قرب الحمامات لإستعمالها كمحروقات وغالباً تنقل إلى مزابل مفتوحة ومعرضة للهواء في الحقول أو داخل المدينة أو يلقى بها في دجلة، والحال نفسه بالنسبة لفضلات وأوساخ المدابغ [٤].

وصاحب كل ذلك ضعف الوعي الصحي لدى السكان في الوقاية من الأمراض ومكافحتها، واعتمادها في العلاج على الجهلة والمشعوذين والدجالين لعدم وجود ادارة صحية كفوءة، وقلة الملاكات الصحية وعدم

(١) ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث ١٥٠٠-١٩٥٠، ط٦، ترجمة: جعفر الخياط، (بغداد، مطبعة أركان، ١٩٨٥)، ٤٣.

(٢) حكمت، المصدر السابق، ٦٩.

(٣) علاء كاظم نورس، "بغداد في رحلات الأجانب في العهد العثماني"، مجلة المورد، مج٥، ع٣، (بغداد، ١٩٧٦)، ص٢٠.

(٤) حكمت، المصدر السابق، ٦٩-٧٠.

وجود عدد كاف من المشافي والمستوصفات [١].

كثرت الأسباب داخل الولاية لحدوث الأمراض ووقوع الأوبئة، لكن كان من الممكن ان يحد منها أو تحجم شدته إذا كانت الادارة في الولاية تعمل لمصلحة الأهالي وتسعى لحمايتهم من خطر الأوبئة والحفاظ على أرواحهم من خلال تنظيف المدينة المستمر ومحاسبة المخالفين، وفي حالات وقوع الوباء تفرض الحجر الصحي وتغلق مداخل المدينة لمنع انتشار الوباء [٢].

وهناك مسألة لابد من الاشارة اليها وهي الباب الذي يدخل منه الوباء دوماً إلى بغداد وتنتقل العدوى من خلاله، وهو الدول المجاورة بالأخص بلاد فارس (ايران) عن طريق قوافل الزوار إلى المراقد المقدسة في النجف وكربلاء ونقل جنائز موتاهم لدفنها في المراقد فينتقل بفعل ذلك الوباء إلى الولايات العراقية [٣].

وهذا ما يؤكده كلام فريزر، الذي يربط عنده كلا من الفقرتين السابقتين عن سوء الإدارة وانتقال الوباء من بلاد الجوار، حيث يقول: (إن سبب انتقال الوباء إلى بغداد هو طمع حاكمها الذي بدلاً من أن يمنع كل اتصال ممكن مع كرمنشاه التي تفشى فيها الوباء في هذا الوقت، وبدلاً من ان يحافظ على المدينة ويتخذ الاجراء المناسب، استمر طامعاً في الأتاوة التي يقبضها من الزوار الإيرانيين، ولتظهر بعد ذلك العواقب الوخيمة إذ انتشر الوباء) [٤].

مهما حاولنا الإيجاز في وصف بيئة بغداد المساعدة على انتشار الأوبئة فهناك ما يزال الكثير من الظروف والمسببات التي جعلت من بغداد موطن لكثير من الأوبئة الفتاكة والأمراض المعدية.

أما كون بغداد والولايات العراقية عموماً ميدان مفتوح للنزاعات العشائرية والحروب الحدودية مع بلاد فارس واستمرار الحملات الموجهة من الحكومات العثمانية للحد من هذه الصراعات والحروب طيلة العهد العثماني فهذا سبب مهم ورئيسي في تدني الوضع الصحي في الولاية وتعرضها المستمر للأوبئة والأمراض سواء نتاج الحروب أو بالتزامن معها، وابرز نموذج لشرح هذه الحالة كان اختيارنا لطاعون بغداد [٥] ١٨١٣م.

(١) ذياب، المصدر السابق، ٥١.

(٢) جريدة الزوراء، نيمرو ٢١، ٢٧، بغداد/ رجب ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م.

(٣) ذياب، المصدر السابق، ٥٢.

(٤) جيمس ميلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد في ١٨٣٤، ترجمة: جعفر الخياط، (بغداد – ١٩٦٤)، ١١٣.

(٥) مرض وبائي معدي قاتل، تسببه بكتريا حيوانية المنشأ تدعى (اليرسينية الطاعونية) تنتقل عن طريق البراغيث وصغار الثديات (الفئران والجرذان) وينتشر

حيث تسبب الطاعون تاريخياً في اندلاع جوائح واسعة النطاق أسفرت عن ارتفاع معدلات الوفيات بنسب مخيفة حتى عرف بـ(الموت الأسود)، وانتشر بصورة واسعة في قارتي افريقيا وآسيا، واجتاح اوربا في القرن الرابع عشر وحصد أرواح أكثر من ٥٠ مليون شخص[١].

أصيبت بغداد بطواعين تقشعر لها الأبدان منذ أواخر القرن السابع عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر، فما كانت تخرج من حرب إلا ليقع عليها طاعون، وما تخرج من طاعون إلا لتدخل في حرب، ولا يفارق شبح الموت أهالي بغداد مابين حرب و طاعون[٢].

طاعون بغداد ١٨٣١:

وضع بغداد قبيل الطاعون:

عندما نتحدث عن عام ١٨٣١ في بغداد فإننا نتحدث عن عام تغيرت فيه معالم بغداد السياسية والإدارية والاجتماعية والصحية والخ، ولنفسر هذه التغيرات وأسبابها علينا معرفة الأسباب وراء هذا التغير ووقع (الطاعون) موضوعنا الأساسي كأثر بالغ القوة في خضم هذه التغيرات.

بعد تسلم السلطان محمود الثاني (١٨٠٧-١٨٣٩) السلطنة عمل على استعادة السلطة المركزية للدولة على ولاياتها وكانت ولاية بغداد في مقدمتها، حيث كانت تحت ادارة وسلطة الولاة المماليك والذين وصلوا درجة من عدم الانصياع لأوامر السلطنة وبالأخص في عهد الوالي داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) الذي بدا واضحاً تقصيره في تنفيذ أوامر السلطان منذ عام ١٨٢٨ عندما كلفه بتقديم الدعم للدولة العثمانية في حربها مع روسيا فامتنع فكان ذلك بمثابة اعلان العصيان على الدولة[٣].

بين البشر عن طريق لدغة الحيوانات المصابة والرذاذ والطعام الملوث. تبدأ اعراض المرض بارتفاع مفاجئ بالحرارة مع ارتعاش وصداع ثم اعياء شديد وهذيان إلى غيبوبة تؤدي بالوفاة، وهو ثلاثة أنواع: (الدملي) ويظهر في الغدد اللمفاوية يصيبها بالتضخم والتقيح، والتسممي الذي يصيب الدم وهو قاتل، الرئوي وهو الأخطر الذي يصيب الرئة وهو كذلك قاتل. أحمد حافظ موسى وآخرون، الامراض المتوطنة بافريقيا وآسيا، (القاهرة، ١٩٦٢)، ١٥٥-١٥٦.

(١) أسوأ أربعة أوبئة في التاريخ، كيف انتهت؟ https://www.alhurra.com بتاريخ ٢٠٢٠/٣/٢٦.

(٢) جعفر الخياط ، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة،(بغداد-١٩٧١)،١، ١٧٩.

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧)، ٢٣٩-٢٤٥.

وبعد جملة مواقف ثبت خروج داود باشا عن الطاعة منها قتل رسول السلطان ، فكلف السلطان والي حلب علي رضا باشا اللاظ بقيادة حملة على داود باشا [١].

هنا صار الناس يتوقعون صراعاً وحرباً واقعة لا محال بين داود باشا والسلطان فتهافتوا على شراء المواد الغذائية مما أدى إلى ارتفاع اسعارها [٢].

بينما داود باشا وهو في قمة الأبهة والسلطة والاستقلال والخروج عن طاعة السلطنة، ارسل عليه السلطان جيشاً بنحو عشرين الفاً تحت قيادة علي رضا باشا، فلما اقترب من بغداد استهزأ داود باشا بهذا الجيش الضعيف الذي يريد ان يستولي على بغداد، فأخذه الغرور، وقال ((لو نرسل على هذا الجيش نساء بغداد لما كان يطيق مقاومتهن))إلا أن داود باشا لم يكن يعلم ما يخبئ له القدر فحينما هو يعبئ قواته ويستعد لمحاربة علي رضا باشا وأمله أسر الجيش بقائده، وإذا بالطاعون يخترق بغداد وبقوة [٣]. فماذا حصل؟ وكيف آلت الأمور؟

(١) المصدر نفسه، ٢٤٥-٢٥٣.

(٢) علي الوردي،لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بغداد،دار الرشاد،١٩٦٩)،٢٦٨.

(٣) عثمان بن سند البصري الوائلي، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود (١١٠٨-١٢٥٠هـ) وهو بشكله المختصر (خمسة وخمسون عاماً من تاريخ بغداد (١١٨٨-١٢٤٢هـ) اختصره: امين بن حسن الحلواني المدني، (مصر، مكتبة الفتح، لات)، ٢-٣.

(٤) الوردي، المصدر السابق، ٢٦٩.

(٥) ذياب، المصدر السابق، ٥٩.

(٦) تختلف المصادر في اسبقية ظهوره في سليمانية أما في كركوك عن ينظر: لونكريك، المصدر السابق، ٣١٨ ؛ الوردي، المصدر السابق، ٢٦٩ ؛ نوار، المصدر السابق، ٢٥٩.

(٧) فريزر، المصدر السابق، ٩٤.

انتشار الطاعون في بغداد:

منذ شهر تموز ١٨٣٠ كانت بغداد على علم بتفشي الطاعون في مدينة تبريز في ايران [٤]، وسريانها إلى السليمانية [٥] وفي تقريب شهر ايلول أخذت الاصابات تظهر في كركوك [٦].

وضع الطاعون الوالي داود باشا على المحك ما بين التهيئ لمواجهة الجيش الزاحف من حلب وما بين الوباء الفتاك الذي أخذ يفتك بأرواح الناس وبات على ابواب بغداد، حيث يشير فريزر إلى ان بعض الاصابات الفردية وقعت في بغداد منذ تشرين الثاني ١٨٣٠ ولكنها اخفيت أو اهملت [٧].

طلب داود باشا من طبيب القنصلية البريطانية (تايلور Taylor) اعدد منهج للحجر الصحي بغية منع الوباء من التقدم نحو بغداد. أعدَ الطبيب المنهج ولكن المتزمتين من علماء الدين في بغداد أفتوا بأن الحجر

الصحي مخالف للشريعة الإسلامية، ومنعوا داود باشا من اتخاذ أي عمل لصد سير الوباء، ولهذا كانت القوافل الواردة من ايران وشمال العراق تدخل إلى بغداد بكل حرية [١].

وفي هذه الأثناء ازداد الوضع في بغداد حراجة، حيث أعلن في ٢١ شباط ١٨٣١ بان السلطان اعتبر داود باشا ثائراً، وتوافت الاخبار في ٢٤ شباط بأن علي رضا باشا غادر حلب قاصداً بغداد [٢].

يصف لونكريك توقف تقدم الجيش المتجه إلى بغداد بفعل وقوع الطاعون: ((وبينما الجميع متأهبين للتقدم نحو الجنوب وافتهم انباء من العراق الجنوبي فأوقفت سير هذا المنتقم، الذي بات واجبه منوطاً بيد أقوى من أيدي البشر)) [٣].

ولم يمضي شهر حتى اعلن في آذار ١٨٣١ عن وقوع أول اصابة طاعون في بغداد[٤]، وكانت في محلة اليهود القذرة [٥] (محلة التوراة) [٦]، بعدها أخذ الطاعون يسري يسري إلى محلات بغداد الأخرى [٧]، فسرى الرعب في قلوب الأهالي وبخاصة عندما قيل ان كرديين أتيا إلى بغداد حاملين الوباء معهما [٨].

وفي آخر آذار تأكد الجميع ان الطاعون بينهم، وأن سبيل النجاة في مغادرة المدينة إلى مناطق نظيفة من الوباء [٩] واستعد القنصل البريطاني (ريج) للفرار من المدينة [١٠]، رغم ان الكثير من الأوربيين في بغداد عمدوا إلى حجر انفسهم في بيوتهم ولم يخرجوا منها، وجهزوا انفسهم بمواد التموين [١١]، وكانوا إذا اضطروا إلى أخذ شيء من الخارج سحبوه إلى فوق من الشباك ثم أمسكوه بالملاقط ودخنوه قبل البدء باستعماله، لهذا كانت الاصابات بينهم

---

(١) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩ ؛ الوردي، المصدر السابق، ٢٦٩.

(٢) لونكريك، المصدر السابق، ٣١٩.

(٣) المصدرنفسه، ٣١٨.

(٤) نورس، المصدر السابق، ٢٠.

(٥) كان من المعروف على محلة اليهود القذارة والوضع المزري، حيث تجد في جميع اجزائها وعلى الأخص سوقها بقايا المواد المتعفنة من الاسماك والحيوانات والخضار مرمية يعجز المرور فيها، وفي سراديب منازلهم آبار على شكل أحواض يغتسلون فيها صيفاً ونسائهم بعد مرور ١٥ يوم على العادة الشهرية حسب معتقداتهم الدينية لذا تكون تلك الآبار آسنة قذرة ومحطة للأوبئة والأمراض. حكمت، المصدر السابق، ٦٨-٦٩.

(٦) طارق حرب، أشد الأوبئة التي ضربت بغداد في تاريخها، تاريخها، جريدة الزمان ٢٢/ مارس/ ٢٠٢٠، azzman.com

(٧) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٠.

(٨) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩.

(٩) رائد جبار كاظم، "الطاعون والكوليرا في لمحات الوردي"، Middle-east-online.com

(١٠) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩.

(١١) كاظم، المصدر السابق.

قليلة نسبياً، إلا في حالات كانت تأتي اليهم عن طريق القطط [١].

وحلو هذه الصورة السابقة لموقف القنصل البريطاني والرعايا الأوربيين يروي لنا الرحالة فريزر الموقف بصورة أخرى، جاء فيها: ((أن المقيم البريطاني في بغداد التزم هو وعائلته ومجموع العاملين لدينه بالحجر الصحي وتجنب الملامسة وهو بهذا تصرف على الطبيعة الأوربية التي استفادت من تجارب انتشار جائحات الامراض في اوربا)) [٢].

في حين يصف وضع أهالي بغداد بالصورة الآتية: ((أما أهل بغداد فإنهم ماجوا وهاجوا ولم يتعاملوا برؤية وروية صحية فهلك الكثير منهم)). ويشرح عقيدة أهل بغداد في القضاء والقدر في مواجهة هذا الوباء وكيف انهم حين هربوا فإنهم نقلوا معهم العدوى إلى مناطق الهرب وانهم كشفوا عن ((إيمان غير راسخ بالقضاء والقدر الذي يقتضي المواجهة وليس الهرب)) [٣].

لكن في هذا التحليل لفريزر الكثير من المبالغة وعدم الموضوعية فالأمر بالإيمان أو عدمه بقدر تعلقه بضعف الوعي وجهل الناس في كيفية التعامل مع الوباء وان الرهبة والخوف هي التي تملكتهم وعدم قدرتهم على اتيان سبل المواجهة فارتأوا الهرب من وجهة الوباء وهي حيلتهم للتخلص منه.

فمع الأول من ابريل ١٨٣١ اشتدت وطأة الوباء بسرعة مذهلة، وأخذت الاعمال تتوقف في المدينة والاضطراب يعم الاهالي، وبخاصة (اليهود والكرد) اخذوا يفرون من المدينة، ويذكر نوار، ان على ابواب بغداد كانت تقف قافلة تضم بعض مسيحي الموصل حائرة بين بغداد والموصل لا تعرف لها مستقر لاجتياح الطاعون الولايتين [٤]. ولم يكن الطاعون وحده الذي يهدد القوافل فقد سيطرت العشائر على الطرق وأخذت توقع السلب والنهب بالقوافل الهاربة من الطاعون [٥].

ورغم استمرار حركات الفرار من بغداد بقوة [٦]، لكن أغلب السكان استسلموا للقدر وأخذ الطاعون يحصدهم حصداً [٧]. حاول داود باشا وأهل بيته الفرار من وجه الطاعون لكنه لم يستطيع لانتشار اللصوص على الطرق [٨]، ويذكر الشيخ عثمان بن سند في

(١) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٠.

(٢) فريزر، المصدر السابق، ١١٣.

(٣) المصدر نفسه، ١١٣.

(٤) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩.

(٥) لونكريك، المصدر السابق، ٣١٩.

(٦) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩.

(٧) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٠.

(٨) لونكريك، المصدر السابق، ٣١٩.

كتابه مطالع السعود: ((ان الذي مات بهذا الطاعون من أولاد داود باشا أكثر من عشرة أولاد يركبون الخيل))[١].

وأخذ متوسط الوفيات بالارتفاع بسرعة فائقة منذ اليوم الرابع من نيسان بمعدل (١٥٠ ضحية) في اليوم الواحد [٢] وفي ١٠ نيسان كانت ضاحية الكرخ قد فقدت (٧٠٠٠ شخص) خلال اربعة عشر يوم، وفي يوم ١١ نيسان إلى (١٢٠٠ ضحية) وبلغ الكرخ (١٠٤٠ ضحية) وبلغ في ١٣ نيسان أسوأ ايام الوباء فقد بلغ المعدل (١٨٠٠ ضحية) [٣].

وما ان وصل شهر نيسان إلى نهايته حتى لم يبقى ببغداد أحد لم يصب بالطاعون، وبلغ عدد الوفيات إلى ثلاثة الالف شخص في اليوم الواحد، احصي ذلك من خلال سجلات الموظفين الموجودين على أبواب المدينة، وهذا العدد هو اقصى ما احصي من اعداد الموتى بسبب عدم وجود من يقوم بعملية الاحصاء بعد وفاة الموظفين الذين اصيبوا بالوباء وماتوا[٤].

تكدست الجثث في الطرق، وعجز الاحياء عن دفن موتاهم فحل الصمت المروع محل البكاء والعويل على الموتى وزاد الأمر سوءاً ندرة الطعام ووفاة معظم السقائين، الذين ينقلون ماء الشرب للبيوت، ومن بقي حي منهك كان يأخذ الماء لغسل جثة أحد الموتى [٥].

رغم انها تتناقض مع العبارة السابقة التي تشير إلى عجز الناس عن دفن موتاهم فكيف يبادر السقائين للمغامرة وجلب الماء لغسل الموتى، اضافة إلى ان عملية تغسيل الموتى كانت تزيد من عدوى الوباء كما يذكر غروفز شاهد العيان على الوباء [٦].

ومن الظواهر المزرية التي طرأت في تلك الفترة، هي تزايد نشاط اللصوص رغم الوباء الفتاك، فكانوا يدخلون البيوت لينهبوها دون ان يخشوا احداً من اصحابها لأنهم اما يكونوا يدخلون البيوت لينبوها دون ان يخشوا احداً من اصحابها لأنهم اما يكونوا قد ماتوا او على وشك الموت، بل قد وصلت الوضاعة باللصوص لدرجة قطع اعضاء الموتى التي فيها الحلي وأخذها دون ان يأبهوا كارثة العدوى والموت المحتوم من مخالطة وملامسة الجثث [٧].

(١) الوائلي، المصدر السابق، ٣.

(٢) لونكريك، المصدر السابق، ٣١٩.

(٣) نوار، المصدر السابق، ٢٥٩-٢٦٠.

(٤) ذياب، المصدر السابق، ٦٠.

(٥) نورس، المصدر السابق، ٢١.

(٦) الوردي، المصدر السابق، ٢٧١.

(٧) المصدر نفسه، ٢٧٠.

روايات ومشاهدات شهود العيان على الطاعون:

١- مشاهدات المبشر غروفز:

غروفز مبشر بريطاني كان يسكن بغداد حيث فتح فيها مدرسة لأيتام النصارى، عندما بدأ الطاعون طلب منه القنصل البريطاني ريج الانتقال معه إلى ريف البصرة تجنباً للعدوى، لكنه رفض وقرر البقاء في بغداد، فكان تسجيله لمشاهداته عن تلك الأيام المرعبة في كتابه صدر له في لندن عام ١٨٣٢، الذي يعد أدق تسجيل لأحداث طاعون بغداد عام ١٨٣١ [(١)].

هنا نرسم صورة طاعون بغداد كما رسمها غروفز في مشاهداته نقلها عنه علي الوردي:

أغلق غروفز داره، وكان يسكن معه فيها اثناعشر شخصاً من بينهم معلم ارمني وأسرته، وكانت في مقابل داره (دربونة) [(٢)] تؤدي إلى ثمانية بيوت، ومن هذه البقعة الصغيرة كانوا يشاهدون الجثث تنقل إلى الخارج يوماً بعد يوم حتى صعد عددها إلى سبعة عشر جثة. وكانت الشوارع قد خلت من المارة فلا يرى فيها سوى حملة الموتى أو الذين يأخذون الأكفان لهم والسقائين الذين يأخذون الماء لغسل الجثث.

خرج غروفز من داره في يوم ٢٤ نيسان لزيارة القنصلية البريطانية، فلم يصادف في طريقه أحدً عدا الذين يحملون الجثث والأشخاص المصابين، وكانت صرر الملابس من مخلفات الموتى ملقاة بالقرب من الأبواب، واغلقت ساحة الجامع الكبير إذ لم يبقى فيها مكان لدفن الموتى فصار الناس يحفرون القبور على جوانب الطرق والطرقات نفسها وفي كل بقعة فارغة.

ويشير غروفز أنه عندما كان يسير في الشوارع بملابسه الكهنوتية شاهدته نساء عربيات فابدين ايماءت غريبة تلفت النظر، وكأنهم يخاطبن بها الله متعجبات من بقاء النصارى و(الكفار) مثله على قيد الحياة بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين.

وذكر غروفز ان الموت أصبح مألوفاً عند الناس إذ أخذوا يدفنون اقرب الناس اليهم من غير اكتراث، فقد أخذ الناس يتساقطون في الطرقات فلا يدفنهم أحد، فتأتي الكلاب تنهش جثثهم وكان البعض لا يزال ينازع سكرات الموت. وكان أشد المناظر ايلاماً وجود المئات من الأطفال الصغار في الطرقات وهم يتصارخون، بعد موت أمهاتهم،

(١) المصدر نفسه، ٢٧١.

(٢) طريق ضيق بين البيوت.

فيختلط صراخهم بزمجرة الكلاب التي تنهش جثث الموتى [١].

كما يعرض غروفز (ظاهرة اجتماعية) اثارت استغرابه، وهي شدة اهتمام الناس بغسل الموتى والتكفين واجراء كل ما تنص عليه الشريعة في هذا الأمر رغم ان الكثير منهم كان يخالف أوامر الشريعة في حياته، فكانوا يبذلون المال لشراء مواد الدفن والتكفين رغم ارتفاع اسعارها ارتفاعاً فاحشاً، واشتداد الطلب على الماء ليس لحاجته بل لغرض غسل الموتى، وأصبحت مهمة السقائين جلب الماء لغسل الموتى بالدرجة الأولى، وكثير من الأشخاص كانوا يذهبون بانفسهم إلى النهر لجلب الماء لغسيل موتاهم [٢].

الطاعون في مذكرات سليمان فائق:

تعتبر مذكرات سليمان فائق عن الطاعون متممة لما سجله غروفز، ويتحدث فيها عن ذكرياته في الايام الأولى لإنتشار الطاعون.

يقول فيها:

انه عندما بلغت الجنائز اليومية بين الستمائة والسبعمائة جنازة زاد خوفه واضطرابه وطلب من والده الخروج إلى البادية فراراً من الطاعون، وجَهَد في اقناعه لكن والده رفض، وآثر البقاء مقتنعاً بفتوى علماء الدين بتحريم الحجر الصحي رغم انها تخالف الشرع الإسلامي.

لكن سليمان خرج مع افراد اسرته، فخيموا في الصحراء على مقربة من بعقوبة، وكان يغير موضعه كل اربعة أو خمسة أيام حذراً من العدوى، وقد نجا بالفعل هو ومن معه ولم يمت إلا الذين ارسلوا إلى القرى لطحن الحبوب.

وبعد مدة عزم سليمان العودة إلى بغداد بعد ان خف خطر الطاعون وزاد خطر النهب من العشائر المحيطة بالمخيم. وعند وصوله إلى بغداد لم يتمكن من دخولها بعد ان أحاط بها الفيضان من كل جهاتها فاستأجر (قفة) [٣] حتى وصل موضع يحيى (حمام الراعي)، فنزل راجلاً هو وأهله، ولم يجدوا وهم في طريقهم أي انسان، حتى وصولا محلة النصارى، حيث شاهدوا امرأة تطل عليهم من نافذة دارها تستفسر منهم عن حالهم لأنها لم ترى بشر منذ مدة يمرون في الشارع، فسألها سليمان عن سر بقائها وأهل بيتها أحياءاً، فأجابته انهم قد حجروا على

(١) الوردي، المصدر السابق، ٢٧١-٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) قارب صغير.

انفسهم وسلموا ولم ينقص منهم أحد بل زاد عددهم من (٤١) إلى (٤٣) بولادة طفلين [١].

وبعد وصول سليمان إلى داره سارع بزيارة داود باشا الذي اصابه الطاعون لكنه تعافى، وكيف جهد لإعادة الحياة إلى بغداد [٢].

الفيضان قضى على الطاعون وأوقف الحرب:

كيف توقف الطاعون، لم يتوقف إلا بكارثة أكبر منه أكملت على ما تبقى في بغداد وهو الفيضان، وفي هذه السنة بالذات زاد منسوب نهري دجلة والفرات في وقت واحد وهو من الأمور القليلة الحدوث [٣].

أخذ نهر دجلة بالازدياد منذ ٢١ نيسان وأحاطت المياه ببغداد، وقعت الكارثة في ٢٧ نيسان عندما انهار الجسر امام ضغط المياه واندفعت بتيار عنيف دمرت عدد ضخم من البيوت (٧٠٠٠) منزلاً، فأخذت المياه تدفن المرضى والموتى وتجهز على المحتضرين وتسيء حال الأحياء، ومن فر منهم إلى مرتفع صار طعماً سهلاً للوباء لتجمع الناس فوقه أصبحت سرايا الباشا خراباً ومخازن الطعام مشرعة وخيول الباشا الأصيلة هائمة في الأزقة[٤]. وعم الخراب المدينة وتهدم سورها المرتفع بالأخص من الجهة الشرقية [٥].

وفي اوائل مايس انكسرت حدة الفيضان وعنفوان الطاعون وزال خطرهما معاً في نهاية الاسبوع الأول منه [٦]، ويذكر كروفز انه اخذ يسمع لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع اصوات المؤذنين للصلاة، وعودة الحياة تدب من جديد في بغداد التي فقدت ثلثي سكانها تقريباً [٧].

---

(١) لعلنا نجد في كلام المرأة النصرانية شيء من المبالغة، لأنه بحسب ما ورد في كتاب سعاد العمري عن مشاهدات الرحالة، تذكر ان محلة الارمن قبل الطاعون والفيضان كانت تحتوي على (١٣٠) عائلة وبعد انتهائه في نيسان ١٨٣١ لم يبقى سوى (٢٧) عائلة. سعاد هادي العمري، بغداد كما وصفها السياح الاجانب في القرون الخمسة الأخيرة (بغداد – ١٩٦٥)، ٧٢.

(٢) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٤-٢٧٥.

(٣) عيساوي، المصدر السابق، ١٧٠.

(٤) لونكريك، المصدر السابق، ٣٢٠ ؛ نوار، المصدر السابق، ٢٦٠.

(٥) ب.م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة: معروف خزنة دار، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ٢٧٢.

(٦) نورس، بغداد في رحلات الاجانب ...، ٢١.

(٧) نوار، المصدر السابق، ٢٦٠ ؛سليمان فائق بك،تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد،ترجمة:محمد نجيب ارمنازي،.دار ضفاف للطباعة والنشر ،بغداد،٢٠١٢، ٧٠.

علما ان الكثيرين من الناس بقوا في عداد المرضى وعبئ الجثث الملقاة في الأزقة الموحلة تنهش فيها الكلاب [١].

ولم تتوقف مآسي بغداد عن هذا الحد، فسرعان ما أخذ اللصوص والسراق بالظهور وانتشرت الحوادث المخلة بالأمن [٢]، مستغلين فوضى السلطة التي عصفت بعد اصابة الوالي داود باشا بالطاعون وفقدانه قواته وحرسه الذي لم يتبقى منهم إلا اربعة من الجراكسة، لكنه ما أن تماثل للشفاء حتى عجل لإنقاذ ما يمكن انقاذه من انقاض المدينة ففتح مخازنه [٣] وأخذ بنشر الأمن والحراس لإلقاء القبض على اللصوص ومحاسبتهم [٤] وباشر في تعيين موظفين جدد يشرفون على شؤون الحكومة، وكانت جثث الموتى لا تزال مطروحة في البيوت والاسواق والطرقات وبلغ التعفن حد لا يطاق، فعين داود باشا جنودا لتنظيف بغداد وجعل مقدار من المال لنقل كل جثة، فألقيت الاف الجثث في دجلة من غير تكفين وتجهيز، ولكثرة الجثث كانت تشد من أرجلها بالحبال وتربط بذيول الخيول السائبة فتسحب وهي مقلوبة على وجوهها لتلقى بالنهر [٥].

وأخذت الحركة تدب قليلاً في الأسواق المهدمة رغم ان أكر بضائعها مسروق بل كلها، كما انقرضت الكثير من المهن بعد موت حرفييها البارعين [٦].

لم تكاد بغداد تسترجع انفاسها من وطأة الطاعون واجتياح الفيضان، حتى انتشرت الاخبار بأن طلائع الجيش السلطاني قد وصلت إلى بساتين الكاظمية شمالي بغداد [٧].

في بداية الأمر قرأ داود باشا حراجة الوضع فكان في قرارة نفسه قد آثر الاستسلام لأنه لم يكن يريد ان يزيد من مآسي بغداد والتي خرجت منهكة من الوباء والفيضان لكن الاحداث تسارعت بصورة خارجة عن ارادته. فبالرغم من ما قاساه اهالي بغداد من ظروف قاسية رهيبة إلا انهم لم يتركوا مصيرهم يقرر دون ان يتدخلوا سواء أكانوا منتظمين ام بحراك عفوي لكنهم أرادوا ان يختاروا واليهم وأغلبهم اصطفوا إلى جانب داود باشا معترفين بالجهود التي بذلها لأجل المدينة وفي أصعب الظروف ومنهم من انساق وراء اهواء شخصية

(١) لونكريك، المصدر السابق، ٣٢١.

(٢) العيساوي، المصدر السابق، ١٧٠.

(٣) نوار، المصدر السابق، ٢٦١.

(٤) العيساوي، المصدر السابق، ١٧٠.

(٥) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٥.

(٦) لونكريك، المصدر السابق، ٣٢١.

(٧) الوردي، المصدر السابق، ٢٧٥.

ومنافع موعودة فوقف إلى صف القائد القادم محمد رضا باشا، وبمجمل الأمر عادت بغداد لتعيش مأساة جديدة تحت طألت الحصار الذي فرضه علي رضا باشا وجرت معارك لم تكن بقلية على شعب خرج بانفاس ضعيفة جراء وباء فتاك [١].

وما ان حل شهر ايلول حتى اصبحت الحالة في داخل بغداد لا تطاق من شدة الحصار شحة الطعام، وكان دعاة علي رضا باشا منتشرين بين سكان بغداد يثبطون عزيمتهم عن المقاومة ويدعونهم إلى طاعة السلطان. ومع منتصف ايلول كان صبر السكان قد نفذ فبادر رجل من التجار اسمه (الحاج خليل) ومعه جماعة تؤيده ففتحوا بوابة السور الجنوبية، وسمحوا للجيش السلطاني بالدخول إلى بغداد. فارتاحت الناس وهبطت الاسعار، وتوقفت الجرائم عند حدها [٢].

وشرع بعدها علي رضا بتنفيذ خطة قضى فيها على الممالك جميعاً، ما عدا داود باشا وهنا المفارقة العجيبة كل الخلاف والاقتتال معه لكنه ينفذ من القتل والعقاب ويرسل بكل احترام إلى السلطان ويكرم هناك ويسلم بعدها عدة مناصب وولايات ومنها ولاية المدينة المنورة [٣].

ولعل السبب وراء ذلك أنه المقصود كان انتزاع ولاية بغداد من السلطة الخارجة عن ارادة السلطان المتمثلة بنظام المماليك بمجمله واستعادة السلطة المركزية على بغداد وخطورة داود باشا كانت بهيكلية نظام المماليك وليس بشخصه الذي كان نموذج للوالي العثماني الكفوء.

بذلك مرت بغداد بعام ١٨٣١ باحداث كادت ان تجهز عليها من وباء وفيضان وحرب ولكن ارادة الاهالي وحكمة واليها وتلاحق الاحداث بشكل كان يرأف بحالها في اللحظات الأخيرة كان وراء نجاتها.

(١) عن ذلك ينظر: سليمان فائق، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، (بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٢)، ٨٢-١٠٤.

(٢) فريزر، المصدر السابق، ١٢٢.

(٣) الوردي، المصدر السابق، ٢٨١ ؛ الوائلي، المصدر السابق، ٤.

الخاتمة والاستنتاجات

١- طاعون بغداد عام ١٨٣٠ من أعنف الطواعين التي اصابت بغداد بما نتج عنه من عدد ضحايا مخيف وخراب ودمار للولاية.

٢- وان اختلفت الأزمنة والظروف لكن هناك ثوابت لمنطقة دون الاخرى ولبلد دون الآخر في طبيعة انتشار الاوبئة منها المناخ والموقع والطبيعة والعادات والتقاليد والدين.

٣- ما ان يجتاح وباء قاتل العالم حتى تتخذ جملة من اجراءات وسياقات من قبل المجتمع الانسانية: العزل والحجر الصحي، الابتعاد وعدم الملامسة لموطن الوباء ومسبباته واذا لم تتخذ سوف يستشري ويستفحل.

٤- تلازم الكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب ليكون بعضها ناتج عن الآخر ومسبب له أو وسيلة للحد من خطورة أحدهم.

٥- الوباء لا يميز بين الخاصة والعامة، فهو كالنار بالهشيم يأخذ تحت طألته الجميع وكل شيء في طريقه.

الأوبئة وطرق مكافحتها في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١

د. الزرقاء سالم محمد حسين
قسم التاريخ/ كلية الآداب
/ جامعة سرت/ليبيا

Summary

Epidemics and methods of combating them in the western state of Tripoli (Libya) during the second Ottoman era, 1835-1911

Dr.. Zarqa Salem Muhammad Hussein / Department of History / College of Arts / University of Sirte / Libya

The study of the spread of epidemics and diseases in the western state of Tripoli is linked to the economic, political and social conditions in the country. The state has witnessed the spread of many epidemics that have killed many residents, especially in light of widespread poverty and famine.

The importance of studying epidemics is evident in identifying the most important species that spread in the country during the second Ottoman era, especially the plague epidemic and cholera epidemic, and the resulting damage and death among the population, and knowledge of the treatment methods that the population used to treat them.

As for the problematic of the study, it is concentrated in answering many problems, namely:

What types of epidemics spread in the western state of Tripoli during the second Ottoman era؟

How did the epidemics spread to the state and within the state؟

What is the role of the Ottoman authorities in combating epidemics and limiting their spread؟

إن دراسة أنتشار الأوبئة والأمراض في ولاية طرابلس الغرب مرتبط بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في البلاد ، فقد شهدت الولاية أنتشار العديد من الأوبئة التي فتكت بالعديد من السكان، خاصة في ظل أنتشار الفقر والمجاعة .

وتبرز أهمية دراسة الأوبئة في التعرف على أهم الأنواع التي انتشرت في البلاد خلال العهد العثماني الثاني خاصة وباء الطاعون وباء الكوليرا، وما خلفته من أضرار ووفيات

بين السكان، ومعرفة طرق العلاج التي أستخدمها السكان في علاجها.

أما إشكالية الدراسة فهي تتركز في الإجابة على العديد من الإشكاليات وهي:

- ماهي أنواع الأوبئة التي انتشرت في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني؟
- كيف انتقلت الأوبئة إلي الولاية وفي داخل الولاية؟
- ما هو دور السلطات العثمانية في مكافحة الأوبئة والحد من أنتشارها؟

وللإجابة على هذه الإشكاليات سوف تستخدم الدراسة منهج التحليل التاريخي الذي يوفر ألية علمية لطرح الموضوع بشكل موضوعي علمي وفق شروط البحث العلمي، ولتوضيح الموضوع فقد تم تقسيم الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: أنواع الأوبئة والأمراض في ولاية طرابلس الغرب ١٨٣٥-١٩١١.

تشير المصادر التاريخية أنه بالرغم من أن ولاية طرابلس لا توجد بها مراض مستوطنة، لكنها لم تنج من حين لأخر من بعض الأمراض الوافدة ، وكانت هناك عدة طرق لانتشار الأوبئة منها، المسافرين سواء الذين يأتون إلى الولاية أو الذين يعبرونها بواسطة البر من خلال تجارة القوافل أو التجارة البحرية، أو عن طريق البضائع، فقد كانت طرق انتقال العدوى متعددة وسريعة فيكفي أن تمر القافلة على منطقة موبوءة ينتقل منها المرض إلى منطقة أخرى، وهكذا ينتشر الوباء ويسبب في كوارث نتيجة لانعدام الوقاية والطرق العلاجية.

شهدت ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني أنتشار العديد من الأوبئة الأمراض الفتاكة التي كان لها تأثير سلبي على السكان من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية خاصة في ظل سنوات القحط والجفاف وانتشار المجاعة[١]، ومن أهم الأوبئة التي انتشرت في الولاية الطاعون والكوليرا وهما في الغالب ينتشران في الولاية عن طريق مسافرين قادمون من مناطق موبوءة في الحجاز أو موانى البحر المتوسط، فقد ذكر الحشائشي أنه وجد مرض الكوليرا في مدينة زله الواقعة في الجنوب وقال" حالات مرضى الحمى كثيرة جدا في الصحراء الشرقية والوسطى فزان[٢].

ظلت ولاية طرابلس الغرب عرضة للأوبئة والأمراض الفتاكة التي أدت إلى تأخرها اقتصاديا وديمغرافيا واجتماعيا، وترجع أسباب تفشي هذه الأوبئة ألى:

---

[١]- أنتوني كاكيا، ليبيا خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١،(دار الفرجاني- طرابلس- ليبيا-١٩٧٥)، ١٠٤.

[٢]- محمد عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر بلاد طرابلس والطوارق، تقديم محمد المرزوقي، (الدار التونسية للنشر- تونس-١٩٨٨)، ٧٦.

١- أهمال حكومة الولاية للجوانب الصحية وعدم السعي إلى تطويرها
٢- كثرة البرك المستنقعات كانت لسبب الرئيسي في كثرة الحشرات والبعوض المسبب لمرض الملاريا.
٣- عدم الاهتمام بالنظافة العامة وسط المدينة وخارجها، خاصة الأحياء اليهودية، كانت سببا في أنتشار الأوساخ التي ساعدت على أنتشار مرض الكوليرا.
٤- عدم الاهتمام بالمسافرين القادمين من مناطق موبوءة في حوض البحر المتوسط والقادمين صحبة القوافل الصحراوية القادمة من جنوب الصحراء سبب من أسباب أنتشار الأمراض كالكوليرا والجدري.
٥- لم تهتم الجهات المسؤولة بالولاية بالجانب الوقائي إلا في فترات متأخرة من الحكم العثماني الثاني، كتلقيح الأهالي ضد الأمراض، أو عمل محاجر صحية لعزل المشتبه فيهم.
٦- غياب الوعي الصحي، والجهل والفقر السائد بين السكان واعتمادهم على الطب الشعبي في علاج بعض هذه الأوبئة، مما زاد من سرعة أنتشارها وكثرة عدد الوفيات بها[١].

وسنتحدث عن أهم الأوبئة الفتاكة التي شهدتها الولاية خلال فترات تاريخية متعاقبة هي الطاعون والكوليرا

اولا: الطاعون

عصف هذا الوباء بولاية طرابلس الغرب خلال فترات متعاقبة ما بين ١٦٥٧-١٦٧٦ وفتك بأرواح ما يزيد عن ستين ألف شخص وأنتقل هذا الوباء إلى الولاية عن طريق قوافل الحجيج القادمين من مكة الكرمة على ظهر السفن المصرية[٢]، في سنة ١٨٣٧ انتشر الطاعون في الولاية وانتقل إليها من موانئ البحر المتوسط عن طريق السفن وبواسطة الفئران الموبوءة بتلك الموانئ، ولم يلبث أن أنتشر المرض محدثا وفيات بين السكان ووصف المس توللي التي أقامت عشر سنوات في بلاط طرابلس مرض الطاعون بقولها" لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين، ثلاثة آلاف مخلوق نعم ثلاثة آلاف وارتهم

١- محمد عمر مروان، الأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية خلال العهد العثماني الثاني، أعمال ندوة الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥-١٩٥٠،(المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية- طرابلس- ليبيا-٢٠٠٩)،١٠١.

٢- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغز الايطالي، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، (المنشأة العامة للنشر التوزيع- طرابلس- ليبيا- ١٩٨٣)، ٢٣٩.

جبانات طرابلس وخسرتهم البلاد إلى الأبد، أنهم يبلغون حوالي ربع سكان المدينة"[١].

وقضى هذا الوباء على المئات من سكان المدينة بسبب النقص الحاد في الوسائل الوقائية والطبية، تفيد مصادر أخرى أنه كان يموت يوميا من الأهالي ما يتراوح بين ٣٥-٤٠ شخصا، هاجر الكثير من سكان المدينة إلى تونس ومصر وذهب القناصل بعض أفراد الجالية الاوروبية إلى مالطا وإيطاليا وتونس، وتشير أحد تقارير القنصلية الفرنسية إلى أن حوالي ٨٧٦ قد توفوا بسبب وباء الطاعون، ونتيجة لذلك اتخذ والي طرابلس طاهر باشا إجراءات وقائية لحماية جيشه من الوباء، فأمر بنقل الحامية إلى غريان التي تقع على بعد ثمانين كيلومتر جنوب مدينة طرابلس حتى زوال الخطر عن المدينة، كما قررت الحكومة التونسية منع أي سفينة قادمة من طرابلس الرسو في موانئها لا خوفا من أنتشار الوباء فيها[٢].

وفي سنة ١٨٥٨ نتشر في مدينة بنغازي مرض الطاعون نتيجة الإهمال في الإجراءات الصحية المعمول بها بسبب البواخر التي رست بالميناء ولم تستكمل المدة المقررة للحجر الصحي والتي لم تزيد عن العشرين يوما، وعندما صلت هذه الملومات إلى القنصلية الفرنسية بطرابلس قام القنصل الفرنسي "بوتا" بإخطار حكومة الباشا بالوضع الصحي في بنغازي مبينا أن المدة التي قضتها السفن في الحجر الصحي غير كافية، وأبلغه بخطورة الوضع وضرورة أتخاد إجراءات سريعة للوقاية من أنتشار هذا الوباء في الولاية، مع ضرورة إجبار السفن بالحجر الصحي لمدة ثلاثون يوما للمسافرين وأربعون يوما للبضائع، وفي حالة عدم تطبيق هذه الإجراءات ستقوم فرنسا وبقية الدول الأوروبية بإخضاع السفن القادمة من هذه الولاية للحجر الصحي لمدة طويلة[٣].

وفي أغسطس ١٨٧٤ ظهر مرض الطاعون مجددا في مدن المرج وتوكره وبرسس شرق مدينة طرابلس، ووصلت لجنة الطبية من اسطنبول مكونة من الدكتور راض اليوناني وليونارد آرنود طبيب سابق في سلاح البحرية الفرنسية والطبيب لافال الفرنسي، وبدأوا في تطويق مدينة برسس وقرروا أنشاء كردون" حجر صحي" في دينة بنغازي كأجراء وقائي، غير أن سكان المدينة اخترقوا الحجر وخرجوا من المدينة غير أن السلطات اتخذت

[١]- الأنسة توللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عبدالجليل الطاهر،(الجامعة الليبية –بنغازي- ليبيا – ١٩٦٧)، ١٩٧.

[٢]- محمود أحمد الديك، الأوضاع الصحية في طرابلس منذ العهد العثماني وحتى فترة الاستعمار الايطالي، ندوة الاوضاع الصحية في ليبيا١٨٣٥-١٩١١، (المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية- طرابلس- ليبيا، ٢٠٠٩)، ٢٢٨.

[٣]- محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ٢٣٤-٢٣٥.

اجراءات صارمة ضدهم وتم أنقاد المدينة من هذا الوباء[1].

وكتب القنصل الفرنسي ديلابورت سنة ١٨٧٦ تقريا عن مرض الطاعون الذي ظهر في منطقة برسس وتوكرة، وأتخذ المجلس الصحي المكون من مجموعة من الأطباء كل الاحتياطات اللازمة لكي يحاصروا المرض والحيلولة دون انتقاله إلى المناطق الأخرى وذلك بتأسيس مقر للحجر الصحي في مدينة سرت وشددوا الحراسة عليه وأمروا الحراس بعدم استقبال أي قافلة تجارية قادمة برا من بنغازي وإرجاعها من حيث أتت ولو بالقوة[2].

ثانيا: الكوليرا

أحد الأمراض الخطيرة الوافدة الي الولاية عن طريق الحجاج القادمين من الأراضي المقدسة أو صحبة المسافرين القادمين من أحد الموانئ العثمانية، في خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٥٠ ظهر وباء الكوليرا في طرابلس، وانتشر هذا المرض أيضا عبر الموانئ والبواخر وينتشر سريعا خاصة في المدن المكتظة بالسكان، وفتك بالأهالي لمدة ثلاثة شهور، ويقال أن حدة هذا الوباء في طرابلس ضعفان ما حدث في تونس وثمانية اضعاف ما حدث في مرسيليا، فقد كانت حصيلة الوفيات ٨٠٠ شخص في طرابلس فقط منهم قنصل سردينيا بروكي Brocchi وبعض موظفي القنصليتين الانجليزية والاسبانية[3].

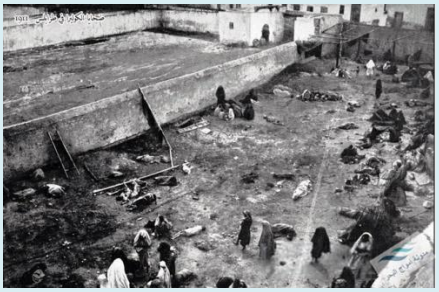

صورتان توضحان ضحايا الكوليرا في طرابلس سنة ١٩١١

وتطلعنا صحيفة طرابلس الغرب في عددها رقم ١٣٤٤ الصادر سنة ١٩١٠ عن عدد الاصابات بوباء الكوليرا خلال الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٩٠٨ بلغت ٣١ أصابه ، وعدد الوفيات بلغ ٣٥ حالة[4] ، وفي عددها رقم ١٣٤٥ الصادر في نفس السنة ذكرت الصحيفة أن الاصابات بهذا الوباء

[1]- دار المحفوظات التاريخية، ملف الكراغلة، وثيقة بخصوص إنشاء كردونات (نقاط حراسة أو مراقبة) بسرت لمنع القادمين من المناطق الشرقية الموبوءة بالتوجه إلى الغرب.

[2] -Marc-Andre Pey, Tripoli de Barbrie sous les derniers Qaramanli (1754-1832) p79.

[3]- أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١،تعريف خليفة محمد التليسي، (دار الثقافة- بيروت- ١٩٧٦)، ٢٦٨.

[4]- صحيفة طرابلس الغرب، (العدد ١٣٤٤ ، سنة ١٩١٠)

خلال الاسبوع الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٨ حالتين عدد الوفيات ثلاثة أشخاص[١]، يتضح من ذلك أن عدد الإصابات خلال هذه الشهر قد خفت بشكل كبير.

وفي أواخر سنة ١٩١٠ أنتشر وباء الكوليرا في الولاية خاصة بين اليهود وانتقل هذا المرض من نابولي إلى طرابلس عن طريق أسرة يهودية جاءت من نابولي، ونتيجة لذلك أرسل الوالي إبراهيم باشا إلى وزارة الداخلية في اسطنبول في رسالة مؤرخة في ٤ نوفمبر ١٩١٠ أن عدد المصابين بوباء الكوليرا منذ ظهوره في ٢٠ سبتمبر ١٩١٠ بلغ ١٨٦ شخصا توفى منهم ١١٠ كهم من اليهود عدا أثنان من المسلمين يعملان في أفران بمحلة اليهود، والرسم البياني التالي يوضح ذلك.

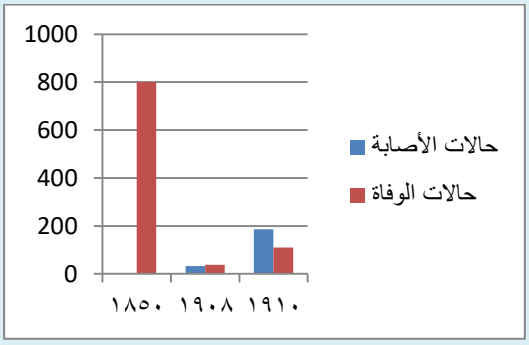

رسم بياني يوضح حالات الإصابة والوفاة بمرض الكوليرا بولاية طرابلس خلال سنوات ١٨٥٠-١٩٠٨-١٩١٠

ويبدوا أن وباء الكوليرا قد أزداد انتشارا في طرابلس في سنتي ١٩١٠-١٩١١ فمن خلال تقرير مفتش الصحة بطرابلس مؤرخ في ١٤ يونيو ١٩١١ تعترف بانتشار وباء الكوليرا في ايطاليا، وحاول أتخاذ الإجراءات الوقائية فاتصل بطبيب الحجر الصحي بالميناء لاتخاذ الإجراءات الوقائية بالنسبة للركاب القادمين من ايطاليا بسبب انتشار الكوليرا فيها وضرورة تطبيق الحجر الصحي " الكرنتية" ضد المسافرين القادمين من مدينة نابولي في إيطاليا[٢].

وما تجدر الإشارة إليه أن اليهود استغلوا وباء الكوليرا سياسيا للمطالبة بسيطرة ايطاليا على ولاية طرابلس الغرب ونلاحظ ذلك من خلال رفضهم تطبيق الإجراءات الوقائية التي قامت بها السلطات الصحية بالبلدية، وقاما بمظاهرات قادها " مسيو صامان" المترجم بالقنصلية الايطالية بطرابلس وغوستاف أربيب شقيقه أميلو، واعتدى المتظاهرون على الشرطة وعلى طبيب البلدية واتجهوا إلى القنصلية الإيطالية وهم يهتفون " الحكومة تظلم اليهود لا نريد الحكومة العثمانية نريد الحكم الإيطالي تحيا إيطاليا"[٣].

بالإضافة إلى وباء الملاريا الذي أنتشر في مناطق جنوب ولاية طرابلس خاصة الواحات

١- صحيفة طرابلس الغرب، (العدد ١٣٤٥، سنة ١٩١٠)

٢- دار المحفوظات التاريخية، ملف الصحة، وثيقة رقم ٨٣٢، (بخصوص إبلاغ والي طرابلس وزارة الداخلية في اسطنبول بعدد المصابين بوباء الكوليرا)

٣- دار المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم ٨٧٠، (بخصوص أنتشار وباء الطاعون بين اليهود).

التي تكثر فيها المستنقعات الراكدة، وهي تعد مكانا خصبا لتكاثر البعوض الحامل لجرثومة الملاريا، ومن الأمراض الفتاكة الأخرى التي اصابة الولاية مرض الجدري الذي ينتقل بالعدوة عن طريق القوافل الصحراوية القادمة من برنو والسودان ويسبب عددا كبير من الوفيات[١].

وقد أشار الرحالة الإيطالي مانفريدو كامبيرو عضو جمعية ميلانو للاكتشافات التجارية بأفريقية، في تقرير عن الأوضاع الصحية بولاية طرابلس عند زيارته إلى المناطق الشرقية من الولاية " برقة "خلال ٦ مارس إلى ٥ ابريل من سنة ١٨٨١ منطلقا من بنغازي إلى درنة سالكا طرق مختلفة في ذهابه وإيابه حتى تمكن من زيارة أغلب مناطق برقة الساحلية والجبلية ركز خلالها على الأوضاع الصحية في بنغازي والمرج ولاحظ كثرة انتشار الأمراض بهما بسبب عدم النظافة وكثرة الحشرات المسببة للأمراض، فقد ذكر أن مرض الزهري أو السيلان الذي جلبه البحارة والأوربيون وتجار القوافل ومعهم كان منتشر بشكل كبير في مدينة المرج لدرجة أنه لم تخلى خيمة واحدة من الإصابة به، ومرض الدرن الرئوي الذي ينتشر بين الفقراء في الأحياء الفقيرة نتيجة لسوء التغذية وعدم توفر السكن الصحي[٢].

كما عرفت طرابلس أيضا مرض التيفود الذي انتشر في سبتمبر ١٨٤٢ وأستمر عدة شهور وسبب في وفي الكثير من السكان وخاصة الأطفال، وفي سنة ١٨٤٣ أنتشر مرض الجدري في مدينة طرابلس وامتدت منها إلى مدن أخرى في زوارة ومصراته[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن جل المصادر لم توافينا بإحصائية دقيقة للوفيات والمصابين بهذه الأوبئة في ولاية طرابلس الغرب وربما يرجع السبب إلى عدم جود إحصائية دقيقة بعدد سكان الولاية.

المبحث الثاني: جهود السكان المحليين والسلطات العثمانية في مكافحة أنتشار الأوبئة وطرق علاجها.

بدأ الاهتمام بالوضع الصحي في ولاية طرابلس من قبل الولاة العثمانيين في نهاية العهد العثماني الثاني، فبعد تفشي هذه الأوبئة داخل ولاية طرابلس بدأ بعض الصحف مثل صحيفة طرابلس الغرب وصحيفة العصر الجديد بشن حملات ضد الحكومة بمطالبتها بضرورة الاهتمام بالجانب الصحي ومواجه هذه الأوبئة والأمراض ومن

[١]- عبدالقادر جامي، من طرابلس إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الأسطى، (دار المصراتي- طرابلس- ليبيا- ١٩٧٩)، ٩٥.

[٢]- محمد مصطفى بازامة، تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني، (دار الحوار- بيروت- لبنان- ١٩٩٤)، ٢٠٢-٣٠٣.

[٣]- محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ٢٣٠.

أهم الإجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية في طرابلس هي:

اولا: الحجر الصحي

اهتم حكام طرابلس بعملية الحجر الصحي بعد تفشي الأوبئة والأمراض بها عن طريق المسافرين القادمين من موانئ البحر المتوسط عامة، وأخذ الاحتياطات الوقائية حيالهم، وأطلعتنا اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن على أجراء محاجر صحية " كرنتينة"[١] لعدة سفن قادمة من مناطق موبوءة بأمراض سارية[٢].

وعدما ظهر وباء الكوليرا في مالطا في يونيو ١٨٣٩ وبعد تعافي ولاية طرابلس من وباء الطاعون، فقد أمر باشا طرابلس بإرجاع كل السفن القادمة من مالطا، وبالفعل أجبرت السفن على العودة ولم يسمح للمسافرين بالنزول ومنع التجار من إنزال بضاعتهم، رغم أمتعاض التجار لهذا الإجراء لأنهم كانوا ينتظرون وصول السلع القادمة من مرسيليا وبقية الدول الأوروبية عبر ميناء مالطا، ونظرا لما عانته الولاية من نقص في السلع نتيجة وباء الطاعون فأن الأهالي والتجار بدأوا في الضغط على باشا طرابلس بضرورة إيجاد حل لهذه الأزمة، لذلك سمح باشا طرابلس بدخول البضائع القادمة من مالطا إلى ميناء طرابلس بشرط أن تخضع للحجر الصحي لمدة خمسة عشر يوما[٣].

وزاد الاهتمام العثمانيون بالحجر الصحي في كل ولايات الدولة فعقدت اجتماعات مع الدول الأوروبية لوضع خطة وشكلت لجان من هذه الدول لتحديد وتخصيص أماكن الحجر الصحي في كافة مواني البحر المتوسط، فقد بعث والي طرابلس الغرب محمود نديم باشا (١٨٦٠-١٨٦٦) برسالة إلى قنصل إيطاليا بطرابلس بتاريخ ٢٧ اكتوبر ١٨٦٦ يخبره فيها بتحديد وتجديد الحجر الصحي بباب البحر ببرج إبي ليلى.[٤]

كما طلبت نظارة الحجر الصحي من طبيب الحجر الصحي في نواحي طرابلس" تاجوراء وجنزور" بعدم السماح للسفن القادمة من نواحي مصر وبيروت والشام وقبرص والبحر الأحمر بالرسو في تلك المناطق، وتحويلها إلى ميناء طرابلس لعمل إجراءات الحجر الصحي لها[٥].

---

[١]- الكرنتينة تعني مدة الحجر الصحي وهي من العدد Guaranta أي أربعين يوما.

[٢] - حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية ١٥٥١-١٨٣٢، الجزء الأول، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، (مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- طرابلس-١٩٨٤)، ١٤٠٠.

[٣]- محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ٢٢٩.

[٤]- دار المحفوظات التاريخية طرابلس، (وثيقة حول إبلاغ الوالي محمود نديم قنصل ايطاليا بتخصيص محجر صحي ببرج أبي ليلى)

[٥]- دار المحفوظات التاريخية طرابلس، وثيقة مؤرخة في ١٢ يوليو ١٨٨٣،(حول إشعار إلى ناحيتي تاجوراء وجنزور بعدم

لم تقتصر المحاجر الصحية على الركاب والسفن القادمة من خارج الولاية بل شملت الولاية نفسها ووضعت قيود مشددة على الانتقال من منطقة إلى أخرى داخل الولاية خاصة في المناطق التي تنتشر فيها الأوبئة وذلك للحيلولة دون تفشي الوباء فيها، واحتجاز من يشتبه في إصابتهم بتلك الأمراض في المحاجر الصحية، فعلى سبيل المثال عندما أشتبه في اليهودي جون وزجته القادمين من إيطاليا بإصابتهما بوباء الكوليرا بعد ظهور بعض الأعراض عليهم فتم حجرهما في بيتهما وشكلت لجنة لمداواتهما ومتابعة حالتهم الصحية[1].

وعندما ظهر الطاعون في المناطق الشرقية للولاية بمنطقتي المرج وبرسس سنة ١٨٧٤ خوفا من انتقاله إلى بقية الناطق قرر مجلس الولاية عمل نقاط حراسة في مناطق مختلفة منها منطقة سرت التي تتكون نقاط الحراسة فيها من خمسين فارس تم توزيعهم على موارد المياه التي تتردد عليها القوافل لمنعها من الاقتراب منها أو الاختلاط بالناس والحيوانات، وإجبارها بقوة السلاح على الرجوع، كما حذر المجلس كل من يتهاون في تنفيذ ذلك بالمعاقبة الشديدة[2].

وفي سبتمبر ١٨٤٢ عرفت طرابلس مرض التيفود الذي استمر عدة شهور وسبب في وفاة عدد من السكان، وفي السنة التالية انتشر مرض الجدري في طرابلس أيضا وأمتد منها إلى المدن المجاورة لها من زوارة غربا إلى مصراتة شرقا، ويذكر الرحالة الإنجليزي جيس ريتشاردسن أنه كان يوجد في ميناء زوارة ممثل للحجر الصحي[3].

صورة توضح الحجر الصحي في طرابلس سنة ١٩١١

كما وضعت الحكومة مجموعة من التدابير والإجراءات التي يجب إتباعها في الجهات التي تظهر بها إصابات بوباء كورونا منها:

١. تأسيس أكواخ " براكات" وبيوت مؤقته لأجل عزل المرضى بها

السماح إلى السفن القادمة من مناطق مشبوهة بالإصابة بالرسو بها)

[1]- جريدة طرابلس الغرب، (العدد ١٣٣٨- الصادرة بتاريخ ١٤ شوال ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)

[2]- دار المحفوظات التاريخية، (وثيقة بخصوص إنشاء كردونات " نقاط حراسة" بسرت لمنع القادمين من المناطق الشرقية الموبوءة بالتوجه إلى المناطق الغربية)

[3]- جيمس ريتشاردسن، ترحال في الصحراء، ترجمة الهادي أبو لقمة ، (جامعة قاريونس - بنغازي – ١٩٩٣)، ٣٠.

٢. تطهير البيت الساكن به الموبوء وتبخيره ، وكافة أشياء المريض الخاصة
٣. وضع علامة واضحة مطلية بطلاء أصفر على كل بيت أصيب أهله بهذا الوباء
٤. حجر المشتبه فيهم بالإصابة مدة خمسة أيام وتمديدها إلى خمسة أيام أخرى حتى ينجلى الاشتباه عنهم.
٥. وضع الآبار العمومية والينابيع تحت المراقبة الصحية الدائمة
٦. في الأماكن التي لا يوجد بها مياه صحية غلي الماء قبل شربه
٧. تنظيف المراحيض العامة والخاصة مع تبخيرها
٨. تفريق الازدحامات ومنع انعقاد الاسواق ومنع إقامة الأفراح
٩. حفظ جميع أنواع الأغذية في أوعية مغطاة
١٠. يمنع إخراج الحليب ومشتقاته من المحلات المصابة
١١. تكليف مفتش الصحة بإخبار الحكومة المحلية عن الإصابات يوميا وإرسالها إلى المجالس الطبية والصحية [١].

ثانيا: التلقيح ضد الأمراض والأوبئة

أهتمت الحكومة العثمانية بموضوع التلقيح كجانب وقائي فقد أصدرت نظارة الداخلية بإسطنبول قرار عمم على كل ولاياتها منها ولاية طرابلس الغرب سنة ١٨٨٨ بضرورة تلقيح الأهالي ضد مرض الجدري، وضرورة تلقيح الأطفال منذ الولادة، وشدد العثمانيون على إجبار السكان على أخذ اللقاح وأصدروا قانون يلزم تلاميذ المدارس والموظفين والتجار والصناع على ضرورة أخذ اللقاح، وفي هذا يذكر الرحالة جيمس ريتشاردسن إلى وجود طبيب في مدينة طرابلس يدعى جامكو المالطي قام بتطعيم جميع أفراد القافلة، ولم يذكر أي تفاصيل عن هذا الأجراء ولا نوع التطعيم، في حين ذكر أن جميع من طعموا كانوا خاليين من الأمراض [٢].

وعندما أنتشر مرض الجدري في ولاية طرابلس سنة ١٨٩٠ أمرت السلطات العثمانية بضرورة توزيع للقاح على المستوصفات وتم إلزام الأهالي بضرورة تطعيم أطفالهم خلال مدة ستة أشهر من تاريخ ولادتهم، وحد قانون عقوبات لكل من يمتنع عن التلقيح أو يتأخر عن تقديمه من الأطباء.

ثالثا: المستشفيات

في الحقيقة أن الدولة العثمانية لم تهتم بتأسيس مرافق صحية من مستشفيات ومستوصفات في كافة مدن وقرى الولاية وإنما أقتصرها وجودها على المدن الكبيرة فقط كطرابلس وبنغازي ودرنة والخمس

[١] - جريدة طرابلس الغرب،(العدد ١٣٧٠- الصادر بتاريخ ٦ رجب ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١)

[٢] - جيمس ريتشاردسن، المصدر السابق،٤٤.

وأسس العثمانيون أول مستشفى في مدينة طرابلس سنة ١٨٣٨ عرف بالمستشفى العسكري وسعته ٢٥٠ سريرا ، ثم قام الوالي أحمد عزت بإنشاء مستشفى في مدينة الخمس ومستشفى أخر في مدينة بنغازي، وفي سنة ١٨٥٣ تم بناء مستشفى المنشية في عهد السلطان عبدالمجيد، في عهد أحمد راسم باشا تم بناء مستشفى مدني بطرابلس مجهز ببعض الوسائل الحديثة وأطلق عليه مستشفى الغرباء ويتكون من ثلاثة طوابق كل طابق يحتوي على أربعة عشر غرفة، حجرة للعمليات وصيدلية[١].

رغم هذه الإجراءات الصحية التي قامت بها الدولة العثمانية لمكافحة الأمراض والحد من أنتشارها في ولاية طرابلس، وبسبب أنتشار الأوبئة والأمراض لجأ السكان المحليين إلى الطب الشعبي الذي توارثه الأبناء من الآباء وحفظوا أسراره وفقهوا فيه وهو قائم على التجربة والممارسة معتمدين في ذلك على بعض الأعشاب كالزعتر والروبية والثوم والكافور والحلبة والشيح والشب والبصل وزيت الزيتون والعسل، واللجوء إلى الحجامة والكي بالنار والخرت وهو يشبه إلى حد ما فكرة الإبرة الصينية والحمية وهي امتناع المريض عن تناول الطعام لكي يتعافى ويتم شفاؤه وعرفها السكان من خلال العرب الأوائل الذين يقولون " المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء" ، وهو يعرف بالصوم الطبي الذي ظهر حديثا وتوجد له مدارس طبية في بعض الدول العربية والأوروبية[٢].

النتائج

من خلال هذه الدراسة نستنتج ما يلي:

١- شهدت طرابلس العديد من الاوبئة التي كان لها تأثير السلبي على السكان اقتصاديا واجتماعيا وأدت الى موت الكثير من سكان الولاية.

٢- كما نلاحظ من الدراسة أن أغلب الأوبئة التي انتشرت في الولاية قادمة من خارجها ودخلت إليها عن طريق السفن التجارية أ القوافل التجارية البرية.

٣- ضعف وقلة إمكانيات الولاية صحيا وعدم اهتمام الدولة العثمانية بالسكان المحليين لذلك كانت أكثر الفيات منهم مقارنة بالجنود العثمانيون والقناصل الأوروبيون في الولاية.

٤- بعد تفشي الأوبئة في الولاية وحصدها للكثير من الأرواح اتخذت

[١] - تيسير بن موسى، المجتمع الليبي في العهد العثماني الثاني، (الدار العربية للكتاب- ليبيا –تونس- ١٩٨٨)، ٢٨٠.

[٢] - عبدالحكيم حكمت، الطب اشعبي في ليبيا، ترجمة عبدالكريم أبوشويرب، (مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي- طرابلس- ١٩٨٩)، ٧١.

السلطات الحكامة فيها العديد الإجراءات لمكافحتها والحد من أنتشارها في الولاية، فمن الناحية الاقتصادية نظرا لارتباط موانئ الولاية تجاريا بالعديد من الموانئ الدولية فقد اتخذت السلطان الحاكمة قرار بعدم السماح للسفن بالرسو في موانئ الولاية وشددت الإجراءات عليها حتى أنها قامت بإرجاع العديد منها، اتبعت أيضا سياسية المحاجر الصحية في موانئ ولاية طرابلس الغرب. بالإضافة إلى أنشاء مراكز صحية أو مستشفيات خاصة لعزل المصابين هده الأوبئة وعلاجهم، وفرضت عقوبات مالية على كل شخص يعارض الأوامر الصادرة من الحكومة بخصوص دخول المناطق التي ظهر بها الوباء.

التوصيات

١- تعتبر الأوبئة الفتاكة من الظواهر الضاربة في التاريخ البشري ولها تأثيرها على كافة نواحي الحياة، لذلك لابد من أخذ العبرة من تاريخ الأوبئة في العالم لمعرفة طرق لمكافحتها والقضاء عليها.

٢- أتباع تعاليم لدين الإسلامي والسنة النبوية والالتزام بنظام الحجر الصحي خاصة في الدول التي تشهد أنتشار كبير للوباء ومنع التجمعات والاهتمام بالنظافة لمحاصره الوباء والقضاء عليه في أسرع وقت.

الجوائح الوبائية في ليبيا العثمانية: القرن التاسع عشر إنموذجا

د.

فاتح رجب قدارة[•]

كلية الآداب بالزاوية / جامعة الزاوية / ليبيا

ملخص البحث :

موضوع هذه الدراسة التاريخية تتعلق بالجوائح الوبائية في ليبيا العثمانية في القرن التاسع عشر، الذي عرفت الكثير من الجوائح الوبائية الكارثية المدمرة للبنى الاجتماعية والاقتصادية المحلية في تاريخها الحديث، وامتدت تأثيراتها إلى النظم الإدارية والسياسية للسلطة الحاكمة، والتي تحاول رصد الملامح الرئيسة لبعض الجوائح الوبائية التي ألمت بهذه البلاد منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى نهاية العهد العثماني سنة ١٩١١م، والإجراءات الرسمية والأهلية المتخذة في التعاطي مع الجوائح الوبائية.

Pandemic pandemics in Ottoman Libya: The nineteenth century as a model

The subject of this historical study relates to the epidemiological pandemics in Ottoman Libya in the nineteenth century, which knew many of the catastrophic pandemics that destroy the local social and economic structures in its modern history, and its effects extended to the administrative and political systems of the ruling authority, which tries to monitor the main features of some epidemic pandemics that have affected In these countries since the beginning of the nineteenth century until the end of the Ottoman era in 1911 AD, and the formal and civil procedvres taken in dealing with epidemic pandemics

Dr.Fateh Rajab Gdara

[•] دكتور فاتح رجب قدارة ، الأستاذ المشارك في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الزاوية – ليبيا، ورئيس قسم البحوث والاستشارات العلمية بالكلية.

Azzawia University, Faculty of Arts. Department of History

تمهيد:

إن التأريخ للجوائح الوبائية والأوضاع الصحية في عموميتها من أمراض وأوبئة وممارسات علاجية تقليدية وحديثة يبعث في النفوس الكثير من النفور الطبيعي، والآسى عن ذكريات الآلام والمعاناة البشرية، التي عمد الكثير من المؤرخين إلى غض الطرف عنها أو ذكرها عرضاً في الدراسات التاريخية السائرة، على الرغم من محورية هذا الجوائح الوبائية في تاريخ المجتمعات الإنسانية، لا سيما في مجتمعاتنا العربية والإسلامية في القرن التاسع عشر القرن الذي عرف كل مظاهر التردي السياسي والاجتماعي والاقتصادي في مختلف مناحي الحياة.

ولكن القواعد والفرضيات التي ينطلق منها الباحثون، وهي نقطة البحث في التاريخ الحاضر الممجد لما أنجز، وإهمال التاريخ العبء الذي يؤرخ للفواجع والجوائح والنكبات والمهمشين، ولكن جائحة كورونا المستجد (كوفيد ١٩)، والتي وضعت الإنسانية جمعا أمام حقائق عدة، أبرزها ضعف الاستجابة العالمية والوطنية للظواهر الوبائية، وبعثت الحياة والحيوية في الكتابات التاريخية مجدداً، وتزاحم الكثيرون على ما تجود به المؤرخات عن تاريخ الأوبئة، وطرق مواجهتها التاريخية، لعل فيها ما يميط اللثام عن جائحة الراهن، وهذا ما يشير إليه قسطنطين زريق بأنه **"في عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائماً حافزة إلى التفكير في الماضي وفي المصير... نتساءل عن ماضينا الذي نندفع منه وعن مصيرنا الذي ندفع إليه"**[١]، الاندفاع الذي يتطلب الحث على مراكمة البحوث والدراسات التاريخية الموثقة حول تاريخ الأوبئة وآثارها المجتمعية، بحثاً عن الدروس والعبر التاريخية.

ليبيا وجغرافية الجوائح في القرن التاسع عشر:

تعددت آراء ومواقف منظري فلسفة التاريخ حول تأثيرات المحيط البيئي الجغرافي على سيرورة الحدث التاريخي، وكان الاعتقاد القديم بين مفسري حركة التاريخ يقولون بأن الاختلافات في المناخ يفسر الاختلافات الواضحة في حركة التاريخ، بحيث كان التاريخ في خطوطه العامة هو نتائج الظروف الجغرافية السائدة في مسرح حوادثه[٢]، ولم يعد مقبولاً في الاتجاهات الحديثة لتفسير التاريخ حصر تفسير حوادثه في أسباب معينة

---

[١] قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٥م، ص٢٠-٢١.

[٢] عاصم الدسوقي، البحث في التاريخ، قضايا المنهج والاشكالات، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ص١٢٤.

وعوامل خاصة تتحكم في اتجاهات تلك الحركة، لأن حركة التاريخ تخضع لمجموعة متداخلة ومعقدة من العوامل المؤثرة، ولكن هذا لا ينفي على الإطلاق تأثير كل منها بقدر معين في حركة التاريخ ولكن من دون أن يكون المتحكم المتفرد فيها[٣].

إلا أن الدارس لحوادث ووقائع التاريخ الليبي في مختلف العصور يلمس تأثيرات العامل الجغرافي البيئي في سيرورة الحدث التاريخي لهذه البلاد، حيث نجد أنفسنا أقرب للاتجاه الجغرافي البيئي في تفسير الكثير من الجوائح الطبيعية والاجتماعية العميقة التأثير والتي كانت من عوامل التغيير في الحوادث بملاحظة تعاقب وتطرف الظواهر الجغرافية والمناخية، حيث أن للمناخ تأثيراً مباشراً على الإنسان، وأن الجغرافية الطبيعية هي التي تتحكم في سير الحوادث، وتقبض على ناصية التاريخ[٤] الليبي في الكثير من الحقب والعهود، على الرغم من أن الإنسان يظل هو العنصر الفعال والأساسي في صناعة هذا التاريخ، وهو الفاعل أبداً وليس المفعول حتى في حقب خضوعه واستجابته للعوامل الجغرافية القاهرة.

وتقديمنا لهذا العرض النظري المختزل يرجع إلى محورية العامل الجغرافي البيئي في مبحث الجوائح والأمراض الوبائية في ليبيا العثمانية [*]، وذلك لتلازم ثالوث : **الجفاف، والجوع، والوباء**، وملازمة هذا الثالوث لأغلب جوائح القرن التاسع عشر، وطبيعة التوالي الدوري لهذا الثالوث المأساوي على سكان هذه الولاية العثمانية[٥]، الأمر الذي جعل أحد الجغرافيين الليبيين يصف حالة التذبذب الدوري لمواسم هطول الأمطار وآثارها

---

[٣] جميل موسى النجار، فلسفة التاريخ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١١م، ص١٥٥.

[٤] عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، التاريخ، تاريخه وتفسيره وكتابته ، الدار السودانية للكتب: الخرطوم، ١٩٩٩، ص١٨٣.

[*] على الرغم من أن اسم(ليبيا) من الأسماء الجغرافية التي استخدمت منذ أقدم العهود التاريخية، فإنه لم يأخذ معناه المحدد الذي يعرف به في المجال الدولي المعاصر إلا بعد أن بدأ الاستعمار الإيطالي وتحديداً في يناير١٩٣٤م، وكان من المألوف في العصور الوسطى والحديثة استخدام اسم طرابلس الغرب للدلالة على الجزء الأوسط والغربي والجنوبي من ليبيا الحالية، واسم برقة للدلالة على شرق ليبيا الحالية في معظم أدوار التاريخ الوسيط والحديث، ومع سيطرة العثمانيين على ليبيا سنة ١٥٥١م عم استخدام طرابلس ليشمل هذا الاسم ليبيا كلها في مدلولها الجغرافي السياسي الحديث، وألحق بها الأتراك العثمانيون صفة (الغرب) تمييزاً لها عن طرابلس الشام. ينظر في هذا الشأن: سالم الحجاجي، ليبيا الجديدة، مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، ١٩٨٩م، ص١٣-١٤، وحسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق: محمد الأسطى، وعمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ط ٢،ج١، ٢٠٠١م، ص١٧١-١٧٤.

[٥] كوستانزيو برينا، طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠م، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مصراته، ١٩٨٥م، ص٢٧٣.

الاجتماعية بـ**(الحقيقة الأليمة)**[٦] في التاريخ الليبي عبر العصور، ولاسيما في القرن التاسع عشر.

أم التحديد الزماني لرصد ظاهرة الجوائح الوبائية في ليبيا بالقرن التاسع عشر فإن هذا التحديد يرجع لأسباب عدة لعل من أهمها حالة استقرار البنى الاجتماعية الليبي وتشكل الملامح الأولية للشخصية السياسية والاجتماعية للدولة الليبية منذ نهايات العهد القرمانلي ١٧١١-١٨٣٥م، العهد شبه المستقل عن الدولة العثمانية[٧]، بالإضافة لحدوث عدد من الجوائح الوبائية المؤثرة على مجريات الحدث السياسي والاجتماعي الليبي في نهايات القرن الثامن عشر[٨]، وتكررت ذات الجوائح في نهاية العهد العثماني وبشكل كارثي إيذانا لبداية عهد جديد لهذه البلاد سنة ١٩١١م[٩]، إلى جانب وفرة نسبية في المصادر الوثائقية والراحلية التي وثقت بشيء من التفاصيل لهذه الجوائح الوبائية.

ويتمثل حضور الجغرافية في الحدث الوبائي الليبي من خلال تجمع الكثير من العوامل الطبيعية والجغرافية في ليبيا العثمانية بحيث أوجدت البيئة المناسبة للانتشار وتفشي الأوبئة وتلازمها مع انحباس المطر، ومن ثم الجوع، ومن ثم الأمراض الوبائية، حيث يرتبط الاقتصاد المحلي للسكان بإلانتاج الزراعي الذي يرتبط ارتباطاً كاملاً بكمية الأمطار المتهاطلة على الشريط الساحلي الصالح للزراعة ويستقر فيه أغلب السكان[١٠].

وقد أوضحت ظاهرة التباين المناخي محل اجتهاد والعديد من الآراء العلمية حول هذه الظاهرة بين الجغرافيين، وحاول عدداً من المؤرخين وضع قاعدة لفكر الظاهرة المطرية ووضعوا في هذا الإطار عدد من الآراء حول الظاهرة المطرية في البلاد والليبية، ومنها اجتهاد (نتوني كاكيا) الذي يقول في هذا الشأن: **"لقد لاحظ الأتراك وحسبوا أنه في مدة عشر سنوات: أربع سنوات طيبة المحاصيل وبها تكون المحاصيل ليست كافية فقط بل وزائدة عن احتياجاتهم بكميات و افرة يمكن تصديرها إلى الخارج مع بقاء بعض الاحتياطي، وخلال العشر سنوات تكون**

---

[٦] الهادي مصطفى أبو لقمة، دراسات ليبية، منشورات دار مكتبة الفكر ، طرابلس، ١٩٦٨م، ص٦٢.

[٧] مفتاح السيد الشريف، ليبيا في العهود القديمة، مسيرة الحركة الوطنية الليبية، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣م، ١٣٧ وما بعدها.

[٨] ريتشارد توللي، عشر سنوات في بلاد طرابلس، ترجمة: عمر الديراوي أبوحجلة، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص٢٠٩.

[٩] الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٥٠، ص٣٩.

[١٠] نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١، ٣٣٩.

هنالك سنوات أربع متوسطة الإنتاج، الذي ربما يكون كافياً لحاجة السكان إذا لم يزد على ذلك قليلاً، وفي السنتين الباقيتين يكون المحصول خلالها قليلاً وهكذا[١١]، الأمر الذي يعني استقرار سنتي الجفاف في كل عقد من الزمان.

وقد حاولت السلطات الجبائية العثمانية في الولاية ضبط الوضع المتذبذب لهطول الأمطار وإنتاجية الأراضي الزراعية، ولكن القاعدة لم تكن بدورها ثابتة دائماً، ونتائج سنتي انحباس المطر يتبعها الجوع، ومن ثم الوباء والمرض كما حدث سنوات ١٨٧٠-١٨٧٥م : جفاف، ثم جوع، ومن بعد وباء[١٢] حيث يعم الجفاف والوباء الذي يقضي على الزرع والضرع، بحيث كانت قاعدة (٤-٤-٢) شبه قاعدة الوباء الدورية التي تلازم البيئة الليبية في القرن التاسع عشر[١٣]، وكان العامل البيئي الجغرافي من العوامل الأساسية في توجيه الوقائع والأحداث الليبية ولا سيما في تاريخها الصحي والاجتماعي للمجتمع الليبي.

وعلى الرغم من فرضية الجوائح الوبائية المرتبطة بالدورة المناخية التي تتعرض لها البلاد، إلا أن البيئة الليبية كثيراً ما مدحها الرحالون الأجانب بعدّها في عموميتها بيئة ومناخاً صحياً متميزاً على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط، حيث يصف (البارون تستا Baron Testa)، قنصل هولندا العام في طرابلس الغرب سنة ١٨٥٦م أوضاع طرابلس الغرب الصحية بأنه: "بالنسبة للحالة الصحية في الإيالة بكاملها فهي ممتازة عموماً"[١٤]، ويؤكد ذلك الجغرافي والرحالة الألماني (إفالد بانزه) الذي قام بعدة رحلات استكشافية إلى ليبيا في مطلع القرن العشرين (١٩٠٦-١٩٠٩م) والذي يصف الأوضاع الصحية بقوله: "على وجه الإجمال فإن نسبة الوفيات ليست بالغة، سيما وأن الهواء النقي الذي يهب من البحر والواحة وكذلك طريقة الحياة يجعلان آثار النظافة الضئيلة حيادية إلى حد ما"[١٥]، وهي الوضعية التي أشار إليها

---

[١١] انتوني جوزيف كاكيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني ١٩٣٠-١٩١١ م، ترجمة: يوسف حسن العسلي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩م، ٤٧.

[١٢] عمر علي بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا ١٨٣٥-١٨٨٢، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٧٣.

[١٣] مصطفى حامد رحومة، الحياة الاقتصادية بمدينة طرابلس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، السنة الحادية والعشرون، العدد الثاني: يوليو ١٩٩٩م، ص٥٥.

[١٤] أ. تستا، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) ترجمة: حامد علي وحيدة، مجلة الشهيد، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، أكتوبر ١٩٨٨م، ص٢٤٧.

[١٥] إفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ١٩٩٨م، ص١٦٩.

الرحالة جوستاف ناختيجال الذي وصف ما تتمتع به المناطق الصحراوية من مستوى صحي متميز[١٦].

ولكن هذه الومضات والمشاهدات تحكمها رؤية لها زمانها المحدد ومناطق الرحلة، والاستثناءات الموسمية لفترات تفشي الوباء ومصادر هذا الوباء المحلية والخارجية، وهذا ما جعل إحدى الدراسات المعاصرة تصف الوضع الصحي في ليبيا في أغلب أرجاء الولاية بأنه كان متردياً لتعرضها لأمراض عديدة وأحياناً قاسية[١٧]، وهذه الأقرب لوصف الحالة الصحية الليبية في القرن التاسع عشر.

فولاية طرابلس الغرب العثمانية تتربع على مساحة شاسعة ومترامية الأطراف ومتعددة البيئات الجغرافية ما بين البحر المتوسط شمالاً والصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً[١٨] التعدد الذي حتم وجود عدد من البيئات الليبية التي توطن فيها عدد من الأوبئة والأمراض الوبائية، لا سيما تلك المناطق التي تتوافر على البحيرات الصحراوية قرب واحات فزان، التي تأصل فيها فيروس الملاريا الوبائي "البلاء الراسخ في البلدان الحارة"[١٩]، وكثير ما يشير الرحالون الأجانب إلى محيط مدينة مرزق عاصمة فزان في العهد العثماني التي تحيط بها عدد من البحيرات والسباخ التي كانت موبوءة جداً بالحميات التي تستوطنها بصفة شبه دائمة، وغير صحية بسبب التباين الكبير في درجة حرارة الجو[٢٠].

على الجانب الآخر فإن الموقع الجغرافي للبلاد الليبية وعمق علاقتها بمحيطها القاري والبحري كان مصدراً من مصادر العدوى وتفشي الأمراض الوبائية، فعبرها تمر قوافل التجارة السودانية القادمة من وسط وغرب القارة الإفريقية[٢١]، والتي استمرت في تدفق التجار والحجيج حتى مطلع القرن العشرين[٢٢]، وقوافل الحجيج المغاربة عبر

---

[١٦] جوستاف ناختيجال، الصحراء وبلاد السودان، ترجمة: عبدالقادر مصطفى المحيشي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٧، ص٢٦٩.

[١٧] محمود احمد الديك، ملامح الحالة الصحية في ليبيا خلال العهد العثماني ، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة والعشرون، العدد الثاني، يوليو ٢٠٠١م، ص ٦١-٦٢.

[١٨] عبدالعزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، ط ٣، ١٩٩٥م، ص ٩-١٠.

[١٩] جوستاف ناختيجال، الصحراء وبلاد السودان ، مصدر سابق، ص٢٦٩.

[٢٠] أ. تستا، عرض إحصائي عن طرابلس الغرب، مصدر سابق، ص٢٦١.

[٢١] فاتح رجب قدارة، فزان أثناء العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م أطروحة دكتوراه غير منشورة قدمت إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبدالله ، فاس، ٢٠١١م، ص ٥٥.

[٢٢] هانس فيشر، عبر الصحراء الكبرى، ترجمة: الطيب الزبير الطيب، دار الفرجاني، طرابلس، ٢٠٠٩م، ص١٨.

السواحل الليبية[٢٣] وحركة الموانئ والمرافي الليبية المتصاعدة في القرن التاسع عشر[٢٤]، وهذا التواصل الإنساني والاقتصادي ترتب عليه في العديد من المراحل وصول وانتشار الوباء إلى ليبيا، وكانت هناك بيئات محلية استوطن وتأصل فيها عدد من الأوبئة، فيما وفدت أوبئة أخرى من خلال حركة التواصل الإنساني بين ليبيا ومحيطها الإفريقي والمتوسطي، ويشير أحد الباحثين إلى أن وبائي الكوليرا، والطاعون يمكن وسمهما بأوبئة المدن والموانئ[٢٥]، وهذا يفسر حركة ومدى بؤر انتشار تلك الأوبئة التي عرفتها ليبيا العثمانية في القرن التاسع عشر.

أوبئة ليبيا في القرن التاسع عشر:

لم تعرف ليبيا العثمانية في القرن التاسع عشر أي عملية مسح فعلية للأوضاع الوبائية والصحية، عدا بعض التقارير التي أعدها بعض الأطباء الذين عاشوا في ليبيا، إلى جانب تقارير ومشاهدات الرحالة والقناصل الأجانب، وكان محتوى كتاباتهم تلك في الغالب عبار عن انطباعات تصف الحالة الوبائية لحظة تواجدهم في الولاية، وحتى المسح الذي أجراه الطبيب العثماني **(عبدالحكيم حكمت)**، اقتصر تقريره على رصد الأمراض المنتشرة في الولاية سنة ١٨٨٤م، وطرق علاجها المحلية، ولم يتطرق هذا المسح الطبي للجوائح الوبائية[٢٦]، التي تشهدها الولاية بشكل دوري، حيث شهد القرن الثامن عشر المقدمات الأولى للظاهرة الوبائية الليبية، القرن الذي عرف ازدهاراً لحركة التبادل التجاري مع الموانئ المتوسطية[٢٧] ووسط القارة الإفريقية[٢٨]، وكان أخطر تلك الأوبئة تفشي وباء الطاعون عقب سبع سنوات متتالية من الجفاف، حيث تشير المراسلات التجارية لمدينة البندقية الإيطالية في طرابلس الغرب إلى ان "**الطاعون أصاب طرابلس سنة ١٧٨٥م، وكان وباءً رهيباً انقض على**

---

[٢٣] عبدالهادي التازي، بين المغرب وليبيا، ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، منشورات المؤسسة العامة للثقافة، طرابلس، ٢٠٠٨، ص٤٩-٥٠.

[٢٤] محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة: عبدالسلام أدهم، محمد الأسطى منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، بنغازي، ١٩٧٠م، ص٧٢-٧٣.

[٢٥] عبدالكريم أبوشويرب، الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية القرن التاسع عشر، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة عشرة، العدد الثاني، ١٩٩٩م، ص١٣٠.

[٢٦] عبدالحكيم حكمت، الطب الشعبي في ليبيا، صورة للطب والأطباء في البعض الثاني من القرن التاسع عشر، ترجمة: عبدالكريم أبوشويرة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٨٩م، ص٥ وما يليها.

[٢٧] جان كلود زليتنر، طرابلس ملتقي أوروبا وبلدان وسط إفريقيا ١٥٠٠-١٧٩٥م، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحى، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مصراته، ٢٠٠١، ص٣١٥-٣٤٩.

[٢٨] أبوبكر عثمان القاضي، فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، مرزق، دار المحيط العربي، بيروت، د.ت، ص٦٦.

السكان، وقدر عدد ضحاياه بحوالي ٢٧ ألفا من السكان تقريباً، وهو الوباء الذي تفشي في أوائل يوليو ١٧٨٥م، وأجبر أغلب السفن التجارية على مغادرة الميناء خشية من الوباء[٢٩]، وكان من نتائج هذا الوباء أن أصبحت طرابلس صحراء مقفرة[٣٠].

وفي نهاية القرن الثامن عشر قام الرحالة الألماني (فريدريك هورنمان) بجولات في الواحات الليبية الجنوبية(إقليم فزان)، ووصل إلى مدنية مرزق عاصمة فزان سنة ١٧٩٨م، ولاحظ الانتشار الرهيب لوباء حمى الملاريا في مرزق، والذي كان يشكل خطراً على القادمين الأجانب[٣١]، ولاحظ الرحالة قدرة سكان الواحة على التعايش مع هذا الوباء المتأصل في البيئة المحلية الصحراوية، ويرصد لنا المؤرخ الليبي (حسن الفقيه حسن) في يومياته المعروفة باسم **(الحوليات الليبية)** الكثير من الأوبئة التي تفشت في الولاية منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، والوفيات التي تسبب فيها انتشار الوباء، ولكن لا يُعرف في الغالب بنوع الوباء، بل يكتفي بذكر الاسم المحلي الذي عرف به من قبيل وباء (الساقسلي، وباء بلوقة، وباء القلبولي، وباء الصمهود...) وهكذا[٣٢]، وهذا ما جعلنا نلجأ إلى استخراج أخطر الأوبئة التي ضربت ليبيا في القرن التاسع عشر وحتى نهاية العهد العثماني بحسب الجدول التوضيحي في المرفق رقم ١ في نهاية البحث:

ويلاحظ من خلال هذا الجدول الاقتصار على أوبئة : الطاعون، والكوليرا، والجدري فقط، ولم يشمل هذا الجدول وباء الملاريا أو (حمى المستنقعات) التي استوطنت عدداً من البيئات الليبية التي توجد بها المستنقعات والسبخ المائية الملحية، فكان هذا الوباء ينشط ويتفشى في فصل الصيف، حيث تزداد الإصابات وتشتد وطأتها وتبدأ بالتراجع في أواخر الخريف، ويختفي الوباء تماماً تقريباً في فصل الشتاء[٣٣]، إلى جانب عدد من الأوبئة الحمية المحلية التي عجزت السلطات المحلية

---

[٢٩] جورجو كابوفين، طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر، ترجمة: عبدالسلام باش أمام، منشورات مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٨٨م، ص١٩٤-١٩٥.

[٣٠] رودلفو مكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٠٨-١٠٩.

[٣١] رحلة فريدريك هو رنمان من القاهرة إلى مرزق ١٧٩٧-١٧٩٨ ضمن كتاب: رحلتان عبر ليبيا، ترجمة: دار الفرجاني، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ١٩٧٤م، ص١٤٢.

[٣٢] حسن الفقيه حسن، الحوليات الليبية، تحقيق: محمد الأسطى، عمار جحيدر ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، الجزء الأول، ط٢، ٢٠٠١م، ص٦٤٨-٦٥٤.

[٣٣] جوستاف ناختيجال، الصحراء وبلاد السودان، مصدر سابق، ص٢١٥.

العثمانية عن تحديدها[٣٤]، وهي الحقيقة التي أشار له الرحالة الألماني (إفالد بانزه) في أثناء رحلته إلى ليبيا، حيث يقول في هذا الصدد "ومن الأمراض التي تأخذ طابع الوباء المحلي دورياً نوع من الحمى الشتائية، ويختصر سبب الوفاة من هذه بالإصابة بوباء الحمى، ويفسر بأنه يرجع إلى عدم قدرة الأهالي على حماية أنفسهم من البرد بدرجة كافية"[٣٥].

ويؤكد هذه الحقيقة أحد التقارير القنصلية الذي يشير إلى أن مدينة مرزق وضواحيها موبوءة جداً بالحميات التي تستوطنها بصفة شبه دائمة وغير صحية، بسبب التباين الكبير في درجة حرارة الجو[٣٦]، وهذا ما جعلنا نستبعدها هذه الأوبئة المحلية من هذا الجدول وغيرها من الأمراض الوبائية التي ترد في المراسلات الرسمية العثمانية والمصادر التاريخية من دون التعريف بنوع الوباء.

ويلاحظ في الجدول السابق أن وباء الطاعون كان الأكثر انتشاراً وفتكا بالليبيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان ينتشر في العادة في المدن الساحلية والتجارية الجنوبية بعدّه وباء مدنياً Urban Form، وانتشاره ممتد، فقد أصاب مدينة طرابلس ومحيطها سنة ١٨٣٧م، واستمر بحصد الأرواح في السنوات التالية[٣٧]، والذي عانت منه المدن الساحلية الليبية في القرن التاسع عشر "**وكان هذا المرض يأتي في الغالب من مصر، حيث توجد بؤرة متوطنة في وادي النيل انتشر منها الطاعون بصورة وبائية**"[٣٨].

وأقدم الإشارات لانتشار وباء الطاعون في ليبيا كان في مطلع القرن التاسع عشر، حيث تشير المصادر إلى اكتساح هذا الوباء لمدينة درنة ومحيطها في شرق الولاية سنة ١٨١٦م، ومن الواضح أنه حصد أعداد هائلة من السكان، بحيث تشير بعض الروايات إلى تقلص عدد سكانها من (٥٠٠٠) نسمة إلى (٥٠٠) نسمة فقط بسبب الوباء[٣٩]، قبل أن

---

[٣٤] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، ملف الصحة، رسالة من مفتش الصحة إلى الوالي بشأن مؤشرات انتشار وباء الحمى في قضاء غريان بتاريخ ٢٢ محرم ١٣١٢هـ (١٣ تموز ١٣١ مالية) الموافق ٢٦-٧-١٨٩٤م.

[٣٥] إفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين في وصف الجغرافي الألماني إفالد بانزه، ترجمة: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس، ١٩٩٨م، ص١٦٩.

[٣٦] أ. تستا، عرض إحصائي عن طريق القرب، مصدر سابق، ص٢٥١.

[٣٧] عبدالكريم أبوشويرب، الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية، مرجع سابق، ص١٣٣.

[٣٨] هلموت كانتر، ليبيا دراسة في الجغرافية الطبية، ترجمة: عبدالقادر مصطفى المحيشي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٢، ص١٦٠.

[٣٩] شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة: محمد عبدالكريم الوافي،

ينتشر مجددا في مدينة طرابلس بشكل وبائي سنة ١٨٣٧م، ومن الواضح أن جائحة هذا الوباء ترافقت مع الجفاف، والجوع، الأمر الذي جعل قنصل نابولي في طرابلس يكتب : **"الظروف الصحية غاية في السوء، إن انتشار واستمرار الطاعون قد سبب في خوفي وهلعي على أسرتي، أريد الإذن من سعادة الملك السفر المؤقت إلى مالطا**[٤٠].

وأخذت مدينة طرابلس تعاني من وطأة هذه الوباء وأيضاً من الحجر الصحي السيء الذي وضعه الوالي العثماني طاهر باشا، بحيث كانت نتائجه على السكان وخيمة، وتشير المعطيات الأقرب إلى الدقة أنه قد هلك في ضواحي العاصمة (الزاوية، وغريان) وحتى في فزان ما يقارب من ٨٠ ألف إنسان وأضحت البلاد ضحية للطاعون، فيما كان الوالي منشغلاً بالعمل على ضرورة تطويع الأهالي عبر سياسة البطش القاسي[٤١]، وقد زاد من قسوة الوباء أن هذه المرحلة كانت تشهد أعنف المواجهات بين السلطات العثمانية والثائرين عليها في ليبيا[٤٢]، وعلى الرغم من عدم توفر إحصائيات دقيقة عن حجم وأعداد الضحايا فإن أحد المصادر تشير إلى أنه في عامي ١٨٣٦-١٨٣٧م كان يموت من أهالي مدينة طرابلس وضواحيها في كل يوم ما بين ٣٥ إلى ٤٠ شخصاً، وحدث نزوح كبير من سكان طرابلس، الذين هبطت أعدادهم من سبعة آلاف إلى أربعة آلاف نسمة[٤٣]، وتظل هذه التقديرات مزاجية تحمل دلالات عن كارثية الوباء.

ومن الواضح أن مسببات وباء الطاعون قد تأصلت في بعض المدن الليبية لسنوات تالية حيث سجلت حالات وفاء بالطاعون في الفترة الممتدة حتى سنة ١٨٤١م، كما تشير إلى ذلك سجلات المحاكم الشرعية[٤٤]، وقد عاود هذا الوباء الانتشار مجدداً في سنة ١٨٥٨م، والذي أصاب مدينتي طرابلس الغرب وبنغازي، ولا تشير المصادر إلى

منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط٣، ١٩٩٤، ص١٤٧.

[٤٠] المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق الأجنبية ملفات القناصل، ملف وثائق نابولي، رسالة بتاريخ ٢٥ مايو ١٨٣٧م.

[٤١] نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م، ص٢٧١.

[٤٢] محمد امحمد الطوير، الحركات الاستقلالية في الوطن العربي ضد حكم العثمانيين وأسبابها، ضمن أعمال المؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية، طرابلس، ١٩٨٢م، تحرير : عقيل محمد البربار، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ١٩٨٨م، الجزء الثاني، ص٣٥١-٣٥٥.

[٤٣] خليفة التليسي، حكاية مدينة، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ط٣، ١٩٩٧م، ص١٥٣.

[٤٤] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، سجلات المحاكم الشرعية، سجل رقم ٣٢ قضية بتاريخ ١٨٤١م، ص٨٠.

أي معلومات عن هذه الجائحة، ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن الطاعون اختفى من الحواضر الليبية، فيما بين سنوات ١٨٦٣ إلى ١٩١٢م، على الرغم من كثرة الاتصال بموانئ البحر المتوسط والإسكندرية بحراً وبراً[٤٥].

أما الوباء الأكثر فتكاً وحضوراً في ليبيا في القرن التاسع عشر فهو وباء (الكوليرا Cholera)، ولعل ظهوره بشكل متقطع جعل مسألة تحديد فترات ظهوره غير ممكنة، إلى جانب أن خطورة هذا الوباء جعلت من الصعب بمكان السيطرة عليه، حيث أصابت الكوليرا الولاية بشكل وبائي خلالي سنتي ١٨٤٨-١٨٥٠، فقدت مدينة طرابلس خلال ثلاثة أشهر حوالي (٨٠٠) ثمانمئة شخص بوباء الكوليرا، وانخفض عدد السكان بشكل كبير[٤٦]، حيث هاجر الكثير من السكان إلى خارج المدينة، أو إلى مالطا، وتونس، والجزائر، ومصر بحثاً عن النجاة، ويشير البعض إلى أن سكان المدينة تقلص إلى خمسة آلاف نسمة فقط خلال فترة تفشي جائحة الكوليرا[٤٧].

ولكن الملفت للنظر في هذا السياق ما يشير إليه أحد التقارير التي رفعها والي طرابلس الغرب في ذات المرحلة، والذي يشير إلى انتشار وباء الجدري وتفشيه في الولاية ويحصد أعداد متزايدة من السكان، وجاء في تقرير الوالي أن وباء الجدري انتشر من أول محرم سنة ١٢٦٧هـ وحتى وقت إعداد هذا التقرير في آخر جمادي الأول ١٢٦٨هـ (نوفمبر ١٨٥٠ إلى فبراير ١٨٥٢م) وقد خلف الوباء في هذه الفترة في حدود (١١٠) مئة وعشرة من الضحايا في مدينة طرابلس وضواحيها[٤٨]، وهذا يضعنا أم احتمالات عدة، أبرزها التداخل بين الوبائين(الجدري والكوليرا)، أو ان السلطة العثمانية الصحية عاجزة عن تشخيص نوعية الوباء، وهذا ما حدث مع العديد من الجوائح الوبائية التي تفشت في القرن التاسع عشر، وجعلت المؤرخين يجتهدون في محاولة تشخيص نوع الوباء[٤٩].

وعلى الرغم من تعدد مرات ظهور حالات الإصابة بوباء الكوليرا في عدد من مدن الولاية الساحلية والحدودية فإنها كانت حالات فردية وأمكن عزلها، ولم تأخذ الطابع الوبائي الشامل، لاسيما في سنوات ١٨٧٤م، وسنة ١٨٩٢م، وكان أخطرها من الناحية الوبائية في سنة ١٩١٠-١٩١١م، والتي أهلكت

---

[٤٥] عبدالكريم أبوشويرب، الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية، مرجع سابق، ص١٣٤.

[٤٦] شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، مصدر سابق، ص٢٧١.

[٤٧] بروشين، تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص٢٨٦.

[٤٨] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، ملف الصحة، تقرير والي الولاية عن تفشي وباء الجدري، مؤرخة في آخر جمادي الأول ١٢٦٨هـ (فبراير ١٨٥٢م).

[٤٩] انتوني جوزيف كاكيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني، مصدر سابق، ص٤٧.

كثير من سكان الولاية[٥٠]، حيث يلاحظ التزامن الوثيق الصلة بين سنوات الجفاف والقحط وانتشار المجاعة مع تفشي الكوليرا، خاصة وباء عام ١٩١٠م الذي تفشى في الولاية على الرغم من الإجراءات الصحية في المنافذ البحرية والبرية، ويشير تقرير اللجنة الطبية العثمانية في طرابلس إلى أن انتشار الكوليرا في طرابلس جاء عن طريق أسرة يهودية كانت في نابولي الإيطالية في زيارة، ولما رجعت نقلت الوباء للمدينة وانتشر في حارة اليهود بشكل وبائي[٥١].

وعلى الرغم من محدودية تفشي وباء الكوليرا في ليبيا في القرن التاسع عشر، إلا أن البلاد عاشت على وقع الخشية من انتشاره، حيث تعدد المراسلات الإدارية بين السلطة المركزية في استانبول، وسلطة الولاية وتشكيلاتها الإدارية المحلية المحذرة من الكوليرا عقب كل أخبار عن تفشي هذا الوباء بمناطق على علاقة بالولاية، وكثيرا ما اختلط الأمر على بعض الباحثين بين انتشار الوباء والتحذير من انتشاره[٥٢]، ومن ذلك تحذير سلطات الولاية ومحاجرها الصحية من انتشار الكوليرا بشكل وبائي في مدينتي عدن، ومكة المكرمة في سبتمبر ١٨٨١م، وتحث السلطات الصحية في الولاية والبلديات بضرورة اتخاذ الإجراءات الاحترازية والاهتمام بالنظافة للوقاية من هذا الوباء[٥٣]، ويتكرر التحذير في سنة ١٨٩٦م حيث حذرت المحاجر الصحية في ولاية طرابلس الغرب من ظهور وباء الكوليرا في مصر وانتشار الوباء بين الحجيج المتوجهين إلى الأراضي المقدسة عبر قناة السويس[٥٤].

وإذا كان وباءا الكوليرا والطاعون من الأوبئة الأكثر قسوة من حيث أعداد الضحايا وآثارهما الاجتماعية في ليبيا العثمانية، فإن مرض الملاريا Malaria كان من أكثر الأمراض التي تأصلت في بعض البيئات الليبية وأخذت طابعاً وبائياً في بعض سنوات القرن التاسع عشر، ولا تقل خطورة الملاريا عن الطاعون والكوليرا، حيث توطنت الملاريا في البرك والمستنقعات في الواحات التي تكثر بها العيون

---

[٥٠] هلموت كانتر، ليبيا دراسة في الجغرافية الطبية، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٥١] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، ملف وثائق الصحة، وثيقة غير مصنعة، تقرير رئيس اللجنة الصحية حول أسباب انتشار وباء الكوليرا بتاريخ ٧ مارث ٣٢٧ مالية (٢٠ مارس ١٩١١م).

[٥٢] سالم البشير الصغير السلوقي، ظاهرة الجفاف والمجاعة في ولاية فزان في العهد العثماني الثاني، رسالة ماجستير قدمت إلى معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، ص٦٨.

[٥٣] دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملف الصحة، تحذير وباء الكوليرا بتاريخ ١٨ أيلول ١٢٩٧ مالية (٣٠ سبتمبر ١٨٨١م).

[٥٤] دار المحفوظات التاريخية طرابلس، ملف الصحة، وثيقة رقم ١٠ تحذير من استانبوول من مخاطر تفشي وباء الكوليرا بتاريخ ٩ رمضان ١٣١٣ هـ الموافق ٢٣ فبراير ١٨٩٦م.

المائية في الواحات الفزانية الجنوبية[٥٥]، الأمر الذي جعل هذا المجال منفراً للإدارة العثمانية الحاكمة، حيث زادت البيئة المناخية المحيطة بمدينة مرزق من مشاكل جهازها الإداري.

فموضع مدينة مرزق كان محاطاً بمجموعة من المستنقعات، والبرك المائية التي كانت سبباً مباشراً لانتشار الأمراض المعدية التي فتكت بالكثير من الموظفين العثمانيين القادمين من خارج الولاية على الرغم من محاولة المتصرف والإدارة سنة١٨٦٨م تسخير عدد من الأهالي، والدواب لردم ونقل التراب إلى تلك البرك والمستنقعات[٥٦]، غير أن الوقائع لا تشير إلى أن هذا القرار قد أنجز، وتنقل لنا المصادر الراحلية أن المستنقعات المائية بقيت محيطة بعاصمة اللواء تهدد حياة الوافدين على المدينة، وهو ما جعل الرحالة الألماني غيرهارد رولفس يصف الوضع بقوله: " **تقع مرزق في حفرة ليست عميقة، ولكن أرضها ذات طبيعة مستنقعية؛ ولذلك فإن عاصمة فزان ذات مناخ غير صحي وخطير على الغرباء**"[٥٧]، ويقول محمود ناجي في هذا السياق :" **أن المستنقعات الكائنة في بعض الجهات وفي فزان تجعل من الهواء وخيماً وضاراً بالصحة**"[٥٨].

وتوحي عدد من المشاهدات الراحلية بحالة من التعايش بين أهالي الواحات الفزانية وحمى الملاريا، واقتصار خطورتها على القادمين الجدد لهذا الإقليم[٥٩]، ولكن هذا المرض ظل "البلاء الراسخ في البلدان الحارق"[٦٠].

إلى جانب ذلك شهدت البلاد الليبية عدداً كبيراً من الجوائح الوبائية المحلية غير المشخصة والتي تدور في دائرة الحميات الموسمية التي عجزت السلطات العثمانية عن تشخصها ومن ثم معالجتها، واكتفت بإجراءات الحجر الصحي المناطقي ذي الطبيعة الأمنية (الكردون)، لإحاطة وتسييج مناطق تفشي المرض أو الوباء، لاسيما في المناطق البعيدة عن مركز الولاية ولعل من أبرزها وباء منطقة المرج شرق الولاية في سنة

---

[٥٥] عبدالقادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة: محمد الأسطى ، دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، ١٩٧٤م، ص٥٢.

٥٦) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، وثيقة غير مصنفة، قرار مجلس إدارة لواء فزان بردم المستنقعات المائية المحيطة بمرزق بتاريخ ٥ مارس ١٢٨٤ مالية(١٨ مارس١٨٦٨م).

[٥٧] غيرهارد رولفس، رحلة عبر إفريقيا، مشاهدات الرحالة الألماني في ليبيا وبرنو وخليج غينيا ١٨٦٥-١٨٦٧م، ترجمة: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٩٦م، ص ٢٧٧.

[٥٨] محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، مصدر سابق، ص٣٠.

[٥٩] رحلة فريدريك هور نمان من القاهرة إلى مرزق، مصدر سابق، ص١٤٢.

[٦٠] جوستاف ناختيجال، الصحراء بلاد والسودان، مصدر سابق، ص٢٦٩.

١٢٩١-١٢٩٢هـ (١٨٧٤-١٨٧٥م) والذي كان له أصداء كبيرة في الوثائق العثمانية من دون تحديد دقيق لهذا الوباء، وتشير الوثائق الرسمية العثمانية إلى انتشار نوع من المرض الوبائي في مدينة المرج ومحيطها أثناء موسم حصاد ١٨٧٤م، وكان عبارة عن قروح تؤدي إلى الوفاة، وسرى انتشاره بين بعض قبائل المنطقة[٦١]، لذلك أرسلت سلطات بنغازي طبيباً لتشخيص الحالة الصحية في المرج، ولكن الطبيب أصيب بالمرض وتوفى بدوره، وانتشر خبر هذا الوباء المجهول، الأمر الذي جعل السلطات تقيم سياج يحيط بالمناطق الموبوءة **(كردون)** أمني واقفالها أمنيا وسط اخبار عن ظهور حالات مشابهة لأعراض هذا الوباء في فزان[٦٢]، إلى جانب رفض الأهالي لعملية الحجر والتضييق وخطر الانتقال بين المدن وأقاليم الولاية.

وقد أخذ هذا الوباء طابعاً إقليمياً، فعلى الرغم من إصدار نظارة الصحة العثمانية (شهادة خلو من الأمراض الوبائية)، ولكن السفن التجارية قاطعة ميناء بنغازي والموانئ الليبية، وعقد المجلس الصحي بمدينة الإسكندرية اجتماعاً اتخذ فيه قرارا بإلزام ولاية طرابلس الغرب بسرعة التبليغ على الأمراض الوبائية والمعدية، وإرسال نسخ من هذه التبليغات إلى خديوية مصر ، إلى جانب الإجراءات المتخذة ضد السفن والمسافرين الليبيين في كريت، ومالطا، وتونس، والإسكندرية، ومنها منع نزول ركاب السفن القادمة من الموانئ الليبية[٦٣]،وهي الإجراءات التي كان لها آثارها الاقتصادية السلبية على البلاد الليبية وسط شبه عجز السلطات الصحية العثمانية في الولاية.

السلطة والأهالي في مواجهة الجوائح الوبائية:

قد يكون البحث في الخطوات المتخذة من قبل السلطة والأهالي في مواجهة الجوائح الوبائية أمراً محمولاً على كثير من المبالغة أحياناً، بالنظر إلى تخلف الوسائل والآليات المتاحة لهذه السلطات، وعجزها وعجز الإنسانية جمعا حتى نهاية القرن التاسع عشر عن إيجاد اللقاحات والأدوية الناجعة لأغلب تلك الأوبئة، فيما كان الأهالي والطب الشعبي المحلي عاجزين بدورهم على توظيف تجاربهم العلاجية وخبراتهم المتوارثة مع الأمراض السائرة في مواجهة الجوائح الوبائية الفتاكة، لاسيما مع الطاعون، والكوليرا، والجدري،

[٦١] وثائق تاريخية: الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥-١٩١٩، ترجمة: عبدالكريم أبوشويرب، منشورات الجمعية الليبية لتاريخ العلوم الطبية، طرابلس، ٢٠٠٧م، وثيقة رقم ٥٥ ، ص٥٤.

[٦٢] وثائق تاريخية، المصدر السابق نفسه، وثيقة رقم ٣٦ ، ص٣٨.

[٦٣] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، تقرير قائمقام بنغازي حول الوباء في شعبان ١٢٩١هـ (سبتمبر ١٨٧٤).

حتى نهاية القرن التاسع عشر، ونحن هنا نحاول الابتعاد والتفرق بين الطب الشعبي الليبي الذي يستخدم في علاج العديد من الأمراض، وبين كيفية مواجهة الأمراض الوبائية[٦٤].

يرجع هذا التفريق إلى ما نجده من الخلط في التأريخ للمؤسسات الصحية العثمانية الرسمية التي عرفت في ليبيا تطورات متلاحقة في سياق حركة التنظيمات والتحديثات العثمانية الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتبني السلطات العثمانية منهج الطب والأدوية العلاجية الأوروبية، وأسست عدداً من المستشفيات والوحدات الصحية في مركز الولاية والأقضية والنواحي الإدارية[٦٥]، وعلى الرغم من ثراء المنجزات الصحية في ليبيا، إلا أنه ظلت عاجزة عن مواجهة الجوائح الوبائية، وإن تقدمت عمليات محاصرة الأوبئة وطرق تشخيصها والتبليغ عنها لأجل اتخاذ الإجراءات الاحترازية، وعمليات المسح المحدودة للمناطق الموبوءة.

يُعد الحجر الصحي (**الكرنتينة Quarantene**) الإجراء التاريخي الحاضر دائماً في مواجهة الأوبئة، والذي يهدف من ورائه إلى منع تسرب الوباء إلى البلاد، في حال انتشاره في المناطق التي لها علاقات وتواصل بشري وتجاري معها، أو إقامة المحاجر الصحية والسياجات الأمنية (الكردونات)، لتطويق بؤر الوباء المحلية حال تفشي الوباء، حيث وجدت المحاجر الصحية في ليبيا منذ نهاية القرن الثامنة عشر في الموانئ الشاطئية، والمحاجر الحدودية البرية مع دول الجوار، ويقضي نظام عمل هذه المحاجر في زمن الجوائح الوبائية بإلزام القادمين للموانئ الليبية بالحجز في المحاجر فترة الحجر التي كانت تتجاوز الأربعين يوماً قبل الدخول للمدن، ومن أشهر هذه المحاجر محجر ميناء طرابلس، ومحجر ميناء بنغازي، وقد ألزم بالحجر الصحي حتى قيادات الدولة القرمانلية من رؤساء البحر وجنودهم والقناصل الأجانب[٦٦].

وقد طال عمل المحجر الصحي في مطلع القرن التاسع عشر السفن التجارية والحربية وسفن الحجيج القادمة إلى الموانئ الليبية، خاصة تلك السفن القادمة من المناطق الموبوءة التي انتشر فيها الوباء، حيث وصلت

[٦٤] سالم البشير الصغير السلوقي، ظاهرة الجفاف والمجاعة في ولاية فزان، مرجع سابق، ص١٢٩.

[٦٥] عبدالكريم أبوشويرب، مستشفى الغرباء بباب البحر، مجلة تراث الشعب، اللجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة، طرابلس، السنة السابعة عشرة، العدد الثاني، ١٩٩٧م، ٣٤.

[٦٦] حسن الفقيه حسن ، اليوميات الليبية، مصدر سابق، ج١، ص٣٣١-٣٣٢.

إلى طرابلس سفينة موبوءة قادمة من الإسكندرية في سبتمبر ١٨٣١م، وفيها خبر وفاة الكثير من الحجاج وأن المرض ينتشر في الإسكندرية ومصر ونواحيها، لذلك تقرر طرد المركب ومنعها من الدخول إلى الميناء[٦٧].

لذلك حاول العثمانيون عقب عودتهم لإدارة ولاية طرابلس الغرب مباشرة تنظيم عمليات الحجر الصحي في الموانئ الرئيسية، وأوكلت للمحاجر مهمة "**تفتيش السفن في الموانئ والحجر الصحي على الأفراد والبضاعة عند اللزوم**"[٦٨]، واقتضت التعليمات الرسمية إنشاء المزيد من المحاجر على الموانئ الصغيرة على الساحل الليبي، وتعيين أطباء وموظفين ومساعدين وعنابر للحجر الصحي، ومخازن للأدوية، ومكان للاستجواب والتفتيش تحت رئاسة ناظر المحجر[٦٩]، واتسعت مهام الحجر الصحي لتشمل مهمة منح الأذن بالدفن للوفيات بالمدينة والمزمع (دفنهم خارج أسوارها)[٧٠]،

ولكن من المرجح أن نشاط المحاجر الصحية مرتبط وإلى حد كبير بظهور وتفشي الأوبئة، أي إنها مؤقتة لاسيما في الموانئ الصغيرة البعيدة عن مركز الولاية ومحدودة النشاط، حيث صدر قرار من سلطات الولاية بإلغاء المحجر الصحي المقام في ميناء (بومباً) بمدينة طبرق شرق الولاية نظراً لعدم توفر المياه في المحجر ، ومحدودية النشاط التجاري لهذا الميناء، لذلك سحب مأمور المحجر في صفر ١٢٨٧هـ (يونيو ١٨٧٠)[٧١].

أما المحاجر البرية فهي متعددة وذات طبيعة آنية، توضع في النقاط الحدودية البرية أو ما بين أقاليم الولاية عقب انتشار الوباء، ومن ذلك المحجر الصحي الذي أقامته سلطات الولاية العثمانية في مدينة سرت، وآخر في موضع (الآثار المجيدية) في أبي نجيم، وثالث في منطقة مزدة بالجبل الغربي عقب تفشي الوباء في بنغازي سنة ١٢٧٥هـ (١٨٥٨م)، بحيث تمنع هذه المحاجر من انتقال الوباء إلى طرابلس وفزان بعد أن وصلت الأخبار بظهور حالات مشابهة الآثار

---

[٦٧] حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، المصدر السابق نفسه، ج١، ص٥٥١.

[٦٨] وثائق تاريخية: الأوضاع الصحية في ليبيا، مصدر سابق وثيقة رقم ٤ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٩هـ (٢٢ فبراير ١٨٤٣م)، ص٦.

[٦٩] وثائق تاريخية، الأوضاع الصحية في ليبيا، مصدر سابق، وثيقة رقم ٦ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٥٩هـ (فبراير ١٨٤٣م)، ص٩.

[٧٠] دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملف الصحة، وثيقة رقم ٨٩ نيسان منح الأذن بن المحجر الصحي الدفن حيث بمدينة طرابلس بتاريخ ٣٠ صفر ١٣١٠ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٢م)

[٧١] دار المحفوظات التاريخية طرابلس، ملف الصحة، وثيقة غير مصنفة، قرار الولاية بإلغاء محجر ميناء بومبا بطبرق بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٨٧ هـ (١٠ يونيو ١٨٧٠م).

هذا الوباء في إقليم فزان[٧٢]، وهو وباء الطاعون الذي عرفته بنغازي في سنوات عدة منها سنة ١٨٥٨ م وعاود الكرة في سنة ١٨٧٤م[٧٣]، وكانت له آثاره السلبية على السكان نظرا إلى تعدد المحاجر والكردونات الصحية والأمنية التي تقطع أوصال الولاية، ونلمس ذلك من مقررات مجلس إدارة متصرفية فزان في التعاطي مع أخبار وباء الطاعون.

فقد عقد مجلس متصرفية فزان جلسة لتدارس وسائل وضع الحجر الصحي لمنع انتشار هذا الوباء، والمحافظة على" **الصحة والسلامة، و اتخاذ الاحتياطات في ذلك من الأمور الواجبة صار التذاكر في قرار مجلس إدارة الولاية، فبات القرار بوضع كردون(حجر صحي) بقضاء اجدابيا، ثم سرت ثم أبي نجيم، وكل كردون منهم مأذون برد ومنع كل آت من نحو بنغازي: أدم، وحيوانات، وأشياء، ومن لم يمتثل يكون دفعه بالسلاح، واستكمالا لهذه الخطوات الوقائية، قرر مجلس إدارة فزان وضع كردون (وحدة حجر صحي) في سوكنة وهون، وودان، وآخر في زلة**"[٧٤]، وهذه المناطق هي التي يمر من خلالها الطريق الرابط بين متصرفتي فزان وبنغازي.

وقد عولت السلطات العثمانية كثيراً على الإجراءات الاحترازية لمنع انتشار الأوبئة في الولاية من خلال رصد واقتفاء أخبار تفشي الأوبئة في المواني المتوسطية والشمال الإفريقي، التي ترتبط معه ليبيا بعلاقات تجارية وإنسانية قوية، ومن ذلك البرقية التي أرسلت إلى متصرفية الجبل الغربي وقائمقام نالوت، ومديرية زوارة في غرب الولاية على الحدود التونسية، في أكتوبر ١٨٩٣ م تحذر السلطات المحلية في هذه المناطق من ظهور وباء الكوليرا في مدينة سوسة التونسية، وتطلب منهم قفل الحدود وعدم السماح لأي شخص قادم من تونس بالدخول للولاية ومن يذهب إلى تونس لا يسمح له بدخول ليبيا إلا بعد أن يزول الوباء عنها[٧٥].

كما أولت المحاجر الصحية اهتماماً كبيراً لمراكب الحجيج المغاربة، وركب الحجيج

---

[٧٢] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، وثيقة غير مصنفة، تعليمات ولائية بإنشاء عدد من المحاجر الصحية بين أقاليم الولاية بتاريخ ٢٩ جمادي الأول ١٢٧٥هـ (٥ أكتوبر ١٨٥٨م).

[٧٣] الهادي أبو لقمة، دراسات ليبية، مرجع سابق، ص٦٤.

[٧٤] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، ملفات الأوبئة والأمراض، وثيقة رقم ١٤٦، شأن الخطوات الوقائية التي اتخذها مجلس إدارة فزان لمنع انتشار الوباء، بتاريخ ٢٥ رجب١٢٩١ هـ، ٢٥ أغشتوش ١٢٩٠ مالية(٧سبتمبر١٨٧٤م).

[٧٥] وثائق تاريخية، الأوضاع الصحية في ليبيا، مصدر سابق، وثيقة رقم ٩٣ نيسان انتشار الكوليرا في سوسة التونسية بتاريخ ٨ تشرين الأول ١٣٠٩ مالية ٢١ اكتوبر ١٨٩٣م، ص٨٨.

الليبي بعدها من مصادر انتقال العدوة الوبائية، فقد أبلغت هذه المحاجر بظهور الكوليرا بمدينة عدن، وانتشارها بقوة في مكة المكرمة والحجاز في سبتمبر ١٨٨١م، وتطلب من المحاجر والبلديات الليبية اتخاذ التدابير الاحترازية والاهتمام بالنظافة للوقاية من انتشار لوباء في الولاية[٧٦] وتأخذ هذه التعليمات شكلاً تفصيلياً لكيفية تعامل المحاجر الصحية مع الحجاج وامتعتهم عقب انتشار الوباء بينهم سنة ١٨٩٦م، حيث أمرت السلطات المحاجر بتطهير ملابس الحجاج وحاجياتهم، وتبخيرها باستخدام الة (أبي – تو)، ووقف السفن القادمة من الجزائر وفاس لمدة خمسة أيام قبل مرورها، وفي حالة ضبط أي حالة مصابة بالوباء يتم حجز كامل السفينة في المحاجر الصحية[٧٧]، وغيرها من الحالات التي اتخذت فيها الإجراء الاحترازية لمنع تفشي الوباء في ليبيا، وترجح أنها كانت مجدية إلى حد كبير في حماية الولاية من كثير من الأوبئة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وأخيراً نشير إلى أن عمل المحاجر الصحية لم يكن دائماً مقبولاً من الأهالي، حيث قوبلت إجراءات الحجر المؤقتة وإقامة الكردونات الأمنية على المناطق في حال تفشي الوباء بالرفض، نظرا لأنها ضيقت على الأهالي مصادر رزقهم، وعطلت حركة التجارة الداخلية والخارجية، لذلك جوبهت عمليات الحجر بالرفض والاحتجاج لدى السلطات العثمانية[٧٨]، بالإضافة إلى التضييق على السفن والتجار الليبيين في الموانئ التجارية المتوسطية.

وعلى الجانب الصحي الآخر فإن نهاية القرن التاسع عشر عرفت إنتاج عدد من الأمصال والتطعيمات التحصينية ضد بعض الأوبئة، ولعل من أبرز التطعيم ضد وباء الجدري، وأدخلت هذا التطعيم إلى ليبيا تحت إشراف الصيدلية العثمانية (الخستاخانة الشاهانية) التي باشرت في توزيع التطعيمات على المناطق الليبية في شوال ١٨٦٥م للتحصين ضد وباء الجدري[٧٩]، وهي العملية التي تمت بموجب نظام التلقيح العثماني المعروف باسم (نظام نامة للتلقيح الهمايوني)،

[٧٦] دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، ملف الصحة، وثيقة غير مصنفة حول ظهور الكوليرا في عدم ومكة المكرمة بتاريخ ١٣ أيلول ١٢٩٧ مالية (٣٠ سبتمبر ١٨٨١م).

[٧٧] وثائق تاريخية، الأوضاع الصحية في ليبيا، مصدر سابق، وثيقة رقم ٩٨ بتاريخ ٩ رمضان ١٣١٣هـ (٢٣ فبراير ١٨٩٦م)،ص٩٣.

[٧٨] نفس المصدر السابق، وثيقة رقم ٣٢ بتاريخ ١٦ محرم ١٢٧٥هـ (٢٧ أغسطس ١٨٥٨م) ، ص٣٤.

[٧٩] دار المحفوظات التاريخية، ملف الصحة، وثيقة غير مصنفة، إرسال العلق اللازم إلى الخستاخنة الشاهانية في الزاوية بتاريخ ١٦ شوال ١٢٨١هـ (١٥ فبراير ١٨٦٥م).

وصدرت الأوامر بضرورة تلقيح الأهالي والأطفال ضد وباء الجدري الذي يوصف بـ(العلة المدهشة) في (فبراير ١٨٨٩م)[٨٠]، ولكن هذه المحاولة لم تلق استجابة من الأهالي.

حيث اتهمت التقارير الصحية والإدارية العثمانية الأهالي الليبيين بكتمان الإصابة بالوباء، وإخفاء انتشاره خشية حصار الكردون الصحي، وإخفاء الأطفال لمنع حصولهم على التلقيح[٨١]، ولعل الأمر يرجع برمته إلى انعدام الثقة التقليدي بين السلطات الحاكمة والأهالي المحلية الأمر الذي ترتب عليه فشل محاولة التلقيح الوحيدة ضد وباء الجدري التي عرفتها ليبيا في القرن التاسع عشر.

الخاتمة:

إن الوقائع الوبائية التي أصابت ليبيا والليبيين في القرن التاسع عشر هي حلقة من حلقات التاريخ الوبائي الذي عرفته هذه البلاد في تتابع شبه دوري منذ أقدم العصور وحتى منتصف القرن العشرين بذات الأسباب والنتائج الكارثية وصورها المأسوية على البنى الاجتماعية الليبية، وسط عجز شبه دائم للسلط الحاكمة في الاستجابة لهذه الجوائح...

إن التأريخ للجوائح والأمراض الوبائية في ليبيا يجعل الباحث أقرب لاعتماد الاتجاه الجغرافي في تفسير هذه الوقائع الوبائية، وهو الاتجاه القائل بضرورة تفسير التاريخ والبحث في مصادر التغير في الحوادث التاريخية عن طريق ملاحظة تعاقب الأحوال الجغرافية والمناخية، الاتجاه الذي يضعنا امام حقيقة تلازم ثالوث الجفاف والجوع والوباء في تاريخ الجوائح الوبائية بعدها من الظواهر الطبيعية التي لازمت البلاد الليبية، وكان لهذا التلازم الكارثي تأثيراته المجتمعية السلبية على مختلف مناحي الحياة في هذه البلاد المترامية الأطراف، ويمكن إيجاز واختزال أهم النتائج التي افضت إليها الدراسة في النقط الآتية:

- **إن الموقع المكاني للبلاد الليبية المترامية الأطراف والمتعددة البيئات الجغرافية بين المتوسط والصحراء الكبرى الأفريقية شمالا وجنوبا، جعل من هذه البلاد حلقة وصل ومن المعابر التاريخية التي تعبرها قوافل التجارة والحجيج والمترحلين المغاربة والأفارقة نحو المشرق، والأراضي المقدسة في الحجاز، وهي التحركات الاجتماعية السنوية الجماعية والفردية، التي كانت مصدراً لانتقال المؤثرات الثقافية ومصدراً لتنشيط الاقتصاد الليبي في القرن التاسع عشر**

[٨٠] وثائق تاريخية، الأوضاع الضحية في ليبيا، مصدر سابق وثيقة رقم ٨٧ بتاريخ ١ جمادى الثاني ١٣٠٦هـ (٢ فبراير ١٨٩٩م).

[٨١] نفس المصدر السابق.

وفي ذات الوقت مصدراً لانتقال و انتشار العدوى بالأمراض الوبائية منها وإليها.

- وعلى الرغم من تعدد الجوائح الوبائية التي انتشرت في الأقاليم الليبية بشكل عام أو جزئي أسوة ببقية البلاد المغاربية والمتوسطية والسودانية التي ترتبط معها بتواصل إنساني دائم، وبعيدا عن جدلية الوباء الوافد والمحلي، فإن ليبيا عرفت وبشكل كارثي الكثير من ذات الأوبئة التي اتخذت الطابع الجائحي العام أو الإقليمي، ولا تمدنا مصادرنا الوثائقية والمدونات التاريخية بأي إحصائيات عن عدد الوفيات من هذا الوباء، ولكن من الواضح أنه استوطن وتأصل في بعض البيئات المحلية فكان يظهر بين الفينة والأخرى.
- **وعلى الرغم من تعدد الجوائح الوبائية في ليبيا في القرن التاسع عشر، فإن السلطات الحاكمة كانت عجزة عن مواجهة هذه الأوبئة، و اقتصرت إجراءاتها في الغالب على حث الأهالي على النظافة الشخصية وتنظيف الأحياء السكانية، واعتمدت تلك السلطات بشكل رئيسي على نظام الحجر الصحي(الكرنتينة) بوسائل بدائية في الموانئ والمنافذ البرية للولاية، وبين الأقاليم عقب انتشار الوباء، وقد ترتب على إجراءات الحجر الصحي القاسية نفور الأهالي من التبليغ عن الأمراض الوبائية التي تلم بهم، ومحاولة إخفاء المصابين خشية الحجر الصحي والاحتجاز في مستشفيات وأماكن العزل، وكذلك الخشية من أسلوب الكردونات الأمنية لعزل المناطق والمدن التي يتفشى فيها الوباء.**
- وقد تطور هذا النفور وعدم الثقة المتبادلة بين السلطات وأهالي الولاية إلى رفض التطعيمات الوقائية والأدوية التي أصبحت تقدمها السلطات الصحية، سواء بسبب الخشية التقليدية من السلطات، أو لارتباطهم بالمورث الشعبي في المدوات بالوسائل التقليدية، التي كانت في الغالب من الأسباب المباشرة في انتشار العدوة بالأوبئة والأمراض، واقتصار الخدمات الصحية على عواصم المتصرفيات أو الاقاليم الليبية الخمس.
- **وتشير المصادر الوثائقية إلى أن الإجراءات الاحترازية التي تتخذها الولاية أو نضارة الصحة العثمانية كانت لها تبعات سلبية في الغالب، حيث أدى تعميم خبر انتشار وباء الحمى في إحدى مناطق بنغازي سنة ١٨٧٤م إلى رفض الموانئ المتوسطية العثمانية والأوربية استقبال السفن والقادمين من ليبيا.**

وأخيرا فإن الباحث في تاريخ الجوائح الوبائية يؤرخ لتلك الوقائع الكارثية، ويحاول تلمس أهمية التجارب التاريخية ودروسها المستفادة لمواجهة الراهن، الأمر الذي يحيلنا إلى حقيقة غياب الوعي الجمعي الدائم بمخاطر الجوائح الوبائية، ومآسيها التاريخية التي من الضرورة بمكان من تبسيطها والبحث في تفاصيلها كتجربة تاريخية يمكن من خلالها كبح الثقة المفرطة بالنفس التي دعت وتدعوا إلى عدم تقدير مخاطر الجوائح الوبائية بالأمس واليوم، وحالة عدم الثقة في السلطات الصحية وتحذيراتها مع المواطنين هي حالة مستمرة تحمل في طياتها العناد البشري، والكثير من مظاهر المورثات الاجتماعية والمعالجات الإعلامية القاصرة التي جعلت من الوباء وأعراضه من حالة تتطلب العلاج والرعاية إلى نوع من العيب والعار الاجتماعي، الذي يتطلب التستر وإخفاء الإصابة بالوباء والمرض عفانا الله و إياكم من الأمراض.

المرفق رقم ١

اهم الجوائح الوبائية في ليبيا العثمانية في القرن التاسع عشر			
الجائحة الوبائية	سنة تفشي الوباء	البورة الرئيسة للوباء في ليبيا	مصدر الوباء
الطاعون	١٨١٦م	مدينة درنة	**غير محدد**
الطاعون	١٨٣٧م	طرابلس	**السفن والفئران الموبوءة**
الطاعون	١٨٣٩م	كامل الولاية	**غير محدد**
الطاعون	١٨٤٠م	كامل الولاية	**غير محدد**
الطاعون	١٨٤١م	كامل الولاية	**غير محدد**
الكوليرا	١٨٤٨	فزان	**غير محدد**
الكوليرا	١٨٥٠م	طرابلس	**عن طريق السفن**
الطاعون	١٨٥٨م	بنغازي	**غير محدد**
الكوليرا	١٨٧٤م	المرج ودرنة وبنغازي	**غير محدد**
الكوليرا	١٨٩٠م	الزاوية وزوارة	**بين الجنود العثمانيين**
الجدري	١٩٠٣م	فزان	**القو افل التجارية السودانية**
الجدري	١٩٠٤م	فزان	**القو افل التجارية السودانية**
الجدري	١٩٠٧م	هون وسوكنة	**غير محدد**
الكوليرا	١٩١٠م	طرابلس	**اسرة يهودية قدمت إلى طر ابلس**
الطاعون	١٩١٢م	مدينة بنغازي	**قو افل تجارية قادمة من القاهرة**

وباء الطاعون في الجزائر في أواخر العهد العثماني(١٧٠٠-١٨٣٠م).

مؤلف أول: بن صحيح حورية(طالبة دكتورالية بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة معسكر، بلد الجزائر).

مؤلف ثان: حدو سناء(طالبة دكتورالية بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- - جامعة معسكر، بلد الجزائر).

ملخص باللغة العربية:

أهم ما ميز تاريخ الجزائر الحديث، وبالخصوص فترة أواخر العهد التركي مع بداية القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر، هو سوء الحالة الصحية وتدهور الأوضاع المعيشية للإيالة، وهذا ماكانت له انعكاسات سلبية على المجتمع الجزائري آنداك، وأضر بوضع السكان وأدى لظهور موجة من المجاعات المهلكة والأوبئة الفتاكة كان أخطرها وباء الطاعون الذي عانت منه كل الفئات الاجتماعية بالجزائر العثمانية، فقد تكرر ظهوره على فترات متعاقبة تسببت في انهيار ديمغرافي كبير،

كلمات مفتاحية:الوباء؛ مرض الطاعون؛ الجزائر العثمانية؛ الطب الشعبي؛ الحجر الصحي؛اجتياح.

Abstract :

The most important characteristic of modern Algerian history, especially the period of the late Turkish era with the beginning of the eighteenth century and the first quarter of the nineteenth century, is the poor health status and the deterioration of living conditions for maintenance, and this has had negative repercussions on Algerian society Andak, and affected the population situation and led to the emergence of a wave Of the deadly famines and deadly epidemics.

Keywords: epidemic; plaque; Ottoman Algeria; Traditional medicine; Quarantine; sweep.

مقدمة:

شهد العالم على مر التاريخ العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة، كانت بعضها أوبئة محصورة بدول أو نطاق جغرافي معين وكان بعضها أوبئة عالميةأو مايطلق عليها جائحة، وحصدت تلك الأوبئة أرواح مئات الملايين وتسببت في تغيرات ديمغرافية واجتماعية واقتصاديةفي العالم بأسره، مثل: الطاعون والكوليرا والجدري والإفلونزا الإسبانية، وكان أشهرها وأشدها فتكا في العصور القديمة والوسطى وحتى الحديثة هو الطاعون أو الموت الأسود كما يطلق عليه، الذي أصاب الجزائر خلال الحكم التركي خاصة بين سنوات ١٥٥٢م-١٨٣٠م، وخاف العديد من الآثار السلبية على المنطقة خاصة غي أواخر الحكم العثماني للجزائر وهي الفترة المعنية في هذه الدراسة .

-ماهي المراحل التاريخية لتطور هذا الوباء في الجزائر العثمانية؟وكيف تم التعامل معه من طرف السكان وماهي التدابير الوقائية التي اتخذتها السلطة آنذاك؟

نبذة تاريخية عن وباءالطاعون بالجزائر العثمانية:

من بين الأوبئة التي اجتاحت المجتمعات عبر التاريخ فإن الطاعون يظل الوباء الأكثر فتكا بالبشر وقد ظهر الوباء منذ القدم،وهو مرض بكتيري معدي حاد، تسببه بكتيريا اليرسينية الطاعونية، وهو من الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان، ويصنف كأحد الأمراض الخطيرة([1])، ويعرفه ابن قيم الجوزية على أنه نوع من الوباء، وهو عند أهل الطب: ورم رديء قتال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدا، يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ماحوله في الأكثر أسود وأخضر أو أكمد، ويؤول أمره الى التقرح سريعا، وفي الأكثر يحدث في ثلاث مواضع: في الإبط وخلف الأذن والأرنبة، وفي اللحوم الرخوية، وفي الأثر عن عائشة ﷺ: " أنها قالت للنبي صل الله عليه وسلم: الطعن عرفناه؛ فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير يخرج في المراق والإبط"([2]).

وحسب ابن سينا فإن وباء الطاعون هو نتيجة تعفن الهواء وأن المرض يعدي وينتقل عن طريق الهواء واللعاب والعطس وحتى اللباس، أما طبيا فالطاعون هو مرض بكتيري

---

[1] ١-بوحجرة عثمان؛الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني(١٥١٩-١٨٣٠م)؛رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستيرفي التاريخ الحديث؛تحت إشراف دادة محمد؛جامعة وهران-قسم تاريخ وعام الأثار؛٢٠١٤-٢٠١٥م؛ص ٥٢.

[2] ٢-ابن القيم الجوزية؛الطب النبوي؛دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع؛بيروت؛١٩٥٧م؛ص ٢٨.

وهو مادة سمية تحدث ورما قاتلا([1])، حيث تظهر الدماميل في أي مكان من الجسم، خاصة الفخذين والإبطين والرقبة

مع ارتفاع في درجة الحرارة والهذيان وضعف القلب([2])، ويكون في ثلاث أصناف حسبما أقرته التآليف الطبية الاسلامية وكذا الطب الحديث وهي: الطاعون الدملي والطاعون الرئوي والطاعون الدموي([3])، والطاعون أصناف عدة وأكثرها انتشارا في الجزائر ثلاث أنواع:

الطاعون الخمجي: وهي الحالة التي تكون فيها جرثومة الطاعون في الدم.

الطاعون الحيواني: يظهر على شكل بقع صلبة تحت الجلد، ويعرف لدى الجزائريين بالولسيس، وهذا أخطر الأنواع حيث يودي بحياة ٧٠بالمئة من سكان المنطقة التي يصيبها([4]).

الطاعون الرئوي: وهو النوع الذي أشار إليه ابن خلدون بقوله"فإذا كان الفساد قويا- يقصد فساد الهواء- وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وهي أشد أنواع الطواعين فتكا بالناس على الإطلاق، فلا يكاد يسلم منه أحد ولا علاج له في الغالب لأنه يصيب الرئة ويفرق عروقها ويهتكها لحدة الدم المنبعث إليها وكثرة مقداره وعجزها عن حصره"([5])، ويصفه القنصل الإنجليزي دجاكسون:" إن المريض الذي كانت تأخذه القشعريرة ولم تكن تظهر عليه الدماميل، كان يموت في ظرف ٢٤ ساعة وكانت جثته تتعفن بسرعة"([6]).

والأحاديث النبوية الشريفة كما سبق الذكر توضحه كذلك، و منها أيضا قول الرسول صل الله عليه وسلم:" الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلهم، فإذا سمعتم به بأرض –وأنتم بها – فلا تخرجوا منها فرارا منه" وقال أيضا:" الطاعون شهادة لكل مسلم"([7]).

أما فيما يخص علاقة وباء الطاعون بالجزائر، فقد اتفق المختصون في دراسة الأمراض المعدية بالجزائر، على أن هذا الوباء لم يكن وليد البيئة الجزائرية، بل غريب عنها ونقلت إليها العدوى من منطقة الشرق

٣-بوحجرة عثمان؛المرجع نفسه؛ص ٥٤ [1]

[2]١- Laumonier,Jean,La peste :histoire et traitement,source gallica.bnf.fr/Bibliotheque nationale de France,p19.

٢-بوحجرة عثمان؛المرجع السابق؛ص٥٤

٣-علامة صليحة؛المرجع نفسه؛ص ٢٠٩-٢١٠

٤-بوحجرة عثمان؛المرجع السابق؛ص٥٤ .

٥-البزاز محمد الأمين؛تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر؛منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ١٨؛المملكة المغربية؛١٩٩٢م؛ص ٩١.

٦ -ابن القيم الجوزية؛المرجع السابق؛ص ٢٨-٢٩

الأوسط([1])، ويذكر مارشيكا بهذا الشأن، أن جميع موجات الطاعون القاتلة التي أصابت الجزائر كانت تأتيها من مصر ([2])، ونفس الأمر أكده الجاسوس الفرنسي "بوتان" في التقرير الذي قدمه عن الجزائر سنة ١٨٠٨م، أما عن عوامل دخوله الى البلاد كان حركة السكان المستمرة وتنقلاتهم الدائمة بين الداخل والخارج من جهة، وبين الأقاليم الداخلية من جهة أخرى، فقدومه من الخارج كان عن طريق المجندين والحجاج والطلبة والتجار القادمين من منطقة الشرق في مواسم حدوث الوباء، منهم من استعمل الطريق الساحلي الذي يتبعه الحجاج العائدين من مكة والقوافل التجارية وهو طريق تركيا ثم بيروت فالقاهرة والاسكندرية، وبرقة وطرابلس وقابس والقيروان وتونس، وباجة وقسنطينة ثم ميلة، فيصلون الى مدينة الجزائر([3])، فبمجرد وصولهم ينتشر الوباء وخاصة مع تنقلاتهم الداخلية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

ولقد ظلت الأوبئة تجتاح البلاد طيلة العقد الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر، وإن آخر مرة تعرضت فيها الجزائر للطاعون قبل الاحتلال هي سنة ١٨١٦م، ولم يختفي إلا سنة ١٨٢٢م([4]).

الوضع الصحي للجزائر في أواخر الحكم التركي:

إن المصادر الغربية التي تعرضت الى هذا الموضوع تكاد تجمع على أن وضعية العلوم كانت متردية وأن النظام الحاكم كان بعيدا كل البعد عن العناية بالعلوم وتشجيعهان فالألماني"فون ريهبندر" الذي أقام بالجزائر تأسف على إهمال الطب التجريبي وانعدام الكتب في هذه الفترة([5])،و يذكر حمدان خوجة في "المرآة"أن السكان لا يعرفون مبادىء التطبيب وكانوا بالنسبة إليهم الطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات([6])، ويورد"وليام شالر"في مذكراته أن علم الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز وبعض الرياس والقادة البحريين وربابنة السفن تعلموا على

١-علامة صليحة؛المرجع السابق؛ص ٢١١

[2] Marchika Jean ;La Peste en Afrique septentrionale.Histoire de la peste en Algerie de 1363 à1830 ;Thèse pour doctorat en médescine ;Alger ;1927 ;p2.

٣-علامة صليحة؛المرجع السابق؛ص ٢١١[3]

٤-الزبيري محمد العربي؛التجارة الخارجية للشرق الجزائري؛الشركة الوطنية لنشر والتوزيع؛الجزائر؛١٩٧٢م؛ص ٥٠.

٥-غطاس عائشة؛الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني؛مجلة الثقافة؛السنة ١٣؛العدد ٧٦؛رمضان-شوال ١٤٠٣هـ/يوليو- أغسطس ١٩٨٣م؛ص ١٢٢.

٦-حمدان بن عثمان خوجة؛المرآة؛تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري؛المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية؛الجزائر؛٢٠٠٦م؛ص ٣٦.

الأجانب تحديد الهروض وقاموا بترجمة الجداول الفلكية الى الغربية وهم يستعملونها لهذه العمليات في البحر([1]).

كما تذكر عائشة غطاس أن مما لاجدال فيه هو أن النظام الحاكم قد أهمل الرعاية الصحية الخاصة بالأهالي، فلم تنشأ مؤسسات صحية لهذا الغرض بينما بذل الحكام ما في وسعهم لجلب الأطباء لرعاية أنفسهم وحاشيتهم، أما الصيدليات فتكاد تكون منعدمة إذ لم يرد سوى صيدلية واحدةبمدينة الجزائر وكانت تحوي مجموعة من القناني والكؤوس المحتوية على العقاقير والتوابل ويشرف عليها"باشا جراح"الذي يشغل وظيفة صيدلي والجراح والطبيب في آن واحد([2]).

موجات وباء الطاعون في الجزائر أواخر العهد العثماني:

إن القرن السادس عشر تميز في تاريخ الجزائر بكونه فترة تأصل وتجذر لمرض الطاعون في مناطق عديدة منها مدينة الجزائر وضواحيها وجهات وهران وتلمسان وبعض النواحي من الشرق الجزائري وقد أصبح الطاعون ظاهرة عامة مابين سنتي ١٥٥٧م-١٥٧٥م، بعد ان اجتاح مناطق جديدة ظلت في منىءعن الإصابة بمرض الطاعون([3])، وأوروبا كذلك كانت موبوئة خلال السنوات الأولى من هذا القرن وحتى سنة ١٧٢٠م([4])، وخلال نفس القرن أودى بحياة ثلثي سكان مدينة الجزائر، كما ذهب ضحيته أربعة بشوات من بينهم"صالح رايس"، أما في القرن السابع عشر فنجده قد اكتسح منطقة بسكرة حوالي سنة ١٦٥٠م، وقد ذكر العياشي بأن عدد الوفيات قد ارتفع الى سبعين ألفا([5])،وكانت سنة ١٥٧٢م أكثر السنوات تأثرا بالطاعون إذ هلك من جرائه ثلث سكان إيالة الجزائر حسب بعض الروايات، ومن سنة ١٦٠١م الى غاية سنة ١٧٠٧م هي فترة خموده رغم استمرار ضرباته في كل من تونس وطرابلس، ومع القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وهي الفترة المخصصة للدراسة، تكرر ظهور وباء الطاعون ([6])، ومن أشد الطواعين التي عرفتها الجزائر في أواخر الحكم التركي نجد: طاعون

١-وليام شالر؛ص ٨١.

٢-غطاس عائشة؛المرجع السابق؛ص ١٢٨.[2]

٣-بن عمر حمدادو؛ظاهرة الأوبئة والأمراض بالجزائر من [3] خلال كتاب"أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"لأبي حامد العربي المشرفي؛مجلة عصور؛العدد٣٧؛أكتوبر-ديسمبر ٢٠١٧م؛ص ٢٤٨.

[4] Led Clot-Bey,Coup d'oeil sur la peste et les quarantaines:àl'occasion du Congrés sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851;cher victor masson libraire;Paris1851;p36.

٥-غطاس عائشة؛المرجع نفسه؛ص ١٢٥.[5]

١-بن عمر حمدادو؛المرجع السابق؛ص ٢٤٨-٢٤٩.[6]

١٧٨٦م-١٧٨٧م: حسب "الشريف الزهار" أن أكثر الأمراض فتكا بالسكان تمثلت في الطاعون في هذه الفترة بين عامي ١٧٨٦-١٧٨٧م الذي أدى الى إنخفاض سكان مدينة الجزائر الى خمسين ألف نسمة وموت ثلث سكان عنابة، وتسبب الطاعون في موت عدد كبير من الأسرى([1])، طاعون ١٧٩٣م: وهو طاعون أصاب مدينة الجزائر سنة ١٧٩٣م، نقله إليها بحارة قدموا من القسطنطينية، وظل محصورا فيها، حيث امتدت براثنه الى جهات أخرى من جملتها مقاطعة قسنطينة، وبالرغم من جميع المجهودات التي بذلتها السلطات المحلية فإن الوباء لم ينقطع، وفي هذا الصدد توجد في محفوظات الوكالة الإفريقية رسالة موجهة الى القنصل"فاليار" يقول فيها صاحبها:"إن الطاعون مازال يقتل مابين خمسين ومائة وخمسين شخصا يوميا في قسنطينة، ولا نعرف مدى الخسائر التي يحدثها في النواحي الأخرى من المقاطعة([2]).

طاعون ١٧٩٩م: لقد وردت الإشارة الى هذا الطاعون بكيفية عابرة في جريدة"المونيتور"فيذكر صاحب المقال: أنه حل بمقاطعة قسنطينة وانتشر حتى وصل الى الجنوب حيث صار الموت يحصد يوميا مابين مائة ومائة وعشرون شخصا"([3]).

طاعون ١٨١٦: حسب "مارشيكا فإن هذا الوباء وصل الى عنابة يوم ٠٧ جويلية ١٨١٦م، وأن سببه يرجع الى قدوم بارجة أهداها الصدر الأعظم للداي يوم ٠٨ ماي ١٨١٦م، في حين أن دوغرامون يشير الى أن الطاعون حل بالبلاد سنة ١٨١٨م([4]).

أنماط التعامل لسكان إيالة الجزائر مع وباء الطاعون:

نقف على العديد من الأنماط لمواجهة الوباء، الابتعاد عن طريق الهجرة من المدن الكبرى نحو الأرياف أو المناطق البعيدة عن الزحام، وهو ما نقف عليه كردة فعل سنة ١٨١٧م إذ ينقل لنا مارشيكا نزوح سكان القبائل واليهود الى خارج مدينة الجزائر بعد الوباءالذي ضربها هذه السنة حتى كادت تعد المدينة خاليةمن الناس([5]).

أما تصرف فئة اليهود والنصارى عند وقوع الأزمات الصحية والغذائية فقد كانوا أشد حيطة، إذ نرى العديد من الآباء والرحالة يشيرون الى محاولة عدم الإحتكاك مع المرضى

٢--بوحجرة عثمان؛المرجع السابق؛ص ٤٧.[1]

٣-الزبيري محمد العربي؛المرجع السابق؛ص ٥١.[2]

٤-الزبيري محمد العربي؛المرجع نفسه؛ص ٥٢[3]

٥-بوحجرة عثمان؛المرجع نفسه؛ص٥٧.[4]

١-سعيدي خير الدين؛المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال خلال العهد العثماني(١٧٠٠- ١٨٣٠م)؛أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تاريخ حديث ومعاصر؛تحت إشراف شايب قدادرة؛كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية؛جامعة قالمة؛سنة ٢٠١٨-٢٠١٩م؛ص ٢٧٠. ه[5]

أو مع العامة تجنبا لمسببات انتقال المرض إليهم، كما نجدهم يقومون بإلغاء عدد من الاحتفالات والمناسبات الدينية في مدينة الجزائر سنة ١٧٤١م خوفا من الوباء([1])،

التدابير الوقائية للسلطة في الجزائر العثمانية لمواجهة وباء الطاعون:

إذا تتبعنا لموقف السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر خلال هذه الفترةمن الأوبئة والأمراض فإننا نجد تقصيرا كبيرا، ويعود ذلك الى عدم وجود سياسة واضحة لمواجهة مثل هذه الوضعيات الصحية، وفي بعض الأحيان يفرون من الوباء مع عائلاتهم الى مناطق معزولة عن السكان مثلما أشارت إليه عائشة غطاس أنه من نتائج هذا الوباء أن اضطر الباي محمد الكبير الى مغادرة مدينة وهران والإقامة بسهل ملاتة قرابة ثلاث أشهر الى أن زال المرض، وفي هذا المضمار يقول صاحب أنيس الغريب والمسافر مانصه"..وحدث في أيامه الطاعون ومات به الجل من الناس والعلماء وخرج الباي بأهله ومخزنه فارا منه وظعنوا ضعون الأعراب البادية زمنا طويلا"([2])، وهذا لا ينفي تشجيعه للطت وللتأليف فيه، فهذا كاتبه"أحمد سحنون"يقول عنه أنه كانت للباي في الطب اليد الطولى، وأنه كان يصف للناس الدواء([3]).

وقد كتب السيد"كيبار" مندوب الشركة الملكية الإفريقيةفي عنابة في ذلك الحين- سنة ١٧٩٣م- أن حوالي مائة شخص كانت تموت في عاصمة الشرق الجزائري، بينما سلم الساحل بفضل التدابير الوقائية التي اتخذها حاكم القالة الفرنسي بإذن من الباي وتتلخص هذه التدابير في إغلاق الموانىء ومنع القادمين إليها من الدخول، وعدم الاتصال بالبواخر الأجنبية المجهولة الأصل([4])، فرغم انتشار الأمراض والأوبئة بمختلف أنواعها فإن التكفل بصحة السكان كان بأيدي الطلبة والمرابطين الذين كانوا يمارسون العلاج بالطرق التقليدية المعتمدة على التجربة وتوارث طرق التداوي عن طريق الأجداد، بالإضافة الى انتشار السحر والشعوذة في الأوساط الشعبية([5]).

ويذكر أيضا أنه بينما كان الباشوات والبايات يجلبون الأطباء لأنفسهم ويؤمنون بقيمة الطبيب الأوروبي فكانوا لا يهتمون بصحة

---

[1] ٢-سعيدي خير الدين؛المرجع نفسه؛ص ٢٧٠-٢٧١.

[2] ٣-غطاس عائشة؛المرجع السابق؛ص ١٢٥.

[3] أبوالقاسم يعد الله؛تاريخ الجزائر الثقافي؛الجزء الثاني؛دار الغرب الإسلامي؛الطبعة الأولى؛سنة ١٩٩٨م؛الجزائر؛ص٤١٩.

[4] ٥-الزبيري محمد العربي؛المرجع السابق؛ص ٥١.

[5] ١-دغموش كاميلية وبن عمر حمدادو؛الوضع الصحي والمعيشي لبايلك الغرب الجزائري؛مجلة الحوار المتوسطي؛المجلد ١٠؛العدد ٢؛جوان ٢٠١٩م؛ص ٣٤٥.

السكان عموما ([1])، فحول تفسير داي الجزائر للتحذيرات التي قدمها له القنصل الفرنسي حيال خطر دخول ركاب السفينة التي تحمل الوباء سنة ١٧٤٠م دون إخضاعها للحجر الصحي لمدة أربعين يوما على الأقل ، نقف في مذكرات الأب "بيير فاروكس" على رد الداي بقوله"...استطيع أن أفهم خوفك الكبير وهذا بسبب كونك مسيحيا،...أما أنا فمسلم تركي لا أخاف من الطاعون أو مما يكون قدر لهذه المدينة..."([2])، هذه التفسيرات للداي تظهر نوعا من اللامبالاة من جهة وبتجذر الفكر العقدي الديني الخاطئ في بعض الأحيان، فدينيا قد وضحت الأحاديث النبوية الشريفة طريقة مواجهة الوباء وكيفية الاحتراس منه في أقول وأفعال الرسول الكريم صل الله عليه وسلم"كما سبق وأن ذكرنا.

ويورد "شونبييرغ" في كتابه"الطب الشعبي في الجزائر بداية الاحتلال" على أن بعض الدايات في الجزائر خلال العهد العثماني حاول التخفيف من شدة دخول الأوبئة الى الجزائر بفرض نوع من الرقابة الطبية على الوافدين من خارج الجزائر، أمر بإرجاع سبعة أشخاص الى السفن التي قدموا فيها بعد تأكد المراقبين بأنهم موبوءون، والأمر عينه قام به باي قسنطينةسنة ١٧٨٥م عندما أجبر سكان البايلك على عدم التبادل التجاري مع جيرانهم التونسيين لما علم بأمر الوباء الذي انتشر في تونس([3]).

إن ما ورد في ثنايا بعض المصادر لا يمكننا من الإجابة القطعية حول تطبيق الحجر الصحي أو عدم تطبيقه، فإن حمادوش الذي كان على دراية كبيرة بهذه الأمور في رحلته"لسان المقال" ، ذكر حاذثة تدل على أن نظام الحجر الصحي كان معمولا به " إذ فرض الداي الحاكم آنذاك دخول سفينة على متنها حجيج موبوءون من الإسكندرية، وأمر بأن لايسمح لها بالدخول إلا بعد التأكد من برء من على متنها"([4]).

٢-أبوالقاسم سعد الله؛المرجع نفسه؛٤١٩.[1]

٣-البزاز محمد الأمين؛المرجع السابق؛ص ٢٧٠.[2]

٤-سعيدي خير الدين؛المرجع السابق؛ص ٨٩.[3]

٥-غطاس عائشة؛المرجع السابق؛ص ١٢٩.[4]

خاتمة:

لقد شهدت الجزائر ضربات متعاقبة من الطاعون خلال الحكم التركي وبالخصوص في أواخر هذه الفترة، فتضررت البلاد من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها بهذا الوباء، الذي تعامل معه السكان إما بالقبول والصبر والإحتساب، او الفرار الى الأماكن غير الموبوءة،وذلك عملا بما جاء في دينهم الحنيف فاعتبروه قضاء الله وقدره، كما سعوا الى معالجته بالطب الشعبي في بعض الأحيان لسد فراغ غياب الطب والمشتغلين به، أما بالنسبة للتدابير الوقائية ونظام الحجر الصحي لم يكن معمولا به من طرف حكام الإيالة كقاعدة وقائية أو أمر إحترازي بل كان متوقفا على الحكام أنفسهم، بالإضافة الى جهل وتواطء معظم السكان مع هذا الوباء وتمسكهم بالأمور الدينية والعقدية بشكل خاطئ في بعض الأحيان مما زاد من حدة هذا الوباء.

الحجر الصحي - الكرنتينا- في مواجهة الأوبئة بالدولة العثمانية (١٨٣١-١٩٢٣)

الباحث : صلاح خيراني [١]

ملخص:

شهد العالم على مر التاريخ العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة ، كانت بعضها أوبئة محصورة بدول أو نطاق جغرافي معين ، وكان بعضها أوبئة عالمية ، أو ما يطلق عليها " جائحة" حصدت أرواح عشرات بل مئات الملايين من البشر، وتسببت في تغيرات ديموغرافية واجتماعية واقتصادية في العالم بأسره ، وبما أن الدولة العثمانية لم تكن بمنأى عن خطر هذه الأمراض والأوبئة التي كانت تجتاحها حينا بعد حين وتخلف خسائر كبيرة في شتى مناحي الحياة كان لزاما على حكام الدولة العثمانية التصدي لهذه الاوبئة بإتخاذ التدابير الصحية اللازمة وعلى رأسها تطبيق الحجر الصحي – الكرنتينا و كان هذا التدبير عاملا مخفف لانتشار الوباء في أرجاء الدولة العثمانية ، بحيث قامت الدولة العثمانية وخاصة في عهد السلطان محمود الثاني بتأسيس إدارة تعنى بتطبيق الحجر الصحي عرفت تاريخيا بمجلس الكرنتينا.

Abstract:

Throughout history, the world has witnessed many deadly diseases and epidemics, some of which were epidemics confined to a specific countries or geographical range, and some were global epidemics, or which is called a "pandemic" that claimed the life of millions of people, and caused demographic, social and economic changes in the world. The whole of the country, since the Ottoman Empire was not immune to the danger of these diseases and epidemics that were sweeping them after a while and causing significant losses in all aspects of life, it was incumbent upon the rulers of the

[١] الباحث صلاح خيراني ماجستير تاريخ الشرق الأوسط السياسي والعلاقات الدولية بمعهد دراسات الشرق الاوسط والدول الإسلامية – جامعة مرمرة – تركيا . ماستر تاريخ الدولة العثمانية من جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر ٢. متقن للغة العربية والفرنسية والتركية ومتوسط في اللغة الإنجليزية . له العديد من الأبحاث والمقالات التي شارك بها في الملتقيات الوطنية بالجزائر وتركيا وكذا الملتقيات الدولية . مشارك في دورات تدريبية في علم التاريخ والاثار في جامعات بريطانية وإسبانية . بصدد الإنتهاء من تأليف كتاب حول التاريخ العثماني.

رقم الهاتف: ٩٠٥٥٣٧٨٨٧٥٢٤+ (تركيا)

البريد الالكتروني: skheiranidz95@gmail.com

Ottoman era to address these epidemics by taking the necessary health measures, especially the application of quarantine - Karantina , it was used to decrease a mitigating the spread of the epidemic throughout the Ottoman Era, so that the Ottoman state, especially during the reign of Sultan Mahmud II established a management deal with the application of quarantine historically has been the Council of Karantina.

Key words: diseases and epidemics - Ottoman Empire - Quarantine - Sultan Mahmud II.

مقدمة :

شهد العالم على مر التاريخ العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة ، كانت بعضها أوبئة محصورة بدول أو نطاق جغرافي معين ، وكان بعضها أوبئة عالمية ، أو ما يطلق عليها " جائحة" حصدت أرواح عشرات بل مئات الملايين من البشر، وتسببت في تغيرات ديموغرافية واجتماعية واقتصادية في العالم بأسره ، بل ومنها جوائح غيرت مجرى التاريخ . وقد اختلفت طرق الناس في التعامل مع تلك الأوبئة والتصدي لها باختلاف الحقبة الزمنية والإمكانيات المتاحة.

كما تباينت الآثار التي خلفتها هذه الأوبئة على المجتمعات التي اجتاحتها والدولة العثمانية التي كانت مترامية على قارات ثلاث والتي عمرت كثيرا كان لها نصيبا من هذه الامراض والاوبئة الفتاكة التي كانت لها اثار سلبية على الدولة العثمانية ورعاياها لكن سرعان ما اتخذ العثمانيون التدابير اللازمة للحد من هذه الأوبئة وذلك بالتزامهم الشديد بالحجر الصحي أو ما يعرف تاريخيا بالكرنتينا.

ومن أجل الشروع في هذه الورقة البحثية كان علينا أن نطرح أسئلة مهمة كالتالي : ماهي بدايات تطبيق الكرنتينا في الدولة العثمانية ؟ وماهي الأليات والوسائل التي اتخذت من أجل تطبيق هذه العملية الصحية؟ معتمدين في هذه الدراسة بالأساس على الوثائق الأرشيفية المستقاة من مركز الأرشيف العثماني كأرشيف وزارة الخارجية ووزارة الداخلية ووزارة الصحية وغيرها من الأرصدة المهمة في هذه الدراسة ، مع ارفاقنا بهذه الدراسة وثيقة أرشيفية مهمة تتحدث عن تمديد الكرنتينا على السفن الاتية إلى إسطنبول والتي كان

على متنها جزائريين وتونسيين، كذا اعتمدنا بشكل كبير على الكتب الاكاديمية والتقارير الصحية الصادرة أنذاك عن المؤتمرات الصحية الدولية التي كانت في الأصل نواة للمنظمة العالمية للصحة ، بالإضافة للعديد من المقالات العلمية المحكمة بحيث تعددت هذه الأخيرة من مقالات باللغة التركية والعربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية سعيا منا للوصول للمعلومة الأصل وبلغتها الأصلية .

معتمدين في هذه الدراسة على قواعد الموضوعية والطرح المنطقي للأحداث التاريخية ملتزمين بقواعد التحليل والتدقيق في صحة المعلومة التاريخية ، قسمنا مخطط المقال كالتالي: مقدمة بينت فيها الدوافع العلمية وراء كتابة هذا المقال طرحت فيها تقديما حول تاريخ الأوبئة والامراض وتساؤل عن الكيفية التي تعاملت بها الدولة العثمانية مع الأوبئة التي مستها عبر التاريخ ،أما في العرض قد قسمته على نحو عناوين رئيسية بارزة من بينها عنوان لتعريف الحجر الصحي ، عنوان عبارة عن لمحة تاريخية عن الأوبئة والأمراض يليه الحديث عن الحجر الصحي - الكرنتينا - بشكله الحديث كذلك عرجنا على أماكن تطبيق الحجر الصحي - الكرنتينا- في الدولة العثمانية كما لم ننسى التطرق لتدخلات الدول الأوربية في سياسة الدولة العثمانية من خلال مجلس الكرنتينا أو ما يعرف بنظارة الكرنتينا ، وتحدثنا أيضا عن إجراءات السلامة و الحجر الصحي – الكرنتينا – المطبقة من قبل الدولة العثمانية في خدمة الحجاج المسلمين في مكة والمدينة وكيف حافظت الدولة العثمانية بالرغم من كل الضغوط المفروضة عنها على أداء خدمتها لموسم الحج ، وختمنا هذه الدراسة العلمية بحوصلة بينا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها في ما يتعلق بعملية الحجر الصحي - الكرنتينا وهل كانت الرعية أنذاك تشدد في قضية الحجر الصحي أم انها كانت لا تبالي في ذلك ، وغيرها من النتائج المهمة .

I- تعريف الحجر الصحي أو الكرنتينا:

يجري الحجر الصحي أو الكرنتينا عادةً عند انتشار مرض معدي، فيُطلب من الأشخاص المُعرضين للإصابة بالعدوى بالبقاء في المنزل وفي الدولة العثمانية عادة ما كان يطبق على

المسافرين في الموانئ ، لمنع انتشار المرض للآخرين وكمحاولة للسيطرة على الحالات المرضية[١]، وقد أتت من الرقم اربعون «quarantena» من اللغة الايطالية[٢]. نشير الى أن في بدايات تطبيق الحجر الصحي بالدولة العثمانية كان يطلق عليه " أصول التحفظ usûl-itehaffuz " كما اطلقوا على مكان تطبيق الحجر الصحي بالتحفظ خانة « tehaffuzhâne» لكن مع الاصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر ومع تطبيق نظام صحي جديد اصبح يطلق على الحجر الصحي بالكرنتينا[٣] .

II- لمحة تاريخية عن الحجر الصحي – الكرنتينا

يعتبر الحجر الصحي نظام قد تم تطبيقه في القدم بحيث كان يتم اتخاذ التدابير اللازمة من أجل عزل الأشخاص المرضى بأمراض معدية ، ففي العهد القديم من التوراة هناك اشارات بأنه عندما كانت تظهر الأوبئة بين الجيوش بعد ادائهم الحروب الطويلة كانت توجه لهم الأوامر بالإقامة في مكان بعيد سبعة ايام كاملة قبل رجوعهم الفعلي الى معسكراتهم بحيث كانوا يمررون أجسامهم وألبستهم وباقي أدوات نظافتهم من على النار بهدف تعقيمها وفي اليوم السابع يقومون بغسل البستهم ومن بعد الغسيل تعطى لهم الأوامر بالدخول الى معسكراتهم[٤].أما بخصوص مرضى الجذام وما يتعلق بغسيل ألبستهم أو حرقها فقد صدرت العديد من الاحكام.[٥]

وإذا اتينا الى الحقبة الاسلامية نرى بأن الرسول ﷺ كان قد أمرنا في الكثير من المواضع على تجنب أماكن الوباء ومكامنه وكيفية تفادي انتشاره فقد قال ﷺ « إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارًا منه.»[٦] وفي حديث آخر رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (... فر من المجذوم فرارك من الأسد)، وفي حديث آخر رفض أن يسلم على مجذوم

---

[١] منظمة الصحة العالمية ، **الإعتبارات المتعلقة بالحجر الصحي للأفراد في سياق إحتواء مرض كورونا (كوفيد -١٩)**، ٢٩ شباط /فيفري ٢٠٢٠.ص١.

[2] **http://www.treccani.it/vocabolario/quarantena, Treccani © All rights Reserved Partita Iva 0089241100, صفحة على الانترنت**

[3] Güldwn Sarıyıldız, **Karantina** ,TDV İslâm Ansiklopedisi , cil 24, İstanbul, 2001 s. 463-465 .

[٤] **سفر العدد** ٣١/١٦-٢٤.

[٥] **سفر اللاويين**١٣٢/٥، ٤٦، ٥٢ و **سفر العدد** ٥/١-٤.

[٦] حديث متفق عليه.

من ثقيف، وقال له " إنا قد بايعناك فارجع ".[١]

كذلك نجد في موضع اخر الرسول الاكرم يقول: (لا يوردن ممرض في مصح) لم يكفي بذلك بل أمرنا الرسول ﷺ بالتفريق بين الحيوانات السقيمة والحيوانات السليمة لتفادي انتشار عدوى الوباء.[٢]

أما في زمن الخلافة الاسلامية الراشدة - وبالتحديد في عهد عمر بن الخطاب ﷺ عندما كان ذاهبا إلى الشام لَقِيه أهلُ الأجناد (أبو عبيدة بن الجرَّاح وأصحابه)، فأخبروه أن الوباءَ قد وقَع بالشام، وبعد استشارة الصحابة الكرام نادى عمر في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظَهْر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرار من قَدَر الله ... قال نعم، نَفِر من قَدَر الله إلى قدر الله[٣]

أما في عهد الخلافة الاموية عمل الوليد بن عبد الملك على عزل المصابين بالجذام وقد خصص لهم من بيت مال المسلمين أموال من أجل مداواتهم ومعالجتهم في المستشفي الذي اقيم لهذا الغرض.[٤]

في ما يتعلق بالكرنتينا أو الحجر الصحي المرتبط بالمسافرين طبقت لأول مرة سنة ١٣٧٧م بإمارات البندقية ودوبروفينيك ، أما بالنسبة لمقر الحجر الصحي أو ما يعرف بالكرنتينا خانه فقد تأسست سنة ١٤٢٣م بجزيرة سانتا ماريا دي نازرات Santa Maria di Nazareth [٥] بالقرب من البندقية.

[١] الإمام البخاري ، **الطب**، ٣٠ - ١٩.

[٢] الإمام مسلم ،**السلام** ، ١٢٦- ابن ماجه ، **الطب**، ٤٤.

[٣] الطبري ،**تاريخ الطبري**، الجزء الرابع،ص٥٧-٥٨.

[٤] الطبري ،**تاريخ الطبري**، الجزء السادس،ص٤٠٥.

[٥] هي جزيرة في بحيرة البندقية ، تقع بالقرب من الساحل الغربي ليدو Lazzaretto Vecchio أو Santa Maria di Nazareth البندقية. كان يضم مستشفى عالج ضحايا الطاعون أثناء الأوبئة. تم استخدامه لاحقًا ، مثل الجزر الأخرى ، كموقع عسكري. تبلغ مساحة سطحه ٢.٥٣ هكتاراً ، وقد تم تطوير مباني بمساحة ٨٤٠٠ متر مربع. سكنه في البداية الآباء الإريميتانيون ، الذين أقاموا كنيسة مكرسة لسانتا ماريا دي نازاريث ومأوى للحجاج الذين جاءوا أو عادوا من الأراضي المقدسة في عام ١٤٢٣ ، بناء على نصيحة سان برناردينو من سيينا ، قرر مجلس الشيوخ تخصيص الجزيرة لمأوى الناس والسلع من البلدان المصابة وتزويد المرضى بالأغذية والأدوية والمساعدة. يبدو أن مصطلح لازاريتو مشتق من كنيسة سانتا ماريا دي نازاريث ، مع تراكب لاسم راعي ضحايا الطاعون ، سان لازارو. تم تكبد نفقات صيانة التكية ، في الستين سنة الأولى ، بجزء من عائدات مكتب الملح ، لتمريرها تحت إدارة قاضي الصحة الدائم ، الذي كانت الإجراءات الاحترازية مستحقة له ، الزيارات والشيكات والحجر الصحي. من عام ١٤٦٨ ، كانت للجزيرة مهمة استقبال المرضى الذين يشتبه في إصابتهم ، تمت زيارتهم في البناء الجديد لـ Lazzaretto Nuovo. حتى ذلك الحين ، تم تقسيم الجزيرة إلى قسمين بواسطة قناة ، عبرها جسر: في الجزء الأصغر كان هناك مستودع البارود وإقامة لجنود

الحراسة (كشك الرسوم) ؛ في أكبرها ، على شكل مستطيل ، تم وضع المستشفى الفعلي ، الذي أدرج الآن المستوطنة الرهبانية الموجودة مسبقًا ، والتي تم دمجها في البداية مع الثكنات الخشبية والسقائف ، والتي تم استبدالها تدريجيًا بمباني من الطوب.

اصطفت البنايات على جانبي ساحة صغيرة وساحة فناءين. في الساحة كانت منازل السابق ومساعده ومخازن الأدوات وخزان المياه والمعارض حيث تجاوز الرجال المشتبه في إصابتهم الحجر الصحي. حول الفناء الأول ، الذي كان في الأصل دير الدير ، كانت هناك منازل المشرفين العامين ومحرري البندقية الذين عادوا إلى وطنهم. حول الفناء الثاني كان هناك مائة زنزانة للمرضى الداخليين. خلف المباني كانت هناك مروج ومظلات - مفصولة عن بعضها بواسطة بوابات خشبية - حيث تم ممارسة عملية تطهير البضائع وفقًا لمختلف المكونات. في عام ١٥٦٤ تم توسيع المستشفى ودفن جزء من البحيرة المحيطة. في عام ١٥٨٦ ، تم بناء الكافانا (أي مأوى للقوارب) عند مدخل المجمع. من عام ١٨٤٦ إلى عام ١٩٦٥ ، انتقلت الجزيرة ، مثل العديد من الجزر الأخرى ، إلى السلطات العسكرية ، أولاً النمساوية ثم الإيطالية. خلال هذه الفترة ، تم هدم جناحين للدير ، الكنيسة ببرج الجرس ، وصالون ومباني أخرى.

في امتياز Lazzaretto Vecchio في وقت لاحق ، تم منح من قبل بلدية البندقية لمجموعة الكلاب ، من أجل بين عامي ٢٠٠٤ و .استضافة مأوى للكلاب الضالة ٢٠٠٨ ، خضعت الجزيرة لتدخلات انتعاش مهمة من قبل وزارة الأشغال العامة ووزارة التراث الثقافي ، تحسبًا لإنشاء "متحف المدينة وبحيرة البندقية". وبهذه المناسبة ، كشفت الحفريات عن القبور الفردية والمشتركة مع أكثر من ١٥٠٠ هيكل طاعون ، سيقدم تحليلها معلومات تتعلق بحياة البندقية في القرن السادس عشر. ثم تم تعليق المشروع بسبب نقص التمويل ، وقد تعرضت الجزيرة مرة أخرى لخطر التخلي منذ سبتمبر ٢٠١٣ ، قامت هيئة الرقابة .والتدهور الأثرية في فينيتو بتفعيل مذكرة تفاهم لخدمة المراقبة

ويمكن القول أن الكرنتينا المطبقة بالموانئ الشرقية للبحر الابيض المتوسط إعتبار من أواخر القرن الرابع عشر قد طبقت قبل ذلك في الطرق البرية بشكل كبير . وكمثال على ذلك ما تم تطبيقه على التجار العثمانيين القادمين من أجل التجارة الى النمسا وهذا بعد معاهدة باساروفتشا «Pasarofça»[١] ، بحيث تم تطبيق

والزيارة العامة والصيانة الصغيرة من خلال المساهمة في البندقية ، النشطة Archeoclub المجانية لجمعية بفضل .Lazzaretto Nuovo بالفعل لعقود في جزيرة المتطوعين والكلام الشفهي ، فإن الجزيرة تفتح الآن مواقع أكاديمية أنظر.شهريًا وتستضيف آلاف الزوار : إيطالية جد مهمة تتكلم عم مركز الكرنتينا https://it.wikipedia.org/wiki/Lazzaretto_Vecchio - http://www.lazzarettovecchio.it/- https://www.lazzarettovecchio.it/wp-content/uploads/2020/03/LZVlanuova050320.jpg

[١] معاهدة باساروفجا (بالتركية Pasarofça : Antlaşması)أو معاهدة پساروفيتش Treaty of Passarowitzفي ٢٢ شعبان ١١٣٠هـ= ٢١ يوليو ١٧١٨م) بين الدولة العثمانية وكل من النمسا وجمهورية البندقية.بدأت مساعي الصلح بين الدولة العثمانية وكل من النمسا والبندقية بعد (١٢) يومًا من صدارة إبراهيم باشا، وانتهت هذه المساعي بتوقيع معاهدة وصلح بساروفيتش. وقد أنهت هذه المعاهدة، المكونة من (٢٠) مادة خاصة بألمانيا، و(٢٦) مادة خاصة بالبندقية، حالة الحرب مع البندقية التي استمرت ثلاث سنوات وسبعة أشهر، ومع النمسا التي استمرت سنتين وشهرين، وتقضى هذه المعاهدة بإعادة المورة إلى الدولة

الكرنتينا والحجر الصحي على التجار العثمانيين ومنع من لم يتقيد بقواعد

العثمانية لقاء تنازلها عن مقاطعة تمسوارا وبلغراد وصربيا الشمالية ، وأن تبقى جمهورية البندقية محتلة ثغور شاطئ دالماسيا، وأن يستعيد رجال الدين الكاثوليك مزاياهم القديمة في الدولة العثمانية.

وقد عدّلت هذه المعاهدة في (محرم ١١٣٣ هـ= نوفمبر ١٧٢٠م) –بناء على طلب من روسيا- بما يتيح لتجارها المرور من أراضي الدولة العثمانية وبيع سلعهم فيها، وأن يتوجه الحجاج الروس إلى بيت المقدس وغيره من الأماكن والأديرة المقدسة بدون دفع خراج أو رسوم أثناء إقامتهم أو على جوازات سفرهم. وأضيف إلى هذه المعاهدة شرط آخر ذو أهمية سياسية كبيرة تعهدت فيه الدولة العثمانية وروسيا بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ الإشراف، وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثيًا في عائلته، ومنع وصول هذين الأمرين بكل الوسائل الممكنة، بما فيها الحرب. وقصد بطرس الأكبر بهذا الشرط إيجاد النفور والعداوة بين البولونيين والعثمانيين؛ حتى لا يتشكل حلف بين مجاوريه الأقوياء (السويد وبولندا والدولة العثمانية) يحاربه، وهذا يعني إضعاف مجاوريه الواحد بعد الآخر لتزيد قوة روسيا بازدياد ضعف جيرانها الأقوياء، وقد نجح فيما يتعلق بالسويد، ثم شرع في تنفيذ خطته ضد بولندا والدولة العثمانية، ووضع أول حجر في مشروعه لإضعاف بولندا مع الدولة العثمانية. أنظر: صابان، سهيل المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية. صفحة ٥١-٥٢. فريد بك المحامي ،تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي ،ط١،دار النفائس ، بيروت، ١٩٨١. ص ٣١٦-٣١٧ .

عبد القادر أوزجان ، موسوعة وقف الديانة التركي DİA ,مادة باساروفتش ، ص١٧٧-١٨١.

ABDÜLKADİR ÖZCAN,PASAROFÇA ANTLAŞMASI,DİA.

الحجر الصحي من عبور الحدود العثمانية النمساوية [1].

III- الحجر الصحي -الكرنتينا - في الدولة العثمانية بشكله الحديث:

طبقت في الدولة العثمانية أولى عمليات الحجر الصحي بالمعنى الحديث في فترة حكم السلطان محمود الثاني [2]

[1] O. Kolling, **"XVIII. Asırda Veba Salgını Devirlerinde Ticaret Münasebetleri"** (trc. Sadrettin Karatay), Ülkü (Seçmeler 1933-1941), Ankara 1982, s. 423 .

[2] السلطان محمود خان الثاني عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغل. (٢٠ يوليو ١٧٨٥ – ١ يوليو ١٨٣٩) كان السلطان الثلاثون للدولة العثمانية، وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول شهد عصرة خطوات إصلاح واسعة، وحاول أن يوقظ الدولة العثمانية، وأن يدفعها إلى ما تستحقه من مكانة وتقدير. أنظر : موسوعة وقف الديانة التركي DİA ،مادة باساروفتش ، ص ٣٥٢-٣٥٧. للاطلاع أكثر أنظر: أحمد عبد اللطيف البحراوي، حركة الإصلاح العثماني، دار التراث، القاهرة ١٣٩٨ هـ=١٩٧٨ م. - محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت ١٤٠٣ هـ=١٩٨٣ م. - علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي،

وهذا في ١٢٤٧/٤/٤هـ الموافق ل ١٨٣١م وكان ذلك بعد تفشي وباء الكوليرا ، بحيث تم تطبيق الكرنتينا على المسافرين الروس الذين كانوا على متن السفن المتوجهة الى أوروبا والمتوقفة في الموانئ العثمانية لبعض الوقت ، وفي هذه الاثناء عقد السلطان محمود الثاني مشاورات متواصلة مع رجالات الدولة بخصوص بداية تطبيق الكرنتينا بشكلها الحديث ونوقش هذا الموضوع في مجلس نيابة الصدارة وتم الخروج بقرار مفاده بأن كل السفن الاتية إلى اسطنبول يجب توقيفها عند المضيق تطبيقا للحجر الصحي خمسة ايام كإجراء اولي[١].

من أجل التصدي لوباء الكوليرا من خلال تطبيق الكرنتينا والحجر الصحي فقد كتب رئيس الاطباء مصطفى بهجت أفندي[٢] رسالة في هذا الخصوص وكتب الجزائري حمدان خوجة أفندي رسالة يبين فيها بأن تطبيق الكرنتينا من الدين وبانها ليست حرام وقد سميت هذه الرسالة فيما بعد «بإتحاف الأدباء»[٣] ، كما صدرت

بيروت ١٤١٥ هـ=١٩٩٤ م. - محمد حرب، الدولة العثمانية- سفير للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦ م.

[1] BA, **Cevdet-Sıhhiye**, nr. 651. الارشيف العثماني ، **جودت – الصحية**

[٢] حكيم باشي مصطفى بهجت أفندي- Hekimbaşı Mustafa Behçet Efendi وهو عميد الحكماء(الأطباء) في الدولة العثمانية (١٧٧٤-١٨٣٤م) ولد في منطقة سلطان أيوب بإسطنبول درس الطب في مدرسة سليمان وأصبح حكيما حيث قام بإدخال تحديثات على النظم الصحية في الدولة العثمانية وفتح أول مدرسة للطب الحديث وهذا بعد موافقة السلطان محمود الثاني وهذا بتاريخ ١٤ مارس ١٧٢٧م وأسس سنة ١٨٣٢ مستشفى للجراحة في توبكابي topkapı ليصبح بذلك من أهم المجددين في النظام الطبي والنظام التعليمي المتعلق بالطب العثماني في القرن التاسع عشر أنظر: هذه المقالة العلمية المحكمة ورابطها-

Alper Tunga KÖKCÜ ve Nilüfer DEMİRSOY, **Hekimbaşı Mustafa Behçet Efendi ve19. Yüzyılda Osmanlı Tıp EğitimindeYenilikçi Hareket**, Türkiye Klinikleri J Med Ethics 2016; 24(22):67-75.

https://www.researchgate.net/publication/303743576_Chief_Physician_Mustafa_Behcet_Efendi_and_the_Innovative_Movement_on_Ottoman_Medical_Education_in_19th_Century

[٣] إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء: تُسلِّط الرسالة التي كتبها حمدان خوجه "إتحاف والأدباء" الضوء على بعض التدابير الصحية المتبعة في العالم الإسلامي عموما، وفي إسطنبول خصوصا، وتشدد على خطئها وعدم جدواها ومخالفتها لمقاصد الشريعة التي تحرص على تجنب العدوى والأوبئة، حتى وإن وجدت من المتحدثين باسم الشريعة بعض من يبرر هذه السلوكات الخاطئة تحت ذريعة أن العدوى شيء غير حقيقي، وأن اعتقاد وجود العدوى قد يتنافى مع إيمان المسلم الذي يربط الأسباب بمسبباتها في حين أن الفاعل الحقيقي هو الله وحده.

خاض حمدان -وقد كان مثقفا واسع الاطلاع وأتقن إلى جانب العربية والتركية الفرنسية والإنجليزية- معركة في ميدان الفقه، وانتهج أساليب الحجاج الفقهي

العديد من الكتابات في «جريدة تقويم الوقائع العثمانية» التي تبين فوائد الكرنتينا والحض على تطبيقها ، وفي هذا الخصوص تم تطبيق أصول التحفظ أو الحجر الصحي في مستشفى مالتبى «Maltepe hastanesi»[1] وبرج الفتاة «kız kulesi»[2] وبعد ذلك تم انشاء تشكيلات خاصة بالتصدي للأوبئة والحرص على تطبيق الحجر الصحي .

ويمكن القول أنه تم تطبيق الكرنتينا في الدولة العثمانية بشكل أكثر تنظيما ابتداء من سنة ١٨٣٥م في منطقة جاناقلعة Çanakkale[3] ، وهذا

بالاستناد إلى النصوص الدينية من القرآن والسنة واستحضار بعض أقوال العلماء ليقول لمعاصريه إن الاحتراز من الوباء أمر مطلوب شرعا، وأنه لا يعني الفرار من قدر الله.

ودعا إلى تطبيق نظام "الكرنتينا Quarantain "في رسالته التي ألفها في العام١٢٥٢هـ/نحو ١٨٣٦م، حاثا الجميع على الاستفادة من الأوروبيين ونظامهم الصحي لأنهم بلغوا فيه درجة علمية كبيرة مقارنة بالمسلمين في ذلك الزمان. حرص حمدان بن عثمان خوجه على تصدير رسالته بتقريض لثماني شخصيات علمية، تؤكد أن ما جاء فيها يستند إلى تأصيلات شرعية من الكتاب والسنة وأقوال العلماء المتّبعين، وهذا لوحده يؤكد حجم الضغط الذي استشعره وهو يخوض غمار موضوع كهذا يمكن أن يلقى فيه معارضة شرسة.

وأنحى في كتابه باللائمة على من أسماهم "المتعصبون" الذين يرفضون اتخاذ أي تدابير وقائية، استنادا إلى فهمهم لبعض النصوص الشرعية التي تمسكوا بها، ورتب مؤلفه على تسع مقالات وثلاثة أبواب وخاتمة في خمس مقاصد.أنظر: حمدان خوجة اتحاف المنصفين و الادباء فى الاحتراس عن الوباء ، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة ، الجزائر : ، ٢٠٠٧.

[1] مالتبى Maltape: منطقة تقع في إسطنبول في الجانب الاسياوي من المدينة بنيت فيها مستشفى يعد من أقدم المستشفيات الحديثة في الدولة العثمانية التي كانت تطبق الحجر الصحي . أنظر :
http://mimdap.org/2016/02/maltepenin-gecmithi-arif-atylgan

[2] برج الفتاة Kızkülesi: برج قديم بني قبل الميلاد في جزرة صغيرة بالقرب من ساحل منطقة إسكودار ومع تعاقب الحضارات والدول التي حكمت القسطنطينية أو إسطنبول حدثت فيه العديد من التعديلات بقي هذا البرج مهجورا سنين طويلة إلى أن استخدم عام ١١١٠ للميلاد كمحطة مخصصة للسفن القادمة عبر البحر الأسود ، و أثناء حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣ استخدم كبرج مراقبة وبقي كذلك إلى أن حصل زلزال عام ١٥٠٩ الذي أدى إلى تدميره ، و في عام ١٧٢١ أُحرق أيضا. بعدها تم اصلاحه ليستخدم كمنارة حتى عام ١٨٢٩ وحينها بدأ يستخدم بمثابة مقر للحجر صحي كرنتينا وعام ١٨٣٢ تم ترميمه من قبل السلطان محمود الثاني حيث تم إضافة الدعم الصلب حوله كإجراء احترازي ضد الزلازل كما تم افتتاح مطعم فخم جدا في الطابق الأول منه ومقهى في أعلاه ليوفر إطلالة ساحرة لا تنسى. إنه يعتبر اليوم إرثا تاريخيا يضاف إلى سجل اسطنبول الحافل بالمعالم الأثرية الهامة .أنظر:
MEHMET SAİT TÜRKHAN: **XVIII. Yüzyılda Kız Külesi, Üsküdar Sempozyumu V – 1-5** Kasım,2007,Bildiriler, c. I,İstanbul 2008, s. 653-664.

[3] دخلت مدينة جاناق قلعة تحت حكم العثمانيين وتم تأسيس هذه المدينة على شواطئ مضيق الدردنيل ، وهي المستوطنة التي بدأت حول قلعة شيمينليك عام ١٤٦٢.

قام الموظفون العسكريون المدنيون بتأسيس حي الجامع الكبير büyük camii Mahallesi بالقرب من مسجد الفاتح. و شكل الغجر الذين عملوا في بناء القلعة حي خاص بهم عرف حي الشاي Çay Mahallesi بعد تشكيل هذين الحيين ، جاء الإغريق ، الذين تعاملوا مع البحرية ، إلى المدينة من البيئة وشكلوا الحي اليوناني في الاتجاه الشمالي لحي الجامع الكبير ، استقر الأرمن أيضًا حول كنيسة ساحة النصر في نفس الوقت الذي سكن فيه اليونانيون وأنشأوا أحيائهم الخاصة. مدينة جاناق قلعة أظهرت تطورًا معينًا في طريقها حتى القرن الثامن عشر لتصبح مدينة ساحلية يثريها تكثيف النشاط الاقتصادي في المضيق. بينما كانت الأحياء القديمة تنمو ، استقر اليهود ، الذين قاموا بأنشطة تجارية ، في شرق المدينة وأنشأوا الحي اليهودي. يؤدي دور تجارة البوسفور والمدينة الساحلية المرفقات التجارية والقنصليات الفخرية إلى المدينة ، ويبلغ عدد هؤلاء الممثلين عشرين في وقت قصير. يشكلون حي المرفقات التجارية على طول كوردون ،مع بداية انهيار الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر قام المسلمون بالهجرة من جزر بحر إيجه ، و شبه جزيرة القرم والبلقان إلى بر الأمان بالأناضول. استقر بعض منهم في جاناق قلعة. بحيث تم إنشاء حي التتار في ذلك الوقت. استمر سكان المدينة بخلاف المسلمين ، في التوسع بدلاً من الهجرة. أسسوا حيًا يونانيًا جديدًا. ويشهد التاريخ بأنه حدث في هذه المدينة ومضيقها الدفاع المستميت ضد سفن دول الحلف أثناء الحرب العالمية الأولى وأنتصر المسلمون الذين جاؤا من كافة البلاد الاسلامية من الشام وفلسطين ومصر وتونس والجزائر وكان هذا الانتصار سنة ١٩١٥. أنظر: موقع صفحة مديرية الثقافة والسياحة لمدينة جاناق قلعة https://canakkale.ktb.gov.tr/TR-70468/tarihce.html ، أيظا:الكتاب الصادر عن مركز الأرشيف التركي تحت مسمى جاناق قلعة في وثائق الأرشيف العثماني وهي مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة **Osmanlı Belgelerinde ÇANAKKALE MUHAREBELERİ, T.C. BAŞBAKANLIK DEVLET** GENEL MÜDÜRLÜĞÜ Osmanlı **ARŞİVLERİ** Arşivi Daire Başkanlığı Yayın Nu: 71, A N K A R A , 2005.

بعد تأثر المناطق الواقعة على البحر الابيض المتوسط بوباء الكوليرا واستفحاله بها ، وكان يتم توقيف كل السفن لمدة زمنية في الحجر الصحي وهذا ما تم بالفعل مع المسافرين الجزائريين والتونسيين الذين تم تمديد فترة حجرهم الصحي لمدة عشرة ايام بعد أن كانت خمسة ايام وهذا بقرار موجود لحد الساعة بالأرشيف العثماني [١].

قد كان السلطان العثماني محمود الثاني موليا أهمية كبرى في قضية الحجر الصحي – الكرنتينا بحيث تم عقد مجلس للمشورة حضره العلماء المسلمون من أجل ايجاد فتوى فقهية لهذه النازلة وبذلك افتى شيخ الاسلام بجواز تطبيق الكرنتينا لتسن فيما بعد كقانون يطبق تطبيقا صارما وقد كان يعقد غي هذا المجلس اسبوعيا من أجل التشاور في ما يخص تطبيق الكرنتينا وتم الاعلان عنه رسميا سنة ١٨٣٨م

[١] أنظر في الملحق رقم : نص قرار همايوني صدر سنة ١٨٨٨م بخصوص تمديد الحجر الصحي – الكرنتينا على المسافرين الجزائريين والتونسيين وعلى بضائعهم والسفن التي أقلتهم .

ليضم هيئة شرعية تتمثل في شيخ الاسلام الشيخ أسد أفندي وهيئة طبية يرأسها الحكيم عبد الحق مولا وهيئة عسكرية يرأسها سليم باشا . وقد اطلق على هذا المجلس العديد من التسميات نذكر منها : مجلس الصحة ، مجلس الكرنتينا ، مجلس الأمور الصحية ، نظارة الكرنتينا ، نظارة الصحة ، مجلس التحفظ .[1]

IV- أماكن تطبيق الحجر الصحي – الكرنتينا – في الدولة العثمانية:

وقد انشئت العديد من النقاط من اجل تطبيق الكرنتينا في اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية ، إسطنبول ،وبلاد الثلاثة Bilâd-ı Selâse[2] ، ومضيق البوسفور كان يتم اخضاع كل المرضى أو غيرهم من كل الملل والنحل للحجر الصحي ، وكان لا يتم دفن الاموات جراء الاوبئة الا بإذن وإخطار من مجلس الكرنتينا ، بحيث تم انشاء مستشفيات خاصة بكل ملة او جماعة دينية وكان يتم مراقبة كل السفن الداخلة والخارجة من اسطنبول واعطائها تقارير طبية تبين حالة ركابها الصحية . اما فيما يتعلق بخارج إسطنبول كبورصة أو طرابزون او جاناقلعة ففي هذه المدن أيضا تم إنشاء مراكز لتطبيق الحجر الصحي – الكرنتينا بحيث تم تعيين مدير الحجر الصحي المدعو أسد أفندي هذا الاخير الذي حرص على تطبيق الكرنتينا واجراء الفحوصات المتكررة من أجل السماح للمسافرين سواء أكانوا عثمانيين أو أجانب بالدخول أو الخروج . أما بخصوص الخبراء من أجل تطبيق الحجر الصحي فإن الدولة العثمانية ولعدم توفر هذه الأخيرة عليهم

---

[1] Karantina, s. 463-465 .

[2] بلاد الثلاثة Bilâd-ı Selâse وهوتعبير يطلق على الأقضية الثلاثة الواقعة بالقرب من إسطنبول إذا إعتبرنا أن إسطنبول كقصر وعاصمة كانت تتموقع في منطقة السلطان احمد وتوب كابي وماجاورها أما هذه الأقضية فكانت بعيدة قليلا وهذه الاخيرة هي قضاء أيوب وقضاء غلطة وقضاء إسكودار وقد شاع هذا التعبير أو المصطلح وأصبح يكتب على الوثائق الأرشيفية الرسمية بهذا الشكل إسطنبول وبلاد الثلاثة "İstanbul ve bilâd-ı selâse" وهذا إبتداءا من بدايات القرن العشرين للمزيد أكثر أنظر:

MEHMET İPŞİRLİ,**BİLÂD-ı SELÂSE بلاد ثلاثة**, TDV İslâm Ansiklopedisi , cil ٦, İstanbul, ١٩٩٢, s. ١٥١-١٥٢.

H.Hüsnü KOYUNOĞLU,**THE SIBAYAN MEKTEPS (PRIMARY SCHOOLS) AND POPULATION IN BİlAD-I SELASE(THREE TOWNS: ÜSKÜDAR-GALATA AND EYÜP) IN THR EARLY PART OF THE 18 CENTURY**,Tarih Dergisi , sayı 60,İstanbul ,2014,s.17-42.

طلبت الدولة من الامبراطورية النمساوية خبراء نمساويين وقد أمضى هؤلاء الخبراء عقدا مع الدولة العثمانية وفي هذا الخصوص فان المترجم زيمون الذي كان مترجما للدكتور ميناس قد كتب الكثير من المعلومات المتعلقة بتطبيق الكرنتينا اذ يقول أن الدكتور ميناس قام بتشكيل لائحة تتضمن داخلها بعض الاجراءات التي من شأنها التقليل من حدة الوباء وانتشاره داخل المدينة وقام بتطبيق بعض التدابير التي اتخذت في الدول العثمانية[1]

V- تدخل الدول الأوربية في مجلس الكرنتينا – او نظارة الكرنتينا:

وبما أن الكرنتينا كانت لها أبعاد صحية كانت لها أيضا أبعاد تجارية وخارجية وكانت هناك صراعات بين الدول الاوربية في من يتحكم في مجلس الكرنتينا العثماني وبعد الطلبات المتكررة التي تلقاها وزير الخارجية العثماني آنذاك رشيد باشا قام بضم ممثلي سفراء الدول الاوربية المتواجدين بإسطنبول إلى مجلس الكرنتينا ، بعد أن كانت عضويتهم في هذا المجلس مؤقتة سرعان ما تحولت إلى عضوية دائمة وأخذوا بذلك صفة صاحب الرأي والمشورة وبعدها أصبحوا فاعلين في صناعة القرارات داخل هذا المجلس بعد أن نجحوا في تدويله وقد أنعكس هذا سلبا على الدولة العثمانية بحيث قام ممثلوا سفراء الدول الاوربية بتشجيع السفن الاوربية على الاخلال بالقوانين الصادرة في هذا الخصوص وما أن حاولت الدولة العثمانية على زيادة عدد ممثليها في هذا المجلس الا أن سرعان ما فشلت في هذا المسعى[2]

VI- اجراءات السلامة و الحجر الصحي – الكرانتينا – المطبقة من قبل الدولة العثمانية في خدمة الحجاج المسلمين:

بعد المؤتمر الدولي الطبي المنعقد بإسطنبول[3] سنة ١٨٦٦م تقرر إرسال

[1] BA, HH, nr. 37475-F الارشيف العثماني أرشيف البحرية

[2] Düstur,Birinci tertip, II, 837-839 - BA, İrade-Dahiliye, nr. 73547.

[3] المؤتمر الصحي الدولي الثالث: اسطنبول ، ١٨٦٦ عُقد المؤتمر الصحي الدولي الثالث للكوليرا ، والمعروف أيضًا باسم مؤتمر اسطنبول أو دار السعادت، في عام ١٨٦٦ بمبادرة من فرنسا ، التي كانت تستجيب للانتشار السريع لوباء الكوليرا الرئيسي لعام ١٨٦٥ من الحجاز إلى مصر ثم إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط وأوروبا

عبر الطرق البرية والبحرية. ٣٠ كان المشاركون من الدبلوماسيين والأطباء من عدد من الدول: الدولة العثمانية (صالح أفندي ، د. بارتوليتي) ، النمسا (م. فيتسيرا ، دكتور سوتو) ، بلجيكا (Noidans) ، الدنمارك (Dumreicher) ، مصر (سالم بك) ، إنجلترا (Wil-liam Stuart، Dr. ED Dickson، Dr. E. Goodeve)، فرنسا (Lallemand) ، (Dr. Fauvel، اليونان (Kallergi) ، دكتور (GA Maccas ، إيران (Mirza Malcom Khan)، Dr. Sawas Efendi)، إيطاليا (Alexandre Vernoni) ، الأستاذ فريدريك بوسي ، دكتور سالفاتوري) ، هولندا (Keun) ، (Dr. Millingen ، البرتغال(Edouard Pinto de Soveral) ، Dr. B. A. Gomes)، Prussia (Baron Testa، Dr. Muhlig)، Russia (Dr. بيليكان ، والدكتور لينز ، والدكتور بايكو) ، وإسبانيا (دون أنطونيو ماريا سافوجيا ، والدكتور بيدرو فيليبي مونلاو) ، والسويد والنرويج (أولوف ستينرسن ، والدكتور هوبش) والفاتيكان (برونوني ، والدكتور إجناس سبارادو). شاركت ثماني عشرة دولة في المؤتمر المعروف أيضًا باسم مؤتمر Galatasaray بالإشارة إلى اسم المدرسة التي عقدت فيها ،

وركز النقاش على تجنب انتشار الوباء في أوروبا بدلاً من القضاء عليه. كان الاقتراح الأول إقامة محطة حجر عملاقة في باب المندب ، والتي كانت بوابة البحر الأحمر الهندي والحجاج الشرقيين الآخرين. إذا ثبت أن هذا غير كاف لاحتواء الكوليرا في الحجاز ، فسيتم توجيه الحجاج إلى منشآت الاستشفاء في موقع مناسب مثل Eloca ، وإلا فلن يسمح لهم بعبور مصر إلى أوروبا. كما تقرر إنشاء محطات رباعية على الحدود مع إيران واتخاذ إجراءات محددة ضد انتشار المرض فوق الخليج الفارسي . وكان الرأي أن الدولة العثمانية مسؤولة عن النقل البحري والحجر الصحي في المضيق. قبل عدد كبير من الدول. تم تعديل لائحة الكوليرا وفقًا لتقارير مجموعات العمل ومبادئ الحجر العلمي ، وانتهى المؤتمر بملاحظات ختامية من علي باشا في ٢٦ سبتمبر ١٨٦٦تضمنت مايلي: على الرغم من التنفيذ السريع لجنة طبية إلى الحجاز كل موسم حج وقد شمل هذا القرار منع الباعة في الاماكن والقرى التي ينتشر بها وباء الكوليرا من بيع الأكل للحجاج من أجل سلامتهم الصحية أما بالنسبة للحجاج القادمين من البلاد الاسلامية التي انتشر بها وباء الكوليرا بشكل كبير كالهند مثلا فإن الحجاج هناك كانوا يخضعون للرقابة الطبية اللازمة وأرسلت في هذا الخصوص هيئات صحية وبهذا كانت هناك نتائج إيجابية جنتها الدولة العثمانية التي استطاعت أن تجدها حجة لتقوية تواجدها من جديد في البحر الاحمر والحجاز في مضادة للعصيان الداخلي هناك وأرسلت بذلك قوات إلى هذه المناطق نذكر منها ما أرسلته إلى سواحل اليمن والحجاز "

للقرارات ، وصلت الكوليرا إلى بوابة بوخارست. صدرت أوامر بحظر الوصول إلى السفن التي لم تكمل مدة الحجر الصحي المنصوص عليها في اسطنبول ، أنادولو كافاجي ، وتفويض الشرطة البلدية بعرقلة وصول السفن والركاب دون وثائق مناسبة. أنظر

Nermin Ersoy, Yuksel Gungor and Aslihan Akpinar, **International Sanitary Conferences from the Ottoman perspective (1851–1938),** İn Hygiea Internationalis An Interdisciplinary Journal for the History of Public Health · January 2011.

T.C. SAĞLIK BAKANLIĞI (وزارة الصحة التركية) , **2019 YILIPERFORMANS PROGRAMI**,S.15.

جدة وينبوع ، ربيع ، ليث ، الحديدة، المخا ، عمران" وغيرها من المناطق التي شكلت فيها مراكز عسكرية ولتطبيق الكرنتينا في نفس الوقت ، وبعد ما شهدته الحجاز من معاناه جراء وباء الكوليرا سنة ١٨٩٣م أرادت حينها الدول الاوربية التدخل في مكة والحجاز عموما بدعوى الحفاظ على الصحة العامة وهذا بعد المؤتمر الدولي الصحي المنعقد في باريس سنة ١٨٩٤م[١] ولكن الدولة العثمانية لكي لا تفقد حقوقها في الحجاز وعدت بالقيام بإصلاحات كبيرة في المجال الصحي لحماية رعاياها وخشية منها من فقدان الحجاز لصالح القوى الاوربية.[٢]

ومن أجل تنفيذ ما وعدت به قامت الدولة العثمانية بإنشاء إدارة مكة الصحية، والتي سعى بعض الاشخاص الذين ضاق بهم الأمر ولم يعجبهم بالكيد وراء إلغاء هذه الإدارة الصحية التي تخدم المسلمين في مكة وتصاعد كيدهم خاصة بعد إعلان المشروطية الثانية سنة ١٩٠٨م ،إلى ان استطاعوا تصغير

[١] مؤتمر الصحة الدولي التاسع - الثالث من باريس ١٨٩٤ : ومن مخرجاته بشأن الكوليرا مايلي : ١) لإعطاء منظمة صحية صلاحية للتدخل في حج مكة على سبيل المثال مع: - المتطلبات المالية عند مغادرة الحجاج (الهند ، جزر الهند الشرقية الهولندية) لتقليل عدد المعوزين (٣/١ من الحجاج). – مراقبة جوازات السفر التي تثبت استيفاء المتطلبات التنظيمية. - السفن ذات النظافة الكافية ؛ - أخذ التدابير للحجاج والسفن المغادرة من الهند وهذا يشمل الحجاج من اليمن إلى الكاميرون ، وإعادة تنظيمها ، قبل أن تتمكن من معالجة ميناء الوصول في مكة المكرمة في جدة. - المراقبة الصحية للقوافل المتوجهة إلى حجاز. - إدخال تحسينات على lazaretto في جبل - الطور ٢)القلق بشأن الخطر الذي قد يسببه استيراد الكوليرا عبر الخليج الفارسي لتركيا وبلاد فارس ومناطق البحر الأبيض المتوسط وأوروبا والاتي من جزر الهند الشرقية الإنجليزية. لدرء هذا الخطر ، أصدر المؤتمر سلسلة كاملة من التدابير التفصيلية للغاية ، والتي طلبت تنفيذها في أقرب وقت ممكن من قبل الحكومة العثمانية ومجلس الصحة الأعلى في القسطنطينية ، في حين أن تطبيق الإجراءات المتعلقة بالحج تم تكليفه باللجنة. المنبثقة عن هذا المجلس بمساعدة الغربيين. والواقع أن المجلس فقد إلى حد ما استقلاله الأولي وطابعه الدولي ومثل أكثر من الرأي الصحي للدولة العثمانية . وبسبب كونها أحدثت حجرًا صحيًا معقدا للغاية ، كان هناك تعارض مع توصيات المؤتمر ، التي تتماشى مع توصيات البندقية ودريسدن ، تم توجيه طلب للدولة العثمانية نحو التخلي عن نظام الحجر الصحي وبأن يتم حل لجنة الحج أوإدارة مكة الصحية .أنظر:

Bernard HILLEMAND et Alain SÉGAL , **Les six dernières conférences sanitaires internationales de 1892 à 1926prémices de l'Organisation Mondiale de la Santé(O.M.S.)** , HISTOIRE DES SCIENCES MEDICALES - TOME XLVIII - N° 1 , P. 131. World Health Organization , **Global Health Histories , Origin and development of health cooperation,** https://www.who.int/global_health_histories/background/en/

[2] **Karantina, s. 463-465 .**

دورها وضمها إلى وزارة الداخلية سنة ١٩١٠ م.[١]

خاتمة:

في الختام نقول أن العوامل التي تحدد نجاح وفشل الحجر الصحي-الكرنتينا في المحافظات هي كالتالي: معلومات الأطباء الرئيسيين للحجر الصحي ، وقدرتهم على فرض مثل هذه الممارسات الأجنبية على سكان البلاد ، والبعد عن اسطنبول ، والسيطرة على مجلس الحجر الصحي ، وأهمية الميناء والقنصليات الأوروبية ، والتي واجهت صعوبات بالإضافة إلى الراحة. نقول أيضا بأنه كان الحجاج يجلبون الوباء معهم إلى بلادهم. وبهذا أدت الزيادات الكبيرة في القرن التاسع عشر في عدد الحجاج الموازي لتسريع النقل إلى تسريع انتشار التفشي بشكل أسرع وأكثر فعالية . من ناحية أخرى . وبما أن الهجرة المكثفة بسبب الحروب في القرن الحادي والعشرين كانت فعالة في زيادة الأوبئة ، فإن المستشفيات التي عولجت فيها الحالات كانت في الواقع بمثابة نوع من الحجر الصحي. وبسبب عدم كفاية معرفة الأطباء ، قد يتأخر في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لأنه يخلق مشاكل في عملية فهم ما إذا كان هناك وباء خطير.

يجب القول بأن مستوى وعي الناس بالحجر الصحي الذي تم تطبيقه يؤدي إلى التأثير على عملية الكرنتينا إيجابًا أو سلبًا ، خاصة كون أطباء الحجر الصحي أجانب وعدم معرفتهم بالنظام الديني والثقافي جعل أفراد مجتمع الدولة العثمانية يرون هؤلاء الأطباء مشبوهين ولا يعتمدون طرق العلاج الصحيحة . اعتقد المسلمون في الدولة العثمانية أن الأدوية التي يقدمها الطبيب المسيحي ستعطل وضوئهم أو تلغي عبادتهم . لهذه الأسباب ، كان اختيار الناس هو الأطباء المحليين الذين استخدموا طرق العلاج التقليدية. من ناحية أخرى ، فإن محاولات الأطباء المحليين لشفاء المرضى بأدويتهم الخاصة ستضر أكثر مما تنفع. بما أن الأشخاص الذين ماتوا من جراء تفشي الاوبئة يدفنون بطرق تقليدية ما يؤدي إلى انتشار الأوبئة أكثر رغم التدابير المتخذة من طرف الدولة العثمانية .

من ناحية أخرى ،عندما كانت حكومة الدولة العثمانية تحاول إظهار

[1] Sarıyıldız, **Hicaz Karantina Teşkilatı**, s. 136 .

امتنانها للمسؤولين والأطباء الذين قدموا خدمات مهمة في إطار تدابير الحجر الصحي التي تم اتخاذها أثناء تفشي المرض. كانت القوى الأوربية غير راضية على الاجراءات الصحية الصارمة التي تطبقها الدولة العثمانية بما فيها الإجراءات التي تم اتخاذها في مواجهة تسلل التجار الأوربيين الذين خافوا على أرباحهم التجارية لأن الأوروبيون كانوا قلقون بشأن إجراءات الحجر الصحي التي تم اتخاذها ، على أساس أنها ستسبب تكلفة للتجار الذين حصلوا على امتيازات مهمة مع معاهدة بالتاليمان ١٨٣٨ م . عارضت القوى الأوربية في المؤتمرات الصحية العالمية ، الاجراءات الصحية الصارمة للدولة العثمانية واعتبرت أن ممارسات الحجر الصحي ستؤثر سلبًا على تجارتها ، وادعت القوى الأوربية أنه سيكون من الأنسب تطويق أو تطهير مناطق الدولة العثمانية من الوباء بدلاً من الحجر الصحي.

الملاحق:

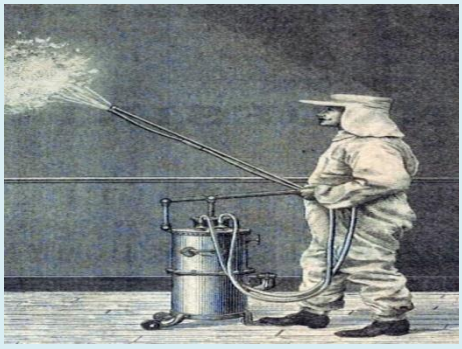

صورة توضح عملية تعقيم الأحياء والمقرات في أواخر العهد العثماني

صورة الجزيرة التي كانت تتخذها الدولة العثمانية كمركز أساسي للحجر الصحي

صورة مستشفى الحسكة بإسطنبول للنساء مع إجراءات الحجر الصحي – الكرنتينا –وهذا في أواخر القرن ١٩م (مكتبة جامعة إسطنبول ،ألبوم، رقم ١٣/٩٠٨٣٣ İÜ Ktp., Albüm, nr. 90833/13)

مكان مخصص من طرف منظمة الهلال الأحمر العثماني للحجر الصحي - الكرنتينا أثناء حرب القرم عرفت المنطقة بمستشفى خديمكوي الخاص (أرشيف الهلال الأحمر التركي)

صورة لمخبر مستشفى ارزنجان التابع للهلال الأحمر العثماني وهي لأطباء يقومون بتحاليل لإيجاد دواء مضاد لوباء الكوليرا تعود هذه الصورة لسنة ١٩١٦م (أرشيف الهلال الأحمر التركي)

http://mimdap.org/2016/02/maltepenin-gecmithi-arif-atylgan

World Health Organization , Global Health Histories , Origin and development of health cooperation, https://www.who.int/global_health_histories/background/en/

https://canakkale.ktb.gov.tr/TR-70468/tarihce.html

الأوبئة والأمراض التي اجتاحت العراق في العهد العثماني وطرق الوقاية منها

أ. م. علي كامل حمزة السرحان
جامعة الفرات الأوسط التقنية/المعهد التقني بابل

المستخلص :-

شـــهد العـــراق تـــدهوراً فـي أوضـــاعه السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعيـــة، إذ تعرض إلى أوبئة وأمراض ومجاعات وتخلف وجهل وفقر خلال العهد العثماني، فضلاً عن الكوارث الطبيعية، ما أدى إلى انتشار أوبئة وأمراض متعددة مثل (الطاعون، الهيضة، ... الخ) ذهب ضحيتها آلاف الأشخاص ، ونظراً لتـدهور النظـام الصـحي وتخلفـه في الدولـة العثمانيـــة، ولقلـــة الأدويـــة والأطبـــاء أو انعدامهم، واعتماد الأهالي على المتطببين في علاجهـم للأمـراض، وفي بعـض العلاجـات تدخل الجهل والشعوذة مما أثر تأثيراً سلبياً وأودى بحياتهم.

Epidemic and diseases that swept Iraq during the Ottoman era and methods of prevention

Assist. Prof. ALI K. Hamzah AL-Sarhan
AL-Furat Al-Awsat Technical Babylon Technical University .Institute, Babylon, Iraq

Abstract:

Iraq has seen a deterioration in the confections of political economic and social, as it offers to epidemic and diseases and famines and backwardness and ignorance and poverty during the Ottoman era, as well as natural disasters, which led to the spread of epidemic and diseases like multi (plague, cholera , ... ete) went lives of thousands of people, due to the deterioration of the medicines, doctors or Anaadamanm, and asopting parents to Almttabben in the treatment of diseases, and in some treatments intervention of ignorance and superstition, which had a negative impact on patients and claimed their lives.

تمهيد:

احتلت الأوبئة والأمراض في التراث الإسلامي مساحة واسعة، وألف الأطباء وعلماء الأمراض، والحكماء كتبا في الأمراض البشرية والحيوانية، وصناعة الأدوية وقد ضم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وأقوال الأئمة (ع) نصوصاً في الطب والأوبئة وطرق العلاج والوقاية من الأمراض[١].

ويعرف الوباء في اللغة بالقصر والمد مرض عام وجمع المقصور (أوباء) بالمد، وجمع الممدود (أوبئة)[٢]، أما الأمراض السارية (المعدية) هي التي تنتقل من الشخص المريض إلى الشخص السليم بصورة مباشرة وغير مباشرة مسببها كائن حي ويسمى الميكروب، وقد تصيب الإنسان فقط أو الإنسان والحيوان معاً أو الحيوان فقط[٣].

وقد ظهر حديثاً علم يختص بالأوبئة سمي بعلم الوبائيات وهو ترجمة للكلمة الإنكليزية (EPIDEMIOLOGY) والمشتقة من الأصل اللاتيني المكون من ثلاثة مقاطع، علم(OLOGY)، الناس (DEMOS)،وكلمة يقع على(EPI)، فيكون المعنى الحرفي لعلم الوبائيات هو (علم ما يقع على الناس)[٤].

وفي سنة(٢٥٨هـ/٨٧١م) انتشر وباء الطاعون في العراق وكان يموت في كل يوم بمدينة بغداد وحدها بين الخمسمائة إلى الستمائة شخص[٥]، وفي سنة(٣٢٩هـ/٩٤٠م) كثر الموت بين الناس حتى دفن جماعة في قبر واحد بلا صلاة وغسل[٦].

كانت الأوبئة والأمراض تجتاح مدينة بغداد في العصر العباسي من وقت إلى آخر، حتى أن الأدوية والعقاقير قد عدمت سنة(٤٩١هـ/١٠٩٧م)،وقد رؤي نعش عليه ستة موتى،ثم حفر لهم قبر واحد فألقوا فيه[٧].

وقد أشارت بعض المصادر إلى الأوبئة والأمراض دون تحديد نوعيتها ، ففي

---

[١] حسن عيسى الحكيم،الطب والمؤسسات الصحية في التراث الإسلامي،النجف الاشرف،مطبعة الكوثر،٢٠٠٨، ص١٠٩.

[٢] محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص٧٠٦.

[٣] فيلكس جرجي وآخرون، الصحة العامة والخدمات الصحية ، ج٢، بغداد، مطبعة مؤسسة الثقافة العمالية، ١٩٨٠، ص٥.

[٤] صلاح الدين احمد رحيم، المبادئ العامة لعلم الوبائيات ، بغداد، شركة التأمين للطباعة والنشر ، ط١، ١٩٨٩، ص٩.

[٥] جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج٥، حيدرآباد، مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، ص٨.

[٦] حسن عيسى الحكيم، المصدر السابق ، ص١١٤.

[٧] جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، المصدر السابق، ص١٣

سنة(٥٣١هـ/١١٣٦م)، فشا الموت في الناس بمدينة بغداد، حتى كان يموت في اليوم الواحد مائة شخص[٨].

- أسباب التدهور الصحي في العراق خلال العهد العثماني:

يمكن إيجاز أهم الأسباب التي أدت إلى التدهور الصحي في العراق خلال العهد العثماني بما يلي:

١- الفقر والمجاعات نتيجة القحط الحاصل من قلة الأمطار أو هجمات الجراد، فضلاً عن تخلف أساليب الزراعة[٩].

٢- كثرة الأهوار وعدم ردم المستنقعات والبرك الآسنة نتيجة الفيضانات[١٠].

٣- عدم الاهتمام بالبيئة وحمايتها من التلوث مثل وجود المقابر والمدابغ ومحلات الذبح داخل المدن، وعدم توفر مياه صالحة للشرب ، وعدم وجود نظام لتصريف المياه الآسنة والثقيلة[١١].

٤- ضعف الوعي الصحي لدى السكان في الإجراءات التي تتخذ للوقاية من انتشار الأمراض واعتمادهم في المعالجة على الجهلة والمشعوذين[١٢].

٥- سوء الإدارة وعدم الاستقرار الولاة وعدم الاهتمام بأحوال البلد، وتعرض العراق للحروب المتكررة والحصار، وكثرة الانتفاضات العشائرية وظهور النزعات الاستقلالية[١٣].

٦- تخلف التعليم،وانتشار الجهل خصوصاً عند البدو الذين اعتمدوا على التداوي بما يعرف(طب العرب)[١٤].

---

[٨] حسن عيسى الحكيم، المصدر السابق، ص١١٣.

[٩] ليدي دارور، في بلاد الرافدين، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، ١٩٦١، ص١٥٠ ؛ إبراهيم خليل احمد، الأمراض والأوبئة وتأثيرها في المجتمع الموصلي خلال العصور الحديثة ، التربية والعلم ، " مجلة" ، جامعة الموصل، العدد (٩)، ١٩٩٠، ص١١٢.

[١٠] متعب خلف جابر الجابري، تاريخ التطور الصحي في العراق للفترة من عام ١٩١٤-١٩٣٢، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة – كلية الآداب ، ١٩٨٩، ص١١.

[١١] عصمت برهان الدين عبد القادر، سالنامات الموصل العثمانية ، بغداد المجمع العلمي العراقي " مجلة "، المجلد (٤٥) ، ج٢، ١٩٩٨، ص١٧٠.

[١٢] عبد الحميد العلوجي،تاريخ الطب العراقي،بغداد، ١٩٦٧، ص١٤٥؛ نمير طه ياسين، بدايات التحديث في العراق ١٨٦٩-١٩١٤م ، رسالة ماجستير غير منشور ، الجامعة المستنصرية – معهد الدراسات القومية والاشتراكية ، ١٩٨٤، ص٣٧.

[١٣] نادية مسعود شريف الجراح ، الخدمات الصحية في الموصل في العهد الملكي (١٩٢١-١٩٥٨م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل- كلية الآداب ، ٢٠١٠، ص٧.

[١٤] شريف عسيران ، علم الصحة ، ج١، بغداد، ١٩٤٩، ص٢٤.

٧- التباين الشديد في درجات الحرارة بين فصل الشتاء والصيف مما هيأ الأرضية لانتشار العديد من الأمراض[١٥].

٨- امتازت معظم مدن العراق بازدحام البيوت وضيق أزقتها وعدم نظافتها[١٦]، إذ كانت النظافة معدومة في شوارع المدن والحيوانات تعج في طرقاتها، مما سبب تراكم الأوساخ في الشوارع، ومن ثم تكاثر الذباب والحشرات الضارة فكانت سبباً في انتشار أمراض عديدة[١٧].

٩-عدم وجود إدارة صحية كفؤة،وقلة الكوادر الطبية المؤهلة والمدربة،وعدم وجود عدد كاف من المستشفيات والمستوصفات[١٨].

- أهم الأوبئة والأمراض التي انتشرت في العراق خلال العهد العثماني:

نتيجة للأسباب التي ذكرناها مجتمعة انتشرت الأوبئة والأمراض والتي كانت غالباً ما تؤدي إلى هلاك الكثير من السكان ولاسيما في المدن المزدحمة، وكان من أهم تلك الأوبئة والأمراض هو وباء الطاعون[١٩].

١- وباء الطاعون :-

حدثت خلال العهد العثماني في العراق موجات كثيرة من وباء الطاعون، ففي سنة (١٠٢٨هـ/١٦١٩م)، ظهر وباء الطاعون وفتك بأعداد كبيرة من الناس في بغداد[٢٠]، وفي سنة(١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) تفشى الوباء وكانت الوفيات عدة آلاف من الناس في اليوم الواحد في بغداد[٢١]، وعاد سنة (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)[٢٢]

---

[١٥] عصمت برهان الدين عبد القادر، المصدر السابق، ص١٧٠.

[١٦] سليمان الصايغ، تاريخ الموصل ، ج١، مصر، ١٩٢٣، ص٣٣٣ ؛ هنري ، أ.فوستر، تكوين العراق الحديث، ترجمة عبد المسيح جويد، بغداد، ١٩٤٥م، ص٤٩١ ؛ منتشا شفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة هاشم صالح التكريتي ، بغداد، ١٩٧٨، ص٨٨ ؛ جون اشر ، مشاهدات جون اشر في العراق (رحالة أوربيون في العراق)، ترجمة جعفر خياط ، بيروت، دار الوراق للطباعة، ط١، ٢٠٠٧، ص١٣٠.

[١٧] إبراهيم خليل احمد، النشاطات الطبية والخدمات الصحية في العراق(١٢٥٨-١٩٢١م) ، الموصل، آداب الرافدين " مجلة" ، العدد(١٦)، ١٩٨٨، ص٢٥١ .

[١٨] ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، بغداد، المكتبة الحيدرية ، ط٤، ١٩٦٨، ص٣٨٠ ؛ حسين محمد القهواتي، دور البصرة في الخليج العربي، بغداد، ١٩٨٠، ص٥٣.

[١٩] الطاعون : سببه جرثومة ينقلها البرغوث إلى الجرذان والإنسان، ويظهر الطاعون عادة في فصل الربيع موسم تفريخ البراغيث، فيصيب الغدة اللمفاوية والرئة، ويعد من الأمراض المعدية. ينظر: متي عقراوي، العرق الحديث، ترجمة مجيد خدوري، بغداد، مطبعة العهد ١٩٣٦، ص٢٢٠.

[٢٠] باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن ، بغداد، مكتبة النهضة ١٩٨٩، ص١٦٩.

[٢١] المصدر نفسه، ١٩٩.

[٢٢] المصدر نفسه، ص٢٠٠.

وقتل الكثير من أبناء بغداد، وأيضا سنة(١٠٨٠هـ/١٦٦٩م) الذي كان يموت به نحو (٥٠-٧٠) [٢٣] نسمة يومياً في بغداد.

وتفشى الطاعون في العراق سنة(١١٠١هـ/١٦٨٩م) ، وظل يفتك بالناس مدة تزيد على خمسة أشهر، ويعتقد بعض المؤرخين ان هذا الطاعون قد قضى على مائة ألف نسمة في بغداد [٢٤]، وظهر مرة أخرى في سنة(١١٠٢هـ/١٦٩٠م) وكان اشد فتكاً وضراوة واستقام مدة ثلاثة أشهر فقضى على خلق كثير من سكان بغداد [٢٥].

وفي سنة(١١٠٣هـ/١٦٩١م) تفشى الطاعون في البصرة وكان خطيراً بحيث أخمدت الحياة فيها، فقد كان الناس يموتون بمقدار (٥٠٠) نسمة في اليوم الواحد [٢٦].

كما حصل وباء الطاعون في بغداد والنجف في سنة(١١٣١هـ/١٧١٨م) ونزح الكثير من الأهالي عنهما [٢٧]، وفي أواخر سنة(١١٥٠هـ/١٧٣٧م) تفشى الوباء المذكور في الموصل حتى اواخر سنة (١١٥١هـ/١٧٣٨م)، فبلغت إصاباته ألف شخص في اليوم الواحد [٢٨]، ولم تمض سنتان على ذلك حتى ظهر في بغداد أيضاً، أي في سنة(١١٥٢هـ/١٧٣٩م) فقضى على خلق كثير من سكانها [٢٩]، عاد الوباء مرة ثانية الى الموصل سنة(١١٧٥هـ/١٧٦١م) منتقلاً إليها من كردستان حيث أهلك الكثير من أهلها [٣٠].

وقد وفد الطاعون من استانبول على مدن العراق سنة(١١٨٦هـ/١٧٧٢م) ففتك بأهلها فتكاً ذريعاً، ولم تنجو أية مدينة أو قرية من آثاره، وتدل التقديرات المحلية المرتفعة لعدد الموتى رغم مبالغتها على فداحة آثاره، فقد قدر عدد الموتى في الموصل، وحدها بنحو ألف إنسان كل يوم

---

[٢٣] المصدر نفسه ، ص٢٠٦.

[٢٤] عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٩٥٣ ، ص١٢٩.

[٢٥] المصدر نفسه، ص١٣١.

[٢٦] تايلر، رحلة تايلر إلى العراق، رحالة أوربيون في العراق، ترجمة بطرس حداد، دار الوراق، ط١، ٢٠٠٧، ص١٠٢ ؛ الكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ج٢، ترجمة هاشم صالح التكريتي، بغداد، دار ميسلون للنشر ، (د.ت) ، ص١١٩.

[٢٧] محمد حسين حرز الدين، تاريخ النجف الاشرف ، ج٢، قم المقدسة ، مطبعة نكارش، ط١، ١٩٦٥ ، ص٣٢٥.

[٢٨] محمد أمين بن خير الدين الخطيب العمري، منهل الأولياء، تحقيق سعيد الديوه جي، الموصل، مطبعة الجمهورية، ١٩٦٧، ص١٤٩.

[٢٩] جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد في ١٨٣٤م، ترجمة جعفر خياط ، بغداد، مطبعة المعارف، ط١، ١٩٦٤، ص١٠٩.

[٣٠] احمد علي الصوفي، ارض السواد ، الموصل، مطبعة الاتحاد الجديدة، ١٩٥٥، ص٩٧.

[٣١]، ومثل ذلك في كركوك وفي أكثر أهل أربيل وامتد إلى تكريت وعانه وحديثة وغيرها، وكان هوله في بغداد عظيماً، حيث قدر عدد الموتى في اليوم الواحد بأكثر من ألف نسمة [٣٢].

عاد الطاعون إلى الموصل مرة أخرى في سنة(١١٨٧هـ/١٧٧٣م) ومن جراء عدم السيطرة عليه امتد إلى مدينة النجف الاشرف لذا سمي (بالطاعون العظيم) ، وعرف بلسان العامة بـ (ابو چفچير)[٣٣].

صار العراق يئن تحت وطأة الطاعون خلال السنوات(١١٨٧-١١٨٨هـ/١٧٧٣-١٧٧٤م) [٣٤]، بحيث أن وباء الطاعون الذي اجتاح العراق سنة(١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م) وقد تسبب في هلاك نسبة كبيرة من سكان ولايتي بغداد والبصرة، وقد قدرت الوفيات بما يقارب المليون نسمة[٣٥].

يبدو ان هناك مبالغة في عدد الوفيات من جراء مرض الطاعون في ولايتي بغداد والبصرة، إلا أذا كان يقصد بهذا التقدير عموم ولايات ومدن العرق.

ظهر وباء الطاعون مرة أخرى في بغداد سنة(١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م) وفتك بالكثير من الأهالي، وبعد سنة ظهر في مدينة النجف الاشرف وحصد الكثير من أهلها [٣٦].

إن تفشي وباء الطاعون في مدينة النجف الاشرف كان بسبب وفود الكثير من الزائرين والجنائز من أجل دفنها من البلدان المجاورة مثل إيران وبعض دول الخليج العربي الذين كانوا في بعض الأحيان مصابين بالمرض مما يؤدي إلى انتقاله إلى باقي الأهالي من خلال اختلاطهم في أثناء مواسم الزيارة او السكن او التسوق.

وفي سنة(١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م) عم القحط جراء انقطاع الأمطار ، الأمر الذي زاد من ارتفاع الأسعار بشكل فاحشاً، إذ بلغ سعر الوزنة من الحنطة ثمانية قروش، ومن الشعير ستة قروش، فاضطر الوالي سليمان باشا الكبير[٣٧](١١٩٥-١٢١٧هـ/

---

[٣١] ياسين العمري ، منية الأدباء ، تحقيق سعيد الديوه جي، الموصل، ١٩٥٥، ص١٨٨.

[٣٢] ياسين العمري، زبدة الآثار الحلية، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، النجف الاشرف، ١٩٧٤، ص١٣٥.

[٣٣] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٣٦٠.

[٣٤] ستيفن همسلي لونكريك، المصدر السابق، ص ص ٢٢٦- ٢٣١.

[٣٥] للوقوف على المزيد من التفاصيل ينظر: المعهد الطبي العراقي " مجلة"، مج١، ج٣، بغداد، ١٩٣٥.

[٣٦] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٣٦٨.

[٣٧] سليمان باشا الكبير: كان مملوكاً لمحمد افندي (متسلم ماردين) وبعد وفاة سيده رحل إلى بغداد والتحق بخدمة سليمان ابو ليلة، ثم صار في عهد عمر باشا رئيساً للقسم الداخلي، وقد ابدى حزماً ودراية في تسمية الواجبات الملقاة على عاتقه مما اعجب به الوالي فعينه متسلماً للبصرة سنة ١٧٥٦م، ينظر: باقر أمين الورد، بغداد (خلفاؤها – ولاتها- ملوكها- رؤسائها) منذ

١٧٨٠-١٨٠٢م) إلى توزيع المخزون من الأطعمة على الأهالي بأسعار واطئة، ومع هذا كله لم ينفع هذا التدبير، فحصلت مجاعة وتفشى وباء الطاعون فكان فتكه بالناس ضغثاً على ايالة بغداد، وقد استقام مدة شهر وقضى على ما لا يحصى من الأرواح [٣٨].

في شهر ذي القعدة من السنة(١٢١٦هـ/ ١٨٠١م) ظهر وباء الطاعون في مدينة بغداد وبدا ينتشر، وأخذ يفتك بسكان بغداد ويحصد منهم ما يقرب من سبعين شخصا في اليوم الواحد [٣٩]، وبعد سنة ظهر الوباء مرة أخرى في بغداد في شهر شوال ودام لمدة ثلاثة أشهر أي حتى سنة(١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م)[٤٠].

لقد أورد لنا الرحالة أبو طالب خان في معرض رحلته إلى العراق سنة(١٢١٨هـ/ ١٨٠٤م) ان سبعين ألف شخص قد ذهبوا ضحية وباء الطاعون، الذي تفشى في عدد كبير في الأسر، الأمر الذي أربك أحوال البلاد وانعدم الأمن وتوقف التجارة والحركة، وقد سرت عدواه بعد ذلك إلى البصرة [٤١].

وقد تفشى في بغداد وباء الطاعون في أواخر الربيع سنة(١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م) ومات بسببه الكثير من الأهالي، وبعد سنة ألقى الله ما تصفه الألسنة من وباء عظيم وبلاء عميم كاد يفني أهل البصرة وهو وباء الطاعون الذي جاء وافداً إليها مع الزائرين والسياح الأجانب من الهند وإيران والخليج العربي [٤٢].

كما أدى انتشار وباء الطاعون في الموصل سنة(١٢٤٤هـ/١٨٢٨م) الى ارتفاع نسبة الوفيات في تلك المدينة الى جانب تفشي المجاعة بين الأهالي [٤٣].

عاد وباء الطاعون بسنتين في النجف، ففي شهر رمضان من سنة(١٢٤٦هـ/١٨٣٠م) اخذ الوباء بالانتشار فبلغت الوفيات ما يقرب من ثلاثمائة شخص لكل يوم [٤٤]، وقد توفي من أعلام النجف بذلك الوباء كل من الشيخ عبد

التأسيس عام ١٤٠هـ- ٧٦٢م إلى عام ١٤٠٣هـ- ١٩٨٤م، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٤، ص٢٢٥.

[٣٨] جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٠.

[٣٩] رسول حاوي الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد، مكتبة النهضة، د.ت، ص٢١٦.

[٤٠] عثمان بن سند، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، بغداد، دار الحكمة ، ١٩٩١، ص٢٥٣.

[٤١] أبي طالب خان، رحلة أبي طالب خان الى العراق وأوروبا ، ترجمة: مصطفى جواد ، بغداد، دار الوراق للنشر، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٨٣.

[٤٢] عثمان بن سند، المصدر السابق، ص٣٣٨.

[٤٣] السير واليس بدج، رحلات الى العراق، ج١، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، دار الزمان للطباعة، ١٩٦٦، ص٢٨٥.

[٤٤] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٤٣٥.

الحسين بن الشيخ محمد بن علي بن الحاج محمد الاعسم النجفي [٤٥]، والسيد عبد الغفور بن محمد إسماعيل الحسيني اليزدي [٤٦].

في شهر نيسان سنة(١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) وبعد أن كمن الطاعون بعض الوقت في سواحل البحر الأسود، اندفع إلى بلاد وادي الرافدين وأخذ يقترب من بغداد، وراح يواصل مسيرته المهلكة المريعة من قرية إلى قرية فيغطي على كل الحياة التي تقع تحت وطأة تقدمه المميت، والذي ينبغي ملاحظته ، ان وباء الطاعون قد انتشر أول الأمر في الحي اليهودي ، وكان ذلك ناتجاً على أكثر الاحتمالات من استعمال اليهود لمواد الدباغة، فقد مات في ذلك الحي بغتة خمسة أفراد في بيت واحد [٤٧].

في بغداد كتب أحد المبشرين واسمه (غروفز) [٤٨] يقول " في اليوم العاشر من نيسان سنة(١٨٣١م) مات بالطاعون في الجانب الشرقي من المدينة (١٢٠٠) وفي اليوم التالي مات (١٤٠٠) ثم استقر معدل الوفيات على (١٠٠٠) يومياً، وبلغ خلال شهر (٣٠) ألف وفاة فأجهز هذا الوباء على ثلثي سكان بغداد [٤٩].

لقد ازداد عدد الوفيات في بغداد أثناء وجود وباء الطاعون فيها مع غرق المدينة بالمياه لارتفاع مناسيب نهر دجلة وتهدم البيوت إذ تأكد لدى المسؤولين في السراي بان عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة في اليوم الواحد [٥٠].

ومن الحوادث التي حصلت في جهات الباشوية الأخرى ما حصل في الحلة إذ لم يبق أحد من السكان بسبب الطاعون، بعد

---

[٤٥] عالم محقق فقيه وشاعر أديب، مدحه جل المعاصرين بالعلم ودقة النظر له كتاب (ذرائع الافهام الى أحكام شرائع الاسلام)، وكتاب (منسك الحج) وكتاب (الروضة في الشعر) وكتاب (رسالة في الصلاة). للمزيد ينظر: محمد بن علي بن عبدالله بن حمد الله حرز الدين، معارف الرجال، ج٢، تحقيق محمد حسين حرز الدين، النجف الاشرف، مطبعة الآداب، ١٩٦٤، ص٢٤.

[٤٦] وهو من أعلام النجف في عصره له كتاب (أصول الفقه)، وكتاب (التحفة الغروية)، وهو حاشية على كتاب (القوانين) ، للمزيد ينظر: محسن بن علي بن محمد رضا الطهراني المعروف بأغا بزرك الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج٢، بيروت، دار الأضواء، ط٣، ١٩٨٢، ص٢٠٦.

[٤٧] جيمس ريموند ولستد، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، مطبعة ثويني، ١٩٨٤، ص ص ١٠١-١٠٢.

[٤٨] السير واليس بدج، المصدر السابق، ص٤٣.

[٤٩] بيردي فوصيل، الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤-١٩١٤م)، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، دار الجمهورية للطباعة، ١٩٦٨، ص٥٣.

[٥٠] جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص ٩٨-١٠٢.

أن كان عدد نفوسها قبل الطاعون يناهز على العشرة آلاف نسمة [٥١].

استمر انتشار وباء الطاعون في مدينة النجف الاشرف، وتوفي فيها الكثير من الأهالي والأعلام، وسمي الوباء بالطاعون الكبير المؤرخ بقولهم (مرغز)[٥٢]، ومن ثم نزل الوباء إلى مدينة البصرة وتفشى فيها وقتل الكثير من أهاليها[٥٣].

يشير أحد المستشرقين بأن طاعون سنة(١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) انزل ضربة قاصمة بقوة البصرة الإنتاجية، فلم يسلم من أصل البصرة البالغ (١٠) آلاف نسمة سوى (٥-٦) آلاف نسمة فقط [٥٤].

في سنة(١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م) ظهر الطاعون في بادئ الأمر في البصرة، ثم مضى صعداً في مجرى دجلة فوصل إلى بغداد، ثم اختفى بعد مدة قصيرة[٥٥] نتيجة الإجراءات الاحترازية التي اتخذتها الحكومة والأهالي لما أصابهم في السنة الماضية من خسائر في الأرواح والأموال، ثم عاود الظهور مرة أخرى في سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م في المدينة وفتك بأهلها، مما أدى إلى نقصان عدد سكانها[٥٦].

وذكر مستشرق أخر أن وباء الطاعون الذي تفشى بين السنوات(١٢٤٧-١٢٥٤هـ/١٨٣١-١٨٣٨م) قد اجتاح مدينة البصرة وأدى الى هلاك الكثير من الأهالي، وظل ذلك أثره على عدد سكانها الذي لا يتعدى(١٢٠٠٠) نسمة[٥٧]، إذ كان مصدر ذلك الوباء الذي هو بسبب السفن الوافدة من الموانئ الهندية والإيرانية، وكذلك الزائرين والسياح من تلك الموانئ.

ورغم الإجراءات التي اتخذتها الحكومة من خلال دوائرها في الحجر الصحي إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار الأوبئة، ولاسيما إذا علمنا ان القناصل البريطانيين في البصرة أعلنوا عن تذمرهم من استمرار دوائر الحجر الصحي العثمانية في فرض مدة حجر صحي لا تقل عن عشرة أيام على القادمين من الموانئ الهندية والإيرانية بحجة زيادة نفقات البواخر، وان ذلك يعرقل التجارة البريطانية، ويتضح ان البريطانيين كانوا يهتمون بتجارتهم أكثر من اهتمامهم بحياة سكان البصرة، وعلى

---

[٥١] المصدر نفسه، ص١٠٨.

[٥٢] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٤٣٦.

[٥٣] يقظان سعدون العامر، البصرة في العهد العثماني الأخير، أو على الانترنت http://www, ivsl.org: basrah city, net/pather/book/ athmari/ athmani. Htm.

[٥٤] فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو، دار التقدم، ١٩٧١، ص١٦٩.

[٥٥] بيردي فوصيل، المصدر السابق، ص٥٣.

[٥٦] يقظان سعدون العامر، المصدر السابق، .

[٥٧] الكسندر اداموف، المصدر السابق، ج١، ص٧٠.

الرغم من الصيحات والاستغاثات المتكررة للدوائر الصحية في البصرة والتي وجهتها إلى عاصمة الدولة العثمانية استانبول بهدف مساعدتهم لتحسين الأوضاع الصحية ، إلا أنها باءت بالفشل [٥٨].

في سنة(١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م) تفشى الطاعون في أرجاء العراق ومن ثم حل بالنجف الاشرف في العاشر من رمضان من تلك السنة ففر أكثر من في النجف إلى خارج البلدة [٥٩]، وقد توفي الكثير من أهالي النجف وأعلامها أبرزهم الشيخ حسن كاشف الغطاء[٦٠].

أما في سنة(١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) انتشر الطاعون في الجهات الواقعة على الجانب الغربي من نهر الهندية واستمر في تقدمه حتى عم مدينتي كربلاء والنجف الاشرف وحصدا الكثير من الأرواح [٦١].

وحل طاعوناً آخر في سنة(١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م) ولكن كان أخف وطأة من سابقه، وبدأ في البصرة وتقدم نحو بغداد ولكن بعد مدة قصيرة اختفى [٦٢].

وتعرضت الموصل إلى مجاعات متعددة أثرت في صحة الأهالي، وكان أكثرها تأثيراً مجاعة سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) ، إذ هبت رياح السموم وأحرقت المزروعات [٦٣]، كما ان حصاد سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) كان رديئاً، وحصاد سنة(١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) كان قليلاً جداً بسبب الجفاف وقلة الأمطار [٦٤]، لهذا اجتاحت الموصل مجاعة أخذت تشتد يوماً بعد يوم فكانت أعداد كبيرة من سكان الأرياف تتوجه إلى المدينة بحثاً عن رغيف خبز، ولم يكن سعر الحنطة وحدها قد ارتفع بل المواد الغذائية كافة [٦٥]، فاضطر بعضهم

---

[٥٨] حسين محمد القهواتي، المصدر السابق، ص ص ٥٢-٦٤.

[٥٩] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٤٥٥.

[٦٠] عالم مدقق فقيه، وحسن الاستنباط والنظر الصائب، وكان شاعراً أديباً سريع البديهة، وقد أقام في الحلة المزيدية سنين معدودة وله فيها دار ومكتبة رجع الى النجف سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، لما توفي أخوه الأكبر زعيم الطائفة الأمامية الاثنى عشرية في النجف، واجتمع أهل الفضل والعلم عليه، فكان الزعيم المطاع. للمزيد ينظر: محمد بن علي بن عبدالله بن حمد الله حرز الدين، المصدر السابق، ج١، ص٢١٠.

[٦١] احمد نسيم سوسة، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية ، ج٢، بغداد، ط١، ١٩٤٥، ص ص ٢٦٤-٢٦٥.

[٦٢] هاشم الوتري ومعمر الشابندر، تاريخ الطب العراقي، بغداد، ١٩٣٩، ص١١.

[٦٣] سليمان الصايغ، المصدر السابق، ص٣١٤.

[٦٤] سارة شليدز، الموصل قبل الحكم الوطني في العراق، ترجمة باحثة الجومرد، الموصل، ٢٠٠٨، ص١٩٣.

[٦٥] نادية مسعود شريف الجراح، المصدر السابق، ص٨.

إلى أكل لحوم جثث الحيوانات[٦٦]، مما أدى إلى انتشار وباء الطاعون في الموصل[٦٧].

عاد الطاعون الى مدينة بغداد سنة(١٢٩٨هـ/١٨٨٠م) ، وامتد إلى النجف والهندية وإلى باقي مدن العراق[٦٨]، وهو الوباء الصغير المؤرخ بقولهم (مرغزان)[٦٩].

وقد قال السيد محمد بن السيد محمد مهدي القزويني في رسالته (طروس الإنشاء وسطور الإملاء) : " لما كانت سنة ١٢٩٨هـ وقع طاعون في النجف وفر سكانها وهجروا الديار والأوطان، ولم يبق في البلد شريف ولا وضيع ولا دني ولا رفيع حتى العلماء الأعلام والأشراف الكرام، ولم يبق في البلد متاع ولا في الأسواق كفن يباع ، ... "[٧٠].

يتبين من النص أعلاه أن وباء الطاعون كان يفتك بأهالي النجف بحيث هجروا المدينة، ولم يبق زاد ولا كفن بسبب كثرة الموتى، وغلق الأسواق لانعدام التجارة فيها.

انتشر الطاعون مرة أخرى في العراق سنة(١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، وقد كان قاسياً جداً هذه المرة حتى قيل انه أهلك نصف سكان مدينة النجف[٧١].

وقد ذكرت السائحة الفرنسية مدام ديولافوا خلال مرورها بمدينة الحلة سنة(١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، وباء الطاعون الذي أطاح بأهالي المدينة سنة(١٢٧٤هـ/ ١٨٣١م) وراح ضحيته عدد كبير من أهاليها حيث قالت: " الحلة إحدى المدن التابعة لحكومة بغداد، وقيل لي أنها اجتاحها في سنة ١٨٣١م وباء الطاعون وذهب ضحايا له عدد كبير من أهاليها، إلا أنها يسكنها اليوم خمسة عشر ألف تقريباً، وهم خليط من العرب والكلدانيين وصناع اليهود ومثريهم وجماعة من الشيعة الإيرانيين وموظفي الباب العالي ، .... "[٧٢].

عاد وباء الطاعون مرة أخرى في سنة(١٣١٠هـ/١٨٩٢م) وبدأ في الناصرية على نهر الفرات، وامتد بعدها إلى البصرة ومنها إلى بغداد، وقيل " إن أربعمائة حالة من الطاعون قد حدثت في البصرة في أسوأ أيام هذا الوباء"[٧٣].

---

[٦٦] بيردي فوصيل، المصدر السابق، ص٨٣.

[٦٧] للتفاصيل عن الأمراض التي تعرضت لها الموصل أثناء الحكم العثماني. ينظر: إبراهيم خليل احمد، الأمراض والأوبئة وانعكاساتها على مجتمع الموصل أبان العهد العثماني، التاريخية العربية للدراسات العثمانية "مجلة" ، تونس، العددان (١٧-١٨)، ١٩٩٨، ص١٩-٢٣.

[٦٨] عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٨، ص٥١.

[٦٩] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٥٤٧.

[٧٠] المصدر نفسه.

[٧١] المصدر نفسه، ص٥٥٣.

[٧٢] مدام ديولافوا، رحلة مدام ديولافوا الى كلدة - العراق سنة ١٨٨١م، ترجمة علي البصري، بغداد، دار منشورات البصري، ١٩٥٨، ص١٣٥.

[٧٣] ج.ج. لوريمر، المصدر السابق، ص٣٦٧٤.

وفي السنة التالية حدث الوباء في النجف الاشرف، وقد سرى إليهم من جهة الحجاز بعد قدوم الحاج من مكة المكرمة، فأهلك سكان المدينة وعم الموت والخراب [١].

في نيسان وأيار سنة(١٣١٩هـ/١٩٠١م) حدثت في البصرة عشر حالات وفاة من جراء الإصابة بالطاعون ، وبعدها بسنة حدثت حالات قليلة أصيبت بالوباء في بغداد [٢]، وفي الخامس عشر من ربيع الأول سنة(١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) ظهر الوباء في النجف مما أدى إلى نفور الكثير من أهلها إلى خارج البلدة من أجل حماية أنفسهم من الإصابة بذلك الداء الخطير [٣].

اجتاح مدينة النجف موجة من الطاعون سنة(١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، فأصدرت مديرية الصحة العامة أوامرها بعدم حمل الموتى إلى النجف الاشرف ، حتى منع أهل النجف أنفسهم من الدفن في الصحن العلوي المقدس، وضربت الصحة نطاقاً من الحرس داخل المدينة وخارجها [٤].

وفي أدناه جدول يبين اعداد الضحايا الذين أصيبوا بمرض الطاعون في المدن العراقية خلال العهد العثماني.

جدول رقم(١)

يبين اعداد الضحايا الذين أصيبوا بمرض الطاعون في المدن العر اقية خلال العهد العثماني[٥] .

المدن / السنوات	بغداد	البصرة	النجف	الموصل	الحلة	كربلاء
	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا
١٦١٩	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٦٣٥	عدة الاف	_____	_____	_____	_____	_____
١٦٣٨	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٦٦٩	٥٠-٧٠ يوميا	_____	_____	_____	_____	_____
١٦٨٩	١٠٠٠٠٠	_____	_____	_____	_____	_____

[١] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨.

[٢] المصدر نفسه، ص٣٦٨٢.

[٣] محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ج٣، ص٧٨.

[٤] مجيد الموسوي، الحاج عطية أبو كلل الطائي، بغداد، مطبعة السعدي، د.ت، ص٦٧.

[٧٨] الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على: باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، المصدر السابق،ص١٦٩؛ عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين،المصدر السابق، ج٥،ص١٢٩؛ محمد حسين حرز الدين، المصدر السابق، ص٣٦٨؛ رسول حاوي الكركوكلي، المصدر السابق،ص٢١٦؛ أبي طالب خان، المصدر السابق،ص٢٨٣؛ بيردي فوصيل، المصدر السابق،ص٥٣؛؛ جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٠٨.

١٦٩٠	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٦٩١	_____	٥٠٠ يوميا	_____	_____	_____	_____
١٧١٨	اعداد كبيرة	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٧٣٧	_____	_____	_____	١٠٠٠ يوميا	_____	_____
١٧٣٩	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٧٦١	_____	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____
١٧٧٢	١٠٠٠ يوميا	_____	_____	١٠٠٠ يوميا	_____	_____
١٧٧٣	_____	_____	اعداد كبيرة	اعداد كبيرة	_____	_____
١٧٧٤	٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	_____	_____	_____	_____
١٧٨٣	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٧٨٤	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٨٠١	٧٠ يوميا	_____	_____	_____	_____	_____
١٨٠٤	_____	٧٠٠٠٠	_____	_____	_____	_____
١٨١٩	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____	_____
١٨٢٠	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____
١٨٢٨	_____	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____
١٨٣٠	_____	_____	٣٠٠ يوميا	_____	_____	_____
١٨٣١	١٠٠٠ يوميا	٤٠٠٠	اعداد كبيرة	_____	ثلثي السكان	_____
١٨٣٨	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____	_____
١٨٤٥	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٨٦٧	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	اعداد كبيرة
١٨٨٠	_____	_____	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٨٨١	_____	_____	نصف السكان	_____	_____	_____
١٨٩٢	_____	٤٠٠	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٩٠١	_____	١٠	_____	_____	_____	_____
١٩٠٢	اعداد قليلة	_____	_____	_____	_____	_____

من خلال الجدول رقم(١) يمكننا القول ان الدولة العثمانية كانت تقوم أحيانا بإجراء إحصاء مكاني لبعض الولايات والمدن، ولم يكن إحصاءا دقيقا بالشكل الذي تجريه الدول المتحضرة، وإنما كان الغرض منه بالدرجة الأولى فرض الضريبة على الأراضي أو الجزية على أهل الكتاب من نصارى ويهود هذا من جانب، كما ان وباء الطاعون وافد وليس متوطن في الولايات والمدن العراقية، حيث نجد تركزه في المدن الحدودية التجارية مثل البصرة والموصل وبغداد أو في الأماكن المقدسة مثل

النجف وكربلاء أو في الحلة نتيجة دخول التجار والزوار والسياح إليها والاختلاط مع السكان المحليين مما أدى إلى انتقال ذلك الوباء، فضلا عن انعدام الخدمات الصحية من جانب آخر .

ويمكن من الجدول ذاته نلاحظ ان مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت وطأة ذلك الوباء تقل شيئا فشيئا من خلال الإصلاحات التي بدأتها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من تشريعات وقوانين تخص الجانب الصحي، فضلا عن تطور التعليم .

٢- الهيضة(الكوليرا):-

لقد جاء في سالنامة ولاية البصرة أنه في سنة(١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م) ان وباء الهيضة(الكوليرا)[٦] قد فتك بالأهالي فتكاً ذريعاً إذ راح ضحيته على الخمسة عشر ألف نسمة [٧]، ومن ثم أخذ هذا المرض يزحف إلى الشمال بالتدريج فوصل إلى سوق الشيوخ والعرجة والسماوة، وانتشر بعد ذلك بين عشائر الشامية، ومنها وصل إلى الحلة وكربلاء ثم إلى مركز الولاية في بغداد، بعد أن ترك وراءه الكثير من الضحايا ،امتد تأثيره إلى الشمال كذلك تفشى المرض في كركوك وقضى على نحو ألف نسمة فيها وانتقل من هنالك إلى السليمانية وما جاورها[٨] ويروى في هذا الشأن أن الوالي داود باشا[٩] (١٢٣٣-١٢٤٧هـ/ ١٨١٧-١٨٣١م) طلب من طبيب المقيمية الإنكليزية في بغداد جلب الأدوية اللازمة لمكافحة الهيضة، فجيء بها متأخرة من الهند[١٠].

في سنة(١٢٣٧هـ/١٨٢١م) بدأت الهيضة(الكوليرا) بالتفشي في بغداد بصورة مرعبة، فغادر القنصل البريطاني في بغداد ومعه طبيب القنصلية وهربت الطائفة اليهودية، وبقي القنصل الفرنسي مع أفراد من رعيته في المدينة وقد حصد الوباء (٤٣١٨) نسمة في خمسة عشر يوماً [١١]، وفي سنة

---

[٦] الهيضة: وتسمى أيضاً الكوليرا أو الهواء الصفر أو أبو زوعه، وهو مرض معوي بكتيري حاد يمتاز بإسهال مائي فجائي، مع تقيؤ شديد وجفاف سريع مع حموضة الدم وصدمة. للمزيد ينظر: متي عقراوي، المصدر السابق، ص٢٢٢.

[٧] سالنامة ولاية البصرة لسنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، ص٣١٤.

[٨] جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٠.

[٩] داود باشا: ولد في مدينة تفليس سنة ١٧٦٧م، وفي سنة ١٧٨٠ جيء به إلى العراق عن طريق اختطاف بعض النخاسين له، أو عن طريق الشراء ، وفي بغداد اشتراه مصطفى بك الربيعي ثم باعه إلى سليمان باشا الكبير الذي كان بحاجة الى تربية عدد جديد من المماليك، اعتنق الإسلام وتعلم القراءة والكتابة والفنون العسكرية فأناط به سيده بعض الوظائف والأعمال وكان آخر والي مملوكي يحكم العراق من ١٨١٧- ١٨٣١م، للمزيد ينظر: كريم مطر حمزة ، الحلة في عهد داود باشا (١٨١٧- ١٨٣١) دراسة تاريخية، جامعة بابل، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية (د.ت، ص ص ٢٩- ٣٣.

[١٠] جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٠.

[١١] بيردي فوصيل، المصدر السابق، ص٥١.

(١٢٦٤هـ/١٨٤٧م) ظهر المرض مرة أخرى بالرغم من تحذيرات الدكتور (دروز) الطبيب الفرنسي الذي كان في خدمة الحكومة العثمانية، ولم تتخذ الحكومة المحلية إجراءات ضد المرض[١٢]، وفي سنة(١٢٨٢هـ/١٨٦٥م) ظهرت الهيضة في مدينة البصرة، وأخذت تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت جميع أرجاء المدينة وأخذت تحصد الأرواح ، مما أدى إلى هجرة الكثير من أهالي البصرة إلى المدن القريبة منها للتخلص من هذا الوباء الخطير [١٣].

وقد انتشر مرض الهيضة مرة أخرى في مدينة البصرة في سنة(١٢٨٨هـ/١٨٧١م) ولم تتخذ السلطات المحلية أي إجراء للحد من انتشاره والتقليل من آثاره ، مما أدى إلى وفاة الكثير من السكان بهذا الوباء الخطير[١٤].

وتفشت الهيضة(الكوليرا) بين السنوات(١٢٩٩- ١٣٠٧هـ/ ١٨٨١-١٨٨٩م) وراح ضحية هذا المرض عدد كبير من السكان في مناطق مختلفة من العراق [١٥].

وعن موجة الهيضة لسنة(١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) نورد بعض الفقرات من تقرير طبي عثماني جاء فيه : " حسب السجلات الرسمية في أواسط شهر تموز سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ابتدأ ظهورها في الشطرة وبعد أن أدى إلى حدوث وفيات عديدة اندفع إلى الناصرية ... ثم إلى البصرة وبعد ذلك إلى بغداد وبقية مدن العراق جميعها"، وأضاف التقرير:" وان مجموع نفوس ولاية بغداد البالغ عددهم نصف مليون أصيب منهم(٧٠٠٠) وتوفي(٣٥١٦) شخص" [١٦].

وتفشت الهيضة (الكوليرا) بين السنوات (١٣١١-١٣١٧هـ/ ١٨٩٣-١٨٩٩م) وراح ضحية ذلك المرض عدد كبير من سكان المدن والأرياف في مناطق مختلفة من العراق [١٧].

وقد تفشى وباء الهيضة (الكوليرا) سنة(١٣٢٨هـ/١٩١٠م) في بغداد وباقي مدن العراق الأخرى، مما أرهق الزوار الأجانب بسبب تعسف السلطات العثمانية في علمية الحجر الصحي ومدته وسلب

---

[١٢] المصدر نفسه.

[١٣] يقظان سعدون العامر، المصدر السابق.

[١٤] المصدر نفسه.

[١٥] ج.ج. لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، ج٦، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، الدوحة، ١٩٧٥، ص٣٦٤٩ و ٣٦٥٢و ٣٦٥٥و ٣٦٥٦.

[١٦] عبد الحكيم حكمت،استكشافات طبية،مخطوط،مكتبة جامعة استانبول رقم(٤٣٢٠)،المسح الجيولوجي لولاية بغداد، ١٨٨٩م.

[١٧] ج.ج. لوريمر، المصدر السابق، ص٣٦٦٥- ٣٦٦٦.

الزوار نقودهم من اجل إطلاق سراحهم، ولكن السلطات العثمانية لم تعلن إلا عن وفيات قليلة بذلك المرض [١٨].

وقد انتشر مرض الهيضة(الكوليرا) في البصرة خلال شتاء(١٣٣٥هـ/١٩١٦م) وربيع (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) مما أثقل كاهل المدينة من الأهالي والمؤسسات الصحية فيها وراح ضحية المرضين الكثير من الأرواح [١٩]، وفي السنة ذاتها تفشت الهيضة في بغداد مما حمل السلطات البريطانية على إجراء تطعيم عام في الدوائر العسكرية[٢٠].

وفي أدناه جدول يبين أعداد الضحايا الذين أصيبوا بمرض الهيضة(الكوليرا) في المدن العراقية خلال المدة(١٨٢٠-١٩١٧م) .

جدول رقم(٢)

جدول يبين أعداد الضحايا الذين أصيبوا بمرض الهيضة(الكوليرا) في المدن العر اقية خلال المدة(١٨٢٠-١٩١٧م)[٢١]

المدن / السنوات	البصرة	كركوك	بغداد	الموصل
	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا	اعداد الضحايا
١٨٢٠	١٥٠٠٠	١٠٠٠	_____	_____
١٨٢١	_____	_____	٤٣١٨	_____
١٨٦٥	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٨٧١	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٨٨٩	_____	_____	٣٥١٦	_____
١٩١٦	اعداد كبيرة	_____	_____	_____
١٩١٧	_____	_____	_____	١٠٠٠٠

[١٨] وليم ويلكوكس، مذكرات وليم ويلكوكس في العراق (١٩٠٨- ١٩١١)، ضمن كتاب مذكرات ورجالات إلى بغداد، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الثقافية، رقم الموسوعة (٦٧)، ٢٠٠٩، ص٥٢.

[١٩] حميد احمد حمدان التميمي،البصرة في عهد الاحتلال البريطاني(١٩١٤- ١٩٢١)،بغداد،مطبعة الإرشاد، د.ت، ص٣٩٢.

[٢٠] باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، المصدر السابق، ص٢٦٨.

[٩٤] الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على : سالنامة ولاية البصرة لسنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، ص٣١٤؛ بيردي فوصيل، المصدر السابق، ص٥١؛ يقظان سعدون العامر، المصدر السابق؛ حميد احمد حمدان التميمي، المصدر السابق.ص٣٩٢.

من خلال الجدول رقم(٢) يمكننا القول ان وباء الهيضة(الكوليرا) لم يكن متوطنا في العراق بل جاء إليه من الموانئ الموجودة في البصرة مع التجار والزوار والسياح من الهند وإيران والخليج العربي هذا من جانب، كما ان الإحصائيات لم تكن دقيقة بشكل عام وإنما اعتمدت على تقديرات وتخمينات الرحالة الأجانب والمستشرقين الذين كانوا يتحدثون عن وجهات نظرهم وليس عن واقع الحال، ومع ذلك كانت ضحايا الوباء كبيرة بسبب عدم اتخاذ الدولة العثمانية أية إجراءات أو تدابير للحد من انتشار ذلك الوباء، رغم تحذيرات الطبيب الفرنسي الذي كان يعمل في خدمة الدولة العثمانية.

٣- مجموعة أمراض أخرى :-

أما مرضي الجدري [٢٢] والحصبة[٢٣] فقد تفشيا في الموصل سنة(١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م) وامتدت عدواهما إلى مدينة بغداد وضواحيها في سنة(١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م) [٢٤].

وفي ٢٣ أيلول سنة(١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م) وعند وصوله إلى السليمانية أصيب المستر ريج [٢٥] بخيبة أمل مريرة لعلمه بفشل خطة قرينته في التطعيم ضد مرض الجدري لجهل الرجل الذي تعهد بتنفيذها وعجرفته ويبدو أن اللقاح كان فاسداً [٢٦].

إما وباء الملاريا [٢٧] كان ينتشر في أعقاب الفيضانات التي كانت تحدث بين سنة وأخرى، إذ كانت تترك برك الماء والمستنقعات في الأراضي المحيطة بالمدن والاهوار، ومع ان مرض الملاريا كان متوطناً في البصرة إلا أنه انتشر وبشكل وبائي في سنة(١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) [٢٨].

---

[٢٢] الجدري: وهو من الأمراض الخطيرة، وهو مرض حاد سببه فيروس خاص به، ويبدأ المرض باعراض حادة، تبدأ بالحمى وانحلال في الجسم وصداع وآلام شديدة في الظهر، ويكون هناك طفح جلدي يتحول بسرعة الى حويصلات دموية يظهر على الوجه ثم الاطراف . للمزيد ينظر: فليكس جرجي وآخرون، المصدر السابق، ص٣١؛ صلاح الدين احمد رحيم، المصدر السابق، ص١٢١.

[٢٣] الحصبة: مرض فيروسي حاد ومعدي بدرجة كبيرة تبدأ بحمى أو توعك مع التهاب ملتحمة العين وزكام مع سعال ، وبعدها يظهر طفح متميز أحمر داكن بقعي على الجلد. للمزيد من التفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص١١٤.

[٢٤] باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، المصدر السابق، ص١٩٦.

[٢٥] كلوديوس جيمس ريج: هو القنصل البريطاني في بغداد للمدة (١٨٠٨- ١٨٢١م) حيث كان يتدخل في سياسة ادارة الدولة مما أدى إلى ظهور خلافات شديدة بينه وبين الوالي داود باشا. ينظر: كلوديوس جيمس ريج، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢١م، ج١، ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد، مطبعة السكك الحديدية ، ١٩٥١، ص ص١٦-٢٣.

[٢٦] المصدر نفسه، ص١٩١.

[٢٧] الملاريا أو البرداء: وهي على أربعة أنواع أخطرها هو ملاريا الضب الخبيثة وأعراضها تظهر بصورة حمى مع قشعريرة وتعرق وصداع وبرقان وخلل في تخثر الدم مع صدمة وعجز كبدي أو كلوي والتهاب فمي حاد وغيبوبة . للمزيد ينظر: صلاح الدين احمد رحيم، المصدر السابق، ص٢٠٦.

[٢٨] يقظان سعدون العامر، المصدر السابق.

وفي السنة نفسها ظهر مرض يعرف باسم حبة بغداد [٢٩]، وهي كثيرة الوقوع، إذ تظهر في جميع أهالي بغداد وبعض المقيمين وتترك في محلها ندبة[٣٠].

عانت الموصل في سنة(١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) من مرض (السل الرئوي)[٣١] إلى جانب أمراض العيون التي تفشت بين الأهالي حتى أصبحت ظاهرة مألوفة أن يشاهد المرء في الشوارع أشخاص مصابين بالعمى الكلي أو الجزئي[٣٢]، وبعدها بسنة اجتاح المدينة مرض(الحمى التيفوئيدية)[٣٣]إذ بلغ عدد المصابين في ستة الأشهر الأولى(١٦٤) مصاباً، توفي منهم(٢٣)[٣٤].

في البصرة حل مرض (النزول) سنة(١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م) ، وكانت الحميات تأتي للشخص ثم يصاب بمرض النزول الذي هو عبارة عن نقطة سوداء وبقع تشبه الدمامل يصاب صاحبها سريعاً، ثم تشخص عيناه وتنقطع عنه حاسة السمع ثم تستك أسنانه ويموت ويصاحب المريض سيلان الدم من الفم[٣٥]، ويبدو من الأعراض المذكورة أنه قصد بمرض النزول الجمرة الخبيثة [٣٦].

خلال الحرب العالمية الأولى، أي في سنة(١٣٣٤هـ/١٩١٥م) نقل النازحون من الأناضول جنوباً مرض التيفوس[٣٧]، إلى العراق نتيجة سوء الحال الذي كانوا فيه، ومع سيل الجرحى القادمين من

---

[٢٩] حبة بغداد: وهي عبارة عن بثرة تظهر على الأغلب في الأقسام المكشوفة من سطح الجلد، من أسبابها عدم الاعتناء بالنظافة الجلدية، وتعرف حبة بغداد بالعامية بـ(الأخت)، ينظر:حنا خياط، بثرة العراق ومصير تداويها في العراق،الموصل " جريدة"،العدد(٣٨٦)، ١٧ حزيران١٩٢١؛ والعدد(١٧٧٠)،١كانون الأول ١٩٣٠.

[٣٠] عبد الحكيم حكمت، المصدر السابق.

[٣١] السل الرئوي أو التدرن الرئوي : وهو مرض معد تنتقل العدوى من البصاق المتولد من رئة المصابين بالسل بطريقة من الطرائق إلى رئة الشخص السليم وقد ينتقل من تناول الحليب غير المعقم من البقرة المصابة بالتدرن البقري . ينظر : عبد الاحد عبد النور، التدرن الرئوي، الموصل " جريدة"، العددان (٨٣٨، ٨٣٩)، ٧و٩تموز١٩٢٤.

[32] H.E Willkie and Young E.K, "Mosul in 1909" , Middle Eastern Studies, Vol. 7, No.2, (May , 1971), p.230 ; http:// ivsl. Org: Jstor. Org/stable/4282373.

[٣٣] الحمى التيفوئيدية: وهو مرض معد يسببه مكروب خاص يهاجم الأعضاء الدقيقة ، وقد يسبب القضاء على حياة المريض، من علاماته انتفاخ البطن وإسهال شديداً أو نزيف دموي، ينتقل من الماء أو الحليب الملوث أو الذباب. ينظر: نسيم أ.جيتايات، الصحة ومكافحة الأمراض، بغداد، ١٩٣٧، ص ص ٣٤- ٣٦.

[٣٤] حنا خياط، لمحة اختبارية وفنية في الحمى التيفوئيدية، الموصل، ١٩١١، ص٤٣.

[٣٥] حامد البازي، البصرة في الفترة المظلمة، بغداد، دار منشورات البصري، ١٩٦٩، ص٧٩.

[٣٦] فليكس جرجي وآخرون، المصدر السابق، ص ص ٥٧- ٥٨.

[٣٧] التيفوس: مرض فيروسي معدي ينتقل بواسطة القمل أو الفأر يصاب المريض بحمى مستمرة شديدة مع انحلال عام للجسم وصداع وفقدان للشهية مع التهاب العقد اللمفاوية وتكون غير مؤلمة. للتفاصيل ينظر:

Nicholas A-Boon and Others Sir Stanly Davidson , Davidsons Principle practice of Medicine, (Oxford, 2006), PP. 339- 341.

معركة سلمان باك كان المرض قد بدأ انتشاره نتيجة تفشي القمل في الجيش، لذا فقد ظهر في بغداد في تلك السنة فأمرت الحكومة موظفيها بأن يلقحوا ضد المرض [٣٨].

ظهرت في البصرة سبعة عشر إصابة بمرض التهاب السحايا[٣٩] في سنة(١٣٣٦هـ/١٩١٧م) ، علماً أن مرض السحايا لم يكن معروفاً في البصرة قبل الحرب العالمية الأولى، وقد جاء إليها مع سفن الإمدادات والتجهيزات البريطانية من مصر وأفريقيا وأوربا[٤٠].

تعرضت الموصل إلى أكبر مجاعة في خريف(١٣٣٦هـ/١٩١٧م) وكان من أسبابها اعتماد الجيش العثماني على الموصل في التموين والإعاشة[٤١] إذ ارتفعت الأسعار ارتفاعاً كبيراً مع توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأرمن والأكراد خاصة بعد أحداث المذابح المشهورة أثناء السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى، مما أدى إلى موت الآلاف منهم جوعاً[٤٢]، وشهدت الموصل غلاء لم تشهده من قبل، ومن شدة الجزع بات الأهالي يبحثون عن أي شيء يملأ بطونهم ومن لم يتحمل الجوع يرمي بنفسه من مكان مرتفع أو في النهر[٤٣].

إن مجاعة سنة(١٣٣٦هـ/١٩١٧م) كانت من أعظم الخسارات والمصائب التي تعرضت لها ولاية الموصل[٤٤]، إذ أدت المجاعة إلى تفشي مرضين لم تعرفهما الموصل من قبل وهما التيفوس والأنفلونزا[٤٥]، إلى جانب الهيضة (الكوليرا) والذي ذهب ضحية لها عشرة آلاف نسمة من السكان والمهاجرين[٤٦].

---

[٣٨] عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٨٥.

[٣٩] السحايا أو الحمى المخية الشوكية وهو مرض بكتيري حاد يمتاز ببدء فاجئ مع حمى وصداع شديد وغثيان وتقيئ مع تيبس العنق وكثيراً ما يحدث طفح حبوي مصحوب ببقع وردية مع هذيان وغيبوبة، للتفاصيل ينظر: صلاح الدين احمد رحيم، المصدر السابق، ص١٣٥.

[٤٠] حميد احمد حمدان التميمي، المصدر السابق، ص ص٣٩٢- ٤٠٤.

[٤١] سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني ، بيروت، ٢٠٠٩، ص١٦١.

[٤٢] عن أسباب المجاعة ينظر: إبراهيم خليل احمد، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية (١٩٠٨-١٩٢٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد- كلية الآداب، ١٩٧٥، ص ص ٢٠٦- ٢١٥.

[٤٣] بهنام وديع اوغسطين، مآسي الموصل الحدباء خلال الحرب الكونية الأولى الشعواء، بغداد ،د.ت، ص١٧٠.

[٤٤] محمد طاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ج١، بغداد، ١٩٢٤، ص١٤٠.

[٤٥] مرض فيروسي موسمي معدٍ ينتشر في فصل الشتاء وله عدة أنواع ، للمزيد ينظر:

A- Boon and others, OP, Cit, P.688.

[٤٦] إبراهيم خليل احمد، الأمراض والأوبئة وتأثيرها في المجتمع الموصلي خلال العصور الحديثة، ص١١٢.

وكان إضافة لما ذكرنا أمراض عديدة أخرى متوطنة تظهر بين الحين والآخر كالحب الإفرنجي (السفلس أو الزهري)[٤٧] والبلهارزيا[٤٨] وأنواع الديدان الأخرى[٤٩].

ولابد من الإشارة إلى أن أغلب تلك الأوبئة والأمراض كانت تفد إلى العراق من الهند وإيران عن طريق الزوار والقوافل التجارية.

وفي أدناه جدول يبين الأوبئة والأمراض التي اجتاحت بعض المدن العراقية خلال المدة(١٧٩٤-١٩١٧م) .

جدول رقم(٣)

جدول يبين الأوبئة والأمراض التي اجتاحت بعض المدن العر اقية خلال المدة(١٧٩٤-١٩١٧م)[٥٠].

المدن / السنوات	الموصل	بغداد	السليمانية	البصرة
	الاوبئة والامراض	الاوبئة والامراض	الاوبئة والامراض	الاوبئة والامراض
١٧٩٤	الجدري، الحصبة	_____	_____	_____
١٧٩٥	_____	الجدري، الحصبة	_____	_____
١٨٢٠	_____	_____	الجدري	_____
١٨٧٦	_____	حبة بغداد	_____	الملاريا
١٩٠٩	السل الرئوي، العيون	_____	_____	_____
١٩١٠	الحمى التيفوئيدية	_____	_____	_____
١٩١٣	_____	_____	_____	النزول(الجمرة الخبيثة)
١٩١٥	_____	التيفوس	_____	_____
١٩١٧	التيفوس،الانفلونزا	_____	_____	السحايا

[٤٧] وهو مرض يتصف بوجود بثرة أولية في المرحلة الأولى وبطفح يشمل الجلد والأغشية المخاطية. للتفاصيل ينظر: صلاح الدين احمد رحيم، المصدر السابق، ص١٨٩.

[٤٨] عدوى بدودة مسطحة دموية مثقبة، وتعيش الديدان البالغة في أوردة المضيف،وتعتمد أعراض الداء على موضع الطفيلي في جسم المضيف وعلى عدد الطفيليات المتواجدة، المصدر نفسه، ص١٩٧.

[٤٩] مثل مرض داء الصفر وهو مرض مزمن تسببه الديدان الصفر التي تعيش في الأمعاء الدقيقة. للتفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص٢٠٤.

[١٢٣] الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على: كلوديوس جيمس ريج، المصدر السابق،ص١٩١؛ يقظان سعدون العامر، المصدر السابق؛ عبد الحكيم حكمت، المصدر السابق؛ عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٨٥.

من خلال الجدول رقم(٣) يمكن معرفة أهم الأوبئة والأمراض التي اجتاحت الولايات وبعض المدن العراقية خلال العهد العثماني، والتي وفدت إليها من دول الجوار من خلال التجار والزوار والسياح الذين كانوا مصابين بتلك الأوبئة والأمراض هذا من جانب، وتخلف النظام الصحي والإداري في الدولة العثمانية بشكل عام من جانب أخر .

- وسائل الوقاية من الأوبئة والأمراض خلال العهد العثماني:

كانت الخدمات الصحية في العهد العثماني دون المستوى المطلوب، إذ لم يتخذوا أية إجراءات وقائية على نطاق واسع في منطقة ما بين النهرين حتى سنة(١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، وكانت المنازل التي تحدث فيها حالات مرضية تعزل وتطهر، كما كان يمنع الاتصال بين الأماكن المصابة وبقية البلاد، ثم طبق نظام المراكز الصحية بين الأماكن المصابة وبقية البلاد، ثم طبق نظام المراكز الصحية وأزيلت الجسور إلى غير من الاحتياطات الوقائية التي برهنت بأنها عديمة النفع وقاسية [١].

وفي أواخر القرن التاسع عشر حدثت إجراءات لها دلالات على شعور السلطة العثمانية بأهمية الدراسات الميدانية في الوقاية من الأوبئة والأمراض، فعلى سبيل المثال قام السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦-١٩٠٩م) بتكليف هيأة طبية من ثلاثة أطباء برئاسة أحد أساتذة كلية الطب في استانبول هو الرائد الطبيب عبد الحكيم حكمت بزيارة خمس من الولايات العربية (طرابلس الغرب، بنغازي، الحجاز، اليمن، بغداد) وإجراء مسح طوبوغرافي طبي وكتابة تقرير تفصيلي عن الحالة ودراسة أسباب انتشار الأمراض، وسبل الوقاية منها وأساليب المعالجة المتبعة في تلك الولايات، وقد قامت اللجنة بذلك خلال ثلاث سنوات(١٣٠٥-١٣٠٨هـ/١٨٨٧-١٨٩٠م)، وقدمت تقريرها على هيأة كتاب تحت اسم(استكشافات طبية)[٢].

ومن بين المقترحات لمنع تلوث وتحسين البيئة التي قدمها التقرير بالنسبة لولاية بغداد " رفع المقابر من داخل المدن إلى خارجها، ودفن الموتى بشكل صحي، ورفع المدابغ من داخل المدن، وعمل إسالة ماء للشرب، وعما مجاري لتصريف المياه الثقيلة " [٣].

ومن الإجراءات الفعلية التي اتخذتها السلطات العثمانية للوقاية من الأوبئة والأمراض ما يلي:

أ- الحجر الصحي:

تأسس نظام الحجر الصحي في الدولة العثمانية سنة(١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م)[٤]، وقد صدر نظام الكرنتينة (الحجر الصحي وملحقاته سنة(١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م)[٥]، أما بشأن محطة

---

[١] ج.ج. لورمير، المصدر السابق، ص٢٦٧١.

[٢] عبد الحكيم حكمت، المصدر السابق.

[٣] المصدر نفسه.

[٤] عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٧، ص٤١؛ جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩١، ص٤٤٣.

[٥] عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص١١١.

الحجر الصحي في البصرة فإنها افتتحت في(١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م) في النهاية الشرقية الشمالية لجزيرة صلاحية الواقعة في شط العرب [١].

كانت دائرة الكرنتينة الرئيسة في بغداد تتألف إدارتها من مفتش وهو طبيب، يساعده رئيس الكتاب والمحاسب وكاتب مع عدد من العمال [٢]، كما انتشرت الدوائر الفرعية التابعة لها في مناطق مختلفة من الولاية في كل من خانقين ومندلي وزرباطية والنجف وكربلاء والمسيب والكاظمية، حيث كان يوجد في كل منها مأمور معه عدد من الموظفين المساعدين [٣].

ضمت دائرة الكرنتينة في خانقين طبيباً وثلاثة أعضاء ومعاين واحد للجثث المرسلة من إيران لغرض دفنها في الأماكن المقدسة، فضلاً عن عدد من الموظفين والمأمورين الآخرين [٤].

يبدو ان تلك الدوائر لم تكن بالمستوى المطلوب فقد وجهت الانتقادات إلى مراكز الحجر الصحي بسبب تزمت موظفيها وتشددهم في مراقبة القادمين إلى العراق في فترات خلو المنطقة من الأمراض وتساهلهم في فترات ظهور الأوبئة ، وكذلك لجوؤهم إلى أساليب الرشوة، وعلى رأي أحد الكتاب ان كل فرد بوسعه ان يشتري السماح له بالدخول بدراهم معدودة [٥]، [٥]، علاوة على ذلك عدم توفر وسائل الراحة والعلاج في تلك المحاجر الصحية، لدرجة أن بعض الأصحاء كانوا يقعون صرعى المرض في تلك البنايات المكشوفة التي كانت تفتقر إلى أبسط الشروط الصحية [٦]، ومما يؤخذ على إجراءات تنفيذ الحجر الصحي رغم أهميتها كونها لم يصبها أي تطور طيلة الفترة العثمانية [٧].

أما دور طبابة البلديات كان بارزاً في مكافحة الأوبئة والأمراض السارية والوقاية منها قبل وقوع وتفشي المرض، وان إجراءاتها أدت إلى انحسار تفشي بعض الأوبئة التي كانت تفتك بالسكان [٨].

---

[١] الكسندر اداموف، المصدر السابق، ج١، ص١٨٠.

[٢] سالنامة ولاية بغداد، ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، ص٧٠؛ سالنامة ولاية بغداد، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص٦٣.

[٣] سالنامة ولاية بغداد، ١٣٢٩هـ/١٩١١م، ص ص ٣٣٢-٣٣٣.

[٤] سالنامة ولاية بغداد، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، ص ص ١٣٠-١٣١؛ سالنامة ولاية بغداد، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ص١٠٢.

[٥] ستيفن همسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٣٨٠.

[٦] حسين محمد القهواتي، المصدر السابق، ص٥٣.

[٧] متعب خلف جابر الجابري،المصدر السابق، ص١٤.

[٨] عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني (١٥٣٤-١٩١٨م) دراسة تاريخية وثائقية، النجف الاشرف، المكتبة الحيدرية ، ط١، ٢٠٠٦، ص١٨٦؛ ينظر الملحق رقم (١) وثيقة تبين ان البلدية تقوم بتسديد قسم من تكاليف الإجراءات والتدابير الصحية عند انتشار الأوبئة والأمراض.

وقد الفت لجنة لمكافحة داء الحصبة، وجهز لها كل من طبيب كرنتينة بغداد (طبيب الحجر الصحي)صاحب العزة (قول الآي أفندي)، وطبيب البلدية في البصرة ذو الرفعة (حبيب رسام أفندي) ، والطبيبين القول اغاسيين صاحبي الفتوة (قسطنطين أفندي) و(حسين أفندي) ، واليوزباشيين ذوو الفتوة (فون أفندي) و(يوسف أفندي) من أطباء العساكر النظامية المعينين في البصرة منذ أن ظهرت العلة فيها، ولم يألوا جهداً في السعي وتسريع المراجعة لأجل منع سراية العلة وحسن إبقاء وظائفهم، وهذا إجراء أرادته طبابة البلدية لمكافحة المرض، فضلاً عن اهتمامات الوالي، ودعمه التعاون بين طبيبي البلدية والحجر الصحي لبذلهما الجهد بالتنظيف والتطهير مع إيجاد حجر صحي في (كرمة علي) لحجز المسافرين الذاهبين إلى ولاية بغداد كي لا يتفشى المرض في الولايات الأخرى [١].

ب- التطعيم:

في القرون الأولى من الحكم العثمانيين يبدو أن السكان لم تكن لديهم وسيلة للوقاية من الأوبئة والأمراض إلا الهرب من المدن الموبؤة إلى غيرها من الأماكن الأخرى [٢]، وهذا بدوره يؤدي إلى انتقال الأمراض والأوبئة إلى المناطق السليمة وانتشاره فيها [٣].

ولأول مرة شرح (محمد المهتدي الجلبي الموصلي) (١١٩٠-١٢٦٣هـ/ ١٧٧٦-١٨٦٤م) بالعربية كيفية استعمال لقاح الجدري السليم الذي اكتشفه (جنر) جاء ذلك في كتابه طب المختار [٤]، على أن تلك الفترة التي يمكن أن تكون مظلمة في تاريخ الطب العراقي لم تخل من بارقة علمية حديثة جديرة بالتخليد، فقبل منتصف سنة(١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م) قدم بغداد تاجر أرمني استانبولي الأصل اسمه (أدانيس مراديان)، ويعد هذا الرجل أول من أدخل في بغداد التطعيم الواقي والعام من الجدري طبقاً لطريقة (جنر)، إلا أنه لم يستطع من إقناع البغداديين بجدوى التطعيم وضرورته لتغلب الأوهام على عقولهم، ولذلك خاب سعي (أوانيس) بالرغم من مناصرة الدكتور (شارت) طبيب القنصلية الإنكليزية ببغداد، بيد أنه عاد سنة(١٢٢٤هـ/ ١٨٠٨م) فأفرغ قصارى جهده

---

[١] رجب بركات ، بلدية البصرة (١٨٦٩- ١٩٨١م)، البصرة، ١٩٨٤، ص٦٤.

[٢] سليمان فيضي، مذكرات سليمان فيضي، تحقيق باسل سليمان فيضي، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية المحدودة، ط٤، ٢٠٠٠، ص٦٨.

[٣] متعب خلف جابر الجابري ، المصدر السابق، ص٢٠.

[٤] محمد المهتدي الجلبي، الطب المختار، مخطوطة، الموصل، مكتبة أوقاف الموصل، رقم (١٤٣).

في تذليل العقبات وتصديع الأوهام التي حالت قبلاً دون غايته، وأخيراً تكلل مسعاه بنجاح باهر حينما رضي مفتي بغداد بان يطعم أولاده وأحفاده الستة ، فكانت تلك البادرة اكبر مؤازر له في تحقيق مسعاه، ولاسيما بعد ان عاضد الدكتور (هين) خلف الدكتور (شارت) المنوه سابقاً، وهكذا تمكن (أوانيس) أن يطعم مجاناً مع زوجته (تيريزا) أكثر من (٥٤٠٠) طفلاً في مدة تسع سنوات، ولم يكتف (اوانيس) بتطعيم بغداد ونواحيها بل رغب في نقله إلى غيرها من المدن العراقية ، فأدخله الموصل على يد القس(بطرس بن بشارة) بعد أن علمه أصول التطعيم ودربه على طريقة إجرائه مدة بضعة شهور [١].

ويذكر أحد المؤرخين أن طبيب المقيمية البريطانية ببغداد أدخل نظام التطعيم عقب ان تلقى قدراً من أمصال اللقاح من فينا في ٣٠ آذار سنة(١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م)، وقد استخدمت تلك الأمصال في أثناء بداية الطاعون ببغداد والبصرة في نيسان وأيار من السنة ذاتها [٢]، وجرى أول مرة في بغداد تطعيم ضد الهيضة (الكوليرا) في الوباء الذي حصل سنة(١٣٣٦هـ/١٩١٧م) [٣].

واعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر صدرت بعض القوانين التي تنظم أمور التلقيح مما يدل على تحسس السلطة العثمانية لأهمية تلك القوانين وهي(نظام التلقيح ١٣١٠هـ/ ١٨٩٤م) تعليمات إجراء التلقيح (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، تلقيح الحمى(تيفوس)(١٣٣٠هـ/١٩١١م)، نظام تلقيح الجدري(١٣٣١هـ/١٩١٢م)[٤].

الخاتمة:

يسلط هذا البحث الضوء على جانب مهم من الجوانب الاجتماعية في تاريخ العراق الحديث، وهو الجانب الصحي، وهنا لابد من الإشارة إلى بعض النتائج التي توصل إليها البحث وهي كالآتي:

---

[١] عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص ص ١٤٧-١٤٨.

[٢] ج.ج.لوريمر، المصدر السابق، ص٣٧٠٩.

[٣] داود سليمان علي، الأوضاع الصحية في بغداد أثناء الفترة المظلمة من تاريخها، من الاحتلال العثماني الى الاحتلال البريطاني ، ندوة بغداد دار السلام، ١٩٩٠، ص٢٣١.

[٤] حمدي الاعظمي، دليل القوانين والأنظمة المرعية في العراق منذ تأسيس القوانين في الحكومة العثمانية سنة ١٢٧٤هـ حتى أواخر سنة ١٣٥٣هـ، بغداد ، مطبعة الفرات، ١٩٣٥.

١-خلال القرون الأربعة (١٥٣٤-١٩١٧م) التي خضع فيها العراق للتسلط العثماني الأجنبي كانت الأوضاع العامة الاجتماعية والاقتصادية قد تدنت وشهدت تخلفاً واضحاً نتيجة بعد العراق عن مركز الدولة العثمانية والذي جعل منه مركزاً لتمرد الولاة على الحكم العثماني، وكذلك طموحاتهم الاستقلالية ، وعدم اهتمامهم وقلة معرفتهم بالأوضاع العامة السائدة في العراق آنذاك.

٢- الكوارث الطبيعية التي عمت العراق نتيجة للإهمال كالفيضانات وتخلف المواصلات وعدم كفاءة الكادر الإداري .

٣- قلة الأمطار أدت إلى انخفاض المنتج الزراعي ورداءته مما سبب حصول المجاعات وبالتالي إلى سوء التغذية وانتشار الأوبئة والأمراض مثل (الطاعون ، الهيضة(الكوليرا)، وغيرها).

٤- ان الصحة العامة ركن من أركان البناء الاجتماعي، وتعد مقياساً للأحوال الاجتماعية ودرجة تقدمها أو تأخرها، فانتشار الأمراض معناه تخلف المجتمع، وقد خيم على العراق في تلك المدة الفقر والجهل والمرض، وكانت الحالة الاجتماعية غاية في التدهور والانحطاط مما أدى إلى انتشار الشعوذة والدجل والخرافات بين الناس.

٥- عدم وجود إدارة صحية كفوءة تأخذ على عاتقها مكافحة الأوبئة والأمراض من خلال توفير الأمصال ونشر الوعي الصحي بين الناس وتطعيمهم للوقاية من تلك الأمراض.

٦- تخلف الإجراءات الوقائية أو الاحترازية المأخوذة من قبل الإدارات المحلية والمركزية للحد من انتشار الأوبئة والأمراض والمتمثلة بالحجر الصحي.

٧- عدم وجود مراكز صحية أو مستشفيات في عموم العراق، فضلاً عن قلة الكادر الطبي أو انعدامه في بعض الأحيان كان سبباً في تدهور الجانب الصحي في العراق.

"أوبئة الجزائر خلال العهد العثماني و انعكاساتها على المجتمع و اقتصاده".

خالد أوعيل
طالب دكتوراه –تاريخ المغرب العربي الحديث-
قسم التاريخ ،جامعة ابي القاسم سعد الله –الجزائر٢-

الملخص

شهدت الجزائر الحديثة موجات متعددة من الجوائح والأمراض، والتي كان لها الأثر الكبير على البنية الديمفرافية والإقتصادية للإيالة العثمانية، لذا كان موضوع هذه الورقة البحثية في التاريخ الصحي للجزائر من أجل تسليط الضوء على أهم الأوبئة والطواعين والأمراض التي ضربت الجزائر في الفترة الممتدة خلال القرون ١٦،١٩م، ومعرفة تأثيراتها على الجوانب الإقتصادية والإجتماعية ،وعلاقتها بالجوائح.

Abstract

Modern Algeria witnessed multiple waves of pandemics and diseases, which had a great impact on the demographic and economic structure of the Ottoman Iyla, so the subject of this research paper was in the health history of Algeria in order to shed light on the most important epidemics, plagues and diseases that struck Algeria in the period spanning 16 centuries, 19 AD, and knowledge of its effects on economic and social aspects, and its relationship to pandemics.

مقدمة

لا يعتدل حال أي أمة ولا يستقيم أمرها، إلا إذا صلح حال الإنسان فيها، ولا يصلح حال هذا الأخير إلا بتوفر عوامل السلامة والنمو، لهذا فعناية الدول والحكومات بصحة أبنائها وتوفير الرعاية اللازمة لهم حتمية لا مناص منها، لذا نجدها تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية، ولا يتسنى ذلك إلا بالبحث والتطوير في مختلف المجالات التي لها علاقة بالصحة البشرية، والجزائر من بين هذه الأمم التي تسعى لتحقيق هذه الغاية، من هنا جاءت مساهمتنا هذه لعلنا نقدم إضافة في هذا

الحقل، وقد اخترنا أن نوجه هذه الورقة البحثية لتمس جانب من التاريخ الصحي للبلاد،فكان موضوعها "أوبئة الجزائر خلال العهد العثماني وانعكاساتها على المجتمع واقتصاده".

وسنحاول من خلال هذا العمل التعريف بأهم الأوبئة والطواعين التي أصابت البلاد خلال هذه الفترة،وماهي أهم تاثيراتها على البنية الديمغرافية والإقتصادية ،وكيف تعاملت السلطة القائمة أنذاك معها؟

لقد شهدت الجزائر العثمانية العديد من التقلبات الصحية التي نتجت عن سلسلة من الأمراض والأوبئة التي فتكت بالكثير من السكان ،وأدت إلى تدهور الوضع المعيشي بأنحاء الإيالة ،وتسببت في خسائر بشرية واقتصادية كبيرة ،ولعل من أخطر الكوارث الصحية التي أصابت البلاد في تاريخها الحديث وأعاقت الحركية الإقتصادية والتطور الإجتماعي نجد:

١-أ-الطاعون:

الطاعون مرض بكتيري مُعدي حاد تُسببه بكتيريا(اليرسينية الطاعونية)(Yersinia pestis)، وهو من الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان ، ويُصنف من بين الأمراض الخطيرة التي حالة عدم السيطرة عليها تسبب

أوبئة مدمرة [١]، ويعود ظهور هذا إلى بدايات القرن الرابع عشر وتحديدًا مطلع عام ١٣٤٧م،حيث ظهر في شبه جزيرة القرم بأوربا ،حين حاصر جيش التتار أحد القلاع التي استولى عليها البنادقة خارج ايطاليا ،ونظرا لتعفن الجثث بدأ تفشي المرض[٢]، ثم انتقلت العدوى إلى مناطق أخرى، وقد تسبب هذا المرض عبر العالم في تدمير مدن بأكملها .

ولم تسلم الجزائر من هذا الوباء الذي اجتاحها عدة مرات وألحق بها خسائر بشرية فادحة خصوصاً في حال تزامنه مع الجوائح كالجفاف والمجاعات وموجات الجراد ،الأمر الذي زاد في حدته واتساع رقعة انتشاره ناهيك عن قلة الإجراءات الوقائية بسبب انعدام الأطباء والصيدليات.وعدم تطبيق إجراءات صارمة للحد من انتشاره.

[١] -أحمد عبد الرزاق جبر،**الطاعون (الخطر القادم)**،محاضرة علمية،قسم إنتاج الحيوان،جامعة المنصورة،٢٠٠٩،ص٢.

[٢] -نفسه،ص٣.

وقبل الحديث عن تاريخ هذا الوباء في الجزائر نهاية الوجود العثماني ،لاضير في تقديم موجز عن طرق انتشاره والكيفيات المتعبة للتقليل من أثاره والتحكم فيه :

١-أ-١-أعراض الطاعون:

تختلف أعراض الطاعون بحسب نوع الوباء لذا فمرعفة نوعه تمكننا من تحديد أعراضه ؛فقد جاء في الدراسة التي أعدتها فلة القشاعي حول الوضع الصحي في الجزائر ذكر انواع هذا الوباء الذي ضربت الجزائر خلال مراحل معينة ،وهذه الأنواع هي :

- **الطاعون الخراجي(الدملي)(Peste Bubonique)**:بحسب الباحثةهوأكثر الأنواع انتشارًا في الجزائر العثمانية ،وسمي بهذا الإسم لظهور خراج(Boubon)، أي دملة أو دبيلة حمراء، متضخمة وإلتهابية، ترتكز تحت الإبط وفي ثَنية الفخذ وفي الرقبة ووراء الأذن،تتقيح وتنتشر بالجسم، وتضيف القشاعي أن من بين أعراض هذا النوع من الأوبئة هو إصابة المصاب بصداع شديد مصحوب بغثيان وتقيؤ، وآلآم شديدة ، وارتفاع فيردرجاتالحراة(+٥.٤٠°)(الحمى)، وتسارع في نبضات القلب والتنفس، ويصاب المريض بالخمول، ويفقد الوعي، وتنتفخ الدمامل لتبلغ حجم البيضة ،ثم تكون الوفاة بعد أربعة(٤)أيام بسبب الألم الشديد[٣].
- **الطاعون الرئوي (Peste Pulmonaire)**:هو أخطر من النوع الأول(الخراجي)، من أعراضه نفث وتنخم لزج، ثم دموي أحمر، تصحبه نوبات سعال محمل بباسيل الطاعون المرتكزة في الرئتين التي تخنق المصاب فترتفع حرارة جسمه(+٤١°)، وتؤدي لوفاته بعد ثلاثة(٣) أيام ،وتتمم العدوى عن طريق السعال[٤].
- **الطاعون التعفني(Peste Septicémique Primaire)**:في هذا النوع يُصاب المريض بحمى شديدة(+٤٢°)، ويميل لون البشرة إلى البنفسجي، وتظهر على المريض: الرعشة، نوبات عطاس، ثم الموت السريع بعد يوم واحد[٥]

---

[٣] - القشاعي، فلة موساوي ،الو اقع الصحي والسكاني في الجز ائر أثناء العهد العثماني وأو ائل الإحتلال الفرنسي (١٨٧١/١٥١٨م)، منشورات بن سنان،الجزائر٢٠١٣م ،ص ص٢٢٢،٢٢١.

[٤] -نفسه،ص٢٢٣.

[٥] - نفسه،ص٢٢٣.

صورة مصاب بالطاعون "الخراجي"

صورة لأعراض الإصابة بالطاعون[٦]

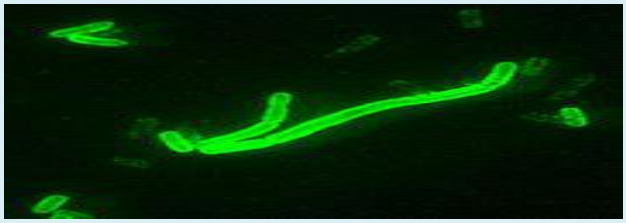

صورة مجهرية للبكتيريا (Yersinia pestis) المسببة لوباء الطاعون[٧]

[٦] - أحمد عبد الرزاق جبر، مرجع سابق،ص٦.

[٧] -نفسه، ص٢.

وعلى العموم يمكن تلخيص اعراض مختلف الطواعين على النحو التالي:

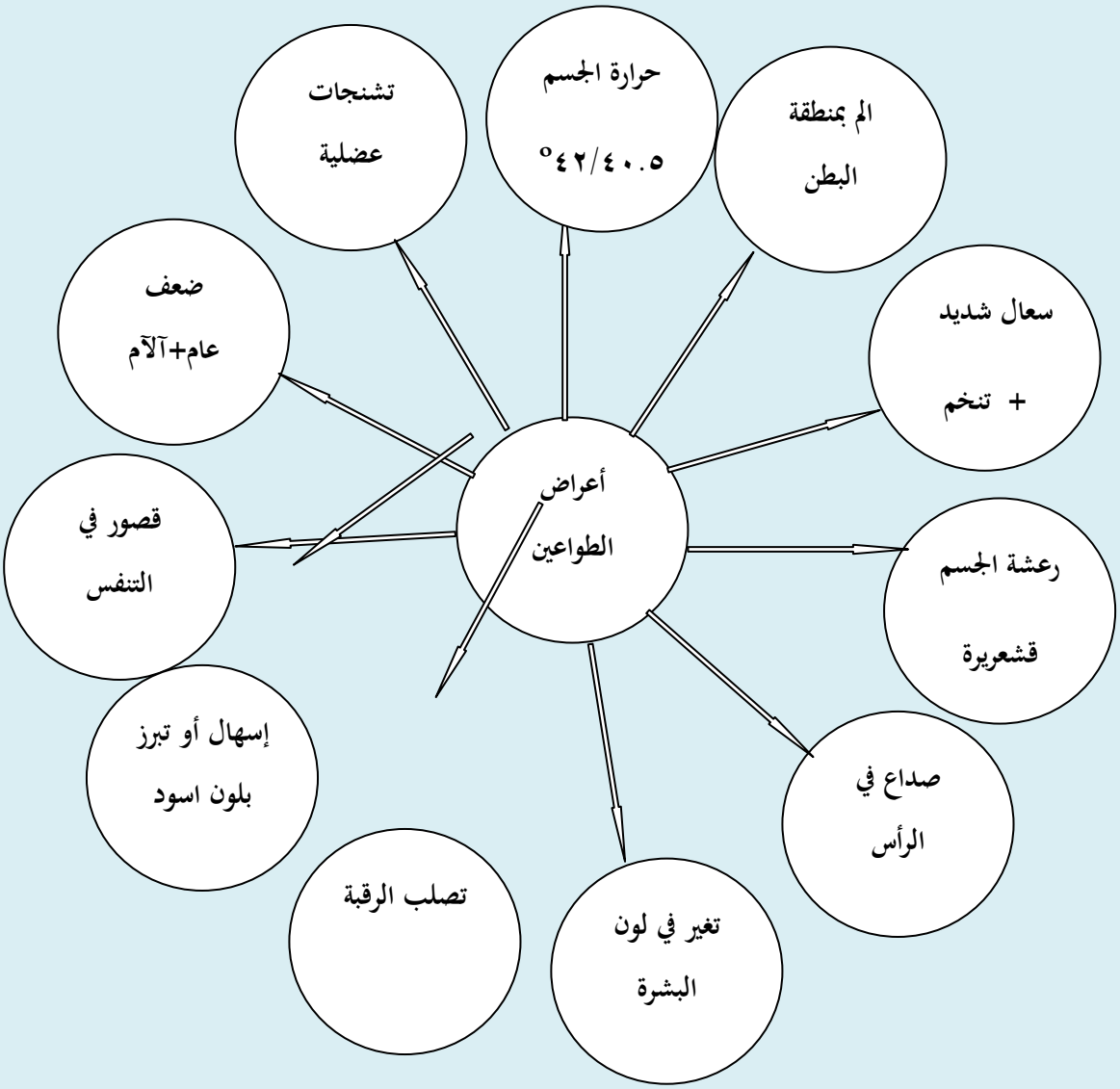

مخطط ملخص لأعراض الطاعون-الباحث-

١-أ-٢-إنتقال الطاعون:

تمكن طبيب معهد باستور الدكتور(يرسين)(Dr Yersin)عام ١٨٩٤م من تحديد جرثومة الطاعون الذي عرفت لاحقاً بإسمه ،وذلك أثناء وباء (هونغ كونغ)(Hong-Kong)شهر جوان ١٨٩٤م، وقد تم تحديد طرق العدوى على النحو التالي:

-تنتقل العدوي للبشر عن طريق القواظم خاصة الفأر الأسود(Rattus)، البراغيث المتعفنة والمعدية منها
(إكسنوفيلا كيوبيس)(Xenopsylla Cheopis)التي ينقلها كل من الأرنب والجرد[٨].
-الإنتقال عن طريق تعرض الإنسان للعض من طرف الحيوانات المصابةكالفئران، القطط، الكلاب، الأرانب، الجمال و الخرفان[٩].
-التواجد في مناطق موبوءة والتماس المباشر مع المصابين، يُعرض الإنسان للعدوى عن طريق الإستنشاق.
-إستعمال أدوات أو ملابس سبق استعملها من قبل أشخاص مصابين.
-التعرض لِلَدَغَاتِ الحشرات والبراغيث التي تنقل المرض.

١-أ-٣- الطاعون في الجزائر العثمانية:

تشير المصادر أن الجزائر عرف الوباء قبل مجئ العثمانيين؛فقد ذكر الباحث(جان مرشيكا)(Jean Marchika)في دراسة قام بها حول الوباء في إفريقيا الشمالية بأن "المرض في شكله العرضي موجود في الجزائر قبل قدوم الأتراك"[١٠]،ويقول في موضع آخر أن النوميدين (الجزائريين القدماء)لم يكونوا يعرفون هذا المرض، وأن أرضهم كانت خالية من الوباء[١١]، وبمقارنة ما ذكره مارشيكا يمكننا القول بأن هناك تلميح للفترة التي ظهر فيها الوباء، وقد تكون الفترة الوسيطة من تاريخ الجزائر.كما أن ما ذهب إليه يتناقض مع رأي (بيرابن)(Biraben) الذي يثبت أن الوباء إجتاح شمال إفريقيا عام ٥٣١م.

وفي إتجاه آخر أرجع الطبيب(رينو)(Raynaud) فترة وجود بعض الأوبئة في المنطقة إلى ما بين ٥٤٢ و٧٤٢ ق.م، وهو الرأي الذي دعمه الطبيب(لومونييه)(Laumonier) الذي يرى بأن ظهور الطاعون يعود إلى عام ٤٣٠ق.م، حيث نقل جنود الإغريق الوباء من مصر ودلتا نهر الفرات،كما أكد أن الوباء عاد للظهور مرة أخرى بعد خمسين سنة(٣٩٥ق.م) في صقلية التي حاصرها القرطاجيون،ويضيف أنه بحسب رواية ديدور الصقلي فإن هذا الطاعون لم يشكل خطراً كبيراً بالمقارنة مع الوباء السابق الذكر،أو بالذي وقع بعده بحوالي ١٢٥سنة على السواحل الشمالية من

---

[٨] - فلة موساوي القشاعي،مرجع سابق ،ص٢٢٢.

[٩] - أحمد عبد الرزاق جبر، مرجع سابق.ص ٨.

[١٠]-Jean Marchika, **la peste en Afrique septentrionale: histoire de la peste en Algérie de1363 à 1830**, Jules Carbone imp de l'université .Alger, 1927, p14

[١١]-ibid, p14.

إفريقيا[١٢] ، وهو الأمر الذي يتناقض مع رأي(مارشيكا) القاضي بخلو أرض النوميدين من الوباء في الفترة القديمة، وقد أرجعت القشاعي هذا التباين في الأراء لكون أن معظم الأمراض التي كانت تتسبب في أعداء كبيرة من الوفيات كانت تُعرف بالطاعون[١٣] ، بمعنى أنه لا يمكن تحديد حقيقة ما تكلمت عنه المصادر بكونه وباء الطاعون الحقيقي(la peste)، أو أن المقصود هو أحد الأمراض الفتاكة الأخرى، خصوصًا وأن الطب لم يتمكن من تحديد جرثومة هذا الوباء وأعراضه بدقة إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

بعدأن قدمنا لمحة موجزة عن بدايات ظهور الطاعون في شمال إفريقيا، نحاول في التالي تتبع مراحل ظهوره في تاريخ الجزائر الحديثة وكيف أثرت موجاته على البنية الديمغرافية للبلاد وبالتالي على القوى المحترفة للفلاحة.تقول الباحثة فلة القشاعي أن:" الجزائر ودعت العصور الوسيطة في ظروف صعبة ،فقد اجتاح الطاعون مدينة بجاية سنة١٥١٠م، وبلغ عدد ضحاياه ١٠٠شخص يومياً[١٤]،وانتشر الوباء في مستشفى وهران الذي أسسه (إكزمنياس)(Ximines)ووضعه تحت رعاية القديس (برنار)(St.Bernard)[١٥] . وجاء وباء وهران عام١٥١٧م ليحدث رعباً وسط السكان الذين أجبروا على ترك المدينة والعيش في ضواحيها نتيجة الخسائر البشرية الهامة التي أحدثها[١٦] .

لقد تزامن هذا الوباء مع فترة سياسية جديدة بالجزائر تتمثل في دخول العثمانيين وبداية المواجهات مع الإسبانيين الذي كانوا يسيطرون على سواحل البلاد،حيث عرفت هذه الفترة تحولات جذرية بدء من تحرير جل السواحل وتشكيل حكومة ملحقة بالخلافة العثمانية ،وإنشاء تنظيمات إدارية وسياسية هامة،وتصل لحد شبه الاستقلال عن الدولة العثمانية نكما تمكنت السلطة القائمة في عهد الدايات من تحرير كل السواحل الجزائرية ، وإجلاء الإسبان منها ،من كما تمكنت صد العديد من الهجمات والحملات الغربية،لينتهي المطاف بالبلاد على وقع الحملة الفرنسية عام ١٨٣٠م ،والتي أنهت حكم العثمانيين للجزائر ووقوعها تحت الإستعمار الفرنسي،وبما أن هذه المرحلة (١٦٧١/١٨٣٠م)هي الإطار الزماني للدراسة ،سنقدم كرونولجيا لأهم فترات ظهور الوباء وفق الجدول :

---

[١٢]- Laumonier, **La peste histoire et traitement,** Henri Gautier éditeur, Paris, 1897, p2

[١٣] -فلة القشاعي،المرجع السابق،ص٥٦.

[١٤] -نفسه،ص٦٣.

[١٥]- Jean Marchika,op.cit,p23.

[١٦] -فلة القشاعي،المرجع السابق،ص٧٩.

المرحلة	سنوات الوباء	المناطق الموبوءة	الخسائر	ملاحظات
١- (١٥١٧/١٥٣٠م)	---	خالية	---	
٢- (١٥٣٥/١٥٥٢م)	١٥٣٥،١٥٤٢ ١٥٤٥،	الجزائر،وهران،بجاية	هلاك العديد من سكان مدينة الجزائر ووهران +مجاعة كبيرة	
٣- (١٥٥٢/١٥٥٥م)	١٥٥٣ ١٥٥٤	الجزائر وهران	٩٠٠٠ضحية	
٤- (١٥٥٥/١٥٥٧م)	١٥٥٥...١٥٥٧ ١٥٥٧	الإيالة وهران+تلمسان	تزايد عدد الوفيات يوميا بسبب شدة الطاعون، وفاة صالح رايس، و يوسف باشا + وفاة أعيان تلمسان	خارج الإطار الزماني الدراسة
٥- (١٥٥٧/١٥٨٥م)	١٥٧٢ ١٥٨٢،١٥٨٤	الجزائر،وهرن،تلمسان قسنطينة	قتل اكثر من ثلثي السكان أعداد كبيرة من الوفيات	
٦-	١٥٩٠،١٥٩٢	كل الإيالة	انقراض ديمو	

(١٥٩٠/١٥٩٧م)			غرافي على مستوى المدن والأرياف	
-٧ (١٦٠١/١٦١٤م)	١٦٠٤ ١٦١٠...١٦١٤	الجزائر الجزائر	٧٠٠وفاة يومياً	
-٨ (١٦٢٠/١٦٢٧م)	١٦٢٠...١٦٢٧ ١٦٢٢	الجزائر قسنطينة	إنهيارديمغرافي	
-٩ (١٦٣٩/١٦٤٩م)	أوبئة تكرارية	الجزائر،بسكرة،قسنطينة	٣٠٠ضحية في قسنطينة في ٣ايام نسبة هامة من الوفيات في بسكرة عام١٦٤٩	
-١٠ (١٦٥٤/١٦٦٦م)	١٦٥٤...١٦٦٦ ١٦٦٣	وهرن،بجاية،قسنطينةالجزائر سيدي عقبة، بسكرة، قسنطينة، الزريبة	٥٠٠هالك في اليوم. القضاء على ثلث السكان	
-١١ (١٦٦٦/١٦٧٣م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			
-١٢ (١٦٧٣/١٧٠٢م)	١٦٧٥،١٦٧٧ ١٦٧٨،١٦٧٩، ١٦٨٠ ١٦٨١ ١٦٨٢.١٦٨٣، ١٦٨٤،١٦٨٦، ١٦٩٠،١٦٩١	الجزائر،وهران،المتيجة وهران وهران الجزائر الجزائر //	خسائر بشرية هامة	

	١٦٩٢...١٦٩٣ ١٦٩٨....١٧٠٠ 	// // //	ضربات موجعة -مابين ٢٥.٠٠٠ إلى٤٥.٠٠٠وفاة سنوياً	
١٣- (١٧١٧/١٧٠٢م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			
١٤- (١٧١٨/١٧١٧م)	١٧١٨	إكتساح الإيالة		
١٥- (١٧٣٠/١٧١٨م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			
١٦- (١٧٥٥/١٧٣٠م)	١٧٣٠ ١٧٣٧ ١٧٤٠ ١٧٤٠ ١٧٤٠ ١٧٤٢ ١٧٤٤ ١٧٤٥/١٧٤٩	الجزائر أرياف وحواضر الجزائر كل الإيالة قسنيطنة وأريافها مستغانم الجزائر،قسنطينة الجزائر	أضرار كبيرة مجاعات ١٦٣٤...١٧٣٧ تسببت في الطاعون (عام الطاعون) -خسائر بشرية كبيرة بلغت ١٠٠٠ضحية في الاسبوع الأول ٤٠/٣٥ضحية يوميا قدرت الخسائر بين١٧٤٠و١٧٤١ ٧٠٠٠٠ضحية ٣٠/٢٠وفاة	

	١٧٥٣/١٧٥٢	الجزائر الإيالة(اكثر شدة في جيجل والقل)	يومياً ٣٠/٢٥ضحية يومياً ١٠/٨قتلى يومياً -دون خسائر بشرية ١٧٠٠-ضحية يوميا في شهر جويلية ١٧٥٣	
١٧- (١٧٥٥/١٧٣٠م)	١٧٥٨...١٧٥٦	الجزائر،القل،قسنطينة	خسائربشريةواقتصادية لارتباطه بمجاعة وزلزال ١٧٥٥	
١٨- (١٧٦١/١٧٥٩م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			
١٩- (١٧٦٤/١٧٦١م)	١٧٦٢ ١٧٦٣،١٧٦٤	الجزائر الجزائر	تمرد السكان بسبب المجاعة والزلزال والوباء - زلزال+مجاعة+جراد	
٢٠- (١٧٧٨/١٧٦٤م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			
٢١- (١٨٠٤/١٧٧٨م)	١٧٨٠ ١٧٨٦/١٧٨٥	وهران قسنطينة	مجاعة بسبب الجراد	خلف وباء

		وضواحيها،القالة	هلاك عدد هام (٥٠يوميا)	١٧٧٨ م
		عنابة	-٤٥هالك	١٥٧٩
	١٧٨٤/١٧٨٦	الجزائر	-١٨/١٦هالك	٣
	١٧٨٧	وهران،معسكر	-جائحة	ضحية
	١٧٩٦	الجزائر	حيوانية	منهم
	١٧٩٢/١٨٠٢	الجزائر	جائحة حيوانية	١٣٤٨
		الإيالة(البليدة١٧٩٣)	٥٠٠هالك يومياً	٢
			-كارثة	مسلم
	١٧٩٣		ديمغرافية(	و
	١٧٩٣	قسنطينة،الزيبان	١٢.٠٠٠)ضحية	١٧٧١
	١٧٩٤	الجزائر	١٠٠ضحية	يهودي
	١٧٩٦/١٨٠٤	وهران	يومياً	و
		الجزائر،وهران،قسنطينة،عنابة،		٥٤٠
		دلس	خسائر بشرية	مسيحي وبين
		،تلمسان،القليعة	بلغت ٤٨ضحية	١٧٩٢
			يوميا في مدينة	م
			الجزائر علم	١٧٩٣
			١٧٩٦ وبلغت	م
			٥٠٠ضحية بها	١٢٠٠
			عام ١٧٩٧م	.
				ضحية [١٧]

[١٧] -أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل إنهياره(١٨٠٠/١٨٣٠م)، دار الفكر العربي،٢٠١١، ص٨٤.

٢٢- (١٨٠٥/١٨١٦م)	الجزائر بيئة خالية من الوبـــــــــاء			
٢٣- (١٨١٦/١٨١٦م)	١٨١٧	الجزائر،وهران،عنابة	استمر حتى ١٨٢٢ عرف بالظاهرة الوبائية الكبيرة.+جائحة حيوانية+جراد+ مجاعة +٥٠ضحية يومياً بلغتالخسائر البشرية ما بين ٤٠٠ إلى ٤٥٠ يومياً. ٤٠هالك يومياً بمجموع ١٥٥٦ شخص بالمدينة -قتل ٧٠٠٠شخص ٨٠/٢٠ضحية -خسائر بشرية هامة -٤٠/٢٥ ضحية في المدن	وباء ١٨١٧/ ١٨٢٠ من اخظر الأوبئة التي عرفتها البلاد حيث اجتاح كل مناطق البلاد.
	١٨١٧	ألحواضر والقرى قسنطينة،القالة،بسكرة،وهران		
٢٣- (١٨١٦/١٨٢٠م)	١٨١٨	الجزائر		
	١٨١٨			
	١٨١٩	وهران+ارزيو		
	١٨١٩	الجزائر+حواضر الإيالة		
	١٨٢٠	قسنطينة+بجاية+جيجل عنابة+الجزائر+عنبة +قسنطينة +وهران		

٢٤- (١٨٢١/١٨٢٠م)	تحسن الوضع الصحي في الإيالة إلى غاية جوان١٨٢١			
٢٥- (١٨٢٢/١٨٢١م)	١٨٢١ ١٨٢٢ ١٨٢٢ ١٨٢٢	الجزائر قسنطينة الجزائر أرياف ومدن البلاد	إصابة ١٠أشخاص في البداية ليصل١٣٢ هالك بمدينة الجزائر حالات نادرة ٣٠/٢٠ضحية يومياً من٦إلى٨ضحايا بالمدن و من١٢ إلى ١٥ بالأرياف	٤١٦ ضحية في الجزائر وأريافها
٢٦- (١٨٣٠/١٨٢٣م)	الجزائربيئة خالية من الوبـــــــــاء			

جدول رقم -٤٦-كرونولوجيا وباء الطاعون في الجزائر العثمانية[١٨] (الباحث).

تحليل: من خلال القراءة التحليلية للمعطيات الواردة في الجدول يمكننا تسجيل الملاحظات الآتية:

-وفق المصادر المتوفرة فقد عرفت الجزائر الطاعون منذ قرون كثيرة.

-سبق وإن شهدت الجزائر اجتياح الطاعون للبلاد قبل الوجود العثماني بها.

-عرفت الفترات الأولى من مراحل الحكم العثماني للجزائر تواتر عدة موجات للوباء .

-تسببت الموجات الوبائية السابقة الذكر في خسائر بشرية كبيرة.

-أكثر المناطق تضرراً في المراحل الأولى من الحكم العثماني هي المدن الساحلية والحدودية ؛كمدينة الجزائر،بجاية ، تلمسان وقسنطينة.

[١٨] -المادة العلمية المستخدمة في الجدول مستنبطة من:-فلة القشاعي،نفسه،ص ص٨٦...١٥٩.

-قد سبب تموقع الوباء في المناطق السالفة الذكر للنشاط البحري ،الأسرى،وكذا النشاط التجاري والقوافل عبر المناطق الحدودية مع تونس والمغرب،وقوافل ركب الحجيج.

-الجزائر خالية من الوباء فترة الدايات ،أي خلال الربع الثالث من القرن السابع عشر،وهي المرحة التي عرفت ببدء فك الإرتباط بالدولة العثمانية ،وبروز كيان الدولة الجزائرية الحديثة.

-الربع الأخير من القرن السابع عشر الوباء يضرب بقوة مدمرة ويتسبب في انهيار ديمغرافي.ليتم خموده في بدايات القرن الثامن عشر مع تحكم في الوضع الصحي.

-تتكرر موجات الطاعون بعد١٧٣٠ وتجتاح جل مدن وأرياف الإيالةويستمر حتى١٧٥٥م متسبباً في دمار كبير خاصة لاقترانه بمجاعات وجوائح.،ليخمد بعض سنوات ثم يعود في منلطق محدودة بين١٧٦١و١٧٦٤م

-الجزائر خالية من الوباء ما بين ١٧٦٤و١٧٧٨م،ثم يضرب بشكل مدمر وشامل ومستمر حتى مطلع القرن التاسع عشر .

-البلاد خالية من الطاعون ما بين ١٨٠٥و١٨١٦م،ثم يضرب بأكثر شمولية وقوة ما بين١٨١٧و١٨٢٠م.

-خمود الوباء ما بين١٨٢٠و١٨٢١م وتحسن الوضع الصحي.

-يتجدد لحالات معزولة وأقل شدة ما بين١٨٢٢و١٨٢٣م.

-الجزائر خالية من الوباء بين ١٨٢٣و١٨٣٠م.

-ما يُلفت الانتباه هو أن فترة حكم الدايات للبلاد بدأت ببيئة خالية من الطاعون وانتهت كذلك ،وربما تكون الفترة الأخيرة في وضع خمول للطاعون بسبب الحصار المضروب على البلاد وتراجع نشاط البحرية ،ما يفسر غياب العدوى التي تسببت في نقل المرض للجزائر عدة مرات،كما يمكن القول أن الوباء مرض دخيل وليس مستوطن.

-تسبب الوباء خلال مراحل ظهوره في كوارث ديمغرافية واقتصادية مست الانسان،الحيوان والبيئة.

-ألحق الطاعون ضرر مباشر بالنشاط الفلاحي حيث قتل الآلاف من المزارعين وتسبب في غياب الأمن وبالتالي إنتشار الفوضى والخوف وهجرة سكان الريف للمدن.

-تزامنه مع الكوارث والجوائح المتعددة زاد في حجم الأضرار خصوصا في الفترات التي شهدت شمولية الوباء واتساع رقعته.

وهنا نقدم عينة عن الخسائر البشرية التي ألحقها الطاعون بالنية الديمغرافية لعدة مدن جزائرية عام ١٨١٧م:

البلدة	جيجل	بسكرة	سيدي خالد	اولاد جلال	طولقة	فرفار	ليشانة	بوشقرون	الزعاطشة
عدد السكان	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٣٥٠	١٥٠٠	٧٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٢٠٠	٢٠٠
عدد الموتى	٦٠٠	٤٥٠	٢٨٠	١٥٠	١٥٠	٦٠	١٣٠	٣٠	٢٥
النسبة٪	٣٠	١٥	٨٠	١٢	١٢.٤	١٢	٢١.٦	١٥	١٢.٥
مجموع السكان	٩٠٥٠		عدد الموتى		١٨٧٥	النسبة			٢٠.٧١

جدول رقم -٤٧-عينة عن الخسائر البشرية[١٩] لطاعون١٨١٧م-الباحث:

تحليل:من خلال العينة يتضح أن وباء١٨١٧م:

-كان عام وشامل.

-مدمر بحيث اهلك خمس(٢٠٪) الكتلة السكانية وفق عينة الدراسة المستخدمة في الجدول.

١-ب-الأمراض الأخرى:

لم يكن الطاعون المرض الوحيد الذي فتك بالجزائرين خلال العهد العثماني ،فرغم بضاعة الخسائر البشرية التي الحقها بالبلاد،لم تسلم هذه الأخيرة من خطر العديد من الأمراض الفتاكة التي مست فئات المجتمع الأضعف كالأطفال والمسنين،وقد عود سبب إنتشار هذه الأمراض بحسب تعبير الباحثة القشاعي لعدة عوامل منها:سوء التغذية،البؤس،عدم الإلتزام بقواعد الرعاية الصحية[٢٠]،ناهيك عن خطر المجاعات والجوائح التي أسهمت في تردي الأوضاع الصحية،وكذا قلة الأطباء واعتماد وصفات علاجية تقليدية غير كافية،ومن هذه الأمراض نذكر:

١-ب-١-الحمى:

تُعتبر الحمى من الأعراض المرضية الشائعة وهي عبارة عن إرتفاع في درجة حرارة الجسم عن معدلها

[١٩] -للمزيد حول الأرقام الإحصائية المعتمدة في الجدول ينظر:

-بوحجرة عثمان،**الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (١٥١٩/١٨٣٠م)**،رسالة مجستير في التاريخ الحديث، جامعة أحمد بن بلةوهران،الجزائر،٢٠١٤/٢٠١٥،ص٥٧

[٢٠] -نفسه،ص٢٥٣.

الطبيعي(٣٧ ٥~٣٧.٢٥)،مُقاسة عن طريق الفم[٢١] ،وقد أرجع أطباء الإحتلال سبب الحمى لنمو نبتة نقية في مياه عكرة ،فيحدث تسمم ينتشر في الماء،وعلى الأرض وفي الهواء،وللحمى أنواع متعددة منها الحمى المترددة أو المتواترة(Fièvre rémittentes et récurrentes)،وحمى الربيع المعرفة بالصفراء (Fièvre Jaune)،وحمى الصيف[٢٢] ،وتُعتبر اخطر الأنواع لما سببته من وفيات الجزائر حيث تكررت الإصابة بها وبصفة حادة خصوصاً لدى كبار السن حسب ما ذكره الطبيب(مارشيكا) الذي وصفها بالحمى الخبيثة[٢٣].

لقد ساعدت الظروف الطبيعية على إنتشار بعض أنواع هذه الحمى في الجزائر أواخر العهد العثماني خصوصاً مع غياب التطور الطبي وانتشار المستنقعات في العديد من المناطق كالمتيجة ،ومما زاد الطين بلة تراكم المياه الملوثة في هذه البرك ،فظهرت الملاريا (حمى المستنقعات)،وهذا النوع من الحمى المعروف ب الملاريا(Malaria)أو "البُرَداء" هو مرض معدِ تتسبب فيه طفيليات (البلازموديوم)،وينتقل للإنسان عن طريق لدغات أُنثى بعوض (الانوفلس) التي تنقله من الشخص المصاب إلى الشخص السليم[٢٤].

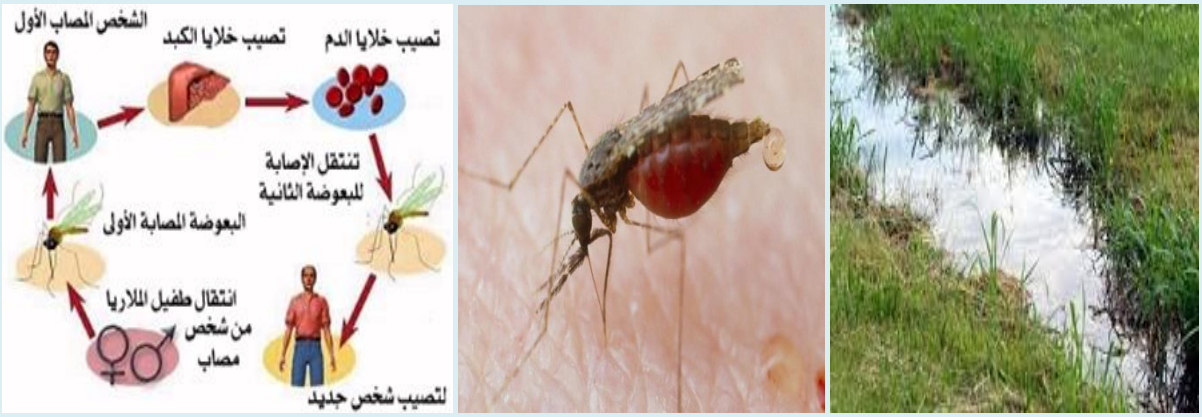

صورتوضيحية لكيفية انتشارو انتقال وباء الملاريا والبعوض المسبب له[٢٥]-الباحث-

تُشير الدراسات العلمية أن المناطق التي تتكاثر فيها الأمطار وتتجمع فيها في شكل مسطحات مائية يكون سكانها أكثر عرضة للملاريا ،لذا فقد عرفت المناطق الشمالية للجزائر تكرر الإصابات

[٢١] - علامة صليحة ،الأحوال الصحية بالجزائر خلال الإحتلال الفرنسي من١٨٣٠إلى١٩٦٢م،عمالة الجزائر انموذجا، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر،جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان ،الجزائر،٢٠١٦/٢٠١٧م.ص١٨١.

[٢٢] - فلة القشاعي،المرجع سابق،ص٢٥٣ .

[٢٣] - Jean Marchika, op.cit, p156

[٢٤] -للمزيد حول الموضوع يراجع مقال بعنوان السياسة العلاجية للملاريا ،وزارة الصحة السعودية منشور على موقعها الإلكتروني:

- Ministry of health : www.moh.gov.sa

[٢٥] -Ibid.

بهذا الوباء كمنطقة المتيجة التي تسلطت عليها الملاريا لدرجة تأقلم سكانها معها؛فهذا صاحب المرآة حمدان بن عثمان خوجة يُعبر عن تخوفه من زيارة أملاكه بالميتجة نتيجة الحمى في قوله:"إنني ازور هذا السهل مرة في ربيع كل سنة لأني أخشى الحمى...إن هذا السهل يُشبه الغدير في الشتاء وفي الصيف والخريف تستوطنه الحمى بإستمرار إلى درجة أنه من الصعب جداً إتقاؤها "[٢٦]، وذات الرأي أيده عالم النباتات(ديفونتان)(Desfontaine) الذي وصف المتيجة عام ١٧٨٤م بأنها بيئة مملوءة بهواء الأمراض المعدية وتتخللها في كل الجهات المياه الراكدة والتي تُشكل مستنقعات غير صحية[٢٧]، رغم ذلك فقد إكتسب البدو خبرة في التعامل مع الوضع جعلتهم يتجنبون المياه الراكدة بهذه الأحواض ويعبرون عنها بقولهم"الحمى تتشم"[٢٨].

ومن بين أنواع الحمى نجد "الحمى الصفراء"أو حمى الربيع ؛وهي عبارة عن مرض نزفي فيروسي حاد ينتقل عن طريق الباعوض،و هذا الوباء يتميز بأعراض واضحة حددها تقرير لمنظمة الصحة العالميةفي:إرتفاع في درجة الحرارة والصداع،واليرقان مصحوب بألم في العضلات والغثيان، والتقيؤ والإجهاد،ويموت نصف المصابين في حال انعدام العلاج في فترة تتراوح بين ٧إلى ١٠أيام[٢٩].

تسببت الحمى بمختلف أنواعها في هلاك الكثير من الجزائريين العهد العثماني خصوصاً مع محدودية التطور الطبي الذي لم يتمكن من تحديد أنواع الحمى ،وتشخيص الأمراض [٣٠]، ولم يتم إدخال عمليات التلقيح الوقائي من خطر هذه الأنواع من الحمى، حيث هلك الكثير من سكان الإيالة جراء الحمى في الفترة ما بين ١٦٦٤و١٦٨٣م، كما كان خطر الحمى واضح عام ١٧٦٥م، واشتدت وطأتها سنة ١٨١٠م، وتحولت إلى وباء.

١-ب-٢-الجدري والشهاق:

من بين الأمراض التي عكرت صفو الجزائر العثمانية داء الجدري(variole çiçek)الذي أصاب البلاد بحدة في عام ١٨١٧م ،واستهدف فئة الأطفال،وتعرضت نفس الفئة لمرض الشهاق(coqueluche) الذي ينتشر في وسط الصغار في فصل الربيع.

---

[٢٦] - خوجة ،حمدان بن عثمان ،المرآة،تع وتح،محمد العربي الزبيري،ط٢،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،١٩٨٢م،ص ص٨٨،٨٧.

[٢٧] - فلة القشاعي،المرجع سابق،ص٢٥٤.

[٢٨] -نفسه،ص نفسها.

[٢٩] - تقرير حول الحمى الصفراء منشور بتاريخ ٧مايو ٢٠١٩على الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية: www.who.int

[٣٠] - فلة القشاعي،المرجع سابق،ص٢٥٥.

١-ب-٣-السل:

تعرضت الجزائر الحديثة لضربات مر السل لما يقارب ٢٦ مرة في الفترة امتد بين ١٥٥٢و١٧٨، حيث

ظهرت أعراضه في مدينة الجزائر على سبيل المثال سنة ١٦٩٣م، واستمر لغاية ١٦٩٤م[٣١]. وفي العموم كانت الجزائر العثمانية مسرحاً للعديد من الأمراض فإلى جانب ما تم ذكره عرفت المجتمع الجزائري أنواع أخرى من الأمراض منها أمراض العيون كالرمد والتهاب العيون التي نجمت عن التغيرات المناخية،وقد مس مرض العيون مختلف الفئات العمرية(كبار وصغار) في ظل نقص الوقاية الصحية والجهل بقواعد النظافة [٣٢]، كما عرفت البلاد التيفوس الذي تكرر كل عشرين سنة تقريباً[٣٣]، كما عرفت البلاد الزكام الذي تسببت ضرباته غالباً في هلاك نسبة هامة من المصابين مثلمل وقع شهر أفريل ١٧٤٣م[٣٤].

الخاتمة

ليس من السهل تقديم مسح للوضع الصحي الذي عرفته البلاد في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني لها ، وذلك في غياب معطيات وإحصائيات دقية لحجم الدمار الدميغرافي الناجم عن تردي الأوضاع الصحية ،إلا أنه من الواضح جدا تواتر الكثير من الأوبئة والطواعين ،وتزامنها مع جوائح ومجاعات شاملة ومدمرة،ورغم أن بعض المعطيات التي تناولتها بعض المصادر كافية كعينات لإحداث مقاربة نستنتج من خلالها سوء الأحوال الصحية ونستبين منها المؤشرات الدالة عن تأثر المجال الإقتصادي جراءها ،ومن بين هذه المؤشرات:

- تراجع تعداد السكان نتيجة الوباء والأمراض يؤدي إلى تقلص القوى العاملة في المجال الإقتصادي سواء الحرفي الصناعي،أو الفلاحي.
- انتشار الأمراض يؤدي إلى تراجع النشاط وكذا الخمول لدى الفئة المصابة.
- تعرض المدن والأرياف للاوبئة يلحق ضرر هام بالاقتصاد من خلال ارتفاع الوفيات وبالتالي تراجع في الإستهلاك الغذائي في السنوات الوفيرة الإنتاج.

---

[٣١] - بوحجرة عثمان، المرجع السابق، ص٥٠.

[٣٢] - فلة القشاعي، مرجع سابق، ص259.

[٣٣] -بوحجرة عثمان، مرجع سابق، ص49.

[٣٤] - فلة القشاعي،المرجع سابق،ص259.

- تزامن القحط والجراد والأوبئة والزلازل نتجت عنه كوارث متعددة الأبعاد(صحية،اجتماعية،اقتصادية وأمنية).
- إنشتار الأوبئة يؤثر على الثروة الحيوانية والتي هي أحد ركائز النشاط الفلاحي.
- عمليات الحجر الصحي المطبقة من قبل البايات في المدن والقرى أدت إلى شل حركة الأسواق الداخلية وتعطيل التجارة مع الدول الأوربية وكذا التجارة العابرة للصحراء.

الملف الثاني

دراسات في طبيعة الامراض وتاثيراتها وتداعياتها

دراسة مقارنة بين كوفيد-١٩– والإنفلونزا الإسبانية
الاقتصاد – الإجراءات – التأثير
الدروس المستفادة

الدكتورأنورفاضل علي صبي الخالدي

ملخص :

انطلاقًا من البحث العلمي واستنادًا إلى أهمية جائحة كورونا(كوفيد-١٩)، وللمساعدة في فهم تطوراتها ، من خلال إجراء دراسة مقارنه بينها وبين الإنفلونزا الإسبانية وأثرهما الاقتصادي والاجتماعي، ورغم وجود بعض الاختلاف بين الفيروس الذي تسبب في جائحة كورونا(كوفيد-١٩)، والفيروس في جائحة (الإنفلونزا الإسبانية) عام ١٩١٨، وبعد مرور مائة عام بين الجائحتين ولكن الاثنان لديهم العديد من المشتركات مثل طريقة تطورهما وانتقالهما وانتشارهما والتداعيات الاقتصادية، حتى وصل التشابه في زيادة انتشارهم في دول معينة اكثر من غيرها كالهند والولايات المتحدة.

ووفقاً لذلك، فأن ما يمكن أن يتوخاه هذا البحث هو تتبع جائحة الانفلونزا الإسبانية وإيجاد التشابك والترابط بين الجائحتين من خلال استشراف المستقبل لتقليل الاضرار التي تسببها جائحة كورونا (كوفيد -١٩)، وأخذ العبرة من الانفلونزا الإسبانية لتجنب الخسائر التي تسببها في الحاضر كورونا(كوفيد -١٩) .

ملخص الإنكليزي :

According to the scientific research objectives that introduce the understanding of Corona pandemic (Covid-19) by conducting a comparative study with Spanish Flu economic and social impact. Despite the presence of some differences and the time passage in between the two, they still indeed have many in common. For example, their social and economic development, method of transmission, and economic repercussions. These viruses had spread in India and the United States the most among all the other countries.

This intertwining and the interconnectedness that is happing in between the two pandemics made it necessary to study the past in order to

explore the future and reduce the damage caused by corona pandemic

المقدمة

يقوم هذا البحث على نقطتين أساسيتين: الأولى: محاولة علمية لتقديم فهم محدّد للجائحتين، والثانية محاولة استقراء التأثيرات والنتائج وإبراز تداعياتها. في ضوء ما سنحصّله من فهم للمقارنة .

إشكالية البحث.

إنَّ الإشكالية الرئيسية التي يسعى البحث إلى إبرازها بالبحث العلمي، هي فهم مدى الارتباط بين الإنفلونزا الإسبانية كورونا(كوفيد-١٩)، وما هي التأثيرات المستقبلية لكورونا(كوفيد-١٩)، على المستقبل .

وفقاً لذلك. فأن ما يمكن أن يتوخاه هذا البحث هو تتبع وفهم واجه التشابه بين الجائحتين رغم اختلاف التوقيت وبعد الواحدة عن الاخرة لسنوات طويلة – مائة عام - وتفسير الارتباط والتشابك في الأسباب والنتائج بعد ظهورهم والتداعيات المحتلمة لكورونا(كوفيد -١٩)، على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية ومن هنا، أنطلق البحث، مؤكّدا على مقولة أن الحاضر يفسر الماضي- وليس العكس- مستندا إلى منهجية التاريخ في سيروتها في اتجاه المستقبل. مع الانتباه والحذر لمدى الاختلاف ا بسبب التقدم العلمي والأساليب الحديثة في معالجة الإصابات ولكن في المجمل لهم اوجه شبه عدة . لذلك اخترت البحث في موضوع على غاية من الأهمية، مترابطا بين الماضي والحاضر والمستقبل ويشكل جزءًا مهمًا من المشكلات التي نعاني منها في وقتنا الحالي .

أهمية البحث

لم تنقطع علاقة البشرية بالأمراض التي أصابت الإنسان منذ قديم الزمان، وتحول المرض لوباء كان باعثا لتحولات اجتماعية واقتصادية وفكرية هائلة، شكلت وجها مهما من وجوه العالم المعاصر. ومع التغيرات التي نعيشها اليوم، عصراً يتجدد ويتغير على مدار الساعة في مجال العلم والتقنية، فقد شهدات السنوات الأخيرة تغيرات متلاحقة في تنكولوجيا والمعلومات، ولكنها على الرغم من ذلك لم تستطع من مجابهة جائحة كورونا(كوفيد - ١٩)، وعادت على الأساليب القديمة المستخدمة - الحجر والإغلاق والعزل والكمامات- قبل مائة عام في مجابهة الإنفلونزا الإسبانية .

أولاً. مكان الظهورالأول :

الإنفلونزا الإسبانية، كانت بداية ظهورها في أماكن محدودة في معسكرات الجيش على الجبهة الغربية للحرب العالمية الأولى[١] بين عامي ١٩١٨-١٩١٩، إذا كان الجنود يعيشون في خنادق ضيقة وقذرة ورطبه من ما أدى إلى إصابة عدد منهم وانتشار الوباء بينهم.

جائحة كورونا كوفيد –١٩(NCov-19)، ظهرت أول إصابة في الصين في ١٧ نوفمبر٢٠١٩، ولم تعلن السلطات الصينية عن انتشار فيروس كورونا الجديد إلا في نهاية ديسمبر ٢٠١٩، إذا بدأ تفشي وباء كورونا(كوفيد-١٩)، في سوق المأكولات البحرية بمدينة ووهان الصينية ، وهو سوق مكتظ بالناس حيث تُباع فيه اللحوم الحية والأسماك .[٢]

جائحة الإنفلونزا الإسبانية، : اكتسحت هذه الأنفلونزا العالم وجاءت على ثلاث موجات : الموجه الأولى، في ربيع ١٩١٨.

الموجه الثانية كانت في خريف ١٩١٨، وهي الاكثر فتكاً وتسببت في قتل ٩٠ في المائة من إجمالي الضحايا والموجة الثالثة بين شتاء ١٩١٨، إلى ربيع ١٩١٩. وكنت اخر مراحل الوباء.

وقدر عدد الإصابات في العالم بأكثر من ثلث الكرة الارضية ويشير علماء الاوبئة أن نسب الوفيات تتراوح بين ٢.٥ في المائة إلى خمس في المائة من سكان العالم.

كورونا(كوفيد-١٩)، ونحن الان نمر في المرحلة الاولى حسب البحث والدراسة وسوف تأتي مرحلة أخرى وقد تمتد إلى ثلاث سنوات وكل الادلة تؤكد ذلك ومنها الانخفاض في عدد الاصابات وعودة الارتفاع مرة أخرى وعدم وجود لقاح، ولا دواء ناجح يواصل كورونا(كوفيد-١٩)، في حصر الأرواح[٣].

ثانياً. الانتشار الجغرافي :

تفصل بين الفيروسين تقريبا مائة عام، ولكن كلا الفيروسين تم اخفاء ظهورهما في البداية حتى اصبحا خارج السيطرة والتوقع وحصل في كليهما تفشي في أغلب دول العالم :

---

[١] Jester, B; Uyeki, T; Jernigan, D. Readiness for Responding to a Severe Pandemic 100 Years After 1918: American Journal of Epidemiology. 2018, Jan.

[٢] أنور فاضل صبي الخالدي: كورنا(كوفيد-١٩) بين التداعيات الاقتصادية وعلاقات دولية متغيرة، دار النهضة العربية، بيروت ، ٢٠٢٠، ص٥-٦ .

[٣] أنور فاضل صبي الخالدي: كورنا(كوفيد-١٩) بين التداعيات الاقتصادية وعلاقات دولية متغيرة، المصدر السابق، ص٢-٣ .

الإنفلونزا الإسبانية، تفشت سريعا في أسبانيا واجتاحت بعدها العديد من الدول في القارة الأوروبية[1]، وفي صيف ١٩١٨، وصلت إلى كل من : بريطانيا، وفرنسا، وهنغاريا، وألمانيا، والنمسا . وفي أغسطس من العام نفسه، أصبح الوباء جائحة، ووصل إلى السويد، وكندا، والولايات المتحدة، وجنوب إفريقيا وصول إلى الشرق .

ووجهت نصائح حينها من أجل تلافي الإصابة مثل الامتناع عن المصافحة وملازمة المنازل وارتداء الأقنعة، وهذا ما تكرر في الزمن الحاضر مع الدعوات الى التباعد الاجتماعي

فيروس كورنا كوفيد-١٩، انتشر الفيروس في أغلب دول العالم باستثناء الجزر الصغيرة، كانت بداية الانتشار في الصين بعدها جاءت العديد من الدول الاسيوية المجاورة للصين، ثم اوروبا بعدها الشرق الاوسط، وقد امتد الانتشار السريع للفيروس حتى امريكا الشمالية، وامريكا الجنوبية، واستراليا، حيث تصدرت الولايات المتحدة الدول في عدد الاصابات .

ثالثاً. الإجراءات المتبعة في معالجة الإصابات :

وتتشابه الجائحتان في أنه تسبب في كلتيهما فيروس تنفسي، ولم يكن أمام الطب في الحالتين سوى النصح بالغسل المتكرر لليدين وارتداء قناع الوجه، والحرص على التباعد الجسدي.

الإنفلونزا الإسبانية، كان الطب والعلم في عام ١٩١٨، أقل قدرة واستعدادا للتعامل مع الأمراض مما هو عليه الحال اليوم. فكان الأطباء يعرفون بأن سبب الإصابة بالإنفلونزا الإسبانية يأتي من عالم الأحياء المجهرية، وأن بإمكان المرض الانتقال بين شخص وآخر، ولكنهم كانوا يظنون بأن المرض بكتيريا وليس فيروسيا.وكانت سبل العلاج محدودة أيضاً إذ لم يكتشف أول مضاد حيوي إلا في عام ١٩٢٨، أما أول لقاح للإنفلونزا فلم يوفر للعامة إلا في الأربعينيات من القرن العشرين، الإنفلونزا الإسبانية وقعت في وقت لم يكن الطب بالتقدم الذي هو عليه الآن ومن الأمور المهمة والحاسمة أن العالم كان يفتقر آنذاك إلى أنظمة صحية تشمل الجميع، وكان الصرف الصحي لعموم السكان ما يزال غير متوفر . وكان فيروس الإنفلونزا الإسبانية فتاكاً جداً، إلى درجة أنه

(1)Taubenberger JK, Morens DM 1918 influenza: the mother of all pandemics. Emerg Infect Dis. 2006; 12: 15–22

يتسبب بالوفاة بعد يومان[١]. وفي السياق نفسه "كان معظم الأطباء في العالم الغربي آنذاك يعملون إما لحسابهم الخاص أو أنهم كانوا ممولين من جمعيات خيرية أو مؤسسات دينية[٢]، ولم يكن بإمكان العديد من الناس الاستفادة من خدماتهم إطلاقا."

كورونا(كوفيد-١٩)، على الرغم من التقدم الطبي وسرعة انجاز بعض المستشفيات بسرعة قياسية كما حدث في الصين وامريكا، ولكن زيادة عدد المصابين وانتقال العدوى بسرعة أثرت في توفر الرعاية الصحية المناسبة من جانب، وإصابة بعض الكوادر الصحية من جانب أخر . ومن الجدير بالإشارة، ان العديد من الدول أعلنت انها تقوم بإجراء اختبارات لعلاج ناجح ولكن لم يتم اعتماد أي علاج موثوق إلى حد كتابة البحث وقد يستغرق ذلك وقتا طويلا[٣] .

رابعاً. الأقتصاد :

الإنلونزا الاسبانية :

واجهت صناعة التأمين وقتاً عصيباً عام ١٩١٨، إذ أفادت شركة التأمين " ذا إمباير أوف إنديا لايف أشورانس" بأن وباء الإنفلونزا تسبّب في زيادة التعويضات عن الوفاة لأكثر من الضعف، إلا أن وضعها المالي الجيد مكّنها من دفع التزاماتها المالية. وأهم درس يمكن أن يتعلمه المديرون التنفيذيون من ذلك، يتمثّل في جعل نفقات الإدارة معقولة ومعتدلة، وإعادة تقييم الرواتب وخفض الرواتب العالية. كانت تأثيرها كبير على الاقتصاد المنهك بسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، إذا ادت على سبيل المثال في جنوب أفريقيا تسبّبت في حدوث نقص في العمالة في مناجم الذهب بمعدل ١٢.٨ ألف عامل، كما لاحظت شركة "Nambrakelly " للشاي والمطاط انخفاض قوتها العاملة من ١.٢٧٢ ألف عامل إلى ٩٩١ عاملاً

في وقت أزمة الإنفلونزا الأسبانية استغلت بعض الشركات الترويج لنفسها ومنها شركة "بوفريل" المنتجة لمشروبات بنكهة اللحم البقري يتم ترويج منتجاتها عن طريق اعلانات في صحيفة "فايننشال تايمز" على هذا النحو " قوى كمال الأجسام مطلوبة لمكافحة وباء الإنفلونزا" في الوقت نفسه استفادت الشركة

---

(١) صحيفة عكاظ : ١٩١٨-٢٠٢٠ العالم بين جائحتين ، الخميس ١٤ مايو ٢٠٢٠ ، السعودية .

(2) Taubenberger JK, Morens DM 1918 influenza: the mother of all pandemics. Emerg Infect Dis. 2006; P 12: 15–22

(3) Kanupriya, : COVID-19: A Socio-economic â¨Perspective . Journal: FIIB Business Review . DOI: 10.1177/2319714520923918 .2020 .

المصنّعة للأقنعة الطبية على نحو كبير من تفشّي.

رت شركة صن بيم للسيارات بأنها لم تتمكّن من الكشف عن تقاريرها المالية، لأن الإنفلونزا تسبّبت في غياب واحد من بين كل ثمانية موظفين لمدة شهرين على الأقل، وربما تفهّم المساهمون هذا في ذلك الوقت. وفي الوقت الحالي يمكن أن تستخدم الشركات تكنولوجيا الاتصالات للكشف عن التقارير المالية [١]

تأثر الاقتصاد العالمي بتفشي جائحة كورنا كوفيد -١٩، في العالم وأخذ يعاني أكثر بعد تحول الحكومات إلى تدابير الصحة العامة ، مثل الابتعاد الاجتماعي وهذا أدى إلى توقف تدفق السلع والأشخاص ، وتعثر الاقتصادات ، و ركود عالمي. وأخذت تنتشر العدوى الاقتصادية مع سرعة انتشار المرض نفسه [٢].

عندما بدأ الفيروس بالانتشار ، كان للسياسين وصانعي القرار المبادرة لإيجاد الحلول المناسبة والتدخل المباشر للحدّ من تداعيات الجائحة ، مستندين إلى نمط التفشي التاريخي للفيروسات ، لذلك أغلقت الحدود واتبعت إجراءات العزل الصحي الذي كان الأكثر فعالية والأقل تكلفة في المرحلة الأولى - التباعد الاجتماعي، المسافة الاجتماعية- الآن ، على طول مسار المرض ، فإن التكاليف الاقتصادية أعلى بكثير ، والتنبؤ بالمسار المستقبلي أصبح شبه مستحيل ، لأن الأبعاد المتعددة للأزمة غير مسبوقة وغير معروفة.

إن نافذة التباعد الاجتماعي - النهج الوحيد المعروف لمعالجة المرض بشكل فعال – كما في مقاطعة ووهان الصينية التي لم تتخذ بنظرية التباعد الاجتماعي في البداية ، لكن بقية الصين تأكدت من عدم تفويتها. في إيطاليا ، تم تفويت فرصة التباعد الاجتماعي ، ثم فاتت على بقية أوروبا أيضًا. في الولايات المتحدة ، التي لا تزال مقيدة بسبب عدم كفاية الاختبارات ، تم تفويت النافذة المبكرة أيضًا. مع تكاثر المرض ، سيتعين سن تدابير بعيدة المدى على نطاق أوسع ولفترة أطول لتحقيق نفس التأثير ، مما يؤدي إلى خنق النشاط الاقتصادي.

وعلى الرغم من تضرر اقطاعات عديدة مث الشركات السياحية وشركات السيارات وشركات الطيران والمطارات والمصانع والمطاعم ، ولكن في

([١]) صحيفة القبس : خمس دروس تجارية من أزمة الإنفلونزا الأسبانية ، ٢١، مارس ٢٠٢٠ .

[2] Michie, Jonathan , The covid-19 crisis â and the future of the economy and economics , Journal: International Review of Applied Economics, Publisher: Taylor and Francis Group, Volume: 34, 2020, P301-303.

المقابل تستفيد الشركة المصنّعة للأقنعة الطبية والأدوية على نحو كبير من تفشّي «كورونا(كوفيد-١٩)، .

خامساً. التأثيرات :

الانفلونزا الاسبانية، عندما ظهرت الانفلونزا الإسبانية المستجدة كانت مجهولة للعالم في ذلك الوقت، واستطاعت ان تدخل تغيرات شاملة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وزاد حجم التأثير مع فشل العالم في التعامل معها والحد من تأثيرها، من ما أدى إلى مأساة إنسانية عالمية. وكانت نتائجها سياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية.

واقتصاديا، تمكن العمال من رفع أجورهم نتيجة شح القوى العاملة، إذ ارتفعت الأجور التي يتقاضاها العاملون في القطاع الصناعي، ارتفعت من ٢١ سنتا في الساعة عام ١٩١٥ إلى ٥٦ في ١٩٢٠

وتجدر الإشارة ان سبب ارتفاع نسبة الوفيات في عام ١٩١٨، لم يكن بسبب غياب الوسائل التشخيصية والعلاجية فقط ؛ بل بسبب تردي الأوضاع المعيشية في تلك الحقبة التي دارت فيها رحى الحرب العالمية الأولى .

فكانت أعمار معظم الذين ماتوا جراء الإنفلونزا الإسبانية تتراوح بين ٢٠ إلى ٤٠، ومعظمهم من الذكور، وذلك لأن بؤرة الوباء كانت في معسكرات الجيش المكتظة في الجبهة الغربية في اوروبا إبان الحرب العالمية الأولى وانتشر المرض عندما عاد الجنود إلى بلدانهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها . كانت الأضرار الاقتصادية هائلة أيضاً، إذ يقدر أن الجائحة تسببت في انخفاض قيمة ٦ في المائة من الناتج المحلي الأجمالي لكل دول العالم[١].

ومن التغيرات المجتمعية التي أحدثتها الإنفلونزا الاسبانية، التمهيد لانضمام النساء إلى القوى العاملة، ومع عام ١٩٢٠، كان النساء يشكلن نحو ٢١ في المائة من مجموع العاملين في الولايات المتحدة .

صحياً، وجد علماء أحوال الرضّع الذين ولدوا إبان الوباء الإنفلونزا الإسبانية، أنهم أكثر عرضة للإصابة ببعض الأمراض، ومنها أمراض القلب، مقارنة بالذين ولدوا قبل انتشار الوباء وبعده .

وتشير تحليلات للمعلومات المتعلقة بالمجندين الأمريكيين المولودين بين عامي ١٩١٥-١٩٢٢، إلى أن الذين ولدوا في عام ١٩١٩، أقل طولا بمعدل ١ ملم من الآخرين .

---

[١] أنور فاضل صبي الخالدي: كورنا(كوفيد-١٩) بين التداعيات الاقتصادية وعلاقات دولية متغيرة، المصدر السابق ، ص٨٣-٨٧ .

إنها قصة شهيرة لمدينتين. ففي سبتمبر ١٩١٨، كانت المدن الأمريكية تنظم مواكب للترويج لسندات الحرب لتمويل المجهود الحربي.

ولكن اثنتين من تلك المدن اعتمدتا اجراءات مغايرة تماما عندما بدأت الإصابات بالإنفلونزا الإسبانية بالارتفاع. فبينما مضت مدينة فيلادلفيا قدما بخططها، قررت مدينة سنت لوي إلغاء الموكب المقرر.

وبعد مضي شهر واحد، كان أكثر من ١٠ آلاف إنسانا قد ماتوا في فيلادلفيا بينما لم يزد عدد الموتى في سانت لوي عن الـ ٧٠٠.

وأصبح هذا الفرق الشاسع درسا نموذجيا لمنافع اتباع إجراءات التباعد الاجتماعي كإستراتيجية للتصدي للأوبئة.

وأشار أحد التحاليل للإجراءات التي اتخذت في عدد من المدن الأمريكية في عام ١٩١٨ إلى أن تلك المدن التي حظرت التجمعات الجماهيرية الكبيرة وأغلقت المسارح والمدارس والكنائس فيها شهد تعددا أقل بكثير من الوفيات.

كما حلل فريق من الاقتصاديين الأمريكيين من جامعة برينستون إجراءات الإغلاق التي طبقت في عام ١٩١٨، وتوصل إلى أن المدن التي طبقت إجراءات أكثر شدة شهدت تماثلا اقتصاديا أسرع وتيرة في أعقاب الوباء.

مع ذلك، يقدر أن الإنفلونزا الإسبانية فتكت بحوالي سبعمائة ألف أمريكي، ويقول روبرت بارو من جامعة هارفارد إن سبب ذلك هو أن إجراءات الإغلاق رفعت في وقت مبكر[١].

ويقول "لم تدم الإجراءات لأكثر من أربع أسابيع خففت بعدها استجابة للضغوط الشعبية."

ويعتقد بارو أن النتيجة كانت ستكون أفضل لو أتبعت إجراءات الإغلاق لحوالي أثنا عشر أسبوع.

ويضيف "من الواضح أن هذا الأمر وثيق الصلة بما يحصل اليوم."

تزايدت نبرة انتقاد غاندي وغيره من الساسة القوميين الهنود للسلطة الاستعمارية في الهند بسبب تعاملها مع الإنفلونزا الإسبانية

جائحة منسية؟

رغم الدروس العديدة التي طرحتها، ما زالت جائحة الإنفلونزا الإسبانية في العديد من الأوجه جائحة منسية.

فمثلها مثل جائحة كوفيد ١٩، أصابت الإنفلونزا الإسبانية عددا من المشاهير من أمثال الرئيس الأمريكي، وودرو ويلسون، ورئيس

(1) Carlsson-Szlezak, P., Reeves, M., & Swartz, P. (2020, March 27). Understanding the Economic Shock of Coronavirus. Harvard. u.s.a .

الحكومة البريطانية، لويد جورج، وقتلت الرئيس البرازيلي رودريغيس ألفيس.

ولكن انتباه العالم كان مركزا آنذاك على الحرب العالمية الأولى وتطوراتها، ربما لأن العديد من الحكومات فرضت حظرا على وسائل الإعلام نشر أخبار عن تأثيرات الوباء في زمن الحرب.

وبما أن التغطية الإعلامية للجائحة كانت ضعيفة، لا نجد لها إلا القليل من الذكر في كتب التاريخ والثقافة الشعبية.

يقول المؤرخ الطبي مارك هونيغسباوم "لم نشاهد أي مناسبات تذكارية للإنفلونزا الإسبانية في ذكراها المئوية في عام ٢٠١٨، ولا توجد إلا القلة من القبور والشواهد للأطباء والممرضات الذين قضوا فيها. كما لا يوجد إلا عدد قليل من الروايات والأغاني والأعمال الفنية من تلك الفترة والتي تشير إلى جائحة ١٩١٨."

إحدى الاستثناءات كانت لوحة "صورة ذاتية مع الإنفلونزا الإسبانية"، التي رسمها الفنان النرويجي، أدفارد مونش، عندما كان يعاني من الإصابة بالمرض.

كورنا (كوفيد -١٩)، مع استمرار تفشي وباء كورونا(كوفيد -١٩)، يمكن أن يسبب أزمة اقتصادية وخسائر عالمية جسيمة وتشير بعض تقديرات إلى أن الاقتصاد العالمي معرض لخسارة أكثر من اثنين ترليون دولار. وقد انعكس انتشار الفيروس على النمو الاقتصادي والطلب على النفط وهو ما دفع الكثير المستثمرين إلى التوجه نحو الأصول الامنة على غرار الذهب . كملاذ امن للتحوط في أوقات الأزمات. وقد شهد العالم نمو في التجارة الإلكترونية المتزايدة والخدمات اللوجستية وتقنية المعلومات مع التركيز على الرقمنة . فضلاً عن تقديم الخدمات الصحية عن بعد. ومن المتوقع أن تسرع الأزمة من تطور هذه المجالات التي تشهد فرص نمو واعدة ([1]). وكذلك شهد المناخ تحسن ملحوظ مع توقف الصناعة والغازات المنبعثة من المصانع. كما شهد البيئة تغيرات ايجابية .

سادساً. التغيرات العالمية :

الإنفلونزا الاسبانية، أدت تلك الجائحة إلى تحسن النظام الصحي العالمي والعناية بالنظافة، والواقع أن العديد من الإستراتجيات التي تطبق اليوم تعود إلى تلك الحقبة على سبيل المثال التوعية الصحية، والعزل، والصرف الصحي، والمراقبة للمريض . ، اسهمت تلك الجائحة في إنشاء وزارات الصحة في فرنسا وبريطانيا، إلى جانب اعتراف وتقدير عالٍ للعمل

([1]) أنور فاضل صبي الخالدي: كورنا(كوفيد-١٩) بين التداعيات الاقتصادية وعلاقات دولية متغيرة، المرجع السابق ، ص٨٨ .

الذي تقوم به الممرضات . وكشفت أيضا عن أهمية التعاون الدولي، رغم الصراعات الجيو سياسية التي خلفتها الحرب العالمية الأولى.

وفي عام ١٩٢٣، أعلنت عصبة الأمم عن تأسيس منظمة الصحة، وأسست أنظمة دولية للسيطرة على الأوبئة وكان يديرها أطباء عوضا عن دبلوماسيين كما كانت، وتقول جنيفر كول، عالمة الاجتماع في جامعة رويال هولواي، في لندن" أن ثنائية الجائحة والحرب غرستا بذور الدولة الرعاية الاجتماعية في كثير من أرجاء العالم .

كورونا(كوفيد-١٩)، سارع من البحث عن الحلول وإيجاد بدائل في ظل العزل الصحي؛ وبالتالي ساعد على تطور وسائل الاتصالات وتحولها إلى ضرورة قصوى، وأضاف أهمية اكبر إلى تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الرقمية، كما حدد الفجوات الرئيسية[١]، خاصة في مجالات مثل خدامات الحكومة الإلكترونية والقدرة على التعلم والانخراط في الرعاية الصحية بشكل رقمي، والحاجة إلى تطوير واسع النطاق لاتصالات عالية السرعة؛ وبالتالي كشف الخلل في بعض وسائل الاتصالات للحكومات، وعليه التعامل بجدية أكبر مع حل هذه المشكلات .

وكشف عن الخلل في عدم التعاون الدولي في الاحداث المهمة، وأبرز الحاجة إلى تكاتف دولي في القضايا العالمية .

الخاتمة

مستلهمًا من مقولة التاريخ يدرس بعيون الحاضر، وبعد التمكّن من تحليل العوامل الحاملة للوبائيين في جوانبهما الاقتصادية والنفسية والاجتماعية، توصلت إلى استنتاجين رئيسين : الاول ان الظروف الاقتصادية السيئة والعادات الغذائية غير الصحية تؤثر في الانسان بصورة كبيرة وتخلق الأوبئة. والثاني، ان الخوف والإحباط من العوامل الرئيسية التي تساعد في تقليل المناعة وانتشار الاوبئة.

تبلورت فكرة هذا البحث مع بدايات ظهور جائحة كورونا(كوفيد-١٩)،، أي حينما ظهرت الأزمة الوبائية فبحثت في التاريخ عن الاجراءات والنتائج المتبعة مع الاوبئة الاخرى عبر التاريخ كالطاعون والجدري والكوليرا وغيرها من

---

[1] Ayittey, F. K., Ayittey, M. K., Chiwero, N. B., Kamasah, J. S & ،.Dzuvor, C. (2020). Economic impacts of Wuhan 2019-nCoV on China and the world .*Journal of Medical Virology*. doi: 10.1002/jmv.25706. .

..P473-475

الامراض والإنفلونزا الاسبانية فوجدت تقارب وتشابه كبير بين الاخير وكوفيد -١٩ .

ومن الاهمية بمكان القول، أنَّ الخبرة التاريخية مهمة في معالجة موضوعات تتشابك فيها الاحداث وتلازم لتشكل تراكم معرفي لمعالجة الأوبئة وسبل الوقاية وكيفية انتشارها حيث تعالج اسباب الفشل في الماضي لتفادي تكرار الخسارة في الحاضر، فوجدت ان هذه الجانحة تتشابه مع الإنفلونزا الاسبانية وتشترك معها في العديد من العوامل ان لم يكن اغلبها. فبدأت بكتابة بحث عن المشتركات بينهما وتحديد المرتكزات التي اتبعت في معالجه الانفلونزا مراعيا التقدم العلمي في العصر الحديث وأهميته في تجنب زيادة عدد الإصابات، وفي تأثيراتها العميقة التي تركتها على غير منطقة في العالم وعلى كافة مستويات الحياة، سواء في الاقتصاد، أوالاجتماع، أوالنظام الصحي، أوالصحة النفسية، ومديات الارتباط والتشابك الدولي في الصمود وقت الازمات.

عند إجراء مقارنة بين الإنفلونزا الأسبانية و كورنا كوفيد-١٩، نجد الكثير من التشابه فيما بينهما على الرغم من المسافة الفاصل، إذ نجد التأثير الصحي متلازما والابعاد الاقتصادية متشابكة والآثار النفسية متلازمة، ومن خلال البحث بدقة وجدنا أنَّ لاكتظاظ في اماكن رطبة ضيقة أحد أهم الاسباب الخلق الأوبئة، خاصة عندما تتلازم من الخوف الذي يساعد على تفشي الجائحتين، وفي كلتا الحالتين كان العالم يعاني من أزمات ضاغطة – كما في كورونا(كوفيد-١٩)، والصراع التجاري بين امريكا والصين - والصراعات السياسية - كما في الشرق الاوسط حاليا - ولاضطرابات الاجتماعية التي تعيشها العديد من الدول كل هذه الظروف تكون أساس التهيئة الظهور الجوائح .

وفي كل الجوائح هنالك تأثيرات ايجابية وسلبية وقد ينتج عنها تغيرات اجتماعية وسياسة واقتصادية عدة وحتى في بعضها تؤثر في تبدل النظام العالمي. كما حدث في جائحة الإنفلونزا الاسبانية، إذ نتج عنها وفاة العديد من الشباب وأنتج عنه تغيرات شاملة في الحياة الاجتماعية وتأثرت أوروبا فيما بعد حتى أطلق عليه القارة العجوز إذا لم تستطع تعويض طاقاتها الشابة، كذلك تراجعت اقتصاديا. وفي الوقت نفسه احدثت تغيرات ايجابية ومنها دخول المرأة إلى سوق العمل ارتفاع أجور العمال وتقليل التفاوت الطبقي نوعا ما .

وهكذا، نعتبر أنَّ ما أحدثه كورونا من ارتباك اجتماعي ونفسي واقتصادي، شمل الدول والأفراد، وقد أماط اللثام عن هشاشة النظام

الدولي كما كشف عن فشل في معالجة الأزمات، وأصبحت قوة الدول تقاس بما تملك من نظام صحي قادر مجابهة الجوانح والمحافظة على سلامة مواطنية.

وفي السياق نفسه، ووفق المؤشرات المقلقة التي تظهر عبر تحولات المناخ وندرة المياه والعودة إلى سباق التسلح وابتكار أسلحة الدمار الشامل، وظهور أمراض جديدة ومتطورة، فإن الحرب المقبلة ستحسم لمصلحة الجوانح والأوبئة في حال لم تجد الدول أسس التعاون المشترك وحل الأزمات بالطرق الدبلوماسية والتفاهم.

دور المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي المجتمعي في ظل جائحة كورونا

ناهض سالم أبو منديل .....فلسطين – غزة /باحث دكتوراه في العلوم التربوية

:Summary

The tremendous technological revolution has brought about a qualitative leap in the media and communication, and this is in terms of the nature of the media, it means, objectives and types, and with this development a new concept emerged, which is the concept of the small global village, which is characterized by the disappearance of place and time, even distances and borders, and in light of this development in the world of technology and communication We have what is known as electronic platforms that are used for e-learning processes, through which learners are provided with scientific skills and knowledge, and they have also been used for awareness-raising and guidance processes in various fields (political, economic, educational, religious, health, etc.).

Therefore, we find that Arab societies in general and the Palestinian society in particular have devoted their most attention to electronic platforms. Because of its great and effective role in shaping awareness among members of society in various issues and fields of life, I take it in turn to the place of the family and civil and educational institutions; This is due to its ability and effectiveness in spreading and reaching all members of society, and in light of the current situation, the "Covid-19 pandemic" and the closure of all life facilities such as civil and educational institutions and other civil society institutions, electronic platforms have come to replace them in transmitting information and knowledge about this pandemic and the Palestinian society obtains information about this epidemic through the electronic platforms that

some Palestinian institutions have established, so that members of society can obtain correct information about this epidemic, and in this paper we will examine and analyze the positive role of electronic platforms in educating community members about the dangers of Covid-19.

الملخص:

أحدثت الثورة التكنولوجية الهائلة نقلة نوعية في وسائل الإعلام والاتصال، وهذا من حيث طبيعة الإعلام ووسائله وأهدافه وأنواعه، وظهر مع هذا التطور مفهوم جديد وهو مفهوم القرية الكونية الصغيرة، والتي تتسم باختفاء المكان والزمان وحتى المسافات والحدود، ، وفي ظل هذا التطور في عالم التكنولوجيا والاتصالات، ظهر لدينا ما يعرف بالمنصات الإلكترونية التي تستخدم لعلميات التعليم الإلكتروني، فيتم من خلالها تزويد المتعلمين بالمهارات والمعارف العلمية، كما واستخدمت لعمليات التوعية والإرشاد في شتى المجالات(السياسية والاقتصادية والتربوية والدينية والصحية...إلخ).

لذلك نجد أن المجتمعات العربية عامة والمجتمع الفلسطيني خاصة، قد أولت جل اهتمامها بالمنصات الإلكترونية؛ لما لها من دور كبير وفعال في تشكيل الوعي لدى أفراد المجتمع في شتى قضايا وميادين الحياة، آخذه بدورها مكان الأسرة والمؤسسات المدنية والتربوية؛ وهذا لقدرتها وفعاليتها في الانتشار والوصول لجميع أفراد المجتمع، وفي ظل الوضع الراهن "جائحة كوفيد-١٩" وما تسبب بها من غلق لكافة مرافق الحياة من مؤسسات مدنية وتربوية وغيرها من مؤسسات المجتمع المدني، أتت المنصات الإلكترونية لتحل محلها في نقل المعلومات والمعارف حول هذه الجائحة، ويستمد المجتمع الفلسطيني المعلومات حول هذا الوباء من خلال المنصات الإلكترونية والتي قامت بعض المؤسسات الفلسطينية بإنشائها، لكي يستنى لأفراد المجتمع استقاء المعلومات الصحيحة حول هذا الوباء، وفي هذه الورقة سنتناول بالتدقيق والتحليل للدور الإيجابي للمنصات الإلكترونية في توعية أفراد المجتمع من مخاطر كوفيد-١٩.

المقدمة:

يعد الوعي المجتمعي من أهم الركائز الأساسية في تقدم ورقي المجتمعات وتطورها، بل والعامل الرئيس في استقرارها والنهوض بها، لما له من آثار حميدة وانعكاسات إيجابية على شتى ميادين الحياة(الفكرية والثقافية والاقتصادية والصحية...إلخ)، فالوعي

المجتمعي هو حكمة وكياسة، تجعل من الإنسان شخصاً ملماً بكل ما يدور من حوله، لذلك فإننا بأمس الحاجة للوعي بكافة أنواعه وأصنافه في حياتنا بشكل دائم وأبدي، فإذا كان الوعي مطلوباً على المستوى الفردي من أجل تحقيق النجاح، فإنه سيكون من الضروري أن يكون على المستوى الاجتماعي بغية النهوض والرقي وتحقيق المراد وتجاوز المحن والصعاب، كما ويعد الوعي الفردي اللبنة الأساسية في هرم الوعي المجتمعي، وهذا لأن الفرد الناضج وعياً قادراً على المساهمة وبشكل فعال في رفع شأن مجتمعه، لهذا نجد أن الدول المتقدمة تسعى جاهدة إلى رفع مستوى الوعي المجتمعي، إيماناً منها بهذا الدور الذي يسهم في تماسكها واستقرارها ورقيها، وهذا على خلاف الدول التي تسعى إلى تجهيل مجتمعاتها بغية السيطرة على سدة الحكم.

أدى التطور الهائل في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى جعل العالم قرية كونية صغيرة، وهذا من خلال ما نتج عنها من وسائل إعلام واتصال تعدت الزمان والمكان، وفي ظل هذا التطور في عالم التكنولوجيا والاتصالات، ظهر لدينا ما يعرف بالمنصات الإلكترونية التي تستخدم لعلميات التعليم الإلكتروني، فيتم من خلالها تزويد المتعلمين بالمهارات والمعارف العلمية، كما واستخدمت لعمليات التوعية والإرشاد في شتى المجالات(السياسية والاقتصادية والتربوية والدينية والصحية...إلخ)، ونظراً للوضع الراهن الذي نحياه في ظل الوباء المنتشر حاليا(كورونا)، والذي أعطب جميع مناحي الحياة، وبعث الرعب في قلوب العالم، وجعل من الحياة المستقرة، حياة يشوبها الخوف والذعر مما أدى إلى حالة كمون تسود العالم بأسره، وهنا يظهر لنا دور المنصات الإلكترونية جلياً في توعية المجتمعات بهذا الفايروس، فقد استخدمت العديد من الدول هذه المنصات من أجل توعية مجتمعاتها بمخاطر هذا الفايروس، ونقل المعلومات الصحيحة لأفرادها من أجل إبقاء المجتمع على حالة من الاستقرار، كما وأصدرت الجهات الرسمية لكل دولة من خلال هذه المنصات القوانين والتشريعات والإجراءات الصحية، إضافة إلى سن قوانين تمنع تداول الأخبار والمعلومات الخاطئة معتبرة ذلك جريمة يحاسب عليها القانون، فالمجتمع الواعي قادر على الحفاظ على ذاته واستمرار بقائه في ظل هذه الأزمات.

إشكالية الدراسة:

لقد أحدثت الثورة التكنولوجية نقلة نوعية في وسائل الإعلام والاتصال من حيث(النوع وطبيعة الأهداف)، والتي بدورها جعلت من العالم قرية كونية صغيرة، يتم فيها تبادل المعلومات والخبرات بدون التقيد بالزمان والمكان، لذلك نجد أن العديد من المجتمعات

قد أولت جل اهتمامها لوسائل الإعلام المتعددة والمتنوعة، ولعل من أهما وسائل الإعلام الإلكتروني(كمواقع التواصل الاجتماعي، والمنصات الإلكترونية)، لدورها الفعال في تشكيل الوعي لدى أفرادها في تشى قضايا ميادين الحياة، آخذة بذلك الدور التوعوي لمؤسسات المجتمع المختلفة، ولكن! لا يخفى على أحد منا، أن الإعلام الإلكتروني سلاح ذو حدين، يحمل في طياته الدور الإيجابي والسلبي على حد السواء، وفي ظل الأزمة الحالية التي تجتاح العالم بأسره والمعروفة بجائحة(كورونا)، وملاحظة الباحث لتضارب المعلومات التي تبث حول هذا الفايروس، وحالة التخبط وعدم الاستقرار التي تشهدها المجتمعات، نتيجة لهذه المعلومات التي تنشر عبر المواقع والمنصات الإلكترونية المختلفة، مما دفع الباحث للاهتمام بهذا الموضوع والذي سيتناوله بالتدقيق والتحليل خلال هذه الورقة البحثية، ويتمثل السؤال الرئيس في:

ما دور المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي المجتمعي في ظل جائحة كورونا؟

ويتفرع من السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

- ما أنواع المنصات الإلكترونية؟
- ما الإيجابيات والسلبيات لهذه المنصات؟
- ما أنواع الوعي المجتمعي؟
- ما دور الوعي المجتمعي في تماسك المجتمعات؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الورقة البحثية للتعرف إلى:

- دور المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي المجتمعي في ظل جائحة كورونا.
- أنواع المنصات الإلكترونية.
- إيجابيات وسلبيات المنصات الإلكترونية.
- أنواع الوعي المجتمعي.
- دور الوعي المجتمعي في تماسك المجتمعات.

أهمية الدراسة:

تكمن الأهمية لهذه الورقة البحثية في:

- أنها قد تفيد مؤسسات المجتمع وصناع القرار في التعرف على أنواع المنصات الإلكترونية وأهميتها ومجالات الاستفادة منها في ظل الأزمات.
- نشر ثقافة استخدام المنصات الإلكترونية لدى مؤسسات المجتمع والتعرف عليها.
- إثراء المكتبة العربية بمثل هذه الدراسات.

- قد تلفت انتباه الباحثين والمهتمين لمثل هذه الدراسات.

منهج البحث:

تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي وهو أحد أشكال التحليل والتفسير العلمي المنظم لوصف ظاهرة أو مشكلة محددة، وتصويرها كميا عن طريق جمع بيانات ومعلومات مقننة عن الظاهرة أو المشكلة، وتصنيفها وتحليلها واخضاعها للدراسات الدقيقة بهدف الوصول الى المعرفة الدقيقة والتفصيلية حول مشكلة البحث.

مصطلحات البحث:

الدور:

١. يعرفه المليجي (٢٠١١) بأنه: "مجموعة التوقعات السلوكية التي تلتصق بوظيفة ما داخل الجماعة".
٢. ويعرفه مرسي (٢٠٠١) بأنه: "مجموعة من الأنشطة المرتبطة أو الأطر السلوكية التي تحقق ما هو متوقع في مواقف معينة، وتترتب على الأدوار إمكانية التنبؤ بسلوك الفرد في المواقف المختلفة".

المنصات الالكترونية:

١. "هي عبارة عن بيئة تعليمية يكثر فيها التفاعل وتهتم بتوظيف تقنيات الانترنت مع ادارة المحتوى الموجود في شبكات التواصل وتسهم في مشاركة المحتوى وتبادل المعلومات والأفكار".
(www.anbilarabi.com)

الوعي المجتمعي:

الوعي:

١. "هو اتجاه عقلي يمكن الفرد من إدراك نفسه والبيئة المحيطة به بدرجات متفاوتة من الوضوح والتعقيد"(مذكور،١٩٨٥).
٢. "هو إدراك الإنسان لذاته ولما يحيط به إدراكاً مباشراً، وهو أساس كل معرفة، كما يشير الوعي إلى الفهم وسلامة الإدراك، ويقصد بهذا الإدراك إدراك الإنسان لنفسه وللبيئة المحيطة به، ولعل هذا يعنى فهم الإنسان لذاته وللآخرين عند تفاعله معهم سعياً لإشباع حاجاته، وقضاء مصالحه وهو مدرك للعلاقات بينه وبين الآخرين والبيئة من خلال المواقف المختلفة"(العريفي،١٩٩٦).

الوعي المجتمعي:

١. ويعرف الوعي الاجتماعي، في دائرة المعارف البريطانية بأنه " الفهم وسلامة الإدراك، ويقصد بالإدراك هنا معرفة

الإنسان لنفسه، والمجتمع الذي يعيش فيه" (dictionary،1984).

٢. هو مجموعة من المفاهيم والتصورات والآراء والمعتقدات الشائعة لدى الأفراد في بيئة اجتماعية معينة، والتي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم يتم تبنيها من قبل الآخرون، لإقناعهم بأنها تعبر عن موقفهم(حلس وناصر،٢٠٠٥).

الدراسات السابقة:

١- دراسة(الدروبي،٢٠٢٠) بعنوان:" نموذج مقترح لتحسين منصات التعليم الإلكترونية التفاعلية في الجامعات السورية"

هدفت الدراسة التعرف إلى أهم ميزات التعليم التفاعلي عبر المنصات الإلكترونية ومدى تأثيرها على نجاح العملية التعليمية، وذلك من خلال مناقشة أساليب التعليم المتبعة في المؤسسات التعليمية حالياً، وطرح أهم المشاكل التي يلاحظها الطلاب والمدرسون في العملية التعليمية التقليدية، والمتمثلة في المحاضرات التلقينية والوظائف التحريرية وأنظمة الامتحانات المعمول بها في المؤسسات التعليمية، واستخدمت الدراسة المنهج التطبيقي(برنامج) واستخدمت الاستبانة أيضاً كأداة للدراسة، وتم توزيعها على(١٣٠) طالب وطالبة من الجامعات والدراسات العليا، وأظهرت النتائج أن هناك دور كبير وفعال للمنصات الإلكترونية في عملية التعليم التفاعلية، وأوصت الدراسة بطرح مواقع ويب وتطبيقات الهواتف المحمولة لتساعد على التواصل المباشر الفعال ما بين أطر العملية التعليمية.

٢- دراسة(الدروبي،٢٠٢٠) بعنوان:" درجة استخدام طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية الخاصة بالمنصات التعليمية الإلكترونية و اتجاهاتهم نحوها"

هدفت الدراسة التعرف إلى درجة استخدام طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية الخاصة للمنصات التعليمية الإلكترونية ودرجة اتجاهاتهم نحوها، واعتمدت الباحثة المنهج الوصفي المسحي، ولتحقيق أهداف الدراسة تم تطوير استبانة، ثم التأكد من صدقها وثباتها، ووزعت على عدد من مجموعة من طلبة الجامعات الخاصة وبلغت عينة الدراسة(٥٠٢) طالبًا وطالبةً من طلبة الدراسات العليا المسجلين في الفصل الأول من العام الجامعي(٢٠١٨-٢٠١٩) تم اختيارهم بالطريقة العشوائية، وأظهرت نتائج الدراسة أن درجة استخدام طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية الخاصة للمنصات التعليمية الإلكترونية جاءت بدرجة مرتفعة، وأوصت الدراسة بتفعيل دور المنصات

التعليمية الإلكترونية والتشجيع على استخدامها من قبل مؤسسات التعليم العالي.

٣- دراسة(العنزي وآخرون،٢٠٢٠) بعنوان:" أثر المنصات الإلكترونية المدرسية في تعزيز قيم المواطنة لطالبات المرحلة الثانوية السعودية"

هدفت الدراسة التعرف إلى دور المنصات الإلكترونية في تنمية قيم المواطنة لدى طالبات المرحلة الثانوية في مدارس السعودية، وتم استخدام المنهج شبه التجريبي، حيث تكونت عينة الدراسة من (484) طالبة من طالبات المرحلة الثانوية في مدرستين للبنات في إدارة التعليم في منطقة القصيم في الفصل الدراسي الثاني ٢٠١٦-٢٠١٧ تم توزيعهن إلى مجموعتين مجموعة تجريبية طبق عليها نموذج مقترح للمنصات الإلكترونية في تنمية قيم المواطنة، ومجموعة ضابطة لم تتعرض للنموذج المقترح .وتم التطبيق القبلي والبعدي لمقياس الوعي بقيم المواطنة على أفراد المجموعتين.

وأظهرت النتائج وجود دور مرتفع للمنصات الإلكترونية في تنمية قيم المواطنة لدى طالبات المرحلة الثانوية في مدارس المملكة العربية السعودية وأوصت الدراسة بتفعيل دور المنصات الإلكترونية في تنمية المواطنة لدى الطالبات، وبجميع محاورها(الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية، والدينية)، وغيرها.

٤- دراسة(مسلم وآخرون،٢٠١٨) بعنوان:" دور وسائل الاتصال في تنمية الوعي الاجتماعي"

هدفت الدراسة التعرف إلى دور وسائل الاتصال في تنمية الوعي الاجتماعي، ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم المنهج التاريخي والمقارن والمسحي، واستخدمت الاستبانة كأداة للدراسة، وتم توزيعها على عينة عشوائية طبقية مكونة من(١٢٠) من فئات المجتمع، وأظهرت النتائج أن هناك دور إيجابي لوسائل الاتصال المتنوعة، وأوصت الدراسة بزيادة ساعات البث المخصصة للبرامج النوعية ذات الأبعاد الاجتماعية والدينية والإرشادية، والتي بدورها تعزز من تنمية الوعي الاجتماعي.

٥- دراسة(حلس ومهدي،٢٠١٠) بعنوان:" دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني"

هدفت الدراسة التعرف إلى دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني، ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم الباحثان المنهج المسحي، واستخدمت الاستبانة كأداة للدراسة، وتم توزيعها على عينة عشوائية مكونة من(٢١٩) طالب من جامعة الأزهر، وأظهرت النتائج أن هناك دور مرتفع لدور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى طلاب الجامعة،

وأوصت الدراسة بوضع آليات واستراتيجيات عملية لمواجهة طوفان المادة الإعلامية والغير هادفة التي تستهدف قيم ومفاهيم المجتمع الفلسطيني.

الإطار النظري:

أولاً: المنصات الإلكترونية:

تعد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات من أهم سمات القرن الواحد والعشرين، والتي بدورها استطاعت الدخول إلى معظم مفاصل الحياة العملية والمهنية، وغيرها من المناحي الأخرى، فكان لها الأثر الكبير في تحسين نوعية العمل وإنجاز المهام المتعددة بسرعة، وهذا يرجع للتطور الهائل في وسائلها المتعددة، وقد أتاحت أيضاً لجميع المشتركين التواصل فيما بينهم، وزيادة رصيدهم المعرفي وتبادل الآراء والخبرات.

وفي خضم هذا التطور الهائل لأدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، انتشرت فيما يعرف بالمنصات الإلكترونية المختلفة والمتعددة من حيث(أهدافها، وأساليبها، وأنواعها)، فكان لها الأثر الجلي في تسهيل العديد من العلميات التربوية والتعليمية والإرشادية...إلخ.

وتمثل المنصات التعليمية الإلكترونية مجموعة متنوعة من تطبيقات الجيل الثاني من الويب (Web2.0)، والتي توفر أساليباً متعددة للتعلم من خلال شبكة الإنترنت، وتكون الدارسة من خلالها بطريقة متزامنة أو غير متزامنة(Garcia & Jorge,2006).

وتعرف المنصة الإلكترونية بأنها:" مجموعة متكاملة من الخدمات التفاعلية عبر الإنترنت التي توفر للمعلمين والمتعلمين وأولياء الأمور وغيرهم من المعنيين بالتعليم المعلومات والأدوات والموارد التي تعمل على دعم وتعزيز وتقديم الخدمات التعليمية وإدارتها، وهي نظام شامل يتيح التدريب الآمن والتعلم عبر الإنترنت والتعليم الإلكتروني باستخدام واجهة مستخدم بسيطة"(kats,2010).

وتشكل المنصات الإلكترونية نظام معلومات يمكن شتى المؤسسات التربوية والمجتمعية من استخدامها في العملية التعليمية والتربوية والتوعوية على حد سواء، عن طريق الإنترنت بشكل كامل أو من خلال دمجه مع الطريقة التقليدية في نقل المعلومات والخبرات والمهارات، وبالتالي يمكن أن تمثل المنصة الإلكترونية الآتي(Patricia,et.al.,2009):

- **نظام إدارة المحتوى**(Content Management System) :حيث يضمن هذا النظام وصول الموارد التعليمية للطلبة.
- **نظام إدارة التعلم**(Learning Management System): مما يسهل

من استخدام العناصر المتوافرة في عملية التعلم.

- **نظام تعلم تعاوني مدعم بالحاسوب**(Computer Supported Collaborative Learning System): مما يسهل استخدام استراتيجيات التعلم التعاوني.
- بناء مجتمع افتراضي من الطلبة والمعلمين والأساتذة يقومون باستخدام استراتيجيات إدارة المعرفة.

وتعد المنصات التعليمية الإلكترونية بيئة تفاعلية تعليمية، تعمل على توظيف تقنية الويب، ودمج مميزات أنظمة إدارة المحتوى الإلكتروني مع شبكات وتطبيقات التواصل المتعددة، كما وتمكن الأساتذة والمدربين، من نشر المحاضرات والدروس والأهداف المتنوعة، والاتصال مع الفئات المستهدفة من خلال تقنيات عديدة، لهذا نجد أن لها دور كبير في تبادل الأفكار والمعارف والخبرات، وتوصيل المعلومات وتبادل الآراء والأفكار بين المشتركين، كما وأتاحت مشاركة المحتوى التعليمي، والذي بدوره يؤدي للحصول على مخرجات تعليمية ذات جودة عالية.

خصائص المنصات الإلكترونية:

إن المنصة الإلكترونية، نظام مصمم لخلق بيئة تعلم افتراضية، يمكن من خلالها تقديم الدورات التدريبية والورش العلمية، وإداراتها ومراقبتها والوصول إلى سلسلة من الخيارات والتسهيلات، فهي مجموعة متكاملة من الخدمات التفاعلية.

وذكرت(الشوارية،٢٠١٩) خصائص المنصات الإلكترونية ومنها:

١- **إدارة المحتوى** : إن الأدوات التي تستخدمها المنصة التعليمية تسمح بالوصول إلى المحتوى التعليمي الإلكتروني سواء تم شراؤها تجارياً أم إضافته من قبل المستخدمين وبالتالي يمكن للمدرسين وأساتذة الجامعة والمدربين إنشاء المواد التعليمية والدورات وتخزينها وإعادة توظيفها مع إتاحة الوصول لهذا المحتوى عن طريق الإنترنت.

٢- **التخطيط** :إذ توفر المنصة الأدوات والسعة التخزينية اللازمة لتقييم ودعم الدروس أو المحاضرات والدورات ورسم خطة عملية التعلم.

٣- **التواصل**: تسهل المنصات التعليمية عملية التواصل والاتصال حيث توفر الأدوات المختلفة المدمجة في نظاما عملية التواصل عن طريق البريد الإلكتروني و منتديات النقاش ولوحات الإعلانات والمدونات.

٤- **الإدارة**: يشمل نظام المنصات الإلكترونية على نظام لإدارة التعليم

والتعلم، والذي من خلاله يتم تتبع تقدم المستخدمين والمتدربين عن طريق اختبارات التقييم.

ومن خلال العرض السابق يستخلص الباحث بأن هناك ايجابيات للمنصات الإلكترونية تتمثل في:

- نشر وتقديم المعلومات والخبرات والمهارات للفئات المستهدفة ومتابعتهم.
- سهولة التواصل والاتصال بين المدرب والمتدرب وبين المتدربين فيما بينهم.
- عدم التقيد بالزمان والمكان، فبالإمكان استخدامها في أي زمان ومكان.
- إمكانية تسجيل اللقاء وبثه عبر وسائل الإعلام المتنوعة.
- يسرت التعلم للفئات التي تعجز عن الوصول للتعلم التقليدي.
- تبادل المعلومات والخبرات بين المشترك والاستفادة من تجارب الآخرين.

أما سلبيات المنصات الإلكترونية فهي تتمثل فيما يلي(السيد،٢٠١٧):

- تعرض معلومات المشتركين إلى قرصنة الإنترنت وإساءة استخدامها.
- زيادة عدد الساعات التي يقضيها المشتركين أمام أجهزة الحاسوب وما قد تؤدي إليه من عزلة اجتماعية ونفسية.
- إمكانية انقطاع الاتصال بالإنترنت مما يشكل عائق أمام التواصل والتفاعل المستمر بين المحاضر والمشتركين.
- قلة الثقة لدى بعض الأساتذة والتربويين والخبراء بالتعلم الإلكتروني وجودة مخرجاته.
- تعرض المشتركين لبعض المخاطر الصحية أثر الجلوس أمام الشاشات لساعات طويلة.

أنواع المنصات الإلكترونية:

تتواجد حالياً أنواع متعددة من المنصات الإلكترونية، منها منصات مجانية مفتوحة المصدر، والأخر تجارية مغلقة المصدر، ويذكر هنا الباحث لأنواع هذه المنصات من حيث(طريقة الدفع، وطريقة تقديم المحتوى):

أولاً: منصات إلكترونية من حيث طريقة الدفع:

- منصات إلكترونية تعليمية مجانية تماما.
- منصات إلكترونية تعليمية فيها جزء مجاني وجزء مدفوع.
- منصات إلكترونية مدفوعة بالكامل.
- منصات إلكترونية مدفوعة في الكورسات فقط ولكنها مجانية تمام في

المقالات التعليمية والكتب المفيدة في المجال(www.akwadna.com).

ثانياً: منصات إلكترونية من حيث طريقة تقديم المحتوى:

- منصات إلكترونية تعليمية تعتمد اعتمادا كليا على اليوتيوب أي أنها تعتمد كليا على الفيديوهات.
- ومنصات تعتمد على المواقع والمدونات .
- هناك نوع ثالث وهو يجمع بين الاثنين معاً اليوتيوب والمواقع.
- وهناك منصات تنشر مقالات علمية مفيدة على الموقع الخاص بالمنصة وتقوم بنشر الكورسات التعليمية على قناة المنصة على اليوتيوب(www.akwadna.com).

نماذج على تطبيقات المنصات الإلكترونية(العجرش،٢٠١٧):

١- **منصة خان أكاديمي (Khan Academy)**توفر هذه المنصة أكثر من(٢٥٠)مقطع فيديو لمن يبحث عن زيادة معرفته في الهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم.

٢- **منصة إيدكس(Edx)**: وهي مبادرة مجانية من جامعة كاليفورنيا وجامعة هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وتقدم محاضرات مجانية عبر الإنترنت وتهتم بالبرمجة والفنون والعلوم التطبيقية.

٣- **منصة كورسيرا(Coursera)**: وتقدم هذه المنصة دورات تعليمية وذل بشكل مجاني للمستخدمين من حول العالم في مجالات تعليمية متعددة من خلال محاضرات يقدمها أساتذة متخصصون من(١٠٧) مؤسسة وجهة تعليمية مختلفة، وتتنوع مجالات الدورات التي تقدمها المنصة منها الطب والقانون والتغذية والتربية والآداب والهندسة وغيرها.

٤- **منصة يودمي (Udemy)**: وتقدم دورات مجانية في الأعمال والفن والتقنية والتصميم والرياضيات والصحة والألعاب والرياضة وغيرها.

٥- **منصة إيديونو (Edunao)**: وهو موقع تعليمي أوروبي يحتوي على محاضرات جامعية في مجالات مختلفة من العلوم السياسية والفلسفة وعلم الجريمة والابتكار.

٦- **منصة إدمودو (Edmodo)** : وهي منصة تعليمية تجمع بين مزايا أنظمة إدارة التعلم LMS ومواقع الشبكات الاجتماعية وتم بناؤها على أسس تربوية لتساعد التربويين على توفير بيئة تعليمية إلكترونية ذات محتوى

إلكتروني وأنشطة تعليمية وطرق تقويم وغيرها(المقرن،2016).

ومن أبرز المنصات العربية التعليمية الإلكترونية كما ذكرها(الصبحي،٢٠١٦) ما يلي:

١- **منصة إدراك:** منصة عربية للمساقات الجماعية مفتوحة المصدر، وجاءت هذه المنصة كواحدة من مبادرات مؤسسة الملكة رانيا للتعليم والتنمية، وتوفر المنصة الفرصة للطلبة للاشتراك بالمساقات التي تقدمها أفضل الجامعات العالمية، مثل جامعة هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ويمكن للطلبة الحصول على شهادات عند إتمامها، كما يمكن للطلبة الالتحاق بالمساقات العربية التي يقدمها أفضل الأكاديميين في الدول العربية، وموقعها على شبكة الإنترنت(www.edraak.org).

٢- **منصة رواق:** منصة تعليمية إلكترونية تقدم مواد دراسية وأكاديمية في مجالات وتخصصات مختلفة بشكل مجاني وباللغة العربية من قبل أكاديميين مميزين من مختلف أنحاء العالم العربي، وموقعها على شبكة الإنترنت(www.rwaq.org).

٣- **منصة نفهم :** منصة إلكترونية تعمل على تبسيط المواد التعليمية للطلبة ومساعدتهم على زيادة قدرتهم على فهم الدروس والمحاضرات ومراجعتها عن طريق توفير أساليب تعليمية تفاعلية متنوعة ومختلفة عن الطرق التعليمية التقليدية، حيث تتضمن مقاطع فيديو وأدوات مبتكرة وتعتمد المنصة على مناهج دراسية متنوعة من عدة دول عربية وتشمل جميع المراحل الدراسية، وموقعها على شبكة الإنترنت(www.nafham.com).

دور المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي المجتمعي:

قدمت شبكة الإنترنت للإنسانية العديد من الخدمات المهمة في مجال الاتصالات والبحث عن المعلومات، وحولت العالم إلى قرية صغيرة، ومع تغلغل شبكة الإنترنت في مختلف مجالات الحياة، ترك آثاراً على مختلف الأنظمة الاجتماعية والإنسانية، أدت إلى زيادة رصيد المعرفة لدى المجتمع الإنساني. (قنيطة،٢٠١١)

وقد تضمنت شبكة الإنترنت في ثناياها العديد من المواقع التعليمية والإرشادية، والتي أتاحت لنا الاستفادة من مثل هذه المواقع، ولعل من أهم هذه المواقع ما يعرف اليوم

بالمنصات الإلكترونية، حيث تعددت من ناحية الهدف والمضمون، فمنها التعليمي والتوعوي والتسويقي والإرشادي...إلخ.

وقد أكدت دراسة كل من: (الدروبي، ٢٠٢٠)، (الشوارية، ٢٠١٩)، (العنزي وآخرون، ٢٠١٨) على أهمية المنصات الإلكترونية، ودورها الريادي في عملية التعليم والتنمية والتوعوية أيضاً.

وقد استخدم الفلسطينيون المنصات الإلكترونية في شتى المجالات(التعليمية والصحية والإرشادية والتوعوية) في ظل الظروف الراهنة(جائحة كورونا)، التي اجتاحت العالم بأسره، فقد عمدت العديد من المؤسسات الفلسطينية التربوية والصحية والحكومية منها، على إنشاء المنصات الإلكترونية هادفة بذلك إلى توعية المجتمع الفلسطيني بهذه الجائحة.

ومن المنصات التي يستدل بها الباحث، المنصة الإلكترونية لبيانات فايروس كورونا (www.pcbs-coronavirus-response-ar-pcbs.hub.arcgis.com)، والذي أعلن عنها المركز للإحصاء الفلسطيني، حيث تتضمن هذه المنصة العديد من المؤشرات والخرائط التفاعلية، والبيانات ذات العلاقة بالجائحة وأثرها على المجتمع الفلسطيني، كما وتضمنت أيضاً أدلة ونشرات توعوية بهذا الفايروس وطرق الوقاية(www.maannews.net)، فكان لها الأثر الإيجابي في تنمية الوعي المجتمعي.

كما واستخدمت بعض المؤسسات التربوية والمجتمعية والحكومية أيضاً، منصات المواقع الاجتماعية لعلميات التنمية والتوعوية، وعمدت الحكومة الفلسطينية على استخدام مثل هذه المنصات لنشر الوعي الصحي للمجتمع الفلسطيني حول هذه الجائحة مثل موقع الصحة الفلسطينية على الفيس بوك(https://www.facebook.com/mohps/)، وغيرها من المواقع الفلسطينية الحكومية ذات الشأن، والهدف من ذلك هو توعية المجتمع الفلسطيني بجائحة كورونا، وكيفية الوقاية منها، كما وأقرت الحكومة الفلسطينية العقوبة على من يستخدم مثل هذه المنصات في بث الإشاعات والذعر بين صفوف المواطنين.

وفي ضوء ما ذكر سابقاً، يجد الباحث أن المنصات الإلكترونية وعلى اختلاف أنواعها وأهدافها، كان لها الدور الإيجابي في عملية التنمية المجتمعية(التربوية، التعليمية، الصحية، التوعوية، الإرشادية)، فكانت هي عين المواطن على الحقيقة، بل وهي المنبع الأساسي لاستقاء المواطن جميع المعلومات الصحيحة حول هذه الجائحة، وطرق الوقاية منها.

ثانياً: الوعي المجتمعي:

مما لاشك فيه أن الوعي المجتمعي هو حالة إيجابية، تبين مدى فهم المرء لواقعه الذي يعيش فيه بكل مكوناته من صعاب وتحديات، ومواطن قوة وضعف، والتي تجعل منه شخص قادر على التخطيط ورسم السياسات، واتخاذ القرارات بما يحقق الوصول إلى الأهداف المنشودة، وكما أن الوعي مطلوباً على المستوى الفردي لتحقيق النجاح، فإنه سيكون أوجب بمراحل على المستوى المجتمعي للنهوض والرقي وتحقيق المصالح، وتجاوز التحديات والصعاب والوصول إلى بر الأمان.

فللوعي ومكوناته آثار حميدة، وانعكاسات إيجابية على الصحة الفكرية والثقافية والاجتماعية والقيمية والسلوكية أيضاً، فهو ليس ترفًا فكريّا أو رجمًا بالغيب.. وإنما حكمة وكياسة تجعل الإنسان يصل للحقيقة ويعرف ما يدور بداخله ومحيطة الاجتماعي.. وهو أيْضًا رد فعل تجاه كل السلوكيات والممارسات والظواهر في حياته الاجتماعيَّة وكيفية التعامل والتعايش والتفاعل معها بتوازن منضبط.

(الدوس، ٢٠٢٠، net:
www.alriyadh.com)

وعلى النقيض تماماً التخلف المجتمعي، والذي هو حالة من حالات الجهل، والتي تجعل من المجتمع مجتمعاً متخلفاً يعمه الفساد والفقر والأمراض، فالجهل المجتمعي له العديد من الأسباب الكثيرة والقديمة، فمنها السياسي والاقتصادي والبعض الآخر اجتماعي، ومن الملاحظ أن المستفيدين من هذه الحالة- الجهل المجتمعي- يسعون إلى تكريسها منذ القدم.

وفي جائحة كورنا أظهرت بعض المجتمعات وعياً كبيراً في التعامل مع الجائحة، فتراها تتقيد بالتعليمات والتوجيهات الصادرة من الجهات المختصة، فبمجرد صدور توجيه حكومي تقيد به الجميع في الحال، فالمصير واحد في الأزمات، وقد يؤدي تصرف أرعن من بعض المستهترين إلى كوارث عظيمة جداً، فتذهب الجهود العظيمة أدراج الرياح بسبب تصرف طائش.

(الكمالي، ٢٠٢٠، net:
www.alroeya.com)

والمجتمع العربي عامة والفلسطيني خاصة مجتمع واع، ومتفهم للوضع الراهن، ويملك من الثقافة العالية التي تجعل منه مجتمعاً محافظاً على أرواح أفراده، وذلك بجهود الحكومة الفلسطينية، والتي أخذت على عاتقها من اللحظة الأولى توعيه أفراد المجتمع بهذه الجائحة التي ألمت بالعالم، كما ويعي المجتمع بأن أي تهاون بهذا الأمر قد يتسبب في زيادة الخسائر في الأرواح البشرية، وكذلك في

الاقتصاد الفلسطيني، لهذا فإن الوعي المجتمعي بأشكاله المتعددة وخاصة الوعي الصحي، يشكل صمام الأمان في وقت المحن والأزمات في حياة المجتمع من الأمراض والأوبئة، ومكافحتها والحد من انتشارها، وهنا يتطلب من الجميع الالتزام التام بالتعليمات الصادرة عن الجهات الرسمية، لكي يتسنى لنا الوصول إلى بر الأمان.

ويعرف الوعي المجتمعي كما تناوله الباحثين بأنه:

هو مجموعة من المفاهيم والتصورات والآراء والمعتقدات الشائعة لدى الأفراد في بيئة اجتماعية معينة، والتي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم يتم تبنيها من قبل الآخرون، لإقناعهم بأنها تعبر عن موقفهم(حلس وناصر،٢٠٠٥).

ويعرفه(المراياتي،٢٠٠٨) بأنه:" مجموعة من المشاعر والآراء العضوية التي تعكس ظروف الواقع والحياة الاجتماعية بكل أبعادها، والتي نمت تحت شعور مشترك بالانتماء، وتبلورت إلى أفكار ورؤى تعكس تور الأفراد للكون والحياة والواقع المحيط، وتفسر ذات الوقت الصلة بين العلة والمعلول، والصلة بين المجرد والمحسوس، وتفرق بين ما هو ضروري وما هو عارض من مواضيع وأحداث.

أبعاد الوعي المجتمعي:

تكاد تتفق الدراسات التي اهتمت بموضوع الوعي المجتمعي وبأنماطه النوعية، سواء كانت طبقية أو سياسية أو تعليمية...إلخ، على أن للوعي المجتمعي أبعاداً أساسية هي:

- **البعد النفسي الاجتماعي:** وجود اتجاه أو موقف إيجابي أو سلبي نحو القضية أو الموضوع المراد استطلاع الوعي بشأنه.
- **البعد العلمي:** ويقوم على إدراك القضية أو الموضوع من خلال تفسيره، وإبراز ايجابياته وسلبياته.

البعد الأيديولوجي: ويقوم على تقديم تصور بديل للواقع الراهن لهذه القضية أو ذلك الموضوع الذي يستطلع الوعي بشأنه، وهذا ما يُعبر عنه بالبعد الأيديولوجي. (www.moqatel.com)

أشكال الوعي المجتمعي:

١- **الوعي الاجتماعي:** الوعي الاجتماعي وعي عام يشتمل على إحاطة أفراد المجتمع بمجمل القضايا الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية وحتى العلمية التي لها دخل في حياتهم. (بوجلال،١٩٩١)

٢- **الوعي السياسي:** إن الحياة الاجتماعية هي المكان الذي يعيش فيه

الإنسان، فهو بحاجة إلى السياسة، فالحكم طبيعة في الإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما يقول ابن خلدون : "فلا بد من نظم سياسية ينتظم بها أمر العمران البشري"(ابن خلدون،١٩٦٥).

٣- **الوعي الاقتصادي:** يعبر الوعي الاقتصادي عن نفسه في التصورات النظرية واليومية مثل : تنظيم وإدارة وسائل الإنتاج على المستوي، وفاعليه البشر وروابطهم في عملية الإنتاج، والتوزيع، والتبادل، والاستهلاك(Curran,1979).

٤- **الوعي الديني:** يمثل الدين جزءًا لا يتجزأ من السلوك الاجتماعي وينظر إليه باعتباره مجموعة من المعتقدات الإلهية والشعائر، والثواب والعقاب التي تؤثر في أشكال ودرجات ومستويات الوعي الفردي والجماعي(عبد المعطي،١٩٨٩).

٥- **الوعي الثقافي:** الثقافة في مجملها هي المعرفة والتعليم وأن الوعي بهما يرقى بالفرد إلى مستوي اجتماعي أفضل، والوعي الثقافي يعني الوعي بالحياة اليومية بما يشمل من عادات وتقاليد وأعراف وتدين وأحكام وتفاعل وصور النشاط العام التلقائي المنظم .وهناك أشكال أخري من أشكال الوعي وهي، الوعي الأخلاقي والوعي القانوني، والوعي العلمي، والوعي الجماهيري، والوعي بالذات، والوعي الطبقي(محمد، ١٩٨٠).

الإعلام وتشكيل الوعي الاجتماعي:

يشمل الإعلام جميع أوجه النشاط الاتصالية التي تعمل على تزويد الإنسان بجميع الحقائق والمعلومات المعرفية، باعتبار أن الاتصال هو قوة محركة للمجتمع بحيث يؤدي إلى حركة المجتمع حركة تفاعلية مؤثرة ومتأثرة، فالاتصال عملية اجتماعية، وتجري في بيئة معينه، تؤثر فيها وتتأثر بها، وهناك تفاعل بين الاتصال والمجتمع(نجم،١٩٨٩).

أن أهمية الدور الذي يقوم به الإعلام، يتوقف على طبيعة العلاقة بينه وبين النظامين السياسي، والاجتماعي السائدين في أي بلد(عبد المعطي،١٩٧٩)، ويشير البعض إلي حقيقة أن العملية الإعلامية من خلال وسائل الإعلام، والثقافة تتحرك من خلال أيديولوجية المجتمع، فأيديولوجية المجتمع هي مفهوم متغير، بمعني أنه يتحدد وفقًا للتيارات الفكرية والثقافية، والاتجاهات السياسية، والثقافية في المجتمع(البطريق،١٩٨٩)، ويري " مارشال ماكلوهان ": أن التحولات في التكنولوجيا لها تأثيرها الواضح على التنظيم الاجتماعي وعلي المشاعر الإنسانية، ويتحدد النظام الاجتماعي بطبيعة

وسائل الإعلام التي تتم من خلالها عملية الاتصال، فبدون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الإعلام لا نستطيع الوصول إلى المعرفة لكيفية التغيرات الاجتماعية، والثقافية التي تطرأ على المجتمعات(نجم،١٩٩٦)، ويتزايد دور وسائل الإعلام في تنمية وعي الأفراد وزيادة معلوماتهم وتطلعاتهم، وتعد تلك الوسائل في الوقت الراهن، مصدرًا هامًا، بل وأهم مصدر نأخذ منه معارفنا ومعلوماتنا عن العالم المحيط بنا، فهي تلعب دورًا مؤثرًا في تشكيل وعي المواطنين، حيث تؤثر هذه الوسائل في الطريقة التي يدرك بها الأفراد والأمور، كما وترسم الصورة الذهنية لد ى الأفراد عن الدول، والمواقف، والقضايا، والأحداث(العاقد،١٩٩٧).

ويبرز عالم الاجتماع" ميلز Mills" خطورة وسائل الإعلام الجماهيري وكيفية تأثيرها في صياغة، وتشكيل أفكار الأفراد والتأثير في آرائهم، وتكوين وعيهم، حيث قال:" إن جانباً ضئيلاً فقط مما تعرفه من حقائق اجتماعية عن العالم قد توصلنا إليه بأنفسنا، والجانب الأكبر عن طريقه وسائل الإعلام، والاتصال الجماهيري" (Mills,1969).

التوصيات:

١. استثمار المنصات الإلكترونية في تنمية الوعي لدى أفراد المجتمع.
٢. دعوة مؤسسات المجتمع لغرس الوعي وقيم ومبادئ المواطنة الرقمية لدى أفراد المجتمع.
٣. عقد ندوات وورش عمل لتوعية أفراد المجتمع بمخاطر المنصات الإلكترونية الغير رسمية.
٤. توجيه أفراد المجتمع نحو المنصات الإلكترونية الرسمية وذلك من خلال وسائل الإعلام المختلفة.
٥. وضع قانون صارم للحد من استخدام تلك المنصات في أمور قد تكون ضارة بالمجتمع وتؤثر في أمن المجتمع.

المراجع :

- المليجي، رضا إبراهيم (٢٠١١): **معجم المصطلحات في الإدارة التربوية والمدرسية**، دار الجامعة الجديدة الإسكندرية، مصر.
- مرسي، محمد منير (٢٠٠١): **الإدارة التعليمية أصولها وتطبيقاتها**، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

- مذكور، إبراهيم وآخرون(١٩٨٥): **معجم العلوم الاجتماعية**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر.
- العريفى، محمد سعود(١٩٩٦): العلاقة بين الوعي الاجتماعي والحد من انتشار العقاقير المخدرة، **رسالة ماجستير**، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- حلس، موسى ومهدي، ناصر(٢٠٠٥): **الأسرة والمجتمع**، سلسلة دراسات المجتمع الفلسطيني غزة، دار المنارة، غزة، فلسطين.
- السيد، أحمد عبد العال(٢٠١٧): أثر إستراتيجية التعلم المقلوب الموجه بمهارات التفكير ما وراء المعرفي في تنمية مهارات استخدام المنصات التعليمية التفاعلية لدى طلبة ماجستير تكنولوجيا التعليم ، **مجلة دراسات تربوية واجتماعية**، مجلد(٣) العدد(٢٢).
- الشوارية، دالية خليل(٢٠١٩): درجة استخدام طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية الخاصة للمنصات التعليمية الإلكترونية واتجاهاتهم نحوها، **رسالة ماجستير**، جامعة الشرق الأوسط.
- المقرن، نورة بنت أحمد(٢٠١٦): أثر التعليم الإلكتروني باستخدام نظام إدارة التعلم إدمودو Edmodo في تحصيل طلاب الصف الثاني ثانوي في مقرر الأحياء٣، **المجلة التربوية الدولية المتخصصة**، المجلد(٥) العدد(٩).
- العجرش، حيدر حاتم فالح(٢٠١٧): **التعلم الإلكتروني رؤية معاصرة**، دار الصادق الثقافية، بابل، العراق.
- الصبحي، حميدة بنت عبيد(٢٠١٦): منصات التعليم الإلكتروني المفتوح-ماهيتها وعملها مع تصميم دليل لمنصات التعليم المفتوح على شبكة الإنترنت، **مجلة دراسات المعلومة**، المجلد(١٧) العدد(١٦).
- قنيطة، أحمد(٢٠١١): الآثار السلبية لاستخدام الإنترنت من وجهة نظر طلاب الجامعة الإسلامية بغزة ودور التربية الإسلامية بعلاجها، **رسالة ماجستير**، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.
- عبد المعطي، عبد الباسط(١٩٧٩): **الإعلام وتزييف الوعي**، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، مصر.
- عبد المعطي، عبد الباسط(١٩٨٩): **الوعي الديني والحياة اليومية في**

القرية المصرية، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، مصر.

- بوجلال، عبد الله(١٩٩١): الإعلام وقضايا الوعي الاجتماعي في الوطن العربي، **مجلة المستقبل العربي**، العدد(147).
- البطريق، نسمة أحمد(١٩٨٩): **نظرية الإعلام المرئي السمعي دراسة في المدخل الاجتماعي**، ط2
- ابن خلدون(١٩٦٥): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مقدمة ابن خلدون**، لجنة البيان العربي، تحقيق على عبد الواحد وافي، ط2 ،ج4 ، القاهرة، مصر.
- محمد، علي محمد(١٩٨٠): **الشباب والمجتمع**، ط1 الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر.
- نجم، طه(١٩٩٦):**علم اجتماع المعرفة، ط1** ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
- المراياتي، كامل جاسم(٢٠٠٨): الوعي المعرفي والتنمية العقلية، **مجلة آداب البصرة**، جامعة البصرة، العدد(٤٦)، العراق.
- الدروبي، لما جاسم(٢٠٢٠): نموذج مقترح لتحسين منصات التعليم الإلكترونية التفاعلية في الجامعات السورية، **مجلة العلوم التربوية والنفسية**، مجلد(٤)، العدد(٢).
- العنزي، شيمة سالم والكراسنة، سميح محمود وطوالبة، هادي محمد(٢٠١٨): أثر المنصات الإلكترونية المدرسية في تعزيز قيم المواطنة لطالبات المرحلة الثانوية السعودية، **المجلة الفلسطينية للتعليم المفتوح والتعليم الإلكتروني**، مجلد(٧) العدد(٣).
- مسلم، تبارك وحبشان، زهراء وشنان، عبير(٢٠١٨): دور وسائل الاتصال في تنمية الوعي الاجتماعي، **بحث مقدم إلى كلية الآداب جامعة القادسية.**
- حلس، موسى ومهدي، ناصر(٢٠١٠): " دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني، **مجلة جامعة الأزهر**، سلسلة العلوم الإنسانية، مجلد(١٢) العدد(٢)، جامعة الأزهر، فلسطين.

Longman dictionary of the English language, great British culture -center

1984.

- García, F. B., & Jorge, A. H. (2006). (**Evaluating e-learning platformsthrough SCORM specifications)**. In IADIS Virtual Multi Conference on Computer Science and Information Systems during 5-8 October, Murcia, Spain.

- Kats, Y.(2010). **Learning management system echnologies and software solutions for online teaching** : tool and applications. Pennsylvania: IGI global.

- Patricia L., Rogers, Gary, A., Berg, Judith, V., and others (2009). **Encyclopedia of Distance Learning**. pennsylvania: IGI global.

- Mills, C. R(1969): **The power elite**, Oxford University.

- James curran, ed(1979): **Mass comminication ad- society**. The open university. First publish ed, London, p 50.

المو اقع الإلكترونية:

www.akwadna.com/2019/05/17/types-mansat-2019

www.maannews.net/news/2006826.html

-www.moqatel.com

www.alriyadh.com/1811237

-www.alroeya.com/119-87/2134106-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B9%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%B9%D9%8A

التأثيرات السياسية والاقتصادية لفيروس كورونا على النظام الدولي

د. البشير البونوحي / المغرب
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين كلميم - وادنون

الملخص:

لقد كان لفيروس كورونا تأثيرات سياسية واقتصادية عالمية، أدت الى اقفال الدول والمدن واحداث خلل في الأسواق الدولية والعملات والطيران...، مما حدى بالدول الى اتخاذ اجراءات عاجلة لوقف الأنشطة العامة في القطاعين الحكومي والخاص، في محاولة للسيطرة على الوضع الراهن الذي يتفاقم يوما بعد يوم.

تضاف أزمة الفيروس الى أزمات أخرى يعاني منها عالمنا، وهي تراكم الديون على الكثير من الدول وعدم استقرار أسعار الطاقة وتدبدب الأسواق والخلافات السياسية، وجاء كوفيد ١٩ ليوقف الأنشطة الاقتصادية ويقفل الحدود بين الدول، وبالتالي زيادة حجم الأضرار الناجمة عنه رغم الجهود المبذولة لانقاد اقتصاديات الدول. وحتى الان فانه لا يمكن التنبؤ بحجم الضرر الاقتصادي المتوقع على الاقتصاد العالمي بشكل عام، خصوصا وأنه يأتي في وضعية هشة للغاية بسبب الحرب التجارية المتبادلة بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية.

Summary:

The current Corona virus "Covid19" has had serious global impacts economically and politically, these effects have led to a complete shutdown of the country and cities. In addition, there has been disruptions in international markets, currencies and aviation .... This unexpected situation urged countries to take urgent measures to prevent public activities either in public or in private sectors, in an attempt to control the situation which is getting worse day by day.

The crisis of this pandemic 'Covid-19' is added to other crises afflicting the world, which is the debts growth on many countries, the instability of energy prices, the tendency of markets and political differences. Covid-19 came to stop the economic activities and close the boarders between countries, therefore, the damage size of the crisis is increased despite the huge efforts put to save the economies of the countries.

Currently, the size of the expected economic damage to the global economy in general cannot be predicted especially when it comes to a very fragile situation due to the mutual trade war between China and the United States of America.

تقديم

لا غرابة أن عام ٢٠٢٠ سيدخل كتب التاريخ من بابه الواسع كعام لم يكشف عن فشل منظومة الصحة العالمية على الصعيد العالمي فحسب، بل يشير إلى تغيرات جيوسياسية واقتصادية واجتماعية يشهدها القرن الجديد.

ككرة ثلج تتدحرج وتتسع رقعتها، انتشر وباء كرونا المستجد في كل انحاء العالم، مسجلا أرقاما جديدة كل يوم، فحتى اليوم تجاوزنا الثلاث ملايين مصاب، واللافت للنظر أن ارتفاع أعداد المصابين في دول كثيرة له صلة مباشرة بالعلاقات الاقتصادية لهذه الدول مع الصين وشركاتها الاقتصادية العملاقة، حيث أن العلاقات التجارية والاستيراد من الصين والدول الموبوءة بات العامل الأول والمحدد للتعرض للعدوى.

ونحن نكتب هذه الأسطر تخالجنا أفكار بشأن هذا الفيروس الذي أسال الكثير من المداد، هل فيروس كرونا وباء "من صنع الطبيعة" أو "من صنع الانسان"؟ كيف يمكن للأبحاث العلمية أن تعرف الحقيقة من الافتراضات القائمة على "نظرية المؤامرة " والتلاعب المحتمل بالفيروس في السياسة الدولية؟

هناك تضارب بين من يرى أن الفيروس صناعة مختبرية أمريكية لوقف تقدم الصين على الصعيدين الأفقي والرأسي تجاه القطبية الدولية، وبين من يرى أنها الأطماع الصينية في السطو على مقدرات العالم، عبر فيروسات أعدت بليل.

الفيروس الذي ظهر في ووهان بمقاطعة هوبي الصينية، أصبح في الكثير من جوانبه قضية خلافية في الساحة الدولية، وتحول إلى موضوع للشد والجذب وتبادل الاتهامات بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية، فهناك من يرى أن القضية أصبحت مسيسة واستقطابية في الساحة الدولية لأن الفيروس القاتل ظهر وانتشر في القوة الأسيوية التي تسعى لتحقيق تفوق عالمي، ويعدها الغرب وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية عدوا محتملا ومنافسا استراتيجيا يحسب له ألف حساب، ربما لو أن الفيروس قد بدأ في بلد صغير من دون طموحات عالمية، لربما كانت الضجة أخف وردود الفعل الدولية أقل حدة وإثارة للجدل لكن حدوثه في الصين وفي هذا

التوقيت جعل الأمر مختلفا لماذا؟ لأن الصين "قنبلة سكانية لو انفجرت سيصيب رذاذها العالم كله، وهي في الوقت نفسه مصنع العالم، الذي لو تعطل لأصاب العالم بالشلل ولو جزئيا، فالصين اصبحت رقما صعبا في الاقتصاد العالمي إلى جانب امريكا، بل تطمع إلى تجاوز الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا الفيروس يترك تساؤلات حول ما تخلفه الأوبئة الجرثومية الكبرى على المجتمعات وحركتها، كالأنفلونزا الاسبانية عام ١٩١٨، والطاعون الأسود في القرن ١٤م، رغم اختلاف تلك الفترات عن الفترة الحالية، في مختلف الميادين، غير أن الوباء يشكل تحديا في كل فترة يظهر فيها ولكل مجتمع، فحسب مؤرخ العلوم لوران هنري فينيو من جامعة بورغوني الفرنسية، فالوباء يهدد الروابط الاجتماعية، ويطلق العنان لشكل خفي من حرب أهلية يكون فيها الجميع حذرا من جاره "... في هذه المرحلة يظهر ذلك في المشاهد غير المعقولة لأشخاص يتدافعون في المتاجر على آخر حزمة من ورق المراحيض ... والوضع أكثر مأساوية في ايطاليا، حيث يضطر الأطباء إلى اختيار مريض لإنقاذه بدلا من آخر بسبب نقص المعدات، كما يحصل في زمن الحرب".

انتشار فيروس كورونا

بوادر وباء محتمل ليست وليدة ٢٠١٩ أو ٢٠٢٠، بل الاحساس بوجود خلل في النظام العالمي خالج العديد من الاقتصاديين، وعلى رأسهم بيل غيتس مؤسس شركة ميكروسوفت العالمية، الذي حذر من وجود وباء محتمل، مؤكدا على عدم جاهزية البشرية لمواجهته[1].

وإلى حدود كتابة هذه الأسطر بقي العالم مذهولا أمام وباء "كورونا" تائها بين تشخيصه وإيجاد دواء له بل دواء للسياسة والاقتصاد العالميين، فهل صدقت تنبؤات بل غيتس وغيره من المحللين.

قبل حوالي ١٠ أعوام أعلنت الصحة العالمية حالات الطوارئ لخمس مرات، ففي ٢٠٠٩ اجتاحت العالم جائحة انفلونزا الخنازير، وفي عام ٢٠١٤ شلل الأطفال، وإبولا في غرب افريقيا عام ٢٠١٤، وفيروس زيكا عام ٢٠١٥، وعودة إبولا في الكونغو الديمقراطية في ٢٠١٩، ورصد خبراء منظمة الصحة العالمية حدوث ١٤٨٣ انتشار وبائي في ١٧٢ دولة بين ٢٠١١ و٢٠١٨.

واعتبرت منظمة الصحة العالمية تلك الحوادث بمثابة مؤشرات على حقبة جدية من الأوبئة الشديدة التأثير والانتشار السريع، وحذرت من التهديد الموثوق تماما لمسببات

[1] Gates, bill, the next outbreak?Weare not ready! ted talk,april 3 rd 2015. https ;//youtube/6AF6bwyiwl.

الجهاز التنفسي التي تؤدي في نهاية المطاف إلى كارثة بيولوجية عالمية يمكن أن تتسبب في وفاة حوالي ٥٠ إلى ٨٠ مليون شخص وتدمير ما يصل إلى ٥ في المائة من الاقتصاد العالمي، فضلا عن التسبب في عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي[1].

العالم منذ بداية ٢٠٢٠ وهو يعيش فوضى وسياقات متضاربة، وتغيرات مناخية، وتبعات ديمغرافية شديدة الوعورة والخطورة، ولدت هجرات غير نظامية وصراعات قطبية بين ما هو قائم وما هو قادم، كورونا عرت الانسانية وأثبتت ضعف الانسان أمام الطبيعة، وإلا فكيف لفيروس لا يلاحظ إلا عن طريق الميكروسكوبات أن يضرب بقسوة البشرية التي تفاخر بأنها صعدت إلى القمر.

منذ مطلع القرن ٢١ عرف العالم موجات من تفشي الأوبئة كان بداية مع انتشار فيروس سارس SARS سنة ٢٠٠٣ وكان منبعه في الصين، وكغيره من أزمات كبرى تعصف بالمجتمعات كلها، بلا تفريق بين عقائد وثقافات، ها هي أزمة فيروس كورونا ثبت أنها ليست تقل كارثة عن غيرها، إن لم تكن أخطر إذ تفرعت عنها كوارث تفشت بين الناس، وفي الوقت ذاته ولدت من رحمها أزمات ليس من قبيل المبالغة القول إنها بدت مثل مجهر كاشف جعل الأعين تطلع على عيوب كثر، سواء في مستوى أداء حكومات بعض الدول، أو لجهة تصرفات الأفراد بمختلف أنحاء الأرض، بصرف النظر عن اختلاف العادات والتقاليد المعمول بها خلال الظروف العادية، وقبل انتقاد سلطات أي بلد، أو الغوص بعيدا في تمحيص أسباب فشل أجهزة أكثر من دولة تنتمي للعالم المتطور علميا، والمتقدم تقنيا، في الاستعداد لمثل هذه الكارثة، ربما من المفيد إلقاء نظرة تفحص بعض مما ظهر من سلبيات فردية، منذ دخل البشر نفق الفيروس الغامض، كشف عن تقصير مؤلم في تعامل البشر بعضهم مع بعض.

لقد تعددت الروايات حول طبيعة فيروس كورونا بين من جعله ظاهرة طبيعية وبين من قال أنه فيروس من صنع الانسان، والأكيد أن انطلاقة هذا الفيروس واكتشافه كانت من الصين، ومنها انتشر في بقية دول العالم، غير أن مجلة "ساينس" أشارت في ٢٦ يناير ٢٠٢٠ إلى أن سوق المأكولات البحرية في ووهان الصينية قد لا يكون هو مصدر الفيروس القاتل، وكتبت المجلة "يبدو من الواضح الآن أن سوق المأكولات البحرية لا

[1] -Mariano Turzi, « corona virus the weight of geopolitics and macroeconomics «worlderunch, March 4 , 2020.

https: // www.worlderunch.com/world-affairs/coronavirus-the-weight-of-geopolitics-and-macroeconomics.

يمثل المصدر الوحيد للفيروس، وحتى نكون صادقين، نقول إننا ما زلنا لا نعرف من أين جاءنا هذا الفيروس[١].

غير أن المسؤولين الصينيين أشاروا إلى أن منشأ الفيروس قد يكون من خارج الصين، فكبير المستشارين الطبيين الصينيين المكلف بملف فيروس كورونا، شونغنانشان قال في ٢٧ فبراير ٢٠٢٠، "على الرغم من أن الفيروس اكتشف في الصين أولا إلا أن هذا لا يعني أن أصل نشأته كان في الصين"، بينما وجه المتحدث باسم الخارجية الصينية الاتهام للولايات المتحدة الأمريكية التي من المحتمل أن تكون هي من يقف وراء هندسة فيروس covid19 " قد يكون الجيش الأمريكي هو من جلب الوباء إلى ووهان ... كونوا شفافين؟ انشروا بياناتكم الخاصة لعموم الناس. امريكا تدين لنا بتفسير"[٢].

بينما الإدارة الأمريكية قدمت الفيروس على أنه مرض صيني بتسمية فيروس "ووهان" أو فيروس كورونا الصيني"[٣]، ونعته ترامب بالفيروس الصيني[٤]، ومن جانبه زعم السيناتور الجمهوري توم كوتون أن الفيروس من هندسة علماء صينيين انتجوه في أحد المختبرات السرية في ووهان، وهي مختبرات متخصصة في انتاج أسلحة الحرب البيولوجية[٥]، ثم حذر الصين لاحقا من أنها "ستدفع ثمن ذلك"[١].

---

[1] -Coben,Jon, « wuhansenfood market may root be source of novel virus spreading globally science magazine 26 January 2020.
https; // www.sciencemag.org/news/2020/01/wuhan-seafood-market-may-root-be-source-novel-virus-spreading-globally.

[2] -Panda,Ankit, "chines foreign ministry spokesperson implies US Militory brought corona virus to wuhan", the diplomat, 13 march 2020.
https;//thediplomat.com/2020/03/chines-foreign-ministry-spokespenson-implies-US-military-brought-coronavirus-to-wuhan/

[3] -Myers Steven Lee «china spin Tale that the U.S army started the coronavirus Epidemic », the New York Times, 13 march 2020.
https://www.mytimes.com/2020/13/world/osta/coronavirus-chinaconspiracy-theory.html.

[4] -Yinmengliu and chenweihua, «trump under fire for calling covid19 «chines virus», the star, 23 march 2020.
https://www.thestar.commy/news/regional/2020/03/23/trump-under-fire-for-calling-covid19-chines-virus.

[5] -Bostock, bill, «AGOP senator keeps pushing a thoroughly debunked theory that the wuhan corona virus is a leaked chines biological weapon gone Wrong, Business Insider 17 feb 2020.

بلد النشأة ل covid19 كان هو الصين، لينتشر بعدها كالنار في الهشيم في باقي دول العالم ومختلف القارات بشكل مخيف، جاعلا الانسانية وما وصلته من تقدم علمي وتكنولوجي عاجزا أمامه في جميع المجالات، كدليل على عدم جاهزية البشرية لأن هجوم من هذا النوع وكذا عدم قدرتها التعامل مع هذا النوع من الأزمات والكوارث البيولوجية التي هي في نفس الوقت من صنع الانسان نفسه، فضحايا هذا الوباء تزداد كل دقيقة بمآت من المصابين والقتلى، الشيء الذي جعل منظمة الصحة العالمية تصفه بالوباء[٢]، وباء تجاوز الثلاثة ملايين مصاب، وعشرات الآلاف من القتلى حتى الآن.

منظمة الصحة العالمية ترددت في إعلان فيروس كورونا "وباء" إلا في ١١ مارس ٢٠٢٠ وأسمته بالجائحة، هذا المفهوم الذي يعنى في نظرها الانتشار العالمي لوباء جديد.

وقد أكد المركز القومي الأمريكي لمكافحة الأمراض والوقاية منها، أن فيروس كورونا مجموعة من الفيروسات الشائعة في البشر وعدة أصناف مختلفة من الحيوانات بما فيها الجمال والأبقار والقطط والخفافيش، ونادرا ما يمكن لفيروسات كورونا الحيوانية أن تصيب البشر ثم تنتشر بين الأشخاص مثل فيروس Mers-covو Sars-Cov والآن مع هذا الفيروس الجديد المسمى Sars-Covid، ويمثل السارس و cov-2 فيروسا مستنبطا من أربعة فيروسات في الأصل على غرار mees-cov و sars-cov. يعود منبت جميع هذه الفيروسات الثلاثة إلى الخفافيش[٣]، وخلص المركز أيضا إلى أن "هذا هو أول جائحة معروفة أنها ناجمة عن ظهور فيروس كورونا جديد في القرن الماضي، انتشرت أربعة أوبئة نتجت عن ظهور فيروسات جديدة للأنفلونزا"[٤].

وباء يصعب السيطرة عليه ينتقل بين الحدود وبين الدول وبين القارات، وباء أبان

https://www.businesinsider.com/coronavirus-tom-cotton-conspirocy-theory-china-worfore-leak-2020-2.

[1] - Choi David, «Republican senator it 's time to hold china «accountable» for the coronavirus, business insider, 12 march 2020. https://www.businessinsider.com/tom-cotton-told-china-a ccountable for-coronavirus-2020-3

[2] -World Health organization who announces covid-19 outbreak a Pandemic march 12 th 2020. https://www.euro.who.int/en/health*topics/health-energencies/coronavirus

- covid-19/news/news/2020/3/who-announces-covid-19out break-a-pandemic.

[3] -CDC,Situation summary.march15,2020. https://WWW.cdc.gov/coronavirus/2019-ncov/cases-up dates/Summary.html

[4] -Ibid.

عن مدى هشاشة الحياة البشرية في مطلع القرن الواحد والعشرين، قال عنه أحد المعلقين البريطانيين"إنه لا يرحم ولا يستثني أحدا، لا إماما ولا طبيبا صينيا، ولا يراعي أي حدود وطنية، لذا وحتى مع تراجع القادة الوطنيين عن ضمان طرق وطنية ذات إرادة في التعامل مع انتشاره ينبغي أن تظهر املاءات العلم والعقل ومن دونها، ليس هناك طريق آخر بديل للمضي قدما[1].

فمعظم الدول خصوصا الغنية منها لم تستطع منع انتشار فيروس covid-19 سواء في أوروبا أو أمريكا أو آسيا ... نحن أمام أرقام مهولة في الاصابات وحالات الوفاة، مع تواضع حالات الشفاء، فالولايات المتحدة الأمريكية لوحدها تزحف في عدد الاصابات متجاوزة المليون اصابة ودول اوربية تجاوزت المائة ألف اصابة.

إن تناول موضوع فيروس كورونا علميا، بعيدا عن الاشاعات والمعلومات المنتشرة على وسائل الاعلام سواء صحيحة أو خاطئة، بجرنا إلى دراسات متعددة أجراها خبراء في علم البيئة، فقد خلص علماء يعملون مع منظمة ايكو هيلثالاينس «Ecohealth alliance» وهي مجموعة بحثية غير ربحية إلى أن الوباء كان نتيجة آثار غير مباشرة لحالات انتقال فيروس حيواني إلى الإنسان، فقد جمع كيفين اوليفال« Kevin olival » عالم أمراض البيئة، وزملاؤه عينات من آلاف الخفافيش في الصين وأوضح قائلا وجدنا دليلا من جميع العينات التي أجريناها في الصين اجمالا على حوالي ٤٠٠ سلالة جديدة من فيروسات كورونا[2]. والمعروف أن الخفافيش تحمل بعض الفيروسات الخطرة خاصة التي لديها القدرة على الانتشار عالميا[3].

كما نشر خبراء في كلية امبريال كوليدج «Imperial college » في لندن، وثيقة حذروا فيها من أن التهديد الراهن للصحة العامة هو الأكثر خطورة مقارنة مع فيروس الانفلونزا الاسبانية الذي تفشى عام ١٩١٨، وأوصوا الحكومة البريطانية بتبني استراتيجية التخفيف من انتشاره، وتبين من الدراسة أن

[1] -Will Hutton «coronavirus won't end globalisation, but change it huge for the better, «the guordian march 8, 2020.
https://www.theguardian-com/commentisfree/2020/mur/08/thecoronavirus-outbreak-shows-us-that-no-one-com-take-on-thisenemy-alone

[2] -NurithAizenman, «New research: Bots harbor Hndreds of coronavirus, And spillovers Arent's Rare «NPR, february 20, 2020.
https://www.npr.org/sections/goatsandsoda/2020/02/20/807742861/nes-research-bat-horbor-hundreds-of-coronaviruses-and-spillovers-arent-rare.

[3] - Ibid

احتمال انتشار الفيروس قد يتجاوز استراتيجية التخفيف بما لا يقل عن ثمانية اضعاف فوق قدرات الخدمة الصحية الوطنية في بريطانيا، ويمكن أن يؤدي بحياة حوالي ٢٥٠٠٠ شخص[1].

بعض إجراءات التخفيف من انتشار الفيروس

لمواجهة وباء كورونا هناك تدابير واستراتيجيات نهجتها دول العالم لكبح تداعيات covid19 لكن هل هي فعالة أمام الانتشار السريع لهذا الفيروس؟ وتهديده للاقتصاد العالمي؟

بعض الدول والاتحادات الاقليمية قامت بإنشاء صناديق للطوارئ لمكافحة والوقاية من الوباء، وهناك من قامت بخفض الضرائب المفروضة على التجار للحد من ارتفاع الأسعار، وتقديم الحكومات دعما للعديد من القطاعات الحيوية، تفاديا للنقص في المخزونات المتوفرة لديها، وكذا دعم الشركات والمقاولات المتضررة...

ناهيك عن غلق الحدود وتوقيف الرحلات الجوية، وفرض حالة الطوارئ الصحية، وعزل مدن بأكملها، والاستعانة بالجيش وغيرها من اغلاق المصانع والأسواق، وتوقيف الدراسة، وحركة القطارات...

كل هذه الإجراءات الاحترازية رغم أهميتها إلا أن تأثيرها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ستكون له تداعيات وخيمة على مختلف دول العالم. فأين يتجلى تأثير انتشار فيروس كورونا وتداعياته السياسية والاقتصادية؟

التأثيرات السياسية لفيروس كورونا:

١ – كورونا ومفهوم قوة الدولة

التاريخ كما هو معروف سيكتبه المنتصرون خلال أزمة فيروس كورونا، فالبلدان التي ستصمد في وجه الوباء، بفضل أنظمتها السياسية والاقتصادية، وكذا من منظور الصحة العمومية، ستتفاخر بنجاحها على حساب البلدان التي ستواجه تداعيات مختلفة ومدمرة.

فيروس كورونا مس مفاهيم سياسية كالدولة والسلطة والحدود والحريات والفردانية... إنه استدعاء لمنطق الدولة، واستعادته لسلطويتها أكثر مما أصاب ترهل البنى التحتية للأنظمة الصحية في الدول التي تصدرت قائمة فقدان السيطرة على أعداد

[1] - GregHeffer, «coronavirus: PM moves UK To'suppression after new analysis of covid-19 death rate sky march 17, 2020. https://news.sky.com/story/coronavirus-govt-ranped-up-measures-after-new-prediaation-of-250-000-deaths-11958680

المصابين والاسراع في إجراءات العزل، فالعديد من الأنظمة الصحية طالها الانتقاد كالدولة الأوروبية التي بدت عاجزة صحيا، مقارنة بالصين وقدرتها على التجاوز والتحول إلى نموذج في السيطرة على الانتشار، دون تأمل مفاهيم تأسيسية للسلطة والدولة وعلاقتها بالفرد ضمن إطار تقييد حرياته والنزاهة بالأصلح في أزمنة الأزمات.

فيروس كورونا أحدث صدمة عالمية كبرى يتوقع لها أن تؤدي إلى إعادة صياغة النظام الدولي، وتسريع وضع حد للنظام العالي القائم، والتأسيس لتحالفات سياسية جديدة.

لقد أصبح كورونا الآن عاملا فاعلا من الحجم الكبير في العلاقات الدولية، وقد يعيد تشكيل صفوف السياسة العالمية من جديد، بعد إجراء عملية قيصرية في هيكلة النظام الدولي.

لقد اصبحت قوة الدولة في عهد كورونا تقاس بعدد الكمامات والمعقمات وأجهزة قياس حرارة الجسم وأجهزة التنفس وعدد المستشفيات والأسرة المجهزة، بوسائل الانعاش وليس بعدد جيوشها وأسلحتها ودباباتها وطائراتها ورشاشاتها، وعدد جنودها ... لقد اصبحت جاهزية المنظومة الصحية وعدد الأطباء والطواقم الطبية معيارا للقوة، لا شك بعد الانتهاء من الأزمة ستعيد الدول أولوياتها وستنقلب الأدوار لصالح مجالات اهملتها دول وتجاهلتها أخرى، ستتغير مضامين المنافسة والسباق بين الدول إلى تطوير لقاحات ومضادات للفيروسات، ستطور العلوم ذات الاهتمام الفيروسي والمخابر التكنولوجية الحيوية.

نعم، أعيد ترتيب أولويات الدولة لمواجهة هذا العدو ومحاولة تحقيق الانتصار، وتفادي الهزيمة، عبر رص الصفوف الداخلية (الشعبوية والسياسية والعسكرية ...) وتبعاتها، فلأول مرة في تاريخ البشرية نشهد حربا تقف فيها جميع دول العالم صفا واحدا لمواجهة عدو واحد بدل الانقسام إلى أقطاب ومعسكرات تحارب بعضها البعض.

لقد استطاع وباء كورونا أن ينسي العالم خلافاته ولو إلى حين، بفعل مواجهة لم يكن العالم مستعدا لها ولم يهيئ الظروف الضرورية للتعامل مع سلاح فتاك، لا يفرق بين صغير أو كبير غني أو فقير ... سلاح غير مرئي سريع التفشي، عزل كل دولة داخل حدودها بل قسم الدولة الواحدة وعزل مدنها وأجبر سكانها على الاحتماء بين جدران البيوت، وأبرز ضعف البشرية وحجم الارتباك الميداني، رغم الخطط والاستراتيجيات المتخذة لمواجهة covid19فهل أخطأ العالم تقدير خطورة هذا الفيروس؟

أصبح العالم فجأة في حرب غير متكافئة مع عدو غير تقليدي، حربا حقيقية ضد عدو حقيقي، ستختبر من خلالها الدول مدى قوتها أو ضعفها، كل الدول بدأت في الاستعداد لهذه الحرب مستخدمة ما لديها من أسلحة فعالة، مجهودات متفاوتة تبدل، استنفار ودعاية اعلامية ضخمة تعبوية للتحسيس بخطورة فيروس كورونا، الذي أصبح فجأة رقما صعبا على الصعيد الدولي.

إذا رجعنا إلى دراسة العلاقات الدولية عقب الحرب العالمية الثانية نجد بروز ظاهرة "الفاعلين من غير الدول" فبعد أن كانت الدول تحتكر ساحة التأثير في النظام الدولي ظهر فاعلون جدد كحركات التحرر الوطني والشركات الاقتصادية العملاقة عابرة الجنسيات ولاحقا التنظيميات الارهابية وغيرها، وأصبح اكتمال دراسة العلاقات الدولية مستحيلا دون أخذ هؤلاء الفاعلين بعين الاعتبار، ولم يخطر ببال أحد ساعتها أن مفهوم "الفاعلين الدوليين" يمكن أن يمتد ليشمل فيروسا ضاربا مثل "كورونا". ويحتاج اعتبار "كورونا" فاعلا مستقلا في العلاقات الدولية نقاشا، لأنه لو صحت نظرية المؤامرة التي تنسب ظهوره لدولة أو أخرى لأصبح مجرد أداة لتنفيذ السياسة الخارجية لدولة ما في سعيها لتحطيم الخصم، لكن أحدا لم يستطع حتى الآن إثبات نظرية المؤامرة بأدلة دامغة[1].

لقد أصبح فيروس كورونا الآن عاملا فاعلا من الحجم الكبير في العلاقات الدولية، وقد يعيد تشكيل صفوف السياسة العالمية من جديد، بعد إجراء عملية قيصرية في هيكلة النظام الدولي.

استطاع فيروس كورونا أن يغير مفهوم قوة الدولة وضعفها لدى الكثير من الباحثين والمهتمين بالشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الاستثمار في العنصر البشري وما يهم الانسانية بشكل طبيعي هو المفهوم الجديد للقوة، لا الاستثمار في السلاح والحروب وغيرها ممن يدمر البشرية، الانسان هو الحياة، الانسان هو العلم، فقد أعطانا فيروس covid19 درسا في معنى الأولويات، فالأولويات للعلم والعلماء والبحث العلمي، وقوة الدولة مستقبلا ستتحدد في مدى استثمارها في هذه الأولويات.

حتى التفاهات والمستوى المتدني لمحتويات الاعلام ووسائلها، استطاع كورونا تركيعها وإفراد مساحات يومية للمحتوى العلمي وتطوره في ايجاد علاج ينقد البشرية، هو الاعلام الذي لطالما تجاهل العلم والعلماء وأتخمنا ببرامج رديئة، كلف أموالا باهظة، كان

[1]- مقال لأحمد يوسف أحمد، جريدة الاتحاد الاماراتية، العولمة في زمن كورونا، ٢٠ مارس ٢٠٢٠.

بالأحرى استثمارها فيما ينقدنا اليوم، لقد فرض عليه كذلك اعادة ترتيب اولوياته، وانتظار الفرج بكل شغف من أهل العلم والعلماء.

إعادة الاعتبار لمراكز البحث والجامعات والعلم باعتباره نشاطا انسانيا حيويا وشرطا لبقاء الانسان على قيد الحياة، هو التوجه الذي ستهتم به الدول في القادم من السنوات، فالدولة القوية هي التي ستهتم بمنظومتها الصحية والوطنية لتعزيز قدرتها وتطوير أدائها، وكذا تحقيق الاكتفاء الذاتي الذي كشف فيروس كورونا حاجة الدولة إليه، خصوصا في المجالات الحيوية كالتغذية والأدوية، لقد اعطانا كورونا دروسا في الاقتصاد واعادة هيكلة النشاط الاقتصادي وتوجيهه لتأمين حاجات الانسان الأساسية، خاصة عندما تجد الدولة نفسها محاصرة من كل جانب، فالدولة القوية في هذه الحالة هي الدولة المنتجة لغذائها ودوائها ... وأساسياتها.

٢ – سياسة القوى الكبرى في زمن كورونا

يمكن اعتبار فيروس كورونا "سياسي" اكثر مما هو صحي، نظرا للاتهامات بين القوى العالمية بعضها البعض "بالحرب البيولوجية"، وعدم الاهتمام بالمجال الصحي عكس المجالات العسكرية، فالإدارة الأمريكية قللت التمويل لأبحاث الأوبئة، وساهمت في وقف المبادرات لحماية الأمريكيين من امكانية الانتشار الكبير للأوبئة، وقد اغلقت برنامج بحث يدعى "بريديكت" عام ٢٠١٩، وهو برنامج مختص بتتبع وبحث أكثر من ألف شكل من الفيروسات، وسياسة الادارة الأمريكية المتجاهلة للاحتباس الحراري للمناخ، ويمكن تتبع هذا الاتجاه السياسي كذلك بإلغاء الولايات المتحدة لدعمها لمنظمة الصحة العالمية بدعوى اتفاقها مع الصين في اخفاء الفيروس في مراحله الأولى والتكتم على عدد المصابين الحقيقي.

وباء كورونا يعيدنا سنوات إلى الوراء، وما كان يحاك في الظلمات بين القوى العالمية أيام سنوات الحرب الباردة والصراعات الخفية، بين القوى المتحكمة في السياسة والاقتصاد العالميين، فهل نحن أمام أسرار مظلمة جديدة "فالبعض جاد على أن الفيروس الجديد ثم تطويره في مختبرات الحرب البيولوجية حول العالم، علاوة على ذلك هناك من أضفى عليه هوية عرقية فسماه "الفيروس الصيني" أو "متلازمة الشرق"، فمنظمة الصحة العالمية رصدت أولى الاصابات في تقريرها في مدينة ووهان، متحدثة عن فيروس غير معروف وعن اصابات بالالتهاب الرئوي أواخر ديسمبر ٢٠١٩، لتتجه الرواية بعد ذلك إلى كونه نشأ في سوق للمأكولات البحرية في ووهان، حيث يتم تداول

الحيوانات بما فيها الطيور والأرانب والخفافيش والثعابين بشكل غير قانوني، وفي ٢٨ يناير ٢٠٢٠ صرح الرئيس الصيني شي جين بينغ بأن الوباء شيطان ولا يمكننا ترك الشيطان يختبئ[1]. وبعدها اقرت السلطات الصينية عن وجود أكثر من ٨١٠٠٠ حالة اصابة وأزيد من ٣٢٠٠ حالة وفاة في ١١ مارس ٢٠٢٠.

غير أن رئيس مجلس شيكاغو للشؤون العالمية وسفير الولايات المتحدة السابق لدى حلف شمال الأطلسي، ايفودالدر Ivo» «Doolder، انتقد الصين "لسريتها وتقاعسها عن التعاون"، الأمر الذي سهل امكانية تحول الوباء الى حقيقة، مما جعل الصين ترفض مثل هذه الاتهامات في العديد من البلدان الأوروبية وأمريكا واعتبرت ذلك انتقاد لكل شيء صيني.

بفعل وباء كورونا أصبح العالم في حرب، فالرئيس الفرنسي في خطاب له موجه لمواطنيه قال: " نحن في حالة حرب، نحن لسنا في حالة مواجهة مع جيش آخر أو دولة أخرى لكن العدو موجود هناك، هو غير مرئي، وصعب الاقتناص، لكنه يحرز تقدما". ليقرر ماكرون تجنيد الجيش للمساعدة في نقل المرضى إلى المستشفيات، بينما كتب رئيس بلدية مدينة نيويورك بيل دي بلاسيو في رسالة موجهة إلى مواطنيه في ١٦ مارس / آذار "يجب أن نرد بعقلية الحرب".

لقد أثر كورونا في العلاقات الأوربية الأمريكية بعد قيام هذه الأخيرة بحضر السفر بين الولايات المتحدة الأمريكية وأروبا دون استشارة الأوربيين، مع استثناء بريطانيا منه دون سبب، كما أن هذا الوباء نجح في تخفيض الصراعات الدولية، فقد يكون نجح في وقف إطلاق النار في ليبيا، وهو ما عجزت عنه القوى الكبرى في مؤتمر برلين، كما اقنع المحتجين في الجزائر بوقف احتجاجاتهم بعد أكثر من عام على بدئها، وعلامات التهدئة في العراق ولبنان ...فكيف أثر الفيروس على الاتحاد الأوربي؟

الاتحاد الأوربي سقط بين مخالب كورونا، لقد تلقى ضربة قاسية لفكرة الاتحاد التي تعتمد على التضامن والتعاضد بين دوله، خصوصا في أوقات الأزمات، لكن ما جرى مع ايطاليا مثلا يجعلنا نتساءل عن جدوى هذا الاتحاد، وكذا عن مستقبله، خصوصا بعد اغلاق الدول لحدودها منتهكة بذلك اتفاقات اوربية وعلى رأسها شنغن، لقد أظهرت ازمة كورونا أن سقف التعاون بين الأوربيين محدود، واستغاثة ايطاليا بجيرانها ورد هذه

[1]- Laura spinney, «coronavirus and the geopolitics of Disease» the statesmanfebruary 19, 2020. https://www.newstatesmon.com/politics/health/2020/02/coronavirus-and-geopolitics-disease.

الأخيرة بإغلاق الحدود، جعل وزير الداخلية الايطالي الأسبق ماثيو سالفيني يقول "... عندما تنتصر ايطاليا على الوباء سنغلق حدودنا، لاسيما في وجه الدول التي اغلقت حدودها في وجهنا، وشركاتها التي لم يكن لها سوى هم واحد ... القفز على السوق الايطالية لتحل محل الشركات الايطالية".

التجاهل الأوربي لكارثة ايطاليا ولد مشاعر الاستياء بين الايطاليين الذين شعروا أنهم خذلوا من طرف جيرانهم، الذين يجمعهم معها اتحاد واحد، وهذا ما عبر عنه مندوب ايطاليا بقوله: "إن أزمة فيروس كورونا شبيهة بأزمة اللاجئين، فالبلدان التي لم تتأثر على الفور ليست في الغالب على استعداد لتقديم المساعدة، ومن الواضح أن لدى هذه الدول تصورات مختلفة بشأن التهديد القائم، نحن نشعر أن فيروس كورونا يمثل تهديدا عالميا وأوربيا يحتاج إلى استجابة اوربية، لكن الدول الأخرى لا ترى ذلك بهذه الطريقة"[1].

ضعف التضامن الأوربي مع ايطاليا يقابله ارسال الصين وروسيا لمساعدات وطواقم طبية لمساعدة الايطاليين والاسبان، لقد تضغضغ الاتحاد الأوربي وبداية التغلغل الصيني والروسي في القارة العجوز، وبالتالي نكون أمام علامات استفهام حول الجدوى من الاتحاد الأوربي؟ وما الغاية من انشائه؟

كما أعلن عدد من المسؤولين الايطاليين عن أهمية عامل الوقت الذي داهمهم من غير استئذان، وعبروا عن أسفهم لأنهم لم يأخذوا عوامل السلامة مسبقا وأكدوا أن بإمكانهم احتواء الأزمة، وتجنب آلاف الاصابات لو أنهم أخذوا موضوع فيروس كورونا بجدية في وقت مبكر.

أما في الولايات المتحدة فقد كشفت الأزمة الفيروسية التي ضربت العالم مدى الوهن الذي أصاب امريكا، ليس بسبب عدم كفاءة نظامها الصحي فحسب، وإنما أيضا بسبب ادارة الأزمة التي جاءت مرتبكة ومترددة، مما ساهم بتصدرها لعدد الاصابات في العالم حيث اصبحت تستحوذ على أكثر من خمس الاصابات في فترة وجيزة، ويواجه الرئيس الأمريكي انتقادات قوية واتهامات بسوء ادارة أزمة وباء كورونا.

استهانة واستهزاء الرئيس الأمريكي بأزمة كورونا، وعدم تقديرها حق قدرها، أتاح الفرصة للانتشار الواسع للفيروس، وهو ما تدفع أمريكا حاليا ثمنه.

بعد تفشي الوباء في الصين أبدى الرئيس الأمريكي استخفافا كبيرا بالفيروس وسرعة انتشاره، وذلك على اعتبار أن امريكا بعيدة

[1] -Elizabeth Brow, « the EU Is Abandoning Italy in its hour of need «foreign policy, March 14 2020. https://foreignpolicy.com/2020/03/14/coronavirus-eu-abandoning-italychina-aid/

عن المرض، إذ تحيط بها المحيطات والمساحات الجغرافية التي تمنع وصول المرض إلى بلاده، تجاهل ترامب للفيروس لم يدم طويلا، فقد وصل إلى بلاده، وهو يتجاوز عتبة المليون مصاب إلى حدود كتابة هذه الأسطر.

ورغم الانفاق الكبير على القطاع الصحي من طرف الدولة الأمريكية، وكونه نظام جيد في مجمله إلا أنه أثبت ضعفه وعجزه الواضح في التجهيزات التقنية الطبية، خاصة أجهزة التنفس الصناعي.

حتما سوف تتأثر القطبية الأمريكية في السنوات والعقود المقبلة، لاسيما أن واشنطن وجدت، ذاتها وحيدة في الميدان، وهذا ليس من المفاجئ، بحسب مجموعة من الخبراء، لأن أمريكا من الدول الدائمة الخذلان لأصدقائها وحلفائها، وبالتالي فأمريكا حكما لن تكون كالسابق بعد كورونا، لاسيما أن الصين وروسيا قد قامتا بملء الكثير من مربعات النفوذ الاستراتيجي العالمي، وقد رأى العالم بضع طائرات روسية تحط على الأراضي الأمريكية حاملة المساعدات الطبية والمعدات المتقدمة لإنقاذ أرواح الأمريكيين رغم أن الوضع في الداخل الروسي معقد من ناحية كورونا، فهل فشلت الأجهزة الأمريكية في استشراف أزمة كورونا؟

المؤكد أن هناك جدار حديدي متين لم تستطع أمريكا اختراقه، ألا وهو الصين، ولم تستطع استخباراتها كذلك الحصول على معلومات دقيقة حول سبب تفشي الفيروس السريع، سواء في الصين أو داخل إيران، زيادة على تردد امريكا في اتخاذ اجراءات حقيقية لوقف انتشار فيروس covid19 فهل اختارت الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصاد على حياة شعبها؟

تماشيا مع ذلك وفي إطار تعاملها مع الوباء والدول المتفشي فيها، تبقى المشكلة في الولايات المتحدة الأمريكية أنها تبخل حتى بالمجاملات والخبرات والأموال والكلمات اللطيفة، ولا تعير انتباها لما تعاني منه دول ذات قدرات علمية وتقنية ومالية محدودة، ولم يتورع الرئيس الامريكي عن وصف الفيروس بالفيروس الصيني مفسرا بأنه قال بهذا الوصف ردا على اتهام الصين للجيش الامريكي بنشر الفيروس.

الولايات المتحدة محدودة التعاون مع القوى الأخرى كالصين وروسيا ... ولو كان العالم حرا من الضغوط والعقوبات الأمريكية لتعرضت أمريكا الى تكتلات دولية تعمل على مقاطعتها وعلى كل الأحوال، إذا استمرت أمريكا بأسلوبها الحالي، فإنها ستواجه تمردا عالميا يؤثر على أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والأمنية.

٣-الصين وريادة العالم:

خلال العقود الثلاثة الأخيرة كانت الصين بمثابة "ورشة العالم" لكونها توفر ربع المصنوعات في العالم، كما يقول أستاذ الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل بول كروحمان«Paul Krugmon» واليوم تنصب الصين نفسها الطبيب ومختبر الصحة العامة بالنسبة للغرب، لتقديمها مساعدات طبية للعديد من الدول كإيطاليا مثلا، هذه الأخيرة التي تجاهل الاتحاد الأوربي نداءها بمساعدتها وتقديم العون لها لمواجهة فيروس كورونا والتي اصبحت بؤرة له في أوربا.

قد تكون الصين تسعى إلى استغلال النجاح الذي حققته في محاصرة الفيروس لتسجيل انتصارا سياسيا واعلاميا على أمريكا، فتناقص عدد الاصابات في الصين وتزايدها في الولايات المتحدة وأروبا، تكون بكين قد قلبت الصورة، خاصة وأنها تسند النجاح إلى الحزب الشيوعي وصرامته في اتخاذ القرارات للسيطرة على المرض عكس التعامل الكارثي للولايات المتحدة وأغلب دول أوربا، وهذا قد يعزز من صعود نجم الصين وأسهمها لدى الكثير من شعوب العالم، والمساعدة التي قدمتها لإيطاليا مثلا (٣١ طنا من المعدات الطبية)، دعاية لهذا التفوق الصيني أمام العجز الأوربي، كما يشكك في أهلية النظام الأمريكي الذي وضع رجلا عديم الكفاءة في البيت الأبيض حسب البعض، خصوصا بعد استهتاره بكورنا.

الصين تحارب الفيروس صحيا وسياسيا، وإذا نجحت وقضت عليه، سيكون هذا مؤشرا دوليا على أن التنين الصيني يرجع وبقوة للتربع على منظومة الاقتصاد الدولي، وقد تكون نهاية هذا العقد منصة تتويج الصين قائدا اقتصاديا، ولكن ذلك مشروط باجتياز الاختبار المدعو كورونا.

أما أمريكا فسوف تستغرق كثيرا من الوقت خلال هذا القرن في السيطرة على العالم سياسيا، حيث أنها تريد أن تكسب اقتصاديا وسياسيا أمام الصين، لكن تجاوز الصين الأزمة إذا تم وبشكل سريع فسوف يغير كثيرا من المعادلات، وهذا ما يجعل العالم ينظر إلى كورونا الحقيقة السياسية أكثر من كورونا الحقيقة الصحية، ليبقى السؤال هل الصين قادرة على إثبات تفوقها أم يتعثر تطورها فوق عتبات فيروس كورونا؟

الصين في انتصارها على فيروس كورونا سيصبح رقم معاملاتها كقوة عظمى يحسب له ألف حساب، وما أبدته من سلوكيات تعاونية تجاه ايطاليا، جعل مبادرتها أهم بكثير من مبادرات شركاء ايطاليا الأوربيين ويعني هذا أن الصين معنية ب "المقوم المعنوي" لقيادة العالم، وهذا يعني أن مواجهة كورونا سوف يحدث تغييرا كميا وكيفيا في التنافس على قيادة العالم.

فيروس كورونا عزز كذلك التضامن السياسي بين القوى المعارضة للولايات المتحدة خصوصا محور الصين وروسياوايران وكوريا الشمالية، بحيث تسعى هذه الدول إلى تعزيز أهدافها الاستراتيجية في ظل التعاون القائم بينهم وبالخصوص بين بكين وموسكو (في إطار منظمة شنغهاي للتعاون)، وإضافة إيران سيعزز هذا المشروع الروسي الصيني، الشيء الذي يحمل في طياته امكانية تغيير التوازنات الاستراتيجية القائمة بين هذه الدول، وفيما يخص الاضافة النوعية لإيران في هذا التحالف أشار ميكائيل تانشوم، الباحث في المعهد النمساوي للدراسات الأوربية والأمنية « AIES » أنه "مع اكتمال بناء ميناء تشابهار الايراني، مؤخرا ومد خطوط السكك الحديدية لتصل إلى أعماق آسيا الوسطى، فإن إيران باتت في طريقها إلى أن تصبح مركزا لممر العبور الدولي بين الشمال والجنوب «INSTC»[1].

ومع توسيع واشنطن لعقوباتها الأحادية على إيران من جهة، وفشل أوربا في الحفاظ على الاتفاق النووي المعروف باسم خطة العمل الشاملة المشتركة، من جهة أخرى، لم يزيدا طهران غير التسريع في اعادة توجيه سياستها والبحث عن شراكات خارج نطاق الجوار.

كما أن التوجه الأمريكي في آسيا الشرقية بغية تحقيق التوازن مع الصين لم يزد سوى تعزيز الشراكة الصينية مع الدول المعادية للولايات المتحدة الأمريكية.

إضافة إلى أن الشراكة بين الصين وروسيا وبعض الدول الأخرى كإيران... هي نتيجة لترابط مصالحها ومعارضتها القوية للهيمنة الأمريكية، وتعتقد حكومات الصين وروسيا أن التوجه الأحادي لإدارة ترامب قد أدى إلى تعطيل النظام الدولي وشكل خطرا جسيما متعاظما على سيادة ومصالح هذه الدول وهو ما دعا إلى السعي نحو إقامة نظام دولي أكثر توازنا.

التأثيرات الاقتصادية لفيروس كورونا على النظام العالمي

تسبب انتشار فيروس كورونا في دول العالم في الاضرار بالاقتصاد العالمي، وإحداث خلل في أسواق الطاقة والسلع والمواد الاستهلاكية والانتاجية والطيران وغيره، مما حدا بالدول إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لوقف الأنشطة العامة في القطاعين الحكومي والخاص في محاولة للسيطرة على الوضع الراهن الذي يتفاقم يوما بعد يوم لتضاف أزمة الفيروس إلى أزمات أخرى يعاني منها

[1] -Tanchun. Michael « Iran and the china – Russia pivot in Eurasia » East Asia forum, 4 January 2020. https://www.lastasiafiorum.org/2020/01/04/iram-and-the-china-russia-pivot-in-eurasia

عالميا،والمتمثلة في تراكمات الديون الأوربية، وعدم استقرار اسعار الطاقة، وتذبذب سوق العملات وخسائر الدول من الكوارث الطبيعية التي تسببت فيها الأمطار والحرائق والجفاف، يضاف إلى ذلك تداعيات خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوربي على منطقة اليورو، وتأثير انتشار الفيروس على أوجه الاقتصاد سيعمل على الاضرار بالحركة التجارية.

في الأمس القريب توقعت تقارير دولية أن الاقتصاد العالمي سينمو ليصل ٣.٣ في المائة سنة ٢٠٢٠ وإلى ٣.٤ في المائة سنة ٢٠٢١ بناء على تحسن وضع التجارة الدولية، خاصة بعد التقارب الذي حصل بين عملاقي الاقتصاد العالمي الصين والولايات المتحدة الأمريكية[1]، لكن مع وباء كورونا المستجد تبعثرت أوراق هذا النمو الايجابي، وحل محلها خوف من الخسائر الفادحة التي ستترتبعن covid19، فمنظمة التجارة والتنمية التابعة للأمم المتحدة UNICTAD تنبأت بتراجع النمو العالمي إلى أقل من ٢.٥ في المائة وأن تدخل مجموعة من الدول في موجة كساد[2].

منذ الإعلان عن الفيروس شهدت أسواق الأسهم والبضائع في الصين تراجعا ملحوظا منذ الاعلان عن انتشار فيروس كورونا في الصين، كما امتد أثر هذا الفيروس إلى الأسواق الأسيوية والأمريكية على حد سواء، إذ ادى انتشار الفيروس إلى تقييد حركة السفر والتجارة بين البلدان، وزاد الانفاق على العملية الاحترازية للحد من انتشاره. إن مثل هذه الاجراءات على أهميتها القت بتأثيرها على بيئة الأعمال والناتج العام للمجتمع، فهل تعيد أزمة ١٩٢٩ نفسها سنة ٢٠٢٠؟

الخوف كل الخوف من انهيار الاقتصاد العالمي كما حدث سنة ١٩٢٩، خصوصا وأننا لسنا أمام المضاربات وهشاشة المصارف كما هو الشأن في أزمة ١٩٢٩ و٢٠٠٨ بل يخاف العالم أن تصاب أسواق المال بعدوى شلل عم الصناعة والتجارة.

[1] -International Monetaryfund, world economic outlook. January 2020 .
https://www.inforg/en/publications/weo/issues/2020/01/20/weo-update-janury-2020

[2] -United Nation conference on trade and development the corona virus stochastory of another global crisis foretold and what policy makers should be doing about it march 9 th 2020.
https://united.org/en/publicationliberary/gds-tdr2019-updatecoronaviruspdf

كما أن العالم الآن ومؤرخو الاقتصاد يخشون من تكرار مأساة الموت الأسود «Black death» التي اجتاحت منتصف القرن الرابع عشر وأدت إلى وفاة نسبة الثلث من مجموع السكان، مما تسبب في ندرة العملة، وزيادة الأجور والطعن في النظام الاقطاعي في أوربا آنذاك. وتكررت المآسي في بريطانيا آنذاك مع وباء الملك كوليرا King cholera في ١٨٣١-١٨٣٢ و١٨٤٨-١٨٤٩ و١٨٥٤ و١٨٦٧ ومن قبله داء السل الذي خلف ثلث الضحايا في بريطانيا بين ١٨٠٠ و١٨٥٠ والآن نحن أمام كابوس آخر يحيي ذكرى الفواجع القديمة في أذهاننا لأن تداعيات الأوبئة قد تطول على مستوى الاقتصاد العالمي.

وتشير التقديرات إلى أن الاقتصاد العالمي معرض لخسارة أكثر من ٢ ترليون دولار، ففي مؤتمر صحفي عقد في جنيف يوم الاثنين ٩ مارس ٢٠٢٠، قال ريتشارد كوزيلرايت رئيس قسم العولمة والاستراتيجيات التنموية بالأونكتاد، إن ما يحدث للاقتصاد العالمي لم يكن يتوقعه أحد، لافتا إلى أن انهيار سعر النفط أصبح العامل المساهم للشعور بالذعر وعدم الراحة، ولهذا السبب من الصعب التنبؤ بحركة الأسواق، هذه الحركة تشير إلى عالم شديد القلق، وهذه الدرجة من القلق تتجاوز التخوفات الصحية وهي خطيرة ومثيرة للقلق، ولكن التداعيات الاقتصادية تتسبب في مخاوف كبيرة.

وفي دراسة تحليلية أصدرتها الأونتكاد، ذكرت أن ثقة المستهلك والمستثمر هي أكثر النتائج المباشرة لانتشار العدوى، إلا أن الدراسة أكدت أن مزيجا من انخفاض أسعار الأصول وضعف الطلب الكلي وتزايد أزمة الديون وتفاقم توزيع الدخل كل ذلك يمكن أن يؤدي إلى دوامة من التراجع تجعل من الوضع أكثر سوءا.

ولم تستبعد الدراسة الافلاس الواسع النطاق، وربما ستتسبب في انهيار مفاجئ لقيم الأصول التي تمثل نهاية مرحلة النمو في هذه الدورة، وأشارت الدراسة إلى أنه يمكن مقارنة الأزمة الاقتصادية الأسيوية التي حدثت في أواخر التسعينيات مع الوضع الحالي، لكن تلك الأزمة برزت قبل أن تصبح الصين بصمة اقتصادية عالمية، كما أن الاقتصادات المتقدمة كانت جيدة نوعا ما، غير أن الوضع يختلف اليوم.

إلى حدود كتابة هذه الأسطر لا يمكن التنبؤ بتداعيات كورونا المستجد المستقبلية، خصوصا في ظل هرولة الدول إلى إغلاق حدودها ومطاراتها وعزل مدن بأكملها، في محاولة للحد من انتشار الفيروس وكذا مجهودات المنظمات والحكومات إلى إيجاد

حلول للتخفيف من حدة الآثار السلبية لهذا الانتشار على الاقتصاد المحلي والعالمي.

وتجدر الإشارة إلى أنه ورغم تحليلنا لهذه الجائحة العالمية، ومحاولتنا مقاربتها من مختلف الزوايا فإنه من الصعوبة التنبؤ بكل الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وحصرها لأنها في تزايد مستمر ولا يعلم متى ستنتهي.

تداعيات فيروس كورونا اقتصاديا قد يؤدي إلى تعقيدات وتأثيرات عالمية وتحديات محلية في العديد من البلدان، ففي الوقت الذي يحذر فيه الخبراء من أن الاقتصاد العالمي ما زال يواجه خطر الركود والانكماش الاقتصادي، فإن أي أزمة في الصين صحية مثل كورونا أو سياسية ستكون لها تداعيات خطيرة على العالم كله وليس على الصين وحدها، ولأن الكثير من الشركات العالمية تعتمد اليوم على انتاج سلعها كليا أو جزئيا في الصين، فإن تأثيرات أزمة فيروس كورونا ظهرت سريعا بما في ذلك العديد من الشركات الأمريكية.

فعلى سبيل المثال تأثرت صناعات التكنولوجيا مثل الهواتف، كما تأثرت صناعة السيارات التي تعاني من مشكلات نقل قطع الغيار من الصين، إذ قررت شركة "جاغوار لاندروفر" أكبر شركة لصناعة السيارات في بريطانيا، نقل قطع غيار سياراتها من خارج الصين في حقائب آمنة في سباق مع الزمن لمنع اغلاق مصنعها في بريطانيا بحلول نهاية شهر فبراير، كما تأثرت شركة "فياتكريسلر" نتيجة مشكلات الحصول على أجزاء رئيسية من الموردين الصينيين ومثلها شركات تويوتا وهيونداي وفولفو ...

خسائر الاقتصاد العالمي هذه المرة كانت أشد من غيرها لأنها ضربت الدول الكبرى التي تساهم بأكثر من ٦٠ في المائة من إجمالي الناتج العالمي، و٦٥في المائة من الناتج الصناعي، و٤٦ في المائة من إجمالي الصادرات المصنعة، ومن المتوقع أن تتأثر الصناعة العالمية نتيجة توقف الانتاج لأن الفيروس ضرب مراكز التصنيع العالمي (شرق آسيا وأمريكا وأوربا)، وكذا تأثير أساطيل التوريد العالمي المرتبطة بمراكز التصنيع، ينضاف إليها تراجع الطلب العالمي وبالتالي تأثر التجارة العالمية.

كما أن خسائر كورونا المستجد ستكون كبيرة نظرا لتنامي الدور الصيني في الاقتصاد العالمي عكس ٢٠٠٣، ونظرا كذلك للإجراءات المتخذة للحد من انتشاره، فالاقتصاد الصيني بداية هذا القرن كان يحتل المرتبة ٦ عالميا أما الآن فقد احتل الرتبة الثانية عالميا بعد الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك فصندوق النقد الدولي اعتبرها أحد محركات النمو الاقتصادي العالمي، حيث ساهمت لوحدها

ب ٣٩ في المائة من نمو الاقتصاد العالمي سنة ٢٠١٩[١].

غير أن الثقة التي يبديها القادة الصينيون في صعود نجم بلادهم وتحقيق نجاح في احتواء الفيروس التاجي يقدم الدليل على تصميمهم على تقديم الصين في صورة البلد الذي يتزعم الكفاح العالمي ضد الفيروس، وأنهم يسيرون نحو تحويل بلدهم إلى قوة عالمية، غير أن تداعيات كورونا وما يمكن أن يحدثه من تأثير جيوسياسي لم تحدد بعد بشكل كامل، ويبقى إدراك تلك التأثيرات والتداعيات معتمدا بشكل واسع على مدى نجاح الجهود الرامية إلى التخفيف من أضرار الفيروس وإيجاد علاج مناسب له، ثم تطوير لقاح له في نهاية المطاف[٢].

في الأشهر الأولى تكبدت أوربا ازيد من ١٥ مليار دولار كخسائر اقتصادية، وأكثر من ٥ مليارات دولار في الولايات المتحدة، وأكثر من ٥ مليارات في اليابان، وهبوط الاستثمارات الخارجية في أوربا ل ٤٠٠ مليار دولار، وأكثر من ٣٠ مليار دولار كخسائر الاقتصاد العالمي، وبلغت خسائر شركات الطيران العالمية أكثر من ١٢٠ مليار دولار، وقالت الأونكتاد أن صادرات الصين من قطع الغيار والمكونات الحيوية لمنتجات تتراوح بين السيارات والهواتف الخلوية من المتوقع أنها انكمشت بنسبة ٢ في المائة على أساس سنوي وهو ما يكلف دولا أخرى وصناعاتها ٥٠ مليار دولار، وأضافت أونكتاد أن اكبر اقتصاد في العالم وهو بؤرة تفشي الوباء، يشكل ٢٠ في المائة من التجارة العالمية في المنتجات الوسطية، ووفقا لأونكتاد فإن الدول أو المناطق التي تعاني أعلى خسائر في التصدير بسبب تداعيات فيروس كورونا من الاتحاد الأوربي وأمريكا وكوريا الجنوبية وتايوان واليابان وفيتنام.

انهيار اسعار البترول:

انعكس انتشار الفيروس على النمو الاقتصادي والطلب العالمي على النفط، بل ان انتشار هذا الوباء أثر بالسلب على معنويات المستثمرين، وهو ما دفع الكثير منهم إلى التوجه نحو الأصول الآمنة على غرار الذهب، والتي ينظر إليها كملاذ آمن للتحوط في أوقات الأزمات.

---

[1] - International Monetary fund prolonged uncertainty weighs on Asia's economy- IMF country focus, October 22 nd, 2019.
https://www.lmf.org/en/news/articles/2019/10/18/na102319-prolonged-uncertainty-weights-on-asias-economy

[2] -Mean Walter Russell «china 's coronavirus opportunity» the well street journal 16 march 2020.
https://www.wsj.com/articles/chinas-coronavirus-opportunity-11584398121

منذ بداية العام انخفضت اسعار النفط إلى ما يقارب ٤٥ دولار للبرميل، وذلك بسبب انتاج النفط الصخري من الولايات المتحدة الأمريكية، والتنبؤات بشأن تباطؤ نمو الطلب العالمي، وانخفضت اسعار خام برنت في يوم ٩ مارس ٢٠٢٠ إلى حوالي ٣٣ دولار للبرميل، والآن خفضت كورونا طلب الصين للنفط بحوالي ٢٠ في المائة، الأمر الذي يحول دون تحقيق مجموعة من الدول لسعرها العادي (٥٧ دولار).

ومن نتائج الأزمة الحالية كذلك تقلص صادرات الأوبك والدول المنتجة، وتراجع الاستهلاك، فالمعطيات تشير إلى ان الطلب العالمي على البترول قد تراجع بحدود ١٥٠٠٠ برميل يوميا مقارنة بعام ٢٠٠٩ في حين أن وكالة الطاقة الدولية كانت تتوقع زيادة ٨٢٥٠٠ برميل يوميا في عام ٢٠٢٠[1].

دخول وباء كورونا مختلف دول العالم دون استثناء قلب بوصلة الأسواق وأصبح الشغل الشاغل للأفراد والمجتمعات والحكومات... أقفل المصانع وشل حركة النقل الجوي وخلق بلبلة سياسية زاد من حدتها حدوث "ركود" اقتصادي عالمي.

هذه الهزات انهارت معها اسعار البترول إلى ما دون دولار واحد في الولايات المتحدة الأمريكية عشية يوم ٢٠ أبريل ٢٠٢٠، ولم ينفع معها الاتفاق الذي ابرم بين أوبك وشركائها لخفض الانتاج بعشرة ملايين برميل يوميا، لأن تدابير الاغلاق الشامل التي فرضت والقيود على السفر أجبرت مليارات الناس حول العالم على التزام منازلهم.

إمدادات كثيرة من الشرق الأوسط بدون مشترين، لا أحد يرد تسلم النفط مع امتلاء منشآت التخزين، فهل نحن أمام انتكاسة ستهوي بالاقتصاد العالمي إلى ما لا يعرف مداه؟

الأيام والأشهر الموالية هي الكفيلة بالإجابة على هذا السؤال وغيره من الأسئلة المحيرة للمتتبعين، الكل ينتظر جلاء غبار العاصفة الهوجاء التي ضربت الأسواق الدولية.

العالم لم يشهد مثل هذه التقلبات في أسواق النفط منذ ٣٠ سنة، منذ حرب الخليج عندما قفزت الأسعار إلى ٤٠ دولار للبرميل، وسرعان ما تراجعت إلى ١٦ و٢٨ دولارا، لترتفع من جديد سنة ٢٠١٥ إلى ٧٠ دولار، نتيجة اعصار كاترينا الذي دمر جزءا كبيرا من المنشآت البترولية في خليج المكسيك، ليرتفع بعده النفط إلى ١٤٧ دولار للبرميل في ١١ يوليو ٢٠٠٨ لكن الأزمة المالية والاقتصادية التي بدأت ٢٠٠٧ أدت إلى تراجع الأسعار بنسبة ٦٠ في المائة لتصل إلى ٣٢ دولار في نهاية ٢٠٠٨، ليقفز بعدها إلى ١٢٧ دولار في مارس

[1] -Global EnergyStational Yearbook.2019.

٢٠١١ (بسبب الربيع العربي)ليستمر انهيار الأسعار ما بين ٢٠١٥ و٢٠١٩ لوجود فائض في الانتاج وتباطؤ الاقتصاد العالمي والمنافسة بين المصدرين.

فيروس كورونا والانهيار الكبير في اسعار النفط، لها تداعيات كبيرة على اقتصاديات الدول المتقدمة والمصدرة للنفط وسبق أن اثرت التراجعات الكبيرة في العائدات بالعملات الأجنبية في موازين المالية، وسوف تعيق قدرة معظم الحكومات على الاستجابة للإجراءات المالية اللازمة للتخفيف من آثار الجائحة المعطلة للنشاط الاقتصادي المحلي.

انخفاض الاحتياطات من العملات الأجنبية بالنسبة للبلدان المصدرة للنفط في ظل تفشي الوباء بمعدلات عالية ولمدة طويلة، ستؤدي إلى افتقار اقتصادات افريقية إلى الاحتياطات والوسائل الكافية نتيجة الضغوطات على الواردات والصادرات، ولاحتمال إعادة توجيه المانحين تمويلهم إلى قضايا أخرى، بينما سيراجع المستثمرين الأجانب مغامراتهم الاستثمارية في هذه الدول نتيجة تراجع التمويل الحكومي المحلي في القطاعات المستهدفة.

انهيار الأسعار العالمية ووباء كورونا، والركود الاقتصادي العالمي، يطرح أكثر من علامة استفهام حول إمكانية استمرار المنتوجات النفطية بالوثيرة المعتادة والطبيعية خصوصا في الولايات المتحدة.

وما يمكن قوله أن الرابح الأكبر لانهيار اسعار البترول هو الدول المستوردة ولو إلى حين، بينما الخاسر الأكبر هي الدول المصدرة خصوصا الدول النامية التي تشكل صادرات الطاقة فيها أزيد من ٩٠ في المائة، مما يعني هبوطا حادا في مداخيل هذه الدول، وما يتبعه من تداعيات سياسية واقتصادية واجتماعية، خصوصا في ظل التطورات الغير متوقعة لوباء كورونا، وكذا الأوضاع السياسية للدول المنتجة والمصدرة كإيران وليبيا وفنزويلا...

الأبناك وفيروس كورونا

أكد البنك الدولي في دراسة أعدها أن انتشار الأوبئة والأمراض يكلف الاقتصاد العالمي نحو ٥٧٠ مليار دولار سنويا، أو ما يوازي نحو ٠.٧ في المائة من حجم الناتج الاجمالي العالمي، ولكن يبقى الأثر الاقتصادي لفيروس كورونا الجديد رهنا بتطورات جهود منع انتشاره، والتي تتخذها مختلف دول العالم بشكل متسارع.

لذلك تحركت البنوك المركزية في انحاء العالم لدعم أسواق النقد بعد أن أوقد انهيار أسعار الأسهم شرارة التدافع على السيولة، هما يضر بالعديد من العملات ويهدد بزيادة تكاليف الاقتراض قصير الأجل، ففي الصين التي تحملت معظم التداعيات الاقتصادية

لفيروس كورونا خلال الأشهر الأولى من ٢٠٢٠ خفضت السلطات نسبة الاحتياطي الإلزامي للبنوك للمرة الثانية هذا العام، أعقب ذلك قيام مجلس الاحتياطي الاتحادي الأمريكي بالكشف عن شراء سندات خزانة بقيمة ٣٧ مليار دولار، في تسريع لإجراءات تحسين السيولة بالسوق، وفي غضون ذلك تعرضت كريستين لاجارد رئيسة البنك المركزي الأوربي لانتقادات بعد أن أعلن البنك عن إجراءات متواضعة نسبيا في الوقت الذي كان مجلس الاحتياطي يضخ فيه نصف تريليون دولار في النظام المصرفي الأمريكي.

أما البنك المركزي الصيني فقد خفض نسبة الاحتياطي الالزامي للبنوك بين ٥٠ و١٠٠ نقطة أساس، بما يتيح ٥٥٠ مليار يوان (٧٩ مليار دولار) لتدعيم الاقتصاد، وانضم بنك النرويج المركزي إلى قائمة متنامية من السلطات النقدية التي تقلص تكاليف الاقتراض في الأيام الأخيرة بخفض غير متوقع بلغ نصف نقطة على سعر فائدته الرئيسي.

كما بدأت بعض الشركات اكتناز السيولة والسحب من خطوط الائتمان، في مسعى للموازنة بين الحاجة لسداد الأجور والنفقات العامة في وقت تتأثر فيه ايراداتها بالتراجع في النشاط اليومي.

كما أعلنت مجموعة البنك الدولي مع بداية شهر مارس ٣ مارس ٢٠٢٠، عن عرضة تمويل أولية للدول المتضررة بلغت قيمتها ١٢ مليار دولار، للتغلب على الآثار الصحية والاقتصادية لفيروس كورونا.[١]

إضافة إلى تأهب المنظمات والمؤسسات الدولية المالية لدفع حزمة أموال تحفيزية لاقتصادات دول متضررة من فيروس كورونا، فقد دفع صندوق النقد الدولي ب ٥٠ مليار دولار كحزمة مالية لمواجهة أزمة كورونا، وقررت الولايات المتحدة الأمريكية دفع حزمة تمويل قدرها ٥٠٠ مليار دولار، والصين تضخ أكثر من ١٧٣ مليار دولار، فقد قال مسؤول في لجنة تنظيم البنوك والتأمين الصينية إن الصين ستشجع البنوك على تقديم المزيد من التمويل التجاري والقروض الاستهلاكية في محاولة لمساعدة ثاني أكبر اقتصاد في العالم على التعافي من تأثير تفشي فيروس كورونا، وقد أقر البنك المركزي الصيني بالفعل إعادة اقتراض منخفض التكلفة بقيمة ١٨٤ مليار يوان (٢٦ مليار دولار) يهدف دعم الشركات، بما في ذلك تلك التي تصنع المعدات اللازمة للسيطرة على وباء فيروس كورونا.

وحذر رئيس مجموعة اليورو (يوروغروب) ماريو سينتينو أن الاقتصاد الأوربي بات كأنه في حالة حرب جراء تفشي كورونا المستجد، مشيرا إلى أن المعركة لا تزال طويلة، خصوصا أمام تراجع بورصات باريس

[١] - البنك الدولي، بيان صحفي رقم ٢٠٢٠/٢٦/ EXC.

وفرانكفورت ولندن ومدريد وميلانو بنسبة تفوق ١٠ في المائة.

بالمقابل ارتفع الدولار في الوقت الذي تدافع فيه المستثمرون على أكثر عملات العالم سيولة في ظل تنامي حالة الذعر حيال فيروس كورونا، بينما تكبد اليورو خسائر بعد إحجام البنك المركزي الأوربي عن خفض أسعار الفائدة مما تسبب في خيبة أمل وتمسك الدولار بمكاسب مقابل معظم العملات بعد أن كشفت معاملات متبادلة أن المستثمرون يواجهون نقصا في الدولار مع تراجع أسواق الأسهم بفعل مخاوف بشأن تأثر النمو العالمي بالفيروس.

غير أن البنوك المركزية لا يمكن لها أن تحل الأزمة لوحدها، بل يجب أن تكون هناك حاجة إلى سلسلة من الاستجابات السياسية والاصلاحات المؤسساتية لمنع الفزع الصحي في أسواق المواد الغذائية، وتحولها إلى انهيار الاقتصاد العالمي. ومن أجل تدارك هذه المخاوف، فإنه يجب على الحكومات أن تنفق في هذه المرحلة للحيلولة، دون وقوع انهيار قد يحدث أضرارا أكبر من تلك المتوقعة أن تحدث خلال هذا العام.

إلى جانب الأبناك تأثر القطاع السياحي وصناعة الترفيه (السينما، والمسارح والأفلام ...) نتيجة اجراءات منع السفر وإغلاق المطارات .. كإجراءات احترازية للحد من انتشار الوباء، فمنظمة السياحة العالمية World Tourism Organisation وطبقا لتقديراتها الأولية، أشارت إلى تراجع السياحة الدولية بشكل غير مسبوق بسبب حظر السفر وتوقف الرحلات الجوية، وهو ما سبب خسائر تقدر بحوالي ٣٠ إلى ٥٠ مليار دولار أمريكي في عوائد السياحة[1].

استنتاجات:

يمكن القول أن كارثة إنسانية واقتصادية وسياسية صعبة حلت بدول العالم نتيجة الانتشار السريع لوباء كورونا ناهيك عن عدم وجود – إلى حد الآن – استراتيجيات اقتصادية واضحة ودقيقة وخطط لتجاوز هذه المعضلة، ففي حالة تفاقمت الأوضاع أكثر، فإن الموت المحتوم سيحصد أعدادا متزايدة من الأبرياء كل دقيقة، وبذلك ترتفع الحصيلة إلى مآت الآلاف وربما ملايين الأرواح، أرقام واحصاءات مرعبة نتيجة تدني مستوى الاستعداد لمواجهة عدو معروف وغير معروف في نفس الوقت.

إضافة إلى أن تفشي كورونا ستنتج عنه تداعيات جيوسياسية ستخلط الأوراق

[1] -World tourism organization Tourism and coronavirus disease «covid-19» march th, 2020. Https://www.unw to.org/Tourism-covid-19-coronavirus.

الدولية، وتعيد النظر في التحالفات المعروفة، خصوصا بين العملاقين الصيني والأمريكي.

كشف هذا الكائن المتناهي الصغر هشاشة النظام العالمي الحالي الذي أنشأته الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية كأداة للتحكم في العالم وتسييره وفقا لمخططاتها بما يكفل تحقيق مصالحها فقط بما في ذلك السيطرة على مقدرات وثروات الشعوب الأخرى، دون الالتفات لأية اعتبارات اخلاقية أو انسانية أو حتى قيم أو مبادئ، كشف الفيروس أيضا زيف ادعاء تلك الدول أنها توظف تلك المنظومة لتحقيق سلامة وأمن البشرية.

كشف الفيروس كذلك ركاكة الحضارة الانسانية المعاصرة وسطحية تقدمها وازدهارها المبهر وحقيقة قدرتها، إذا ما تعلق الأمر بصحة الانسان وسلامته وقدرته على الاستمرار في الحياة، كما كشف فيروس كورونا على أن التقدم والازدهار والرقي الذي حققته الدول الأشد تضررا من هذا الفيروس اليوم، لا قيمة له أمام عجزها وفشلها في حماية صحة وربما حياة مواطنيها.

كشف الفيروس أن هناك دولا ترى أنها تملك ناصية الحضارة وتتسيد الانسانية تقنيا واقتصاديا وتتزعم العالم سياسيا وعسكريا وها هي تقف مشلولة لا حول لها ولا قوة أمام كائن مجهري متناهي الصغر، يصيب ويقتل الآلاف ويصادر حريات أكثر من ملياري إنسان ويعطل الطائرات والقطارات والسفن، ويغلق الأسواق والمدارس والفنادق ... ودور العبادة.

إن الإجراءات الاحترازية المتخذة أبانت عن هلامية فكرة العولمة، وأدت لتوقف عجلتها عن الدوران، وارتفاع الأصوات المناهضة لها مما جعل فكرة العولمة محل تساؤلات واختبار حقيقي يهدد وجودها بالأساس.

إضافة إلى ذلك لم يشهد العالم سابقا قضية عالمية مشتركة تستدعي تعاون كل الدول، حتى زمن الحرب العالمية الثانية لم تشارك كل دول وشعوب العالم في الحرب العالمية الثانية على الرغم من أن تأثيراتها طالت الجميع.

نستنتج كذلك أن كورونا أيقظ دول العالم على النقص في المستلزمات الطبية والصحية، لقد أخذ الفيروس العالم على حين غرة، وفي الوقت الذي لم تكن فيه الدول مستعدة لتوفير المستلزمات لأعداد هائلة من الناس تفوق متطلباتهم ما هو مخزون لديها.

ومن ناحية أخرى، رفع هذا الوباء من أهمية القيم الانسانية التي تركز على العمل الجماعي والتعاون المتبادل وعلى تقدير قيمة الانسان والمحافظة على حياته، بقدر الإمكان ووقايته من الأمراض السارية والمفاجئة.

وفي الأخير نحن مقبلون على عالم جديد يحمل اسم عالم ما بعد كورونا، خصوصا في الميدانين السياسي والاقتصادي، فالنظام العالمي الذي يتهدده فيروس كورونا بعواقب اخطر بكثير من عواقب الأزمة المالية العالمية ٢٠٠٨/٢٠٠٩، حسب تقديرات أكثر من جهة بينها صندوق النقد الدولي، لن يستمر بدعائمه الحالية القائمة على حرية نسبية للتجارة وعلى الهيمنة الأمريكية والأوربية، التي قسمت العالم إلى قسمين، أحدهما غني متخم والآخر فقير شبه معدم، فمعظم الاقتصادات العالمية مقبلة على هزات قاسية تتبعها اجتماعية غير مسبوقة، خصوصا المرتبطة بالدولار الأمريكي، ومن أسباب ذلك أن تخصيص تريليون دولار من قبل إدارة ترامب ونحو ثلاثة تريليونات من قبل دول صناعية أخرى لمواجهة كورونا، يعني طباعة دولارات ويورو وعملات صعبة أخرى بكميات ضخمة وعرضها في السوق، دون تغطية انتاجية وسلعية كافية، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى التضخم وارتفاع كبير في اسعار السلع الاستهلاكية التي تستوردها بعض دول العالم.

وباء الطاعون

طبيعته، أنواعه، عدواه،

دوراته وسلّم حدّته

أ. د/ فلة موساوي- القشاعي

جامعة الجزائر٢

International Forum on Epidemiology

Summary:

Through its long history and over the years, Algeria has lived many diseases, epidemics and natural disasters such as earthquakes, fires and floods. Algeria has been negatively affected on its rural and urban societies for centuries. The Plague epidemic constituted a pandemic that affected the Mediterranean countries on its Northern and Southern banks.

Our intervention focuses on the Plague epidemic through the following issues:

- What are the major characteristics of the Plague disease in Algeria during the 16th, 17th, 18th and the 19th centuries?
- What are its symptoms and types?
- What are the ways of infection and the sources of the pandemic?
- What are the factors controlling its severity, cycles and intensity?
- What are the repercussions of the Plague pandemic on the social and economic structure?

We will try to answer these issues, based on the examination of the exuberant health archives available in the Algerian, Turkish and French archives.

لقد شكل الطاعون أخطر مرض عانت منه كل الفئات الاجتماعية بالجزائر خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد، فكان بمثابة الخطر الذي يتربص السكانَ باستمرار، فقد تكرر ظهوره في شكل حلقات متعاقبة، تسببت في انهيار ديمغرافي وأدت إلى تدهور الوضع الصحي الذي أثر بدوره سلبا على اقتصاديات البلاد، تاركا ندوبا خطيرة في البنية الاجتماعية الجزائرية.

إن الطاعون يعتبر مرضا مزمنا بالجزائر العثمانية، وهذا ما جعله يؤثر على الوضعية الصحية للجزائر ويرتبط بالعوامل الأخرى المؤثرة على الصحة مثل الاضطرابات الجوية والتذبذبات المناخية وفترات الجفاف والفيضانات، إضافة إلى اجتياح الجراد وما ينتج عنه من قحط ومجاعات دورية، وحدوث الزلازل والحرائق وما يترتب عليها من تخريب وتدمير.

كل هذه العوامل التي ارتبطت بمرض الطاعون، سنحاول التطرق إليها من خلال طرح التساؤلات التالية:

1- ما هي خصائص دورة أوبئة الطاعون من حيث تواترها وسلم حدتها أثناء الفترة العثمانية؟

2- ما هي مميزات سرعة انتشار المرض وتوزيعه الجغرافي؟

3- ما مدى علاقة دورة أوبئة الطاعون بالتغيرات المناخية؟

4- ما هي مميزات حدة الطاعون أثناء شهر رمضان؟

5- ما هي طرق ووسائل انتقال عدوى مرض الطاعون؟

1- أنواع الطاعون:

نظرا لصعوبة تحديد أعراضه بدقة، يستحيل علينا تشخيص النوع الذي اجتاح الجزائر خلال العهد العثماني، وإن كان جل الأرشيف والمراجع يشير إلى الطاعون الخراجي أو الدملي (Peste Bubonique) ثمّ إلى الطاعون الرئوي (Peste Pulmonaire ou Pneumonique)، الأمر الذي جعلنا نستنتج أنّ هذان النوعان من الطاعون كانا الأكثر انتشارا في البلاد الجزائرية، كما أثبتت ذلك الوثائق المتعلقة بالوضع الصحي، إذ تعرضت إلى هذا المرض بصفة تكرارية ومستمرة وهذا ما دفعنا إلى التطرق إلى أصناف الطاعون وذلك حتى نتمكن من استدراك خطورة الأوبئة التي عانت منها مختلف الشرائح الاجتماعية للجزائر العثمانية[1].

ومن هذه الأصناف نذكر:

- الطاعون الخراجي أو الدملي: PESTE BUBONIQUE

هو النوع الأكثر انتشارا في الجزائر العثمانية، وسمي بالطاعون الخراجي أو الدملي نظرا لظهور خراج (BUBON) أي دملة أو دبيلة حمراء، متضخمة والتهابية، ترتكز تحت الإبط وفي ثنية الفخذ وفي الرقبة أو وراء الأذن، تتقيح وتنتشر بالجسم، وقد تتمثل أعراض هذا النوع من الطواعين، في تعرض المصاب بصداع شديد، مصحوب بغثيان ثمّ تقيّؤ، بالإضافة إلى آلام المفاصل وإحساس بانزعاج عام يؤدي إلى ارتفاع حرارة الجسم إلى أكثر من أربعين درجة (40.5 °) حيث تتسارع نبضات القلب والتنفس، وتكون مصحوبة برعشة شديدة تؤدي إلى إنهاك قوى المريض الذي يسقط في حالة خمول أو لا وعي، ثمّ ينتفخ الخراج إلى أن تصل إلى حجم بيضة، وباشتداد خطورة المرض، يموت المصاب بعد أربعة أيام بسبب الألم الشديد[1].

وقد تتم العدوى عن طريق جرثومة أو باسيل (BACILLE) "يرسين الوبيه" (YERSINIA PESTIS)، نسبة إلى طبيب معهد Pasteur، الدكتور يرسين (Dr YERSIN) الذي عين وحدد نوع جرثومة خلال وباء هونغ كونغ (Hong-Kong) في شهر جوان من عام 1894، إذ يتم نقل عدواه للإنسان عن طريق القواضم، خاصة الفأر الأسود (Rattus) أو بواسطة البراغيث المتعفنة والمعدية ومنها إكسنوفيلا كيوبيس (Xenopsylla Cheopis) الذي ينقلها أيضا الأرنب أو الجراد (SURMULOT) المعروف في اللاتينية بتسمية RATTUS (NORVEGIUS).

- الطاعون الرئوي: Peste Pulmonaire ou Pneumonique

هو أخطر من الطاعون الخراجي[1]، وتتمثل أعراض هذا المرض في نفث أو تنخمّ لزج، ثمّ دموي أحمر، مصحوب بنوبات السعال المحملة بباسيل الطاعون المرتكزة بالرئتان التي تخنق المصاب الذي ينعكر لونه وترتفع درجات حرارة جسمه إلى واحد وأربعين درجة (41 °)، حيث يموت المصاب به بعد ثلاثة أيام (03)، وفي هذا النوع من الطاعون، تنتقل

---

(1) A.D.D.B.R: Série 200 E. 972: Maladies et rapports de Médecins: Peste: 1717 – 1848.

(1) R. Encyclopédie Microsoft. R. ENCARTA. 97 (C) C.D.ROM. 1993 – 1996- Microsoft Corporation – tous droits Reservés: "Peste".

(1) E. CARNIEL et F. BARANTON, "Le Retour de la peste". In La Recherche. N° 273. Fev. 1995. pp. 180. 181.

العدوى من مصاب إلى غير مصاب عن طريق السعلة المحملة بالجراثيم.

- **الطاعون التعفني:** Peste Septicémique Primaire

تتمثل أعراضه الأساسية في إصابة المريض بحمى شديدة قد تصل إلى (42 °) ويتحول معها لون بشرة المريض إلى البنفسجي، ثم يرتعش وتنتابه نوبات من العطس تعقبها الوفاة بعد يوم واحد لأن الإصابة بهذا النوع الطاعوني تؤدي حتما إلى الموت[2].

انطلاقا من هذه الأصناف من الأوبئة، نحاول تكوين فكرة إجمالية عن طبيعة سلم الأوبئة وحدة دوراتها، من خلال النقاط التالية:

2- خصائص دورة أوبئة الطاعون وسلم حدتها

أولا- في القرن السادس عشر:

لقد تواتر ظهور الطاعون بالجزائر حتى عدت من مراكزه الدائمة وبيئاته المفضلة، فقد استوطن الطاعون البلاد الجزائرية ابتداء من عام 1542[1]، وبعدها تكررت الأوبئة وأصبحت مرضا مستقرا مستوطنا يتكرر ظهوره بطريقة استطرادية، مما يجعل الجزائر بيئة مستوطنة للطاعون (Epidémies endémiques pesteuses). على غرار باقي إيالات الأمبراطورية العثمانية، حسب تعبير الأستاذ بانزاك "La Peste est une Constante de l'Algérie Ottomane"

إن مرض الطاعون في دورته الاستمرارية (Cycle permanent) أصبح من مظاهر البيئة الصحية الجزائرية، فتكرر ظهوره بها باستمرار، وقد كان مرتبطا بحركية الأسطول الجزائري واحتكاكه الدائم بموانئ المشرق التي كانت مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون[1].

لقد تميز القرن السادس عشر في تاريخ الجزائر بكونه فترة تأصل أو تجدر لمرض الطاعون في مناطق عديدة منها مدينة الجزائر وضواحيها وجهات وهران وتلمسان وبعض النواحي من الشرق الجزائري؛ مما يجعلنا نلاحظ شمولية أوبئة الطاعون وانتشارها الجغرافي، فتأثرت به مناطق ظلت سابقا في مأمن منه، مثل القل وجيجل وبجاية.

وقد أصبح الطاعون ظاهرة عامة مابين سنتي 1557 و1575، بعد أن اجتاح مناطق جديدة ظلت سليمة من مرض الطاعون، وقد علق بانزاك على سرعة انتشار وتوسع الطاعون بقوله[2]: "خلال القرن السادس عشر تميزت الأوبئة بتباطئ انتشارها وذلك لصعوبة الانتقال ورداءة طرق المواصلات، التي كانت لا تشجع على التنقل من منطقة إلى أخرى، و هذا ما حال دون انتشار وباء الطاعون بسرعة، وهذا عكس ما وقع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث أصبحت عدوى الطاعون تنتقل بسرعة تقدر بـ 200 إلى 400 كلم سنويا، فإذا ظهر الوباء مثلا بمنطقة ما، فإنه ينتشر بعد سنة في المناطق المجاورة الواقعة على بعد يزيد عن 200 كلم، وقد يستغرق أحيانا أسابيع قليلة لاجتياح منطقة ما تبعا لشدته وللكثافة السكانية في المنطقة التي تتعرض له"[1].

---

(2) Petit Larousse de la Médecine. Librairie Larousse. Paris 1989 "Peste" p. 586.

(1) RAYNAUD, op. cit pp. 2 & 5.

(1) F. HILDESHEIMER, Fléaux et sociétés: p. 85 et suiv.

(2) PANZAC, La peste..., p. 189.

(1) Idem, pp. 190 & suiv.

يمكن تطبيق هذه النظرية على أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني باستقراء المصادر، فقد أشار مارشيكا إلى ظهور وباء الطاعون بالجزائر عام 1552، ونظرا لقلة المواصلات ورداءتها فإنه استغرق وصوله إلى وهران مدة عامين إذ وصلها سنة 1554[٢].

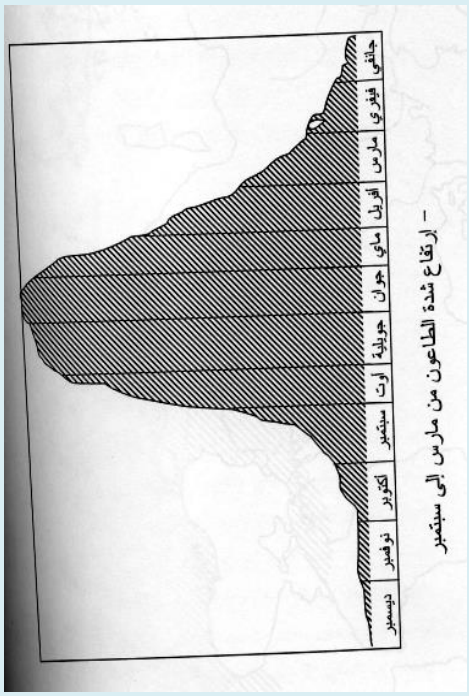

اجتياح مرض الطاعون للإمبراطورية العثمانية أثناء شهر رمضان ١٨١٣.

\ المصدر المعتمد:...Panzac, la peste dans l'empire ottoman

[٢] MARCHIKA, op. cit., p. 26.

وانطلاقا من هذه الملاحظة يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس عشر فترة سادت فيها الأوبئة، وقد استقر الطاعون أثناءها ثمانية عشر سنة بوهران وتلمسان والجزائر، وتميز بطابعه المحلي المستوطن (Endémie locale)، وقد كانت سنة 1572 أكثر السنوات تأثرا بالطاعون، إذ هلك من جرائه ثلث سكان إيالة الجزائر حسب بعض الروايات[1]. وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن أوبئة الطاعون كانت تشكل العامل الأساسي المتسبب في الوفيات.

كانت الجزائر في ذلك تماثل غيرها من إيالات الإمبراطورية العثمانية، حيث كان الطاعون يهلك أعدادا ضخمة من السكان وغالبا ما نجد إشارة له على شواهد القبور كسبب للوفاة[2]. أما خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر فإن الطاعون ظل ظاهرة مؤثرة في المجتمع، إذ لم يتراجع مدة ست سنوات (1575-1582)، رغم المجاعات المتكررة التي اجتاحت الجزائر، فازدادت حدة وباء عام 1582 لتصل أوجها عام 1584 والذي سمي بعام "الطاعون" "لكثرة الموتى فيه"[1].

بعدها عرف الوباء خمودا وتراجعا طيلة ست سنوات (1584-1590)، رغم الجفاف والمجاعات التي صاحبته، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن العلاقة بين الطاعون والمجاعة ليست دائما آلية وحتمية[٢]، خاصة إذا بادرت السلطات إلى توفير الحبوب لتفادي القحط وإبعاد المجاعة. وبعد هذه الفترات تراجعت الأوبئة ليعود الطاعون بحدة خلال سنوات 1590-1595، فتسبب في تراجع ديمغرافي لا نستطيع تقدير حجمه لانعدام الأرقام الموثوق بها على أن تعاقب الطاعون لفترات متتالية طيلة القرن السادس عشر يدفعنا إلى القول بأن اجتياح مرض الطاعون كان يخص مدة تصل إلى 18 أو 20 سنة، يعقبها خمود لا يتجاوز ست سنوات، يتزايد فيه السكان وتتحسن أوضاعهم الصحية.

ثانيا- في القرن السابع عشر:

تميزت هذه الفترة بتواتر الطاعون "التكراري"، إذ تعاقبت أوبئة الطاعون باستمرارية مثيرة للدهشة، عانت خلالها إيالة الجزائر من اجتياح المرض أكثر من إيالة "تونس التي تضررت هي الأخرى من الأوبئة بنسبة 26 سنة معدية، بينما كان نصيب المغرب الأقصى من الطاعون فترة لا تتجاوز 12 سنة"[1]. هذا في وقت كانت حصة الجزائر لا تقل عن 70 سنة معدية، انتشرت فيها الأوبئة كما يلي:

- من 1601 إلى 1614: 13 سنة معدية، بلغ فيها الطاعون أوجه عام 1605، حيث كان عدد الأموات يوميا 700 فردا، وكان مصدر الوباء المجاعة والجفاف[2]، وقد سادت خلال هذه الفترة الأوبئة

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني، بحث قدم في المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية، تونس 20-26 جانفي 1984، ونشر بالمجلة التاريخية المغربية، عدد 34-35، 1985، ومجلة الثقافة، عدد 91، 1986.

(2) N. VATIN, Les cimetières musulmans, p. 154.

(1) MARCHIKA, op. cit, p. 35.

(٢) J.N. BIRABEN, Les hommes et la peste, T. 1, p. 149.

(1) S.BOUBAKER, op. cit, p. 313.

(2) N. SAIDOUNI, "Pour une méthodologie d'approche de l'espace rural algérois à l'époque ottomane", in Revue d'études historiques,

الطاعونية الخراجية (Peste bubonique) بالنسبة للجزائر وباقي البلاد المغربية، مما أعطى لها طابع الوباء القاري (Pandémie)، وقد اتصفت هذه الأوبئة بطابعها التكراري وبتقارب فتراتها وشدتها نتيجة للعلاقات الوثيقة بين الجزائر وتركيا التي كانت مصدر هذا الوباء بالنسبة للجزائر وباقي الولايات الأخرى مثل مصر[1].

- من 1614 إلى 1620: فترة خمود الطاعون، وقد دام ذلك ست سنوات.

- من 1620 إلى 1630: فترة عودة الطاعون المعروف "بالحبوبة الكبيرة"، وقد كان يتميز بالحدة والانتشار، فعم الحواضر والأرياف الجزائرية، واستمر عشر سنوات متعاقبة تلتها مجاعة بدأت آثارها المروعة عام 1629.

- من 1634 إلى 1636: حدث وباء قسنطينة[2].

- من 1639 إلى 1649: تتعاقب سلسلة من أوبئة الطاعون متواترة لمدة عشر سنوات في الجزائر و قسنطينة وبسكرة، زاد من حدتها زلزال عام 1639 والمجاعة المروعة التي صاحبته.

- من 1650 إلى 1654: يلاحظ خمود الطاعون خلال أربع سنوات.

- من 1654 إلى 1666، تسجيل عودة الطاعون الدملي الذي دام لمدة ناهزت إثنى عشر سنة وبلغ أوجه عام 1661، فقضى على نحو ثلث سكان مدينة الجزائر وحدها، وقد أطلق عليه السكان اسم "الكنية" أو "الطاعون الكبير"، وعرف في بعض المصادر "بالحبوبة الكبيرة أوالقوية".

- من 1666 إلى 1673: انقطع الوباء واعتبرت البلاد الجزائرية بيئة صحية لمدة سبع سنوات.

- 1673 إلى 1702: عودة أوبئة الطاعون التكرارية بنسبة 29 سنة معدية[1]، أهمها عام "البرورو" سنة 1691، مما يدل على فداحة الخسائر البشرية التي لم نعثر على أرقام تدل عليها.

- من 1702إلى 1717، خمود الطاعون رغم استمرارية ضرباته المفجعة في تونس ومصر وطرابلس[2].

و بالتالي نلاحظ بأن أوبئة الطاعون التي تسلطت على الجزائر أثناء القرن السابع عشر كانت أكثر حدة وأهم من حيث العدد، مقارنة بأوبئة القرن السادس عشر، كما أنها تعممت على مختلف أرياف وحواضر البلاد وكانت متقاربة.

ثالثا- في القرن الثامن عشروبداية القرن التاسع عشر:

لقد تكرر ظهور الأوبئة من مختلف أصناف الطاعون خلال القرن الثامن عشر، وبلغ مجموع

Université d'Alger, Institut d'histoire, n° 8, année 1993-1994, p.

(1) D. PANZAC, "L'Egypte au XIX è siècle", in Colloques internes du C.N.R.S., Aix- en-Provence, 4-7 juin 179, pp.96-97.

(2) F. MOUSSAOUI –EL KECHAI, « Situation sanitaire et démographique du Beylik de Constantine (1771-1837) », in "Les actes du 7è symposium international d'études ottomanes sur la société et l'Etat dans le monde ottoman, publ. Fondation Temimi, Zaghouan, sept. 1998, p. 64.

(1) A. Ch.C.M. Série G. n° 41 (1680-1785): situation sanitaire déplorable.

(2) F. HILDSHEIMER, Le bureau de santé de Marseille sous l'ancien régime,

Fédération historique de Provence, Marseille, 1980, p. 7.

السنوات التي اعتبرت موبوءة 63 سنة في مدينة الجزائر، تتوزع كما يلي:

ظهر الوباء في سنوات 1717-1718-1723-1730-1731-1732 ثم أعقبها خمود دام خمس سنوات (1732 إلى 1737)، بعدها تجدد الوباء لمدة عشرين سنة (1738 إلى 1758) انتشر فيها إلى مناطق بعيدة مثل القالة و عنابة، وقد قدرت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر عام 1740 ما بين 200 و400 وفاة يوميا. بعد ذلك تكرر تراجع الوباء وخموده (1759-1761)، وعودته من جديد (1762-1764)، ثم غيابه مرة أخرى لفترة طويلة ناهزت الأربعة عشر سنة[1] (1764-1778)، فلم تسجل عودة الطاعون إلا عام 1778 ليستمر ست وعشرون سنة[2] (1778-1804)، عاما في جميع الجهات، شديدة الوطأة على السكان، ولم يبتعد خطره إلا لفترة عشر سنوات (1805-1815)، تعقبها فترة (1816-1822) تعاود فيها الأوبئة الطاعونية الظهور لمدة ست سنوات[3]، وقد زاد في حدتها ظهور المجاعات التي تعتبر آثارها الديمغرافية "أخطر من بعض الحروب"[4]، هذا ويعتبر وباء عام 1818 أقسى وباء قاري عرفه إقليم شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد اعتبر كارثة ديمغرافية حقيقية[5].

لقد تميزت السنوات الثلاثين الأولى من القرن التاسع عشر بنسبة أكبر من أوبئة الطاعون، فناهزت سنوات ظهور الطاعون سبعين سنة مقابل ثلاثة وستين أثناء القرن الثامن عشر وأربعين سنة طيلة القرن السادس عشر.

وقد كانت أوبئة القرنين السابع عشر والثامن أكثر حدة وشدة من التي اجتاحت الجزائر أثناء القرن السادس عشر، إذ تشير التقارير العسكرية والمراسلات القنصلية إلى استمرار "الوباء الفتاك" أو "الوباء خطير جدا"[1] لفترات متعاقبة تناهز الواجدة منها 15 إلى 20 سنة تعقبها عادة فترة خمود لا تتجاوز الست سنوات.

أما فيما يخص التوزيع الجغرافي لهذه الأوبئة (الطاعونية)، فقد احتلت المناطق الوسطى من البلاد الجزائرية، وفي مقدمتها مدينة الجزائر، المرتبة الأولى، فكان نصيبها 54%[2] من الأوبئة، في حين أحتل الشرق الجزائري المرتبة الثانية بنسبة 26%، فيما كانت حصة الغرب الجزائري لا تتعدى 15% من أوبئة الطاعون[3].

أما مناطق الجنوب فقد مستها أوبئة الطاعون كما أشرنا إليه أنفا، لكن بنسبة ضئيلة مقارنة بالمناطق الشمالية والساحلية من البلاد، وذلك حسبما يستخلص من المصادر المختلفة.

---

(1) A.Ch.C.M. Série L. III 313, Lettres de J.A. VALLIERE, Consul de France à Alger à la C.R.A. (1764-1773).

(2) A.D.B.R. Série, op. cit., Le fléau règne toujours.

(3) A.D.B.R. Série 200 E., Lettre du Consul DEVAL à l'I.S.M en date du 4 décembre 1816, Retour de la peste à Alger

(4) A. LARCUECHE, Introduction au colloque sur la démographie historique maghrébine, C.E.R.E.S., Prod. Tunis, 1993, pp. 10 & suiv.

(5) MARCHIKA, op. cit., p. 167.

(1) A.D.B.R., Correspondance consulaire à l'I.S.M., Peste violente, peste très grave.

(2) S. BOUBAKER, La peste dans les pays du Maghreb.., op. cit., p. 323.

(3) Idem.

- دورة أوبئة الطاعون ووسائل انتقالها وعلاقتها بالتغييرات المناخية:

يستخلص من تواتر ظهور الأوبئة و تراجعها، أن الحالة الصحية أصبحت مثار اهتمام القناصل والتجار الأجانب خاصة، فكانت مراسلاتهم تصف سنوات تراجع الطاعون بأنها سنوات كانت فيها "الصحة العمومية جيدة"[١]، مع العلم بأن هذا الوصف لا يؤكد خلو البلاد الجزائرية من الطاعون[٢] وإنما يصف حالة خمود المرض الذي يبقى كامنا (Latent)، ليعود بصفة استطرادية (Retour épisodique de la peste)[٣] إلى بعض المناطق التي تعتبر بيئات مفضلة له، ليعاود من جديد الاختفاء أو الخمود مرة أخرى، وهذا ما يطرح لدى الباحث إشكالية حركية الطاعون ومميزات دورته وعلاقتها بالتغييرات المناخية.

من المعلوم أن للتغييرات الفصلية تأثيرا واضحا على الأوبئة الطاعونية، فقد أظهر علماء الجوائح أو الأوبئة (Epidémiologistes) تلك العلاقة المباشرة بين المناخ والطاعون، فغالبا ما يكونان مترابطين، فعلى سبيل المثال نذكر وباء عام 1793 بمدينة الجزائر الذي ظهر في فصل الشتاء، ثم اشتدت حدته خلال فصل الربيع وبلغ أوجه مابين 29 مارس و31 ماي[١]، ثم انخفضت وطأته وتضاءل تأثيره أثناء فصل الصيف (شهري جويلية وأوت)، قبل أن يزول مع حلول فصل الخريف (شهر سبتمبر).

ومما يلاحظ هنا أن رطوبة المناخ بالجزائر كانت أحد العوامل المساعدة على تكاثر البراغيث المعدية، التي تعتبر المتسبب الأساسي في ظهور وانتشار وباء الطاعون، ولهذا يتضاءل أو يخمد عندما تتضاءل الرطوبة[٢]، أي في فصل الصيف.

وكان شهر رمضان الكريم من فترات انتشار مرض الطاعون نظرا لكون الصيام مع سوء التغذية يقلل كثيرا من مناعة الجسم، فتقل مقاومته للمرض الأمر الذي يساعد مرض الطاعون أن يزداد حدة وبتواتر بشكل مخيف خلال فترة الصيام، وهذا ما نلاحظه في الوثائق والسجلات، وعلى سبيل المثال فإن وباء عام 1644 بقسنطينة الذي صادف شهر رمضان بلغ عدد الأموات فيه 300 خلال ثلاثة أيام فقط، لينتشر بعد ذلك إلى مناطق الزيبان بنواحي بسكرة وسيدي عقبة[١]. كما نذكر أيضا للتأكيد على هذه الظاهرة وباء شهري أفريل وماي عام 1760[٢]، ووباء جويلية عام 1818[٣] الذين اقترنا بفترة الصوم لشهر رمضان.

أما طرق ووسائل انتقال عدوى مرض الطاعون، فكما هو معروف أن مهد هذا الوباء البيئات غير الصحية بآسيا الوسطى والعراق وشبه الجزيرة العربية والأناضول ووادي النيل، فمنها انتقلت عدواه إلى إيالة الجزائر وباقي البلدان المطلة على البحر المتوسط الغربي، وقد كانت الأسفار

---

(1) A.D.B.R. Série, op. cit., Bonne santé publique à Alger; Santé parfaite dans le royaume.

(2) Idem, Alger est exempte de peste; Aucun soupçon de peste au Royaume d'Alger

(3) A.Ch.C.M. Série L. III 253, Pestes en Algérie.

(1) BIRABEN, Les hommes..., p. 135.

(2) PANZAC, La peste..., p. 225.

(1) Voyage d'El Ayachi, traduit par Berbrugger, cité par Marchika, in La peste..., p 53.

(2) PANZAC, La peste..., p. 30.

(3) MARCHIKA, op. cit., p. 165.

وخاصة رحلة الحج من أهم وسائل انتشاره، ففيما يخص رحلة الحج نلاحظ أن انتقال الطاعون يتم بفعل التنقل عبر مسلكين بري وبحري[4].

1- المسلك البري "كان خط سير التجار والحجاج العائدين من الأماكن المقدسة بالحجاز عبر القاهرة، تختلط فيه قوافل المغاربة بالقوافل المصرية، حتى مدينة الإسكندرية ومنها يفضل قسم من الحجاج امتطاء السفن والعودة بحرا، أما الباقي منهم، وهم الأغلبية، فكانوا يسايرون ساحل برقة وطرابلس، فيمرون بمنطقة البتنان وناحية التميمي إلى غاية طرابلس بالغرب، وقد تستغرق الرحلة بين الإسكندرية وطرابلس الغرب حوالي شهرين، ومن طرابلس تلتحق قافلة الحجاج والتجار بقابس والقيروان وقد تقصد تونس، قبل أن تتوجه إلى قسنطينة والجزائر وتلمسان وفاس، وغالبا ما كان الحجاج يقضون مدة في بعض المدن كعنابة وبجاية والجزائر والمدية ووهران للقيام بنشاطاتهم الاقتصادية[1]، ومن ثم كانوا ينقلون العدوى إلى هذه المناطق، أو يصابون بالعدوى في حالة وجود الوباء في هذه الجهات؛ هذا و"لم يكن طريق التل التونسي والجزائري، المعبر الوحيد المقصود من طرف هذه القوافل، إذ كان البعض الآخر يسلك طريق الصحراء "مسلك القصور": للذهاب إلى بسكرة و ورقلة و الأغواط أو بعض الواحات[1].

2- المسلك البحري ينطلق من موانئ الشرق، وخاصة إستانبول وأزمير والإسكندرية نحو موانئ طرابلس الغرب وتونس[2] والجزائر والمغرب، وقد كان سببا في انتقال عدوى الطاعون، فكانت مدينة إستانبول باعتبارها العاصمة وأكبر مدينة في الإمبراطورية العثمانية وبحكم موقعها الاستراتيجي، مركز انتشار للطاعون في أقاليم المشرق وبلاد المغرب، فتنتقل عدواه من إستانبول إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة عبر نهر النيل، من مصر غالبا ما تنتقل العدوى إلى أقاليم ليبيا وتونس فالجزائر؛ وهذا ما جعل كل ميناء عثماني، صغيرا كان أم كبيرا، معرضا لخطر الطاعون[3]؛ بسبب السفن التي ترسو به قادمة من إستانبول وأزمير والإسكندرية وعلى متنها ركاب مصابون بالوباء، أو بضائع معدية[1].

إنّ أغلبية أوبئة الطاعون التي تعرضت لها الجزائر في العهد العثماني، كان مصدرها الرئيسي موانئ تركيا ومصر التي كانت مرتبطة بالموانئ الجزائرية، فهي غالبا ما كانت مكلفة بنقل الحجاج أو البضائع أو فرق الجيوش أو الأسرى[2]، ونظرا لسهولة عدوى الطاعون عن طريق البحر المعبر عنه بنوعية العدوى البحرية (Mode de contamination maritime)، فإن الموانئ الجزائري أكثر تعرضا إلى الطاعون من المناطق الداخلية، فمدينة الجزائر كانت مقصد الزوار القادمين أحيانا من مناطق مطعونة، فيقيمون بالخانات المنتشرة بها مدة

---

(4) PANZAC, Les domaines de l'histoire: p. 1073 & suiv.

(1) RAYNAUD, op. cit., p. 2

(1) Idem, p. 2

(2) A.Ch.CM. Série 200 E. 454, Lettre de De Kercy à l'intendant sanitaire de Marseille en date du 8 avril 1785, Peste de Tunis et Alger.

(3) PANZAC, La peste..., p. 150

(١) Idem, pp. 147-148.

(٢) MARCHIKA, op. cit., p. 25. 146.

زيارتهم لها، كما كانت سجون مدينة الجزائر أيضا في غالب الأحيان وسخة وقليلة التهوية، فانتشرت بها الفئران المعدية الناقلة لمرض الطاعون[٣].

لقد شكلت الملاحة في البحر المتوسط، أداة مباشرة لنقل عدوى مرض الطاعون الذي قضى على العديد من ركاب السفن واهلك العديد من سكان تلك المرافئ، ومنها انتقل إلى مختلف الجهات، وهذا ما تؤكده المراسلات القنصلية وتقارير أطباء السفن[١]. ومن الموانئ التي تعتبر مراكز لانتشار الطاعون، نذكر البيئات التقليدية للطاعون بالمشرق، والتي هي حسب بانزاك خمسة موانئ قد تسببت بصفة تكرارية في انعداء السفن بنسبة 70% أثناء القرن الثامن عشر، وهي موانئ استانبول والإسكندرية وأزمير في المشرق، وميناء تونس بالمغرب[٢].

ويمكن اعتبار كل التجمعات ووسائل الاتصال عوامل مساعدة على انتشار مرض الطاعون في الجزائر في العهد العثماني، وأهمها:

1- موسم الحج، حيث يجتمع عدد كبير من المسلمين مما يساعد على انتقال العدوى من البيئات الموبوءة في الشرف الأوسط إلى الجزائر؛ وغالبا ما تتسبب الفئران التي تعيش في السفن في نقل عدوى الطاعون الذي يعرف لهذا السبب بالطاعون المينائي (Peste portuaire)[١]

2- القوافل التجارية، وهي تشكل وسيلة مساعدة على نقل العدوى، خاصة عندما كانت تمر بمنطقة مصابة بالطاعون، فيلتحق بها أشخاص مطعونين، فينقلون العدوى للمسافرين الآخرين ولسكان المحطات المختلفة التي تتوقف بها القافلة[٢]. فعلى سبيل المثال تسببت القافلة المتوجهة نحو سيدي عقبة في انتشار وباء 21 مارس 1663[٣].

3- الأسواق، التي قد يلتقي فيها تجار مطعونون بغيرهم، فينشرون الطاعون عن طريق تبادل البضائع، بالإضافة إلى احتكاكهم بمجموعات سكانية سليمة من المرض تتردد على السوق للتزود بحاجياتها، فينتشر منها المرض في الريف والمدن ويتسارع انتشار العدوى عادة عندما يفر المصابون إلى مواطنهم للاحتماء بها، وهذا ما كان سببا في وباء مدينة البليدة في شهر ديسمبر من عام 1819[١]. ولعل هذا ما جعل الأوبئة "الطاعونية" في الجزائر العثمانية يغلب عليها الطابع الريفي، حيث كانت العدوى في الغالب تنقل من القرى إلى الحواضر.

4- الفرق العسكرية، وكانت تشكل هي الأخرى عاملا مساعدا على انتقال عدوى مرض الطاعون من منطقة مصابة إلى ناحية خالية من الوباء، وذلك

---

[٣] PANZAC, La peste...,. 118.

الجدير بالذكر هو "الدور الأساسي الذي لعبه الأوربيون في الملاحة البحرية والعلاقات بين أقاليم الإمبراطورية العثمانية وأوربا، والذي كرس الهيمنة= =الأوربية والتفوق التقني الحقيقي في الملاحة وفي التبادل التجاري، فقد كانوا الوسطاء الوحيدين بين مختلف موانئ الإمبراطورية العثمانية وأوربا، لتكفلهم بنقل البضائع والتجار والحجاج وجيوش السلطان العثماني والسفراء بين موانئ الإمبراطورية العثمانية".

[١] AD.B.R., Correspondance consulaire à l'I.S.M., Ravages de la peste.

[٢] PANZAC, La peste...,. 146.

[١] Idem, p. 93.

[٢] F. ARNOULET, Epidémiologie p. 17 & suiv.

[٣] Voyage d'El Ayachi, op. cit., cité par Marchika, in La peste..., p.

[١] MARCHIKA, op. cit.., p. 168.

بسبب انتقال فرق الجند أثناء الحملات العسكرية[2] لإخضاع السكان أو استخلاص الضرائب، والأمثلة كثيرة في هذا الشأن[3]، لعل أهمها ذلك الطاعون الجارف الذي نشرته فرق المحلة في جنوب بايليك قسنطينة سنة 1786.

5- المراسلات، وهي عامل متسبب في نقل عدوى الطاعون لم يحظ باهتمام الباحثين، و إن كان الأستاذ بانزاك استطاع أن يتلمس أهميته مؤكدا أن "الرسائل الإدارية، السياسية وحتى الدبلوماسية، وهي وسائل ضرورية لتسيير شؤون مختلف البلدان، قد تتسبب في نشر الطاعون من منطقة إلى أخرى أثناء انتشار الأوبئة، و ذلك عبر كل إيالات الإمبراطورية العثمانية[1]. فغالبا ما يتسبب لمس الرسائل المغلفة بالكتان أو القماش الأطلس لأنها ناقل جيد للعدوى[2]. كما كانت العطور التي ترش بها الرسائل والأغلفة التي تلف بها سببا أساسيا في العدوى في بعض الأحيان[3].

6- الملابس والغطاء، من الأدوات الناقلة للطاعون، فغالبا ما تنتقل العدوى عن طريق استخدام الألبسة أو الأغطية أو الأفرشة أو الزرابي، ويكون سبب العدوى في الغالب تلك البراغيث المعدية التي تنتشر بها وتختبئ في نسيجها. وفي هذا السياق يشير بانزاك (PANZAC) إلى الدور الخطير الذي ظلت تلعبه البراغيث في نقل العدوى التي أشار إلى أنها في الغالب تتم عند استعمال لباس الموتى بالطاعون دون تطهيره، فتبقى البراغيث في هذه الحالة حية في الملابس مدة أسابيع أو شهورا، وقد زادت أهمية هذا العامل فعل حاجة السكان إلى استعمال لباس الهلكى لعجزهم عن شراء الجديد منها في معظم الأحيان[1].

7- وقد شكلت الجلود المصدرة من مدينة الجزائر إلى ميناء فالنسية بإسبانيا عاملا آخر في نقل عدوى الطاعون عن طريق الحذاءين، ومنهم إلى بعض المناطق الإسبانية[2]. كما كانت كميات الصوف الموجهة من عنابة إلى فرنسا ضمن المواد الحاملة لعدوى الطاعون، فقد كانت سببا في انتشار وباء شهر ماي من عام 1786[3].

هذه إذن مختلف طرق ووسائل انتقال عدوى الطاعون الذي اجتاح الجزائر خلال العهد العثماني، والتي حاولنا قدر المستطاع الإلمام ببعض جوانبها، نظرا لتأثير ذلك على أوضاع الجزائر.

جدول كرونولوجي لأوبئة الطاعون بالجزائر

المصدر المعتمد : BIRABEN, Les Hommes et la peste...

T1 . pp. 430 à 439

السنة	المنطقة
1348-	تلمسان
1363-	تلمسان

(2) S. SPEZIALE, La longue trêve, pp. 98 & suiv.

(3) ف. موساوي. القشاعي ، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1837)، أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1991.

(1) PANZAC, La peste.., p. 184.

(2) MARCHIKA, op. cit., p.88.

(3) AD.B.R. Série 200 E. 454 (1723-1848), Correspondance consulaire à l'I.S.M.

(1) PANZAC, La peste..., p. 184.

(2) MARCHIKA, op. cit., p. 46.

(3) Idem, p. 119.

هذا وقد شكلت التجارة بالثياب الرثة التي كان يمارسها اليهود سببا إضافيا في نقل العدوى، لأن هذه الثياب التي كانوا يبيعونها غالبا ما كانت لأشخاص توفوا بسبب الطاعون.

1365-م/767هـ	تلمسان
1500-	تلمسان
1510-	بجاية
1535 – 1530-	مدينة الجزائر
1544 – 1542-	وهران
1556 – 1552-	الجزائر – وهران
1561 – 1557-	الجزائر – وهران – تلمسان
1567 – 1563-	الجزائر
1572 – 1571-	الجزائر
1575 – 1573-	الجزائر – وهران – تلمسان
1584 – 1582-	قسنطينة - الجزائر
1592 – 1590-	الجزائر
1614 – 1601-	الجزائر
1630 – 1620-	الجزائر
1634-	قسنطينة
1643 – 1639-	الجزائر
1644-	قسنطينة
1647-	الجزائر
1649-	بسكرة
1654-	الجزائر – وهران – بجاية – قسنطينة
1660 –	الجزائر – وهران –

1659-	بجاية – قسنطينة
1661-	بسكرة
1662-	الجزائر – بسكرة
1666 – 1663-	الجزائر – وهران – بجاية – قسنطينة
1676 – 1673-	الجزائر – وهران – بجاية – قسنطينة
1676 – 1675-	الجزائر – وهران – بجاية – قسنطينة
1677-	وهران
1678-	الجزائر – وهران – بجاية – قسنطينة
1679-	وهران
1680-	الجزائر
1682-	الجزائر
1683-	الجزائر
1686-	الجزائر
1697 – 1690-	الجزائر
1702 – 1700-	الجزائر
1717-	الجزائر
1723-	الجزائر
1732 – 1730-	الجزائر
1738-	تلمسان
1740-	الجزائر – قسنطينة – مستغانم – تلمسان - وهران
1741-	الجزائر
1742-	الجزائر – تلمسان – قسنطينة
1743-	الجزائر
1745-	ايالة الجزائر
1751 –	الجزائر

1749-	
1752-	الجزائر - قسنطينة
1758 – 1753-	الجزائر
1765 – 1762-	الجزائر
1779 – 1778-	بايليك وهران
1780-	الجزائر
1783-	الجزائر – بايليك قسنطينة
1784-	عنابة – القالة – قسنطينة
1786 – 1785-	عنابة – الجزائر – بجاية – قسنطينة
1787-	عنابة – قسنطينة – معسكر – بجاية - الجزائر
1788-	معسكر - الجزائر
1789-	معسكر
1790-	تلمسان
1791-	تلمسان - الجزائر
1792-	الجزائر
1793-	الجزائر – البليدة – قسنطينة – معسكر
1794-	الجزائر – قسنطينة - وهران
1795-	الجزائر
1796-	الجزائر – دلس – عنابة – قسنطينة – وهران
1798-	الجزائر – تلمسان
1799-	الجزائر – وهران- الزيبان – قسنطينة – معسكر – تلمسان

1804 – 1802-	وهران
1816-	عنابة – الجزائر
1817-	الجزائر – قسنطينة – وهران – البليدة – القليعة – بجاية - جيجل
1818-	الجزائر – وهران – عنابة – قسنطينة – بوسعادة – عمورة – أولاد جلال – الطلقا - جلفاء
1819-	الجزائر – عنابة – قسنطينة – وهران – بسكرة
1820-	الجزائر – وهران – قسنطينة
1821-	عنابة – وهران - تلمسان
1822-	الجزائر
1835-	قسنطينة
1853 – 1852-	دائرة مليانة

II- الأمراض الأخرى: أنواعها، طبيعتها، عدوانها

أما الأمراض الأخرى التي عانى منها سكان الجزائر، خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي فهي متعددة، البعض منها كانت ناتجة عن سوء التغذية والبؤس، والبعض الأخرى كانت مرتبطة بعدم الالتزام بالقواعد الصحية، فقد تسلطت أمراض على الأطفال، كما مست أمراض أخرى المسنين.

ومن أخطر تلك الأمراض، الحمى بمختلف أنواعها، فقد أصيب بها السكان من مختلف الأعمار ومن أنواع هذه الحمى المترددة والمتواترة (Fièvre rémittentes et récurrentes)، حمى الربيع المعروفة بالحمى الصفراء (Fièvre Jaune)، وحمى الصيف، وهي أخطر، حيث تسببت في نسبة هامة من الوفيات، وقد تسلطت بصفة حادة ومتكررة على المسنين[1].

لقد ارتبطت حمى المستنقعات المعروفة بالملاريا (MALARIA) أو (PALUDISME) بالمناطق التي تراكمت فيها المياه الملوثة، مثل سهل متيجة الذي تسلط على سكانه هذا النوع من الحمى باستمرار، إلى درجة أنهم تأقلموا مع هذا المرض[1]؛ الأمر الذي جعل حمدان خوجة يتخوف من زيارته لأملاكه بمتيجة فقد ذكر أنّه كان يزور هذا السهل، كل سنة أثناء الربيع، حيث قال: «وأخشى الحمى إلى درجة أنني أخذ معي ماء كولونيا (Eau de cologne) للوقاية من الهواء المضر للصحة، كما أنني أستحضر كمية هامة من الماء للشرب، هذا السهل مستنقع خلال الشتاء، مما يؤدي إلى اجتياح مرض الحمى خلال الصيف والخريف، بطريقة مستمرة، الأمر الذي يجعل الوقاية صعبة...»[2]، وقد وصف العالم النباتي ديفونتان (DESFONTAINE)، المتيجة عام 1784 بكونها «مملوءة بهواء الأمراض المعدية وتتخللها في كل الجهات المياه الراكدة مشكلة مستنقعات غير صحية»[3]. إلاّ أن الرحل أو البدو كانوا يبتعدون عن المياه الراكدة المتسببة في الحمى بمختلف أنواعها والتي كانوا يطلقون عليها تسمية "الحمى تشم".[4]

وقد تسببت الحمى في الإسهال الذي أضعف الجسم الذي كان قليل المناعة نتيجة الجفاف مما أدى إلى هلاك نسبة هامة من المصابين بهذا المرض الذي كان موجودا بالإيالة منذ عام 1664 حيث تسبب في خسائر فادحة وسط فرق "Duc de Beaufort"، وبقيت أمراض الحمى باختلاف أنواعها تتسبب في خسائر بشرية معتبرة، أثناء قصف مدينة الجزائر من طرف (DUQUESNE) عام 1683 [1].

وتجدر الإشارة إلى صعوبة تشخيص الأمراض في تلك الفترة، الأمر الذي يجعلنا ندرج ضمن حمى الخريف مرض التيفوئيد أو الحمى التيفية (TYPHOÏDE) الذي كان متسلطا على الشرائح الاجتماعية البسيطة التي كانت تعاني من سوء التغذية خاصة أثناء فترات القحط والمجاعات حيث كان يرتكز غذاءها على الأعشاب مثل التلرودة واليكوكة التي تؤدي إلى انتفاخ الحلقوم وتورم القناة

---

(1) MARCHIKA, op. cit. p. 156.

(١) H. KHODJA, Le Miroir. p. 74.

- «Augmentation depuis 20 ans des Epidémies de fièvre jaune». In "Les cahiers de la santé". N° 4. Dec. 1998. p. 12.

(٢) Idem, p. 76.

(3) سبنسر، نفس المرجع 1980، ص. 115.

(٤) FERAUD, "Les BEN-DJELLAB.....". In R.A. N° 24, Année 1880.

(1) LAMARQUE, op.cit. p.p. 45. 46.

الهضمية[٢] 6 وخضر غير ناضجة بالإضافة إلى ماء غير صالح للشرب فأمراض الحمى كانت، من جهة أخرى، تتسلط على الشرائح الاجتماعية التي كانت لم تعان من سوء التغذية، وأحسن دليل على ذلك الحكام الذين غالبا ما هلكوا أثر هذه الأمراض، وندرج في هذا السياق خير الدين بربروس الذي توفي عام 1548 عن عمر يناهز 63 سنة، كما هلك حسن أغا أثر حمى شديدة في سبتمبر 1543 عن عمر لا يتجاوز 56 عام[١]. كما توفي من جراء الحمى الشديدة المصحوبة بإسهال، أحمد باشا عام 1562[٢].

وما يجدر ملاحظته هو أن وثائق الأرشيف تشير إلى أن مصدر الحمى الصفراء الآتية من برشلونة (BARCELONE) وهافانا (HAVANE)[٣]. كما

(2) A. MERAD BOUDIA. La Formation Sociale Algérienne précoloniale: Essai d'Analyse Théorique. O.P.U. Alger 1981. p. 144.

(1) HAEDO, op. cit. p. 68.

- Recueil de pièces relatives à la Fièvre Jaune d'Amérique en 1799.

- Rapport sur la transmission de la Fièvre Jaune présenté à la Société académique de Médecine de Marseille. Mars 1845.

- A.D.B.R: Série 200 E. 976: Fièvre Jaune. 1758 – 1870.

- Epidémies de Fièvre Jaune en Algérie. (A.D.B.R.).

(2) Idem, p. 125.

(3) – Série 200 E. 976: Fièvre Jaune: (1758 – 1870).

- Série 200 E. 977: Recueil de pièces relatives à la fièvre jaune d'Amérique de 1799. pp. 183 – 185.

- Série 200 E. 977: Pièces imprimées relatives aux maladies contagieuses (1797 – 1848).

شكلت منطقة قرطاجنة. (CARTHAGENE) منبعا لوباء الحمى الصفراء، وذلك بتاريخ 12 أكتوبر 1810[١].

وبالتالي، كانت أمراض الحمى منتشرة في إيالة الجزائر[٢] وذلك خلال كل الفترات وخاصة عام 1765[٣]، وقد كانت مصحوبة بصداع والتهاب المعدة والأمعاء (GASTRO - ENTERITE)، واشتدت وطأة هذه الأمراض حتى شكلت أوبئة مزمنة خطيرة مثل التي اجتاحت إيالة الجزائر بتاريخ 12 أكتوبر 1810، وقد تسربت عن طريق سفينة آتية من قرطاجنة حيث كانت الحمى الصفراء تضرب بشدة[٤]، وقد انتقل العدوى إلى الجزائر عن طريق اسبانيا التي تضررت كثيرا من أوبئة الحمى الصفراء خلال عام 1730م.

وقد عانى بعض سكان ايالة الجزائر، باختلاف أجناسهم ومستواهم المعاشي، من أمراض أخرى متمثلة في الزهري (Petite verole) عام 1792[١]، وقد ظهر هذا المرض بشدة مرة أخرى خلال سنة 1817[٢]؛ حيث كان الأسرى من أهم ناقلي العدوى[٣].

(1) Correspondance des Intendants de la santé de Marseille: Forte Epidémie de Fièvre Jaune venue de carthagène.

(2) J. CAÏLLAT, "Le voyage d'Alphonse Daudet en Algérie". In R.A. N° 64. Année 1923. O.P.U. 1986. P. 28.

(3) FERAUD "Les Ben- Djellab, Sultans de Tougourt. Notes Historiques sur la province de Constantine". In R.A. N° 24. Année 1880. p. p. 106.

(4) A .D.B.R: Série 200 E. 454. Lettre du 12 Oct. 1810: Forte Epidémie de Fièvre Jaune.

(1) MARCHIKA, op. cit. p. 143.

(2) A.D.B.R, Lettre en date de Fev. 1817.

(3) VALENSI, Calamités....p. 1554.

كما أشرنا إليه آنفا، لقد عانى الأطفال من أمراض متعددة كالجدري (Variole çiçek) [٤] الذي تكررت أوبئته بحدة خاصة خلال عام 1817[٥]، بالإضافة إلى مرض الشهاق (COQUELUCHE) الذي كان يصيب الأطفال الصغار في فصل الربيع.

وقد عانى سكان الجزائر العثمانية من الالتهابات الرئوية (PNEUMONIE) السارية، حيث انتشرت أوبئة البرسام الناشف أو الجناب (PLEURITE – PLEURESIE) التي تسببت في وفيات متعددة.

أما أمراض العمى الرمد والتهاب العين (OPHTALMIES PURULENTES) فكانت راجعة للتغيرات المناخية وتأثيرها على تركيب العين فكانت تتسلط على الكبار والصغار نتيجة عدم الالتزام بالقواعد الصحية البسيطة وجهل وسائل الوقاية والمعالجة التي كانت غير متوفرة.

وتجدر الإشارة إلى "عدم وجود مرض المفاصل (RHUMATISME) وداء النقرس (LA GOUTTE). بمدينة الجزائر" حسب حمدان خوجة الذي ينفي تماما هذين الدائبين من البيئة الصحية الجزائرية[١].

أما الزكام (RHUME et GRIPPE)، فغالبا ما كانت ضرباته تتسبب في هلاك نسبة هامة من المصابين به، مثلما حدث في شهر أفريل من عام 1743 [٢].

ونختم الحديث عن الأمراض الموجودة في الجزائر أثناء العهد العثماني بالتعرض إلى داء الهواء الأصفر، المعروف بالتيفوس (TYPHUS) الذي «شكل مرضا خطيرا جدا، أرتبط بسنوات المجاعة، البؤس واجتياح الجراد، وجد هذا الداء بالمنطقة، وذلك منذ أقدم العصور، إذ وصف من طرف أصحاب الحوليات والمخطوطات بالحمى القراصية (Fièvre pourprée)، تتكرر، تقريبا، كل 20 سنة»[١].

أما التيفوس الطفحي أو النمشي المعروف بالمصطلح اللاتيني بـ(TYPHUS EXANTHEMATIQUE) الذي أصاب الفرق العسكرية الأسبانية المتواجدة بمدينة بجاية[٢]، وتتمثل أعراضه في ارتفاع حرارة الجسم إلى 40 ° التي يصحبها صداع شديد وطفح جلدي كما تضرر السكان خلال شهر أوت من عام 1826 [٣]، وغالبا ما كان يرتبط هذا المرض، بالإضافة إلى سوء التغذية، بالأوساخ وعدم توفر أبسط قواعد النظافة، إذ تشكل قملة الجسم، ناقلا للداء والعدوى، التي اجتاحت المحلات المكلفة باستخلاص الضرائب، بالإضافة إلى الأسرى والفرق العسكرية

---

(4) Précis Historique de l'Epidémie qui règne à Marseille et vue nouvelle sur la

Vaccine par L.J.M. ROBERT: Professeur d'hygiène navale à l'Ecole de Médecine de Marseille; Marseille 1828.

- A. CH. C.M. Série G. 41. (Année 1680 – 1785) Assistance Esclaves Français àAlger.

(5) MARCHIKA, op. cit. p. 156.

(1) KHODJA, op. cit. p. 92.

(2) A.D.B.R: Série 200 e. 454: Lettre de de Joinville en date du 6 Avril 1743: Rhume Meurtrier à Alger.

(3) L. RAYNAUD, H. SOULIE, P. PICARD, "Hygiène et Pathologie Nord-

Africaines". In Assistance Médicale. T. 1 p. 415: Cité par Lamarque, In:

"Recherches...." P. 46.

(2) LAMARQUE, op. cit. p. 46.

(3) A.D.B.R: Série 200 E. 454: Lettre du 23 Août 1826.

المرتكزة بالثكنات، مما يفسر لنا، أنّ أكبر، أوبئة التيفوس كانت تحدث أثناء الحروب.

أما النوع الثاني، فهو التيفوس المعروف بـ (TYPHUS MURIN)، حيث تشكل برغوثة الفأر، ناقلا للعدوى، أعراضه مماثلة لأعراض النوع الأول[1]؛ لقد أحدثت أوبئة التيفوس انقراضا ديمغرافيا كبيرا.

(1) Petit Larousse de la Médecine: Typhus. P. 797.

أوبئة الجدري بالجزائر

السنة	المكان
1509	بجاية
1560	بجاية
1789	مدينة الجزائر
1803	مدينة الجزائر – قسنطينة
1832	مدينة الجزائر
1838 – 1839	ضواحي جيجل – مدينة الجزائر
1840	قسنطينة
1846	ندرومة – المدية
1847 – 1848	تنس – شرشال – سطيف – بسكرة – قسنطينة – تلمسان – باتنة – القالة – سكيكدة – تيارت – قالمة
1849 – 1850 - 1855	ندرومة – سيدي بلعباس – مستغانم – تنس – البليدة - تلمسان

المصادر المعتمدة:

- D[R] GEMY, Etude sur la prophylaxie de la variole, Adolphe Jourdan, Alger 1879.

- KHIATI, op. cit. pp. 253 à 255.

أوبئة التيفوس بالجزائر

السنة	المكان
1842	وهران – تلمسان
1861	الصدوق (منطقة القبائل)
1862	بجاية وضواحيها
1863	قسنطينة
1866	ضواحي قسنطينة
1868	مدينة الجزائر وضواحيها- وهران
1894	باتنة – بجاية – مدينة الجزائر – قسنطينة
1908	قسنطينة – الأغواط
1918 - 1919	سوق أهراس – تيارت – وهران

المصادر المعتمدة:

-Lucien RAYNAUD, "Le Typhus Exanthématique en Algérie".
In. A.M. N° 12 Dec 1927.
KHIATI. p. p 248 - 250.

أوبئة الكوليرا بالجزائر

السنة	المكان
1834	مرسى الكبير – وهران – تلمسان – مستغانم – معسكر – مليانة – المدية.
1835	مدينة الجزائر – عنابة – البليدة - - مليانة – قسنطينة
1837 المصادر المعتمدة: I.S.M: Série 200 E. 973 Choléra: 1824 – 1849 KHIATI: Hist. De la Med	عنابة – قسنطينة – مدينة الجزائر – مليانة – الأصنام – الونشريس – الأصنام – تنس – شرشال – مستغانم – سطيف – باتنة – بوسعادة – بسكرة
1850 – 1851	بسكرة – قالمة – سطيف – جرجرة – مدينة الجزائر – أرزيو – سيدي بلعباس – معسكر – عين تموشنت – مستغانم
1854 – 1855	سطيف – قسنطينة – مدينة الجزائر
1859 – 1860	وهران – مدينة الجزائر – الأصنام
1865 - 1867	مدينة الجزائر – تيزي وزو – بني يني – تنس – بسكرة.

إشارات مركزة، في سياق جائحة كورونا، حول ظاهرة الكوارث والأوبئة. قانون التكرار، التداعيات، وأشكال التفاعل عبر الأزمان.

الدكتور عبدالمجيد النوري

This contribution aims to shed light on the phenomenon of disasters and epidemics, as it is among the repeated phenomena over time, as it is expected to see similarities in the present, and the return of similar ones in the future, because history moves according to laws and precepts. We have concluded through the course of research, in light of the concrete observation of the realities of human urbanization, especially those related to the aforementioned phenomenon, that "the lack of morals and the degradation of values, especially at a time of exacerbation of injustice, corruption, tyranny" is considered as the basic law controlling the repetition of this ancient contemporary phenomenon , Which is currently embodied by the Corona pandemic. Just as it has been shown that the studied phenomenon contributes to changing conditions and its total upheaval, and also contributes to the exacerbation of the high prices that raise the level of adversity, i.e. the financial and monetary crises, and the accompanying sedition, devastation and destruction, and perhaps the demise of some civilizations and states.

The same thing might happen; at the present time, to some corrupt and tyrannical ruling systems, and in the near future to the capitalist Western civilization, which has been greatly affected by the Coronavirus. This pandemic which has devastated the economy, and caused high unemployment and high prices. The forms of dealing with it differed in different societies and institutions. The fact is that the aforementioned law motivates us to say, in light of

linking the present to the past, and the obsession with drawing future contours, that the current time is a time of disasters and dangerous epidemics, and that the contrived Corona is only the forefront. Disasters can draw limits between an old period and a new one, between an aging civilization, and an emerging one, between perishing countries, and flourishing ones.

"تتكرر ظاهرة المحن والفتن، التي تعيشها الأمم والحضارات والدول، في بعض فترات الزمن، بسبب فساد أمر النقود وغلاء الأسعار، بفساد السياسة وسوء تدبير الحكام. وتساهم في استفحال هذا الغلاء الكوارث والأوبئة، باعتبارها من و اقعات العمران التي تتكرر عبر الأزمان، بسبب عدمية الأخلاق و انحطاط القيم، سيما في زمن استفحال الظلم والفساد والاستبداد والخبث والطغيان، فتتبدل الأحوال، وتنقلب بالجملة، مع صيرورة وطول أمد الزمن، خصوصا مع هرم الحضارات والدول.

(عبد ربه، صاحب المقال، الأربعاء، ١٣ شعبان ١٤٤١هـ/ ٠٨ أبريل ٢٠٢٠، طنجة)

مقدمة

يعتبر موضوع الكوارث والأوبئة من بين الظواهر التاريخية ذات البعد الطبيعي، التي حظيت، وما تزال، باهتمام المؤرخين والمفكرين والأطباء...، القدامى منهم والمحدثين في العالم الإسلامي والغرب الأوربي وغيرهما على السواء. وتختلف درجة العناية والاهتمام بهذه الظاهرة المأسوية في ظاهرها، الخيرة في باطنها، باختلاف الزمان والمكان، وكذلك الحال، الحضارات والدول، واختلاف حظها من العلم والمعاش والصنائع والترف، كذا الاهتمام بالعلم والعلماء. ذلك؛ لما يترتب عنها من خوف ونقص في الأنفس والأموال والغذاء وركود للاقتصاد، مما يسبب في استفحال الغلاء والمحن والفتن، سب خراب المجتمعات والحضارات والدول، ودمارها وربما زوالها.

لذلك؛ سنحاول في هذه الورقة تسليط بعض الأضواء على جو انب تاريخية من هذه الظاهرة القديمة المعاصرة، في سياق ما تواجهه المجتمعات البشرية في زمننا هذا من وباء يقال أنه فتاك، سمي من لدن منظمة الصحة العالمية، ب: "جائحة كورونا". هذا الوباء غير المعهود، الذي حصد العديد من

الأرواح. وقيل إنه ساوى بين الأغنياء وذوي الجاه، وبين الفقراء والضعفاء. فخلق هلعا واضطرابا في الأنفس والاقتصاد، كما أغلق الحدود بين الدول، وغير أنماط السلوك في الحركة والتفكير والإحساس لبني الإنسان. سيما، على مستوى العمل والتواصل ونمط العيش والغذاء، والتعبير عن الآثار الراجعة للأنفس وكوامنها، في زمن الحجر على الناس في دورها.

والقصد من ذلك، استخلاص بعض الحكم والعبر، بله بعض طرق التفاعل مع جائحة الحاضر، في ضوء تجارب الماضي، واجتهادات العقل البشري المعاصر، في انتظار وصول الحكماء والخبراء من أهل الاختصاص في الطب، ولما لا أهل الصلاح والتقوى من العباد، إلى لقاح مضاد، لهذا البلاء الذي نزل بالعديد من البلدان. ذلك؛ بما كسبت أيدي الناس من القيم والأعمال، على غرار ما حدث في سالف الزمن. والدهر ذو عبر لمن يتدبر[1]. "فاعتبروا يا أولي الأبصار"[2].

ولكي تحقق هذه المساهمة مقاصدها، وصفوة ذلك، زرع الأمل، والتذكير ببعض القوانين المتحكمة في تكرار هذه الكارثة الظاهرة، وعودة أشباهها، و انتظار حدوث أمثالها، سنحاول مقاربة القضايا الآتية:

. الكوارث والأوبئة وعلاقتها بالبنية الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، قضايا منهجية.

. نماذج من الكوارث والأوبئة وبعض تداعياتها في الماضي والآني

. المجاعات والأوبئة، بعض أشكال التفاعل في الماضي والحاضر، والعبر المستخلصة.

I . الكوارث والأوبئة، وعلاقتها بالبنية الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، قضايا منهجية.

١ .مفهوم الوباء والجائحة

أ.تعريف الوباء

تعنى هذه المساهمة في بداية أمرها بإعطاء إشارة وجيزة حول مصطلحي الوباء والجائحة على أساس أن المصطلحات مفاتيح العلوم من جهة، وكون سياق هذه الورقة يرتبط بجائحة كورونا المعاصرة.

أما الوباء فقيل هو الطاعون. وعرفه ابن منظور أنه كل مرض عام. وجمع الممدود أوبية، وجمع المقصور أوباء. وأرض موبوءة وموبئة، كثيرة الوباء. والوبيء: العليل[3]. ومعلوم، أن الوباء مرض تعم به البلوى

[1] علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، تحقيق ودراسة المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، ص. ١٣٥.

[2] .سورة الحشر، آية، ٢

[3] . المعاجم اللغوية على الرابط التالي: http://www.baheth.info/all.jsp?

عندما يجتاح البشرية ويقتلهم جماعات ووحدانا[1].

ولذلك، قيل هو الطاعون، وهو داء معروف، والجمع طواعين. وفي الحديث فناء أمتي بالطعن والطاعون، الطعن: القتل بالرماح، والطاعون: المرض العام والوباء الذي يفسد الهواء، فتفسد به الأمزجة والأبدان[2]. لذلك يعرفه ابن سينا الوباء، بكونه الاستحالة في جوهر الهواء إلى الرداءة، لأن كيفية منه أفرطت في الاشتداد أو النقص، وهو بعض تعفن تعرض في الهواء يشبه تعفن الماء المستنقع الآجن [3].

وأسلم الطواعين ما هو أحمر، ثم الأصفر، والذي إلى السواد لا يفلت منه أحد.[4]

ولعله الطاعون الرئوي، لأنه ينتقل . مثل كورونا المعاصر. عن طريق التنفس، فتسهل الإصابة به سريعا إذ تصاب الرئتان بالتهاب رئوي، ويحصل هبوط في القلب، وتحصل الوفاة سريعا إذا لم يعالج خلال مدة لا تتجاوز أربعة أيام[5]. وفي ضوء ذلك يفهم العاقل مقاصد وأبعاد قوله عليه الصلاة والسلام بخصوص الوباء، "إذا كان بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارمنه، وإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه"[6]. وقد جمع النبي ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه. ذلك؛ أن الدخول في الأرض التي هو بها، تعرضا للبلاء...، وأما نهيه عن الخروج من بلده، ففيه، حسب ابن القيم الجوزية رحمه الله، معنيان، أحدهما: حمل النفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبرعلى أقضيته، والرضى بها.

والثاني: ما قاله أئمة الطب: أنه يجب على كل متحرز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه إلا الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يحذرا، لأن البدن لا يخلو غالبا من فضل رديء كامن فيه، فتثيره الرياضة والحمام، ويخلطانه بالكميوس الجيد، وذلك يجلب علة عظيمة، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون

---

[1] . محمد بن سند الشاماني، ا؟لأحكام الفقهية المتعلقة بالأوبئة التي تصيب البشرية، جمعا ودراسة مقارنة، مجلة جامعة طيبة للآدجاب والعلوم الإنسانية، كلية الشريعة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، السنة السابعة، العدد،١٨، ١٤٤٠هـ، ص. ١٣٦

[2] ، ابن منظور، لسان العرب، من خلال الرابط التالي: http://www.baheth.info/all.jsp?

[3] . أبو علي الحسين بن علي بن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه، محمد أمين الضناوي، ج، ١، ط، ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص. ١٢٥.

[4] أبو علي الحسين بن علي بن سينا، القانون في الطب، ج، ٣،، ص. ١٦٥.

[5] . عبد الإله بن سعود بن ناصر السيف، أحكام الأمراض المعدية في الفقه الإسلامي، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كلية الشريعة بالرياض، قسم الفقه، ص. ٨٧

[6] . أبو عبد الله محمد المعروف بابن القيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، ج، ٤، مؤسسة الرسالة، ط ،٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. ص. ٤٢

والدعة، وتسكين هيجان الأخلاط، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء[1].

وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها الوباء عدة حكم: أحدها تجنب الأسباب المؤذية، والبعد منها، ثم الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد، إضافة إلى عدم استنشاق الهواء الذي قد عفن وفسد، ومنها حمية النفوس من الطيرة والعدوى[2]. ولذلك، عرف بعض أهل العلم والاختصاص في الطب، الوباء من الناحية الاصطلاحية، بتعريفات متكاملة مع بعضها في عمومها.

أما ابن النفيس، فقد عرفه بكونه فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية، كالماء الآسن والجيف الكثيرة. أما الحكيم داؤود الأنطاكي، فقال إنه تغير الهواء بالعوارض العلوية، كاجتماع كواكب ذات أشعة، والسفلية كالملاحم وانفتاح القبور وصعود الأبخرة الفاسدة، وأسبابه مع ما ذكر تغير، فصول الزمان والعناصر وانقلاب الكائنات. وذكروا له علامات، منها الحمى والجذري والنزلات والحكة والأورام وغير ذلك.[3].

وحسب الأطباء، فالطاعون نوع من أنواع الوباء وفرد من أفراده[4]. وهو مرض خبيث ذو ذو حمى شديدة الحرارة، ينتقل إلى الإنسان من الفئران[5]. أما الذي عليه المحققون من الفقهاء والمحدثين أنهما متباينان، فالوباء: وخم يغير الهواء فتكثر بسببه الأمراض في الناس، والطاعون هو الضرب الذي يصيب الإنس من الجن. وفي شرح الموطأ الوباء بالمد: سرعة الموت وكثرته في الناس[6].

لذلك، بدهي، أن يهتم علم الأوبئة بالأساس بدراسة الحالات الجماعية للعدوى، أي بالعدوى الجماعية وليس بالحالات الفردية للمرض. فالأمراض الوبائية هي في الأصل أمراض معدية تصيب الأعداد الكبيرة من البشر، علما أن كل الأمراض المعدية ليست وبائية. وتنتقل عدوى الأمراض المعدية بطرق عدة، منها الاتصال المباشر، كما في حالة الأمراض الجلدية كالجرب، أو في حالة الجماع كالزهري، وعن طريق الهواء، كما في حالة إصابات الجهاز التنفسي، حيث تتم العدوى عن طريق الرذاذ المتطاير كالسل

[1]. أبو عبد الله محمد المعروف بابن القيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد، ص.٣٨. ٣٩.

[2]. نفسه، ص.٣٨. ٣٩.

[3]. محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط، ٢، الكويت، ص. ٤٧٨

[4]. نفسه، ص. ٤٧٨

[5]. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، ج، ١٤، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص. ٧، هامش رقم ٣

[6]. محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ص. ٤٧٨

والأنفوازا[1]، وكورونا، إن صح ما يقال عنها، في زمن تحرير هذه الورقة.

ب. تعريف الجائحة

أما الجائحة، فهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة. والجوح الاستئصال، من الاجتياح. يقال جاحتهم السنة جوحا وجياحة وأجاحتهم واجتحاتهم، أي استأصلت أموالهم. والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله[2]. وتتقاطع مع لفظ الجائحة مفاهيم أخرى لها نفس المدلول في السياق العام، مثل النائبة" وهي ما ينوب الإنسان أي ما ينزل به من الملمات والحوادث"[3].

وبقدر ما يتضح في ضوء ما تقدم، أن الجائحة عبارة عن مصيبة تحل بالإنسان، فتجتاح، بل تستأصل جل ماله أو كله، بقدر ما نفهم لماذا أطلقت منظمة الصحة العالمية على وباء كورونا، مصطلح جائحة. ذلك، كونه اجتاح بلدان عديدة في العالم، وحصد أرواح كثيرة حسب ما يقال والله أعلم، وخلف خسائر مالية فادحة، طالت العديد من الشركات والقطاعات الاقتصادية، كذا بعض رجال المال والأعمال.

وبذلك خلف ركودا في الاقتصاد، وعجزا في ميزانيات الدول. ولا جرم أنه سيساهم في استفحال الغلاء والمحن والفتن التي تعاني منها العديد من بلدان العالم.

وفي هذا السياق أطلق رئيس منظمة الصحة العالمية، الدكتور تيدروس أدهانوم غيبريسوس، على وباء كورونا، مصطلح: "جائحة". ذلك، لسببين رئيسين هما: سرعة تفشي العدوى واتساع نطاقها، والقلق الشديد إزاء قصور النهج الذي تتبعه بعض الدول على مستوى الإرادة السياسية اللازمة للسيطرة على هذا التفشي للفيروس.[4]

وما تجب الإشارة إليه هو أن الجوائح لا تهم ميدانا دون آخر، فهي تصيب القطاعات الإنتاجية الأساسية من فلاحة وحرف وتجارة، وفي الوقت ذاته، فإن الإنسان نفسه معرض لمثل هذه الجوائح، وهي التي اصطلح عليها الناس عادة على تسميتها بالأوبئة والأمراض الخطيرة كالطاعون والسل والجذام.[5] وربما اليوم كورونا.

---

[1]. أحمد محمود عبد الجواد، تقديم كتاب، شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ المرض والقوة والامبريالية، ترجمة وتقديم، أحمد محمود عبد ، مراجعة، عماد صبحى، ط، ١، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م، ص. ٨

[2]. انظر موقع الباحث العربي، (تاريخ الاطلاع ٣٠.٠٣.٢٠٢٠)، على الرابط التالي: http://www.baheth.info/

[3]. عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق ٦ هـ/ ١٢ ـ ١٤م، ط، ١، دار الكتب العلمية. بيروت، آب، ٢٠٠٨، ص. ١٧

[4] انظر مجلة عربي NEWS الالكترونية، فيروس كورونا: لماذا صنفته منظمة الصحة العالمية وباء عالميا، ١٢، مارس، ٢٠٢٠، (تاريخ المشاهدة" ٣٠ . ٠٣ . ٢٠٢٠)، على الرابط التالي: https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-51854975

[5] الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص. ٣٣.

٢ . علاقة الكوارث والأوبئة بالبنيتين الاقتصادية الاجتماعية، والسياسية، قضايا منهجية.

تعرضت الإنسانية منذ عصور غابرة في التاريخ إلى مجموعة من الكوارث الطبيعية، واكبها في الغالب أوبئة فتاكة أحدثت فيها خسائر في الأرواح، وهزت بعنف كيانها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري. وإذا كان دور الحروب في إحداث الهلع والنقص السكاني مسألة لا يرقى إليها الشك، فإن دور المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية لا يقل أيضا خطورة في هذا الباب[١].

ولا مشاحة، أنها تساهم، حسب درجة خطورتها، في تراجع الإنتاج وركود الاقتصاد، مما يساهم في استفحال الغلاء والمحن والفتن، سبب خراب المجتمعات والحضارات والدول، وربما زوالها في حال ما إذا كانت المحنة كبيرة، والأوبئة خطيرة، بل من الأنواع الفارقة، التي تأتي للحضارات والدول في طور هرمها وتلاشيها. والسبب الأعظم في ذلك، حسب ما نزعم، انهيار القيمة الشرائية للنقود وفساد أمرها، بفساد السياسة وسوء تدبير الزعماء والحكام، سيما في زمن شيوع الفساد والاستبداد والظلم والطغيان وعدمية الأخلاق و انحطاط القيم.

وإذا كانت الوثائق الأجنبية التي اهتمت بموضوع المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، توفر حسب أحد الدارسين على سبيل المثال، معلومات مفصلة حول الأسعار، واتساع أحزمة الجوع والوباء، والنزوح القروي، والآثار الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن هذه الكوارث[٢]، فلا يفوتنا أن نشير إلى أن مثل هذه المعلومات تبقى نادرة في المصادر التاريخية القروسطوية، بل ونادرا ما نعثر فيها، كما هو الحال في كتابات تقي الدين المقريزي، وأمثاله في الفكر والكتابة والتأليف، على ربط علمي يؤرخ ويراعي علاقة النقود والكوارث والأوبئة، بالبنية الاقتصادية في علاقتها بما هو اجتماعي وسياسي، خلا بعض الإشارات المرتبطة بغلاء الأسعار.

وهي في حقيقة أمرها، وعلى ندرتها، إشارات جد مفيدة ومهمة، رغم عدم ربطها في الغالب من لدن القدامى، بسياقها السياسي والاقتصادي والاجتماعي الوطني والدولي، وهذه مهمة المؤرخ والمفكر ورجل الاقتصاد وغيرهم في الوقت الحالي، حتى نخرج من

[١] . إبراهيم القادري بوتشيش، أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديموغرافي بالمغرب في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، العدد، ١، ١٩٩٩، ص. ٤٤

[٢] . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨ و ١٩م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص. ١٣. ١٤

دائرة الكائن التراثي الذي يعيد اجترار الماضي، وربما بإسفاف، كما كان يقول أحد أبائي في العلم، محمد تضغوت رحمه الله .

وتتجلى هذه الأهمية بالأساس، في كون الحديث عن الأسعار، هو ذاته الحديث عن العملة.

باعتبارها اللبنة الأساس في البنية الاقتصادية الاجتماعية، بل وأساس استقرارها، واستقرار الأوضاع السياسية معها من جهة، كما أنها أداة البيوع، وتبادل قيم الأعمال وتنظيم المعاملات، وسائر أنواع المعاوضات الشرعية، والجوامك السلطانية، والمصالح الضرورية، وغيرها"[1] من جهة أخرى.

وغير ذي شك أن انهيار القيمة الشرائية للنقود، بل وفساد أمرها، بالدلسة والتزوير وكثرة الضرب والتعدد والاختلاف، برواج عملات الثوار، أو ظهور عملات أجنبية تسعى إلى الهيمنة على المبادلات العالمية، يواكبه غلاء في الأسعار، وربما محن وفتن، تخرب البلدان، ويمكن أن تفني الحضارات والدول، واعتبر ذلك، بالبحث في تاريخ سائر الحضارات و الدول والأمم، وبالجواب عن سبب تخلص المسلمين على سبيل المثال، من الدينار الرومي، والدرهم الكسروي، في زمن عبد الملك بن مروان.[2]

ولذلك قيل إن صلاح الملك من صلاح النقد واستجادته، وفساده من فساده والتجوز فيه[3]. تماما مثلما قيل إن من تقصير السياسة فساد النقود، وفي فساد النقود دخول الخلل في المعايش والنقصان في الأموال والمعاملات[4].

وبهذا الخلل الاقتصادي، تختل الأحوال الاجتماعية والسياسية، إذ تكثر العالة من الخلق في العمران، وتندلع الفتن، وتخرب البلدان وتهدد الحضارات والدول بالانهيار والزوال، بسبب فساد النقود وغلاء الأسعار، الذي تساهم في استفحاله الضرائب والحروب والمجاعات والكوارث والأوبئة وغيرها من العوامل التي نعتبرها، إن كانت حقا و اقعا قائم الوجود، مساعدة على استفحال الغلاء ورفع منسوب المحن والفتن، سيما في أواخر الأمم والدول[5].

---

[1] . محمد بم محمد بن خليل الأسدي،التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق، عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، من دون، ص. ١١٥

[2] أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق، أحمد جاد، دار الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. ص. ٢٣٧.

[3] - ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار، سلسلة كتب التراث، ٤٥، ج، ١، بغداد منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية،١٩٧٧، ص. ٢٦٧.

[4] . محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار ... م س، ص. ١١٥

[5] . حول هذه القضايا المنهجية المرتبطة بعلاقة النقود والكوارث والأوبئة وغيرها من عوامل الغلاء والمحن والفتن التي تخرب المجتمعات وتهدد الحضارات والدول بالزوال انظر أطروحتنا. مرقونة. حول: العملة وتأثيراتها السياسية في تاريخ الغرب الإسلامي من مطلع القرن الخامس إلى أواخر القرن السابع الهجريين ٤٠٧هـ . ٦٧٤هـ /

وحسبك، من البراهين الدالة على تحقيق هذا الكلام، ذو البعد المنهجي بشكل عام، ما ورد في كتاب إغاثة الأمة لتقي الدين المقريزي، وكذلك الحال كتاب التيسير والاعتبار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي، هذا الأخير الذي اعتبر على مهيع الأول، فساد النقود وحصول الإهمال والتفريط في إصلاحها، وإصلاح المكاييل والموازين، من أعظم أسباب حدوث الحوادث . أي المحن . والبلاء[1]، الذي عرفته مصر خلال القرن التاسع الهجري، وما رافق ذلك من غلاء وخراب ودمار ثم اضمحلال، بعدما ذهبت بهجة الدنيا وزينتها.

وقد ساعد في استفحال هذه الظاهرة التي تتكرر عبر الأزمان، بما يرافقها من قتل وتهجير وتشريد واغتصاب للأموال والأعراض، وربما زوال للحضارات والدول، "ما وقع من وباء ونقص الأنفس بالطاعون في مبتدإ وقوع هذه الحوادث، ثم أعقبه الغلاء والجوع ونقص في الثمرات، ونقصت الأموال من أصولها، وعظمت مصائب الحوادث من كثرة المظالم وتفريعها، ووقعت موجبات الخوف بعد الأمان، وطالت مدة البأس والغلاء، وعظمت الشدة من الجهد والبلاء، وانكشفت أحوال كثير من الناس في كثير من البلدان، ومع ذلك لم يحصل لا ارتداع، ولا الرجوع عن الطغيان، من أقوام هم الأصول في إنشاء أنواع الظلم والعدوان"[2]. وهذا عينه ما يحدث، والله أعلم، عبر سائر الأزمان، وسنذكر فيما سيأتي ما يدل على تحقيق هذا الكلام والبيان. وما هو في حقيقة الأمر ليس شيئا سوى وجهة نظر، تعتمد مناهج تحليل ونظر، وترتكز على حجج وقوانين، في ضوء تكرار واقعات العمران، والقارئ على الخيار في القبول والرفض، والأخذ والرد، وكذلك الحال الاعتبار، إذ من الضروري أن يكون صاحب وجهة نظر، باستعمال عقله وما يعتمده من المناهج والحجج، حسب فكره وتكوينه وما يؤمن به.

وعليه، لابد للباحث في حقل التاريخ عموما، سيما الذي يسعى إلى محاولة ضبط قوانين تكرار واقعات العمران على وجه الخصوص، مثل ظاهرة غلاء الأسعار، ومبادئ الدول، ونشء الممالك، ودخول الخلل فيها بعد ذلك. وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله واطّرحه إلى أن تؤدي إلى الاضمحلال والزوال ،[3]، "وما يتصل بذلك

---

[1] . محمد بم محمد بن خليل الأسدي،التيسير والاعتبار ... م ، ص. ١١٥

١٠١٧م . ١٢٧٥م، بحث لنيل دكتوراه وطنية، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ٢٠١٣. ٢٠١٤م.

[2] . محمد بم محمد بن خليل الأسدي،التيسير والاعتبار ... م ، ص. ١١٤ . ١١٥

[3] . أبو علي أحمد مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق، سيد كسروي حسن، ج، ١، ط، ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٣، ص. ٥٩

من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبدا في العالم"[1]، من الاهتمام بأخبار الماضي، والإلمام بهذه القضايا المنهجية ذات الصلة بالفكر الاقتصادي الإسلامي، وعلم الاقتصاد السياسي الغربي، وغيرها من المناهج العلمية التي تساعده على قراءة الماضي البشري، قراءة علمية تمكنه من فهم الحاضر، ووضع خطط للمستقبل،وفي ضوء ضبط قوانين تكرار وقائع العمران، ومنها ظاهرة الكوارث والأوبئة قيد الدراسة، "لأن أمور الدنيا متشابه، وأحوالها متناسبة"[2].

وهي حسب ما نظن، أبسط الظواهر قراءة وضبطا لقوانينها وتنبأ بزمنها، سيما الفتاكة منها، كونها مضبوطة في جل أمورها، إن لم يكن في كلها، بنصوص وقوانين شرعية ثابتة، يمكن إجمالها حسب زعمنا في عبارة عدمية الأخلاق وانحطاط القيم"، سيما في زمن استفحال الظلم والفساد والاستبداد والخبث والطغيان، فتنزل بالناس على شكل عقاب، بسبب ما كسبت أيدي من الأفعال، مهما كان لهم فيها من أثر.

وهذا لا ينفي، بل ولا علاقة له بالبتة، بالاجتهاد في كل مكان وزمن، سيما من قبل أهل العلم والاختصاص في الطب، أمثال ابن سينا، وأبو عبد الله محمد بن على اللخمي الشقوري، وابن خلدون وأضرابهم في الماضي والحاضر، لفهمها وتفسيرها والسيطرة عليها بواسطة العلم. ومن ثم، فردها إلى ما قلنا في ضوء بسيط معرفتنا، ليس ارتكاس إلى الغيب والدين، بسبب العجز عن ضبطها بواسطة العلم، كما يدعي أو يتوهم البعض. ليس الأمر كذلك على الإطلاق، ولسنا في حاجة في هذا المقام إلى بيان قصور العقل، بل وعجزه عن فهم كثير مما يجري في هذا الكون، أمام كلام خالق الكون والعقل ومدبر الأمر والحقيقة أن العجز الذي ينبغي الإقرار به، والنظر فيه، هو العجز الأبدي، في غالب الأحيان، إن لم يكن في كلها، عن الفهم السريع، والسيطرة العاجلة، في الماضي والحاضر، على الأوبئة والأمراض الفتاكة، تماما كما هو الحال مع فيروس كورونا. هذا هو العجز الواضح في ذاته وحقيقته وتاريخه وبيانه من وجهة نظرنا. "ليقضي الله أمرا كان مفعولا،[3] وليتذكر الإنسان، أن الكون لا يسير عبثا، كما أنه لم يخلق عبثا، بل، إنه خاضع في تدبيره وأموره للقدرة الإلهية القاهرة، المهلكة للجبابرة، والقاصمة لذوي الإهمال، ومن غرهم الغرور بطول الإمهال، وبمحبة الدنيا الفانية السريعة التنقل

[1] . محمد بن عبد الرحمان السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ،، ترجمة، صالح أحمد العلي، ط، ١، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ص. ٣٢. ٣٣

[2] . أبو علي أحمد مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ص. ٥٩. ٦٠

[3] سورة الأنفال، آية، ٤٤.

والانتقال.[1] لذلك، يبتلي عباده بأشياء كثيرة مثل الخوف والجوع، بدليل قوله تعالى: " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.[2] تماما مثلما يبتليهم بالكوارث والأوبئة، التي يترتب عنها كثير مما قيل في هذه الآية الكريمة. " وبشر الصابرين الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون".[3]

والراجح، أن ما يأتي منها في سياق الزمن المذكور، يكون والله أعلم من النوع الفتاك، بل من النوع الفارق بين مرحلة قديمة، وبين أخرى جديدة، بين حضارة هرمة، وبين أخرى صاعدة، بين دولة مدبرة، وبين أخرى مقبلة. تماما مثلما حدث في سياق مجيء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي زمن الغزوات والحروب الحضارية الخارجية الحاسمة والكبرى، والحركات الإصلاحية الداخلية الإنسانية الحقة، لهدم القيم الباطلة والمنحطة. وعليه، فالراجح أن العالم بعد كورونا لن يكون كما كان قبله، حضاريا ومؤسساتيا وفي سائر أنماط الفعل الاجتماعي و أبعاده. وهذا التغير في أنماط الفعل الاجتماعي هو أس التغيرات المستقبلية التي لا يعرف أهمها، بل وأخطرها إلا القليل من الناس، شأن ما حدث في آخر المائة الثامنة لما انقلبت أحوال المغرب والعالم، وتبدلت بالجملة، كما قال وفطن لذلك ابن خلدون. وساهم في هذا التبدل والانقلاب في الأحوال، ما نزل بالعمران شرقاً و غرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم... و جاء للدول على حين هرمها و بلوغ الغاية من مداها... فقلص من ظلالها، و فل من حدها، و أوهن من سلطانها، و تداعت إلى التلاشي و الاضمحلال أموالها"[4].

لذلك؛ نعتبر هذا الطاعون الأسود الذي قيل إنه لا يفلت منه أحد[5]، من أنواع الأوبئة الخطيرة الفتاكة والفارقة. والحال، أنه قال رحمه الله: "من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، و هو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وثيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، و انتقال من حال إلى حال "[6].

---

[1] محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار ... م س، ص. ١١٤.

[2] سورة البقرة، آية ١٥٤.

[3] سورة البقرة، آية ١٥٤ إلى ١٥٦.

[4] .عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج، ١، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، ١، ٢٠٠٤م، ص. ١٢٠.

[5] أبو علي الحسين بن علي بن سينا، القانون في الطب، ج، ٣،، ص. ١٦٥.

[6] .عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج، ١، ص. ١١٦

ذلك، ما نحسب أنه سيقع بعد جائحة كورونا، في ضوء قوانين التاريخ الثابتة. فبقدر ما يشكل هذا الأخير مصدر للمعرفة، بقدر ما يتحرك وفق قوانين نوعية[1]، تجعل من أمور كثيرة من أحداثه ووقائعه تتكرر. "فلا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره"[2]. تماما مثلما حدث قبل جائحة كورونا كوارث وأوبئة عديدة، سببها والله أعلم، عدمية الأخلاق و انحطاط القيم.

ومن براهين ذلك وأدلته، حسب ما ورد عند إخوان الصفاء، "أن الأمم الطاغية والأحزاب الباغية إذا لجت في العصيان، واستحوذ عليهم الشيطان بعد أن وجبت عليهم الحجة و اتضحت لهم المحجة، أتت الأنبياء بالآيات وأظهرت المعجزات وخرقت العادات، وأحاطت بالذين كذبوهم البلايا وحلت بهم الرزايا، وهلك منهم من هلك عن بينة، وحي من حي عن بينة."[3]

وإذا كانت البلايا المذكور في هذه الرواية، مرتبطة بزمن الأنبياء، فغير ذي شك أن أمثالها وأشباهها تكررت في ماضي التاريخ البشري في غير زمن هؤلاء، وما نعيشه في حاضرنا مع جائحة كورونا، خير مثال على ذلك. والعاقل ينتظر حدوث أمثاله وأشباهه في المستقبل كلما حل أوانه. ولذلك دلائل بينة وعلامات واضحة، كما له أسباب يعرفها أولو الألباب والعقول الرجاحة، سيما، في زمن احتضار الأمم والدول. "فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء."[4]

ولذلك نستغرب، استغراب العديد من المفكرين والباحثين وكثرة أقوالهم غير المفهومة في سياق جائحة كورونا، وكأنه لم يسبق أن حدث مثلها، ولا تقدم شبيهها، اللهم إن كانوا لا يفقهون في قوانين تكرار و اقعات العمران إلا قليلا. والحقيقة، أن زمنها حل، بسبب ما قلنا سابقا، وعلامات ذلك واضحة، لمن فقه شيئا من أحوال الماضي، وقوانين تكرار أمور هذه الظاهرة. تماما مثلما كانت علامات ما سمي بالربيع العربي بينة، منذ سنة ٢٠٠٨م. ويعرف صدق هذا القول، منذ الزمن المذكور، من سمعه منا كثيرا، من الأصدقاء والمقربين .

ولعله لمثل ذلك . الماضي أشبه بالآتي . قيل: "إن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما في أخبار الماضين وحوادث المتقدمين، من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبها من سوء الذكر وقبح الأحدوثة، وخراب البلاد وهلاك العباد

[1] . خالص جلبي،المصحف الشحروري، (٦)، جريدة الأخبار، العدد، ٢١٨٥، الخميس، ٢ يناير، ٢٠٢٠، ص. ١٣

[2] . السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ، ص. ٤٧

[3] رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الرابع، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، جمادى الأولى ١٤٠٥ / ٢٠٠٠، ص .٣٣١.

[4] عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ج، ١، ص. ٩٣.

وذهاب الأموال وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها، واطرحوها[1].

وفي نفس السياق قال مسكويه رحمه الله: "إني تصفحت أخبار الأمم، وسير الملوك، وقرأت أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجدت فيها ما تستفاد منه تجربة في أمور لا تزال يتكرر مثلها وينتظر حدوث شبهها وشكلها: كذكر مبادئ الدول، ونشء الممالك، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله واطّرحه إلى أن تؤدي إلى الاضمحلال والزوال، وذكر ما يتّصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان، وجمع كلم الرعيّة، وإصلاح نيّات الجند، والحروب ومكايد الرجال..."[2] هكذا يتبين في ضوء ها تقدم، أن التاريخ البشري، تاريخ ظواهر، يحكم تكرارها، وعودة شبهها وشكلها، كما هو معلوم، سنن وقوانين.

وعليه، فلا مشاحة، أن طالع أخبار الماضي، صار جميع ما يحفظه من الضرب كأنّه تجارب له، وكأنّه قد عاش ذلك الزمان كله، و باشر تلك الأحوال بنفسه، و استقبل أموره استقبال الخبر، وعرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه و قبالة لحظه؛ فأعد لها أقرانها و قابلها بأشكالها، و شتّان بين من كان بهذه الصورة و بين من كان غرا غمرا لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه و لا يلاحظه إلا بعين الغريب منه، يحيره كل خطب و يستقبله و يدهشه كل أمر يتجدد له.[3] ومع هذا القول لابد أن يستغرب المرء كما قبلنا سابقا، استغراب العديد مما قيل في زمن كورونا، بل وعن جائحة كورونا، وكأنها حدث مستجد فردي معزول لا شبه، ولا نظير له في سابق الزمن. وسنخصص لهذا الموضوع وقتا بإذن الله في المستقبل.ومعلوم، أن الكوارث والأوبئة تساهم في هذا الخراب والهلاك والذهاب والفساد، للبلدان والعباد والأموال والأحوال، بنسبة معينة. تماما مثلما ساهم في ذلك الطاعون الأسود في الماضي، وجائحة كورونا في الوقت الحالي. وحسبك أن النويري وغيره من المؤرخين القدامى، اعتبروا ما يحل بالناس من الكوارث والأوبئة بمثابة أحداث عقابية ربانية، بسبب ما كسبت أيديهم من المعاصي والخطايا[4]. وهو ما نعبر عنه نحن،

بعدمية الأخلاق و انحطاط القيم"، سيما في زمن استفحال الظلم والفساد والاستبداد والخبث والطغيان.

[1] . السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ، ص. ٤٧

[2] مسكويه، تجارب الأمم ، ص. ٥٩.

[3] نفسه ، ص. ٥٩ . ٦٠.

[4] . النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج، ١٤، ، ص. ٢٣ . ١٦١.

. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، ج، ١٣، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص ١٧١، وما بعدها

فلا مندوحة، أن تساهم هذه الكوارث والأوبئة، كما هو معلوم في دائرة الفكر الاقتصادي وغيره في استفحال الغلاء والمحن والفتن، التي تخرب البلدان وتزيل الحضارات والدول. لذلك نعتبرها من العوامل المساعدة على تكرار هذه الظاهرة، خصوصا بعد تبدل الأحوال وانقلابها بالجملة. وهكذا تنتقل حسب ما يبدو، الحضارة والعلم والسلطة والقوة، و"الملك والدول من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن أهل بيت إلى أهل بيت"[١].

ولذلك دلائل بينة وعلامات واضحة، يصل إليها العقل البشري المتخصص والمهتم بذلك، وبأخبار الماضي، في ضوء "تجارب الأمور واعتبار تصاريف الزمان، فيما مضى من الحدثان،[٢] وفي التاريخ البشري العالمي ما يكفي من وقائع العمران الدالة بشكل عملي، على حقيقة هذا الطرح المنهجي النظري. وسنكتفي في المبحث الموالي بتقديم إشارات قليلة معبرة في ضوء ما يسمح به حجم هذه الورقة في زمن جائحة كورونا.

II . إشارات حول بعض الكوارث والأوبئة، وتداعياتها في الماضي والآني

١. نماذج من المجاعات والأوبئة، وبعض تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالعالم الإسلامي خلال العصر الوسيط.

تعتبر الأوبئة والأمراض المستعصية من بين الجوائح التي هددت الإنسان على الصعيد العالمي، سيما بالمشرق والمغرب الإسلاميين خلال الوسيط، وكان لها تأثير واضح على البنية الديموغرافية، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان[٣]. وبدهي أن يواكب ذلك غلاء في الأسعار، كما تشير إلى ذلك الحوليات التاريخية، بسبب ركود الإنتاج وحركة الرواج والاقتصاد[٤]، واختلال التوازن بين العرض والطلب، ولجوء الناس إلى الاحتكار.

وتتحكم في غلاء الأسعار الذي يهدد المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر، بالتدهور الاقتصادي والانفجار الاجتماعي، مجموعة من العوامل، يأتي في مقدمتها تدليس العملة وتزويرها وكثرة ضربها. تماما مثلما تساهم فيه الزيادة في الضرائب، واستحداث غير الشرعية منها، وكذلك الحال المجاعات والكوارث والأوبئة.

ذلك، بفعل تأثيرها . الكوارث والأوبئة . على الموجود من الحاجات والمعروضات من السلع والحاجيات والخدمات. فغير ذي شك أن آفات القحط، والجراد، والمجاعة، والطاعون والأوبئة، والفيضانات، والجفاف

[١] .رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الرابع، ص . ١٩٠.

[٢] رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الرابع، ص . ١٩٠.

[٣] .الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٥٠

[٤] .الحسين بولقطيب ، نفسه، ص. ٥٢. ٥٣.

والهزات الأرضية، وغيرها تساهم في تدمير قوى المجتمع المنتجة والمنتجين ووسائل الإنتاج[1]. ويبدو أحد الدارسين على صواب حين اعتبر المجاعات والأوبئة من بين خوانق التنمية، بحيث لم تخلق أمام مغرب الأمس ظروف مناسبة للإقلاع[2].

ومعلوم، أن كل غلاء في الأسعار، ينتج عنه انهيار مباشر في قيمة العملة، وفي ذلك خطورة كبرى على استقرار الاقتصاد والمجتمع والدولة وربما الحضارة. واعتبر ذلك بما وقع للفرس الذين ارتبط فساد أمورهم بفساد نقودهم[3]. والشيء نفسه وقع أيضا للعرب والنظم الحاكمة بالمغرب الوسيط في الماضي، ويحتمل أن يقع وفق قوانين التاريخ الثابتة للغرب الرأسمالي في المستقبل. إذ بفساد النقود، بسبب فساد السياسة وسوء تدبير الحكام، ترتفع الأسعار وتندلع المحن والفتن، سبب خراب الحضارات والدول، وربما زوالهما، سيما إذا ساهم في استفحال هذا الغلاء الضرائب والحروب والكوارث والأوبئة. تماما كما وقع في الماضي، وكما يمكن أن يقع في زمن جائحة كورونا، إن صح ما يقال عنها، وكانت من الأوبئة الفتاكة التي وصفنها بالفارقة.

وقد سبق القول إن الأوبئة الأكثر فتكا، بل والفارقة منها، بين مرحلة وأخرى، تأتي للحضارات والدول في طور هرمها، ونزول المرض الطبيعي بها[4]، إنه مرض السرطان الذي لا يرجى منه شفاء، مما يساهم في استفحال الغلاء، والمحن والفتن التي تخرب البلدان، وتفني الحضارات والدول، فيتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى على مستوى السلطلة والسياسة والقوة والقيم.

ذلك، عندما تصل الحضارة أو الدولة المستقرة إلى المرحلة الحرجة من السرطان، الذي لا يرجى منه شفاء، فتدخل إلى الإنعاش، ثم يتوقف قبلها بعد مدة عن الخفقان، بدخول عاصمتها جنود القوة الجديدة الصاعدة. تماما كما حدث للفرس لما دخل المسلمون المدائن[5]، وللعباسيين وحضارة العرب عندما دخل هولاكو بغداد سنة٦٥٦هـ[6].

وهي سنة غلاء في الأسعار، لجملة من الأسباب، منها فساد أمر النقود[7]، بفساد

---

[1]. إرنست ماندل، النظرية الاقتصادية الماركسية، ج٢، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة للطباعة والنشر، د ت، ص. ٥

[2]. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨ و ١٩م، ص. ٤٠٩

[3]. أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق، أحمد جاد، دار الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. ص. ٢٣٧

[4]. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ج، ١، ص. ٤٨٦

[5]. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، ١، ص. ٣٢٢ . ٣٢٣

[6]. تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، ١، ط، ١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧، ص. ٤٩٩

[7]. انظر، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج، ٢٩،تحقيق مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز،

السياسة وسوء تدبير الحكام. فقد قيل عن الناصر لدين الله على سبيل المثال، كان قبيح السيرة في الرعية[1] ، ولم يطلق في طول مرضه شيئا كان أحدثه من الرسوم الجائرة، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم . وكان ظالما عسوفا، وكان يحب جمع المال، وفي خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان[2] .

والحال أنه ساهم في تعميق المحن والفتن التي كانت سببا في انقراض بني العباس، وزوال حضارة العرب، بسبب الغلاء الذي وقع بسائر البلاد، إذ ارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك القمح بمائة درهم، الشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما، وبقية الأسعار من هذه النسبة، الوباء الذي كثر ببلاد الشام، فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان[3] .

وهذا ما يؤكد بشكل عملي كون الكوارث والأوبئة تعتبر من العوامل المساعدة على استفحال المحن وزوال الحضارات والدول، كما تعتبر الفتاكة منها، من بين العلامات الدالة، بل والفارقة، بين مرحلة ودولة وربما حضارة مدبرة، وبين مرحلة ودولة وربما حضارة أخرى مقبلة. ذلك، بعد مدة من الغلاء والفتن والحروب الداخلية والخارجية، بسبب فساد النقود وانهيار قيمتها، بفساد السياسة وسوء التدبير، سيما في زمن الاستبداد والجور والظلم والطغيان و انحطاط القيم.

و انظر ذلك أيضا في ما حدث بالمغرب مع بداية انهيار النظام الموحدي على سبيل المثال. فبعد طاعون ٥٧١هـ الذي خلف خسائر فادحة، حدث وباء عظيم، ضرب المغرب والأندلس، وتحيف الناس إلا قليلا سنة ٦١٠هـ، وكان ذلك بعد هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ، مما خلق الجو الملائم للثوار[4].

والحال، أن هذه المرحلة كانت تعاني من فساد النقود بالتعدد والاختلاف والتزوير، مما أدى إلى ارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة منها، وبالتالي حدوث غلاء في الأسعار امتد على مدى زمني طويل، فرافقته محن وفتن، خربت المجتمع ودمرته، و اتجه النظام الحاكم نحو الانهيار ثم الزوال، وكان للكوارث والأوبئة في ذلك دور.

منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ص. ٨٥ ٨٦.

[1] محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق، علي الزواري ومحمد محفوظ، المجلد الأول، ط، ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م. ص. ٢٧٦. ٢٧٧.

[2] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، ١، ط، ١، ص. ٣٤١.

[3] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج، ١، ص. ٤٩٩.

[4] .الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٥٥

عمليا، في سنة ٦٠٩هـ / ١١١٢م تعرضت بلاد المغرب إلى وباء عظيم، فهلك خلق كثير، حسب ابن أبي زرع، نقلا عن أحد الدارسين"[١]. وتشكل السنة المذكورة مقدمة انهيار نظام الحكم الموحدي. والحال، أن محمد الناصر بن المنصور (٥٩٥هـ / ٦١٠هـ) ترك لولده المستنصر، حسب أحد الدارسين[٢]، عرشا ملغوما، فشهدت فترة حكمه اضطرابات سياسية ومحن اقتصادية وفتن اجتماعية. وفي دولته فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم، وأشرفت دولتهم على الهرم[٣]. ذلك؛ كونه كان ضعيفا ولم يستطع مواجهة الأعباء[٤]. كما أنه ولي الأمور وهو صبي صغير لم يبلغ الحلم ولا جرب الأمور[٥]، إذ لم يكن سنه يتجاوز ستة عشرة سنة[٦]، فضاعت مصالح الناس[٧]، وفسد المعاش والمعاملات بفساد أمر النقود وانهيار قيمتها، بسبب فساد السياسة وسيادة الجور والاستبداد وسوء التدبير والفساد[٨]. إنه حسب ما نزعم، نزعم، والله تعالى أعلم، السبب الأعظم في ما حل بالناس من محن وفتن.

وقد قيل، إن المستنصر شغلته أحوال الصبا، ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية، وأنه فوض النظر في الأمور كلها إلى وزرائه وحاشيته التي استشرى فيها الفساد[٩]. وهكذا تسبب الفساد الذي طال العملة بتزويرها وتعددها واختلافها، في انهيار قيمتها الشرائية. وهو السبب الأعظم لغلاء الأسعار، الذي هدد الدولة الموحدية، بالخراب والدمار والزوال. وساهمت في استفحال هذا الغلاء، كثرة الضرائب والزيادة فيها، والحروب وطول مدتها، وكذلك الحال، الكوارث والمجاعات[١٠] والأوبئة[١١]، بتابعاتها ومآسيها.

[١]. كريم عاني الخزاعي، أسواق بلاد المغرب من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع، الدار العربية للموسوعات، من دون، ص. ١٨٩

[٢]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٣٤. ٣٥

[٣]. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولتان المرابطية والموحدية، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج، ٢، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩م. ص. ٢٢٦

[٤]. عباس الجراري، الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره، حياته، وشعره، دار الثقافة، جمادى الثانية ١٣٩٤هـ، ص. ١٨

[٥]. علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص. ٣٦٨

[٦]. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج، ٢، ص. ٢٢٦

[٧]. علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان الفاسي، نظم الجمان لترتيب لترتيب ما سلف من أخبار الرمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة ١، ١٩٩٠م.، ص. ١٨

[٨]. ابن القطان، نظم الجمان... م.س، ص. ١٨

. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج، ٢، ص. ٢٢٦

[٩]. ابن القطان، نظم الجمان... م.س، ص. ١٨

[١٠]. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، تحقيق، محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، ج٤، ط، ١، دار الغارب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص. ٢٦٦

[١١]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣٦١. ٣٦٢

وحسبك أن عهد الخليفة المذكور تزامن مع توالي سنوات الجدب التي بلغت ذروتها في مجاعة عام٦١٧هـ/ ١٢٢٠. وهي المجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم"[١]. ولذلك نعتبر الكوارث والأوبئة من بين العوامل المساعدة لتكرار ظاهرة زوال الحضارات والدول. تماما كما حدث مع الدولة الموحدية.

عمليا، لما كانت المجاعة العظمى التي خلا فيها المغرب، وذلك من سنة تسع عشرة إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة، عدمت الأقوات، ، وتوالت به الفتن، لما أراد الله انقراض الدولة الموحدية، وظهور الدولة المرينية[٢]. ويمكن اختزال هذا النص ذي الأهمية الكبرى في المعادلة التالية

مجاعة = ركود الاقتصاد + انعدام الأقوات = غلاء أسعار + فتن = انقراض الدولة.

وباستحضار باقي عوامل الغلاء، والترابط العلمي الضروري القائم، بين العملة، وبين الأسعار، من ناحية، ثم بينهما، وبين البنية الاقتصادية في علاقتها بما هو اجتماعي وسياسي، من ناحية ثانية، يمكننا تعديل صيغة المعادلة أعلاه وفق الصورة التالية:

فساد العملة وانهيار قيمتها + كوارث ومجاعة وأوبئة + حروب.... = غلاء الأسعار= ركود الاقتصاد + إمكان الزيادة في الضرائب، أو فرض جديدة، وربما غير الشرعية منها = فتن + خراب ودمار= احتمال زوال الحضارات والدول.

وما دامت كل العوامل المساعدة على الغلاء، تساهم في انهيار العملة، لأن الحديث عن الأسعار هو نفسه الحديث عن العملة، ولكن في اتجاه عكسي بالضرورة[٣]، فإنه يمكن اختزال المعادلة في الصيغة التالية:

فساد النقود وانهيار قيمتها = غلاء الأسعار + محن اقتصادية = فتن اجتماعية + خراب ودمار = احتمال زوال الحضارات والدول، حسب الظروف والأحوال، ودرجة الترف، ونمط القيم.

وقد ذكرنا فيما تقدم بعض القرائن الدالة على أن المحن. التضخم. التي عرفها المجتمع الموحدي، كانت بسبب انهيار قيمة العملة، وغلاء الأسعار الذي ساهم في استفحاله الكوارث والأوبئة، وسوء التدبير[٤]، بفساد أهل الدولة، ونضيف إلى ذلك مع تتبع صيرورة الزمن، غياب التبصر السياسي لدى أواخر الخلفاء الموحدين[٥]، الذين تولى

[١]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٣٤. ٣٥

[٢]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٤٩

[٣]- زينب عوض الله وأسامة محمد الفولي، أساسيات الاقتصاد النقدي والمصرفي، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٣م، ص. ٢١٣.

[٤]. ابن القطان، نظم الجمان... م.س، ص. ١٨

. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج، ٢، ص. ٢٢٦

[٥]. امبروسيوهويتي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، تعريب، عبد الواحد أكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات الزمن، الطبعة ١، ٢٠٠٤م، ص. ٥٥٩

بعضهم الأمور مراهقين أو قاصرين[1]. ومثال ذلك، ما حدث مع الرشيد الذي لم يكن سنه يتجاوز ١٤ سنة حين بويع[2]، فاتجه المجتمع في عهده نحو الدمار، ونظام الحكم نحو بداية الاضمحلال والزوال.

يضفي الشرعية على هذا الكلام الذي صغناه في معادلة رياضية، نحسب أنها قابلة للارتقاء إلى مستوى قاعدة علمية، وربما نظرية، صالحة لتناول الظواهر التاريخية. سيما ما يتعلق منها بظاهرة زوال الحضارات والدول، ما ذكره عبد الواحد المراكشي حول مجاعة مراكش سنة ٦٣٢هـ، إذ قال: " ....تحير الناس وكثر فيهم الهرج، وعدم الأقوات والمرافق، ولم يبقى لأحد سبد ولا لبد ولا طارف ولا تالد، لا ذخيرة ولا مال ولا عقار، واستولت المجاعة على جمهور الناس، ورأوا منها محنا يستعاذ بالله منها، وانتهى المد الواحد من القمح الفحصي إلى سبعة دراهم كبارا من طبع السكة.

وأما الدرهم الفضة فكان يصرف في نصف درهم... وأما أسواق المدينة . مراكش . فلم يكن بها ما ينطبق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه، والحوانيت مغلقة، وما بقي بها من يلبس ثوبا يساوي عشرة دراهم... ، وتغيرت الصورة الجميلة، وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة.

وإذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه وإنهم لقيام ينظرون، وما يصل إليه إلا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبر، ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون أو أكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرا، وأما شيخ أو عجوز أو طفل فإنه لا يصل إلى شيء... وكان يباع في الأسواق خبز يعمل من تابودا التي تنبت في الصهاريج وفي الأنهار والسواقي، وهو شبه القصب سم من السموم يتخير منه ما جف ويطحن كما تطحن الحنطة ويعمل خبز"[3]

يؤكد هذا النص بشكل ملموس، صدق ما قلناه، ودقة المعادلات المذكورة أعلاه. وجماع الأمر، أن فساد النقود بفساد السياسية وسوء التدبير، هو السبب الأعظم للغلاء والمحن والفتن، سبب الخراب والدمار، وأن ظاهرة الكوارث والأوبئة التي يتحكم في تكرارها قانون عدمية الأخلاق وانحطاط القيم، تعتبر من العوامل المساعدة على استفحال هذا الغلاء، الذي يفضي إلى زوال الحضارات والدول. تماما كما حدث مع دولة الموحدين، وحضارة الفرس والعرب وغيرهم.

[1]. ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية ... م.س ، ص. ٥٠٥

[2]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣٣٤

[3]. ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص. ٣٢٥. ٣٢٦.

وحسبك، أن سنة ٦٣٥هـ أكل الناس فيها بعضهم بعضا[١]، واستمر الغلاء والوباء المفرط إلى غاية ٦٤٠هـ، وفيها من الناحية الاجتماعية هرب أكثر أهل البلاد[٢]، وعلى المستوى السياسي قنع الرشيد بتبعية اسمية من قبل محمد بن يوسف الذي كان يخطب له على منابر طاعته، ويكتب اسمه في كتبه وسكته، وبقي على هذه الحالة إلى سنة ٦٤٠هـ حين توفي الرشيد[٣].

ومنذئذ، اتجه النظام الحاكم نحو فقدان المشروعية ثم الزوال، إذ كثفت قوى المعارضة من ضغطها على ما تبقى من فلول النظام الموحدي المنهار. وكان للكوارث والأوبئة في ذلك دور كما تبين، والراجح أن ما ينطبق على هذه التجربة وفق ما حددناه من قوانين متحكمة في تكرار الظواهر، ينطبق على غيرها والله أعلم فكل قول قابل للأخذ والرد.

٢ . جائحة كورونا التداعيات، وبعض أوجه التشابه مع الأوبئة الفتاكة القديمة

أ . جائحة كورونا وبعض تداعياتها على الصعيد العالمي.

بداية، جدير بالإشارة أن ما وقع للعرب وحضارتهم ودولهم في المشرق والمغرب الإسلاميين في الماضي، بسببه الأعظم، وأسبابه المساعدة، ومنها الكوارث والمجاعات والأوبئة، لابد من وقوعه للغرب الرأسمالي في المستقبل، وللعديد من دول العالم، لأن أحوال الدنيا متناسبة وقوانين التاريخ ثابتة، "والماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء"[٤].

لذلك، يحتمل أن تكون جائحة كورونا من الأوبئة الفتاكة، بل والفارقة بين مرحلة وبين أخرى، وربما بين حضارة هرمة مدبرة وبين أخرى صاعدة مقبلة، بعد مدة معينة يستلزمها تحقيق ذلك. وعليه، فلا مندوحة أن العالم بعد جائحة كورونا، لن يكون كما كان قبلها، إن صح ما يقال عنها. وبذلك نكون في سياق لحظة فارقة، لتجاوز هذا العالم القائم على الاستغلال والاحتكار والقتل، نحو عالم واحد في مركب واحد[٥]. والحال أن هذه الجائحة أدخلت البلدان القوية في الحضارة الرأسمالية في مرحلة ركود في الاقتصاد، فتوقفت حركة التبادل، وفقدت العديد من الأرواح، حسب ما قيل،

[١] . ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣٦٢.
[٢] . بن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣٣٦
[٣] . ابن أبي زرع، الذخيرة السنية...م.س، ص. ٥٦
[٤] . عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ج، ١، ص. ٩٣
[٥] . عبد الكريم برشيد، الاهتمام، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠، على الرابط : http://ar.telquel.ma/%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D9%8A%

في زمن يعرف حروبا سياسية وعسكرية بين العديد من الدول، التي بدأ بعضها يرفع الحجر الصحي لإنقاذ البلاد والعباد والاقتصاد من خراب ودمار محتمل.

ولعل ما تولد عن هذا الانتشار الوبائي من مخاسر اقتصادية هائلة، جماعية وفردية، وما نشأ من صعوبات في إغلاق حدود الدول، وإلغاء المواصلات العامة، وطلب العزلة في البيوت، وتجنب التواصل الإنساني، والاجتماعات الواسعة والصغيرة هو بعض ما ولدته هذه الحرب من مخاسر وسلبيات عمت البلدان التي حط فيها و انتشر. بيد أن ثمة أبعادا ينطبق عليها قول المتنبي مصائب قوم عند قوم فوائد، فهناك الذين راحوا يفيدون من هذه الحرب، ويمكن تسميتهم تجار كورونا، مثل تجار الحروب الذين يراكمنا الثروات من دماء ضحاياها وخراب عمرانها، ووسائل القتل فيها[1]

وغير ذي شك أن هذا الوباء سيساهم في تعميق المحنة .الأزمة .المالية المعاصرة التي تعاني منها الحضارة والبلدان الرأسمالية منذ ٢٠٠٨. وهي آخر الهزات التي عصفت ببعض يقينيات الرأسمالية المعاصرة، ثم انتفاضات الربيع العربي والتي ألهمت حركة عمالية شاملة للأرحلية "Degagisme ". امتدت من اسبانيا إلى وال ستريت، ووحدت ال ٩٩% في مواجهة ال ١ %".

والحال، أن معظم دول الاتحاد الأوربي، مثقلة بديون مالية كبيرة، ساهمت في إضعاف بنيتها الداخلية الاقتصادية والاجتماعية، سيما إيطاليا وإسبانيا لما تعيشه الدولتان، من مشاكل في البنية الصحية في مواجهة كورونا، والتي تستنجد بمساعدة الدول الأعضاء الأخرى، بغرض إنقاذها هي والعملة الأوروبية الموحدة، والدفاع عنها في مواجهة الضغوطات المستمرة للأسواق العالمية.[2]

وحسبك، أن المندوبية السامية للتخطيط بالمغرب، تتوقع أن يشهد الاقتصاد العالمي تباطؤا ملموسا، خلال الفصل الأول من ٢٠٢٠، متأثرا بتداعيات الجائحة ووقعها على ثقة المقاولات والأسر، وكذلك الأسواق المالية والنشاط الاقتصادي العالمي. كما ينتظر أن يساهم تراجع الإنتاج، واضطراب سلاسل التموين، وانخفاض الطلب

[1] . منير شفيق، الاستغلال الرخيص لمصيبة كورونا، جريدة المساء، العدد، ٤١٤٣، السبت الأحد، ٢١.٢٢.٠٣.، ٢٠٢٠، ص. ٤.٥

[2] يورغن هابرماس: «علينا العمل على المعرفة الصريحة، والكامنة بدورها في عدم معرفتنا، ترجمة : المهدي المقدمي ،جريدة، الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ: ١٣.٠٤.٢٠٢٠، على الرابط :
- https://www.alittihad.info/%D9%8A%D9%88%D8%

الداخلي والخارجي في تقليص نسبة النمو العالمي بما يقرب ٢ نقط خلال سنة ٢٠٢٠، مقارنة مع السنة الفارطة، ليستقر في حدود ٠,٨%، حسب المندوبية.[١]

ويرجح أن يشهد اقتصاد منطقة الأورو انخفاضا يقدر بـ١,٨% خلال سنة ٢٠٢٠، عوض ١,٢+% السنة الماضية، وأن يعرف اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية تراجعا في وتيرة نموه لتستقر في حدود ٠,٥%، عوض ٢,٣+%. وبدوره سيشهد الاقتصاد الآسيوي تباطؤا في وتيرته لتستقر في حدود ٣+%، عوض ٤+% سنة ٢٠١٩، في المقابل، يتوقع أن يحقق اقتصاد الصين نموا يقدر بـ٤+%، عوض ٦,١+% سنة ٢٠١٩، وهي أدنى نسبة تم تحقيقها خلال الثلاثين سنة الماضية.[٢]

وغير ذي شك، أن الحروب المقبلة بين الأطراف المتصارعة على الزعامة الاقتصادية والسياسية والقيمية والحضارية الدولية، ستساهم في ارتفاع منسوب هذه المحنة المالية، وما يرافقها من غلاء وفتن بسبب فساد أمر النقود وانهيار قيمتها، مما يعجل بزوالها. كما حدث للفرس والعرب وغيرهم في الماضي.

ذلك، بإن تصيب رماح القوة الحضارية الصاعدة في لحظة معينة، قلب الحضارة الغربية الرأسمالية الهرمة. وعندما يصاب القلب في الصميم ويتوقف عن النبض بعد مدة، تفارق النفس الجسد، فتتوقف أطرافه عن الحركة، ويصبح جثة هامدة، تتحلل بعد أيام، وهي سنوات بالنسبة للحضارات والدول بعد حروب سجال، ويقتضي ضبط هذه المدة في زمننا هذا بدقة، القيام بدراسة وإحصاءات خاصة، نتركها لفرصة أخرى.

والحال، أن ابن خلدون له في هذا الباب معطيات وإشارات رقمية سابقة، بسبق زمنه. منها ما يتعلق بصراع العباسيين مع الأمويين، وصراع السلاجقة مع بني سبكتكين نحو ثلاثين سنة حتى استولوا على دولته، ثم زحفوا نحو بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر. وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبع وست مئة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين

---

[١] أحمد للحليمي: تداعيات "كورونا".. المندوبية السامية للتخطيط ترسم صورة سوداء للاقتصاد المغربي، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠، على الرابط :
http://ar.telquel.ma/%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%B9%%D9%8A

[٢] أحمد للحليمي: تداعيات "كورونا".. المندوبية السامية للتخطيط ترسم صورة سوداء للاقتصاد المغربي، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦.

سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش. وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس و اقتطعوها وأعمالها من ملكهم. ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة. سنة الله في عباه "ولن تجد لسنة الله تبديلا"[1]. ويضيف رحمه الله، ولا تعترض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية، وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا ﷺ، سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصارا بالإيمان، وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل[2].

جماع الأمر، يحتاج تقدير عمر الصراع الدولي الحضاري في زمننا هذا إلى ما قلناه سابقا. وغير ذي شك، أنه ليس بزمن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و أنه متأخر عن آخر صراع دولي حضاري بما ينيف عن خمسمائة سنة. لذلك، يحتاج حسمه، حسب ما يبدو، إلى مدة مغايرة عن العهود السابقة، بتغير الزمن والتقنيات وأشكال القوة والسلطة والمعرفة. وطبعي، أن تساهم الكوارث والأوبئة في ذلك بنسبة معينة، والراجح أن جائحة كورونا المعاصرة من بين أنواعها الأخيرة أو ما قبل الأخيرة الفارقة بين حضارة هرمة مدبرة، وبين أخرى صاعدة مقبلة، ولا يمكن الحسم في هذا إلا بعد انفراج كربها، وتحديد حجم خسائرها. ولا جرم، أن هذه الجائحة الطبيعية الطبيعية، أو الطبيعية البشرية، خلفت آثارا راجعة إلى أنفس العباد، الذين بدؤوا يتساءلون عن مستقبل العالم، بعد هذا البلاء الذي نزل بالبلدان، وجعل الحالة النفسية في هلع، والعلاقات السياسية في توتر وبداية تصدع، سيما مع تبدل القيم والأحوال، وركود الاقتصاد والعجز في ميزانيات الدول، بعد مرور أكثر من خمسمائة سنة وعام على بوادر تبلور الحضارة الرأسمالية الغربية. ووجهة نظرنا حول هذا التساؤل سنخصص لها ورقة عمل إن شاء الله في المستقبل. فما أشبه الغابر بالحاضر، والحاضر بالآتي.

ب . كورونا وبعض تداعياتها على المستوى الوطني:

بداية، يرى أحد المهتمين، أنه ليس من السهل على دولة تسعى إلى أن تدخل نادي الدول الصاعدة بولوج الاقتصاديات

---

[1] .سورة الأحزاب، آية ٦٢

[2] . عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ج، ١، ص. ٤٩٧ . ٤٩٨

الخمسين الأوائل عالميا سنة ٢٠٢١، أن تجد نفسها في مواجهة شبح الجفاف، وجائحة وبائية شلت الاقتصاد العالمي، وفرضت نمطا جديدا على العلاقات الدولية يقوم على العزلة التبادلية، فكل دولة أغلقت عليها حدودها البحرية والبرية والجوية للحد من انتشار فيروس كورونا (covid- 19). ولمعرفة حجم هذه المحنة التي لم يعرف المغرب المعاصر مثيلا لها، فإن نمو اقتصادنا سيتراجع إلى أدنى مستوى له منذ ٢٠ عاما، ولن يتجاوز في أحسن الأحوال عتبة ٠٢ في المائة، بسبب الجفاف وتأثير كورونا في قطاع السياحة والصناعة والتجارة"[١].

وفي نفس السياق يسايره آخر بقوله إن المغرب يواجه سنة مالية صعبة، بسبب الجفاف وجائحة كورونا ومؤشرات سلبية أخرى. ذلك؛ أن المغرب يعيش واحدة من أسوأ موجات الجفاف التي لم تشهد لها البلاد نظيرا منذ عقود، حيث تتر افق قلة التساقطات مع موجة دفئ مبكرة، تعاني بسببها المزروعات والأنعام. فبحسب الظرفية المسجلة من طرف وزارة الفلاحة، فإن الموسم الفلاحي الحالي يعرف عجزا في الأمطار على مستوى جهات المملكة[٢]، وهذا حكم نحسبه متسرع شيء ما، بل ويحتاج إلى راوية، والحال أن الأيام الأخيرة عرفت تساقطات وزخات مطرية مهمة في طنجة وربما مدن أخرى، الأمر الذي يمكن أن يخفف نسبيا من مشكل قلة التساقطات خلال هذه السنة .

ومن المحتمل أن يعاني الاقتصاد المغربي من أثار سلبية بسبب تفشي وباء كورونا. ويأتي في مقدمة القطاعات المهددة، السياحة التي قد تشهد تراجعا بنسبة ٣٩ %، وهو ما يقارب الخمسة ملايين سائح، وهو ما سينتج عنه تأثيرات وخيمة على المداخيل من العملات الصعبة. ومن القطاعات الأخرى المرشحة للأزمة بقوة، قطاع النسيج والألبسة في الصدارة، بسبب ارتباطه بالسوق الدولي... وضمن المؤشرات السلبية أيضا، سجلت الاستثمارات الأجنبية المباشرة بالمغرب انخفاضا خلال بداية السنة لتستقر عند حدود ١,٤ مليار درهم في مقابل ٢,١ مليار درهم خلال الفترة نفسها من السنة الماضية، وهو ما يعني تراجعا بنسبة ٣٢,٢ % [٣].

[١] . عبد اللطيف الحاميل، كورونا.. محنة ومنحة، جريدة، أخبار اليوم، الأربعاء، ٠١، أبريل، ٢٠٢٠م/ ٠٧، شعبان، ١٤٤١هـ

[٢] . مصطفى واعراب ، المغرب يواجه سنة مالية صعبة، بسبب الجفاف وجائحة كورونا ومؤشرات سلبية أخرى، جريدة المساء، العدد، ٤١٤٣، السبت الأحد، ٢١ .٠٣.٢٢.، ٢٠٢٠، ص. ١٢

[٣] . مصطفى واعراب ، المغرب يواجه سنة مالية صعبة، بسبب الجفاف وجائحة كورونا ... م س، ص. ١٢

وعلى صعيد متصل، كشف مكتب الصرف بأن العجز التجاري للمبادلات الخارجية للمغرب تفاقم بنسبة ١,٧ % بأزيد من ٢٧١ مليون درهم عند متم يناير الماضي. لكن خارج هذه التوقعات المتشائمة ثمة مجال للتفاؤل. ونبرة التفاؤل في توقعات الخبراء تتمثل . مثلا . في أن الأداء السلبي لقطاع السياحة من الممكن تعويضه جزئيا بالآثار الإيجابية لانخفاض أسعار النفط في السوق العالمية[١].

وصفوة القول، فإن المندوبية السامية للتخطيط بالمغرب، تتوقع أيضا في موجز الظرفية الاقتصادية خلال الفصل الأول من ٢٠٢٠، وتوقعات الفصل الثاني من العام ذاته، وأخذا بعين الاعتبار تأثيرات الأزمة الصحية لفيروس "كورونا" المستجد، والحجر الصحي، أن يعرف الاقتصاد الوطني نموا يقدر بـ١,١%، خلال الفصل الأول من ٢٠٢٠ و١,٨-% في الفصل الثاني، عوض ١,٩+% و٢,١+% على التوالي المتوقعة في غياب تأثيرات الأزمة الصحية.[٢]

كما تتوقع أن تشهد نفقات الأسر الموجهة نحو الاستهلاك بعض التقلص في وتيرتها، خلال الفصل الأول من ٢٠٢٠. تماما مثلما، تشهد أسعار الاستهلاك ارتفاعا في وتيرتها، خلال نفس الفترة، لتحقق زيادة تناهز ١,٤%، عوض ٠,٧+%، خلال الفصل السابق. وتعيد المندوبية هذا التحول بالأساس إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية بـ١,٨%، في ظل حالة الطوارئ الصحية.[٣]

ويتوقع أن تواصل أسعار المواد غير الغذائية تصاعدها لتحقق نموا يقدر بـ١,٢%. وعلى العموم، تنظر المندوبية أن يزداد العجز التجاري بـ٢٣,٨%، خلال الفصل الأول من ٢٠٢٠، موازاة مع ارتفاع وتيرة الواردات مقارنة مع الصادرات، فيما سيحقق معدل تغطية الصادرات بالواردات انخفاضا بنسبة ١١,٦ نقطة لتناهز ٤٩,٧%" . هكذا، سيعرف معدل التضخم الكامن، والذي يستثني الأسعار المقننة والمواد الطرية والطاقية، نموا يقدر بـ٠,٦+% في الفصل الأول من ٢٠٢٠، عوض ٠,٧+% في الفصل السابق.[٤]

ورغم هذه المضاعفات الاقتصادية والاجتماعية السلبية لجائحة كورونا في ضوء توقعات المندوبية السامية للتخطيط،

[١] . مصطفى واعراب ، المغرب يواجه سنة مالية صعبة، بسبب الجفاف وجائحة كورونا ومؤشرات سلبية أخرى، جريدة المساء، العدد، ٤١٤٣، السبت الأحد، ٢١ .٢٢.٠٣.، ٢٠٢٠، ص. ١٢

[٢] المندوب السامي للتخطيط أحمد للحليمي: تداعيات "كورونا"... م س.

[٣] المندوب السامي للتخطيط أحمد للحليمي: تداعيات "كورونا"... م س

[٤] المندوب السامي للتخطيط أحمد للحليمي: تداعيات "كورونا"... م س.

والتي تضفي نوعا من المصداقية على الرؤية المنهجية التي طرحنها سابقا، بخصوص علاقة الكوارث والأوبئة بالبنية الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، وما يترتب عن ذلك من محن وفتن، سبب الخراب والدمار، وزوال الحضارات والدول، حسب الظروف والأحوال، ودرجة الترف، ونمط القيم، فإن أحد المفكرين يتفاءل بقوله إن الاقتصاد سينهض لا محالة بعد الخروج من هذا الامتحان وسيكون أكثر عطاء وسنربح مجتمعا مغربيا أكثر تماسكا وسليما ومتضامنا ومنسجما مع ذاته ومع كل المجتمعات الإنسانية المختلفة،[1] وذلك ما يأمله كل إنسان، محب للوطن.

لقد أثرنا أن نسجل بأمانة، بقدر ما تسمح به هذه الورقة، بعض آراء أهل الصحافة والباحثين، وغيرهم عن جائحة كورونا وبعض تداعياتها. بيد أننا نرى أن قراءة أهل التاريخ، تحتاج إلى التأني وشيء من الزمن، قبل إصدار الأحكام، على أحداث ما تزال في بداية أمرها، بل ولا سبيل لمعرفة نتائجها إلا بعد انفراج كربها، خصوصا و أنه غير متحكم في مسارها، و أنه لا يوجد لحد الآن دواء صالح لعلاجها، مع كثرة وسرعة فتكها.

كما ينبغي ألا تنطلق هذه القراءة من زاوية ضيقة، سياسية كانت أم نقابية أم حقوقية أم غيرها، بل يجب أن تكون قراءة قائمة على رؤية شمولية تفقه الو اقع، وتملك من العلم ما يمكن من فهمه، ومن المناهج والدراية ما يساعد على تحليله وتفسيره... ومقارنة أحداثه وأموره، لاستخلاص العبر، وإصدار الأحكام، سيما بعد معرفة قوانين تكرار و اقعات العمران، وغير ذلك مما تحتاجه القراءة المتبصرة لمختلف أنماط الفعل الاجتماعي. وتاريخ الشعوب والأمم والدول في حقيقة أمره ليس شيئا سوى مجموع الأفعال التي تصدر عن الأفراد، خاصتهم وعامتهم، حاكمهم ومحكومهم، صالحهم وطالحهم، قبحيها وحسنها، والله أعلم.

ج . جائحة كورونا وبعض أوجه التشابه مع الأوبئة الفتاكة القديمة.

سبق القول أن التاريخ البشري، تاريخ ظواهر، ومن سمات الظاهرة التكرار. وعليه، فمثلما شكلت الأوبئة في الماضي حافزا لميلاد ما يمكن تسميته بأدب الأوبئة الأندلسية في غالبيته... وكما كان للطاعون الأسود في منتصف القرن الثامن هـ / ١٤م نصيب و افر في هذا الاتجاه"[2]، فالو اقع أن

[1] عبد الكريم برشيد، الاهتمام، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠، على الرابط : http://ar.telquel.ma/%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%B9%%D9%8A

[2] . محمد ياسر الهلالي، أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب خلال أواخر العصر الوسيط، ضمن أعمال

وباء كورونا شكل منذ الآن حافزا للكتابات في المستقبل، بل وعن مستقبل العالم والعلاقات الدولية والحضارة الرأسمالية الغربية بعد كورونا، كونه والله أعلم من الأوبئة الفارقة بين حال وحال في تاريخ المجتمعات والحضارات والدول.

وستزداد معالم هذا الأمر وضوحا مع نهاية هذه الجائحة، وحجم خسائرها البشرية والاقتصادية. والتاريخ سيبطل، أو يؤكد، مدى دقة هذه الرؤية المنهجية، في ضوء قوانين التاريخ وقدرة الدراية العقلية، وما روي من أخبار عن هذه الظاهرة المأسوية في زاوية معينة. وحسبك أن الطاعون الأسود شكل حافزا للكتابة لدى ابن خلدون، المؤرخ الذي فطن في ضوئه وسياقه، لتبدل أحوال العالم وانقلابها بالجملة، " لأن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال[١] .

وقد بدأ بعض الغربيين يستشعرون فعلا خطر كورونا، الذي يبدو أنه من الأنواع الفارقة بين مرحلة وبين أخرى، بين حضارة هرمة مدبرة وبين أخرى صاعدة مقبلة. ففي القوت الذي تساءلت فيه آنا بالاسيو[٢]، إمكان نجاة الديمقراطية الليبرالية من الجائحة، أشار هنري كيسنجر إلى أن " كورونا" سيغير النظام العالمي إلى الأبد، بالخطر الداهم، الذي لا يستهدف شخصا بعينيه، وإنما يضرب بشكل عشوائي ومدمر[٣].

كونه مدمرا، فهذا أمر معروف، وفسرناه وفق سنن التاريخ وتجاربه، أما كونه يضرب بعشوائية، فما نحسبه كذلك، وإنما هو وباء يضرب، إن صح ما يقال عنه، بدقة مضبوطة، ولن يخطئ هدفه بمثقال ذرة، كونه محكوم بقدر، ولا تحكم فيه بعد الحدوث للبشر، الذي ينبغي عليه أن يستسلم لقضاء وقدر رب البشر". ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها"[٤]، مهما كان شأنها وبلدها، " ليقضي الله أمرا مفعولا"[٥]. "والله خبير بما تعملون"[٦]، "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"[٧].

الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، أكتوبر، ٢٠٠٢، ص.١٧٠

[١] .عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج، ١، ص. ١١٦

[٢] . آنا بالاسيو، هل تنجوالديمقراطية الليبرالية من الجائحة؟، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٩، الأربعاء، ٠٩..٠٣.، ٢٠٢٠، ص.١٢ .١٣، على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w.

[٣] .هنري كيسنجر، " كورونا " سيغير النظام العالمي إلى الأبد، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٩، الأربعاء، ٠٩..٠٣.، ٢٠٢٠، ص.١٢ .١٣، على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w.

[٤] .سورة المنافقون، آية، ١١.

[٥] .سورة الأنفال، آية، ٤٤.

[٦] .سورة المنافقون، آية، ١١.

[٧] .سورة الشعراء، آية، ٢٢٦.

وعلى غرار وباء كورونا الذي ينتقل باللمس ومخالطة المرضى، وعن طريق المفرزات التنفسية المزفورة مثل السعال أو العطاس[١]، "كانت عدوى الطاعون الأسود تنتقل أيضا بالتنفس ومخالطة المرضى"[٢]. يقول ابن الخطيب "فغير خفي عمن نظر في هذا الأمر أو أدركه، هلاك من يباشر المريض، بهذا المرض غالبا، وسلامة من لا يباشر"[٣]. ونفس ذلك يحدث للأطقم الطبية في زمن كورونا.

ورغم ما يقال عن تقدم الطب والعصر وعلومه، يبقى العجز عن السيطرة على هذا الوباء، هو العجز ذاته، في الغابر والحاضر، "ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور"[٤]، سواء كان الوباء طبيعيا خالصا أم أم للإنسان فيه يد. وهذا الأمر في جانب منه، حسب ظننا وتصورنا، لا يهم. الأساس أن وباء كورونا واقع معيش، مهما كان من دقة أو عدمها، في عدد الذوات التي يصيبها، والأنفس التي يحصدها. والراجح أن الطاعون الأسود كان أكثر فتكا وأسرع انتقالا من كورونا، إذ بمجرد وقوعه في الدار الواحدة يشتعل منها في أفذاذ المباشرين ثم في جيرانهم و أقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق"[٥].

وكما أن الضرر يحصل من تلقي أنفاس المرضى، فكذلك يحصل من الأبخرة المتصعدة من أبدانهم وإن كانت دون ذلك في التأثير، وكذلك من استعمال ملابسهم وفرشهم التي تقلبوا فيها زمن مرضهم إذا استعمل ذلك عن شعار فيما يلي الأجساد، أو دووم على استنشاقه، كل ذلك شهد له العلم والتجربة، حسب ابن الخطيب. و يضف أنه شاهد أهل سوق الخلق بألمرية الذين كانوا يبتاعون بها ملابس الموتى وفرشهم، مات أكثرهم، ولم يسلم منهم ولا من الذين خلفوهم إلى الآن إلا الأقل، وغيرهم من أرباب الأسواق حالهم كحال سائر الناس" [٦].

وفي ضوء هذه الشهادة التاريخية، ننصح التجار الذين يبتاعون الأثواب البالية والسلع المستعملة الوافدة من أوربا ومن غيرها، بأخذ الحيطة والحذر، بل والابتعاد عنها إذا أمكن، وتعويضها ببضائع أخرى، لطلب الرزق والمعاش. ونفس النصيحة نسديها لفقراء الناس وعامة أهل الضعف

[١]. مصطفى الاكادوري، لعبة كورونا، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠، ص. ٧

[٢]. لسان الدين ابن الخطيب، المقالة المسماة بمقنعة السائل عن المرض الهائل، مخطوط، ص ٥. على الرابط: file:///C:/Users/TOSHIBA/Downloads/MSS_5067_8.pdf

[٣]. لسان الدين ابن الخطيب، المقالة المسماة بمقنعة السائل عن المرض الهائل، مخطوط، ص ٤٠٣

[٤]. سورة الأنفال، آية، ٤٤

[٥]. لسان الدين ابن الخطيب، المقالة المسماة بمقنعة السائل عن المرض الهائل، مخطوط، ص ٤٠٣

[٦]. لسان الدين ابن الخطيب، المقالة المسماة بمقنعة السائل عن المرض الهائل، مخطوط، ص ٥.

والخصاصة، ولسائر المستهلكين لهذه السلع البالية المستعملة المستوردة، بحكم ضعف قدرتهم الشرائية، وتراجعنا الحضاري، أو لأسباب استثنائية تشذ عن ذلك، إلى أن يتم بيان عدم ضررها من قبل أهل الاختصاص في الطب، والسلطات العمومية المسؤولة عن تدبير الشأن العام.

وهذا الأمر من أولى الأمور بالحرص على تنفيذ المسؤولية، وتنزيلا البنود الدستورية والحقوقية، حفاظا على الأنفس البشرية من المرض والهلاك. وفي حال بيان ذلك، أي غياب الضرر، لابد من أخذ الحيطة والحذر أثناء اقتنائها، سيما خلال تجريبها في محلات بيعها، ثم تنظيفها بالماء والمطهرات الملائمة لها بالدور في حال اقتنائها.

وبقدر ما أبانت جائحة كورونا عن مكانة أهل العلم والفقه والصلاح والزهد والتقوى داخل المجتمعات، وفي كوامن الأنفس البشرية بالبلدان الإسلامية، كما هو ظاهر عبر وسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة، بل وتمت عودة بعضهم إلى الواجهة، عبر تقديمهم في القنوات العمومية الرسمية، للتذكير بالقيم الفاضلة، والنصوص الشرعية ذات الصلة بحدوث الأوبئة، وسبل التعاطي معها، لمحاصرتها وتفادي عموم البلوى بانتشارها، بقدر ما أبانت أيضا أن جل التاريخ البشري، إن لم يكن كله، عبارة عن ظواهر، وأن تكرارها محكوم بقوانين.

ذلك أن الكوارث والأوبئة التي حدثت على سبيل المثال في أواخر الدولة الموحدية، أعادت أيضا إلى الواجهة الفقهاء والأولياء وأهل الصلاح والتقوى، بل قيل إن فقهاء المالكية تنفسوا الصعداء[1] بمبادرة المأمون الجريئة، لما أشاع النكير على المهدي في العصمة وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح، وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه، و أنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة، وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة، وأعلن بلعنه[2].

والراجح أنه حاول بذلك كسب الرأي العام بدعوته في أول أمره إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحض على الصلوات و إيتاء الزكاة و إيتاء الصدقات، والنهي عن شرب الخمر والمسكرات[3]، لأن الدولة كانت في

---

[1] . سعيد لمليح، المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م، ص. ٢٣٦.

[2] – عبد الرحمان ابن خلدون، ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق شحاذة، مراجعة سهيل زكار، ج، ٦، دار الفكر للطباعة، ٢٠٠٠م، ص. ٣٨١.

- لسان الدين بن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ج، ١، القاهرة، الطبعة ٢. ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص. ٤١١-٤١٢.

[3] . ابن الخطيب، الإحاطة ... م.س ، ص. ٤١٢.

مرحلة محن وفتن. تماما مثلما عمل على استقطاب المذهب السني المالكي المتصاعد في بلاد المغرب[1]، وحاول كسب تعاطفه لما رأى له من تأثير في الحياة السياسية وتداعياتها.

وفي السياق نفسه، يرى أحد الدارسين أن كوارث الجدب والقحط، بما ينتج عنها، عادة، من أوبئة وأمراض، أضفت شرعية اجتماعية وسياسية ودينية على تيار اجتماعي، كان لا يزال يبحث له عن موطئ قدم داخل الخريطة السياسية والدينية، ويقصد بذلك، تيار الأولياء والصلحاء. إذ لم يكتف هؤلاء بالتدخل لمناصرة الشرائح الاجتماعية المتدنية من الناحية السياسية، بل تعدوا ذلك إلى البروز على الواجهة الاقتصادية. ذلك؛ أن نشطاء هذا التيار اعتبروا الواجهة الاقتصادية منبرا أبرزوا من خلاله حضورهم الدائم إلى جانب المستضعفين، هادفين من وراء ذلك إلى إظهار فشل السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة[2].

III . المجاعات والأوبئة، بعض أشكال التفاعل في الماضي والحاضر، والعبر المستخلصة.

١ . أشكال التفاعل الرسمية والشعبية

أ . بعض أشكال التفاعل الرسمي مع جائحة كورونا

معلوم أن الدول والمؤسسات الرسمية المعاصرة، قامت حسب إمكاناتها بتقديم العلاج والتطبيب للمرضى، باستعمال أدوية قديمة، مثل دواء الكلوروكين، الموصوف للملاريا، ودواء هيدروكسي كلوروكين. وهي تسعى جاهدة للوصول إلى لقاح فعال ومضاد لهذا الوباء المستجد، كما قامت بدعم القطاعات المتضررة، وأخذت احتياطات لمحاصرة وباء كورونا، بفرض حالة الطوارئ والحجر الصحي، وتعليق الرحالات البرية والجوية بين العديد من الدول. وتم إغلاق الحدود وتسخير الجيوش لمنع خرق الناس حظر التجول.

كما تم توظيف الإعلام لتحسيس الناس بخطورة المرض، وتوعيتهم بالإجراءات التي يجب القيام بها من النظافة والحفاظ على مسافة معينة بين الأشخاص في الدور، وأماكن العمل الحيوية، وفي الشوارع أثناء الخروج للضرورة، قصد التبضع أو العمل أو التطبيب أو غيرها من الأمور الضرورية، مع التوفر على رخصة مسلمة من قبل

[1] . لخضر محمد بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ٥١٠-٦٦٨هـ/١١١٦-١٢٦٩م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة١، ٢٠٠٩م، ص. ٣٨٠

[2] . الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٣٥

السلطات المحلية تسمح بذلك. وقد أثبتت الإحصائيات أن البلدان التي التزم سكانها بالحجر الصحي عبر المكوث في الدور، تمكنت إلى حد ما من تقليل عدد الإصابات، مقارنة بغيرها من البلدان التي انتشر فيها بشكل كبير، مثل اسبانيا و ايطاليا وفرنسا وغيرها. وتم تسخير قنوات الإعلام للتواصل مع المواطنين، وفتح نقاشات حول مستقبل العالم، والرد على التصريحات الدولية بسبب كورونا

وفي المغرب واصلت عناصر المديرية العامة للأمن الوطني حملة التوقيفات في صفوف المخالفين

والمتهورين المتهمين بخرق قانون الطوارئ، والمتهمين من أجل تهم عديدة منها إهانة السلطات المحلية واستغلال حالة الطوارئ لاقتراف أفعال إجرامية وترويج مواد فاسدة[1]. كما تمكنت مصالح المركز المحلي للدرك الملكي بطنجة، زوال يوم الاثنين ٣١. مارس، ٢٠٢٠ . من تفكيك عصابة إجرامية متكونة من أربعة أشخاص، تتراوح أعمارهم ما بين ٢٣، و٤٦ سنة من ذوي السوابق القضائية، متخصصة في السرقة والسطو على الممتلكات الخاصة واعتراض سبيل رواد سوق الجملة للسمك، المتواجد بجماعة كزناية بطنجة[2].

وفي الوقت الذي أكد فيه مركز السياسات من أجل الجنوب الجديد أن الحجر المنزلي أفضل وسيلة لمواجهة جائحة كوفيد ١٩ في القارة الإفريقية. أمر الملك محمد السادس بإحداث الصندوق الخصوصي للتبرع، لمواجهة تداعيات هذا الوباء، حيث وصلت المساهمات إلى حوالي ثلاث مليارات دولار، رغم أن الاعتمادات حددت في عشرة ملايير درهم فقط، أي واحد مليار دولار[3].

ونشرت جريدة " إيل إمبارسيال، مقالا بعنوان محمد السادس، ملك، استثناء، جاء فيه، أنه في الوقت الذي قللت القوى العظمى من خطورة الأزمة التي خلفها فيروس كورونا، فإن المغرب تعامل معها بشكل جدي منذ ظهور أول حالة. و اتخذ على الفور مجموعة من الإجراءات من أجل احتواء انتشار العدوى وتخصيص مساعدات للموطنين المتضررين بالإضافة إلى وضع مخطط لانقاد الاقتصاد... و أكدت الجريدة أن قرار الملك حماية شعبه من فيروس كورونا على حساب الاقتصاد، أدى إلى رد فعل شعبي ووطني تجلى في الالتزام

[1] . نور الدين عفير، جريدة رسالة الأمة، العدد، ١١٤٩٢، الأربعاء، ٠٧. شعبان، ١٤٤١/ ٠١. أبريل، ٢٠٢٠، ص. ٤

[2] . رشيد ع، طنجة ، الدرك يفكك عصابة استغلت الطوارئ لسرقة رواد سوق الجملة للسمك، جريدة رسالة الأمة، العدد، ١١٤٩٢، الأربعاء، ٠٧. شعبان، ١٤٤١/ ٠١. أبريل، ٢٠٢٠، ص. ٤

[3] . عبد اللطيف الحاميل، كورونا.. محنة ومنحة، جريدة، أخبار اليوم، الأربعاء، ٠١، أبريل، ٢٠٢٠م/ ٠٧، شعبان، ١٤٤١هـ

بالحجر الصحي. كما أمر بإغلاق الحدود، وتوقيف الأنشطة الاقتصادية باستثناء تلك المتعلقة بالمنتجات الأساسية[١].

وفي ضوء هذه الإجراءات وغيرها، يقول عبد الكريم برشيد لا ينبغي أن تكون حاكما إن لم تكن حكيما، ومن المؤكد أن قرارات الملك حكيمة وتقرأ المستقبل والأتي، فقد اختار التضحية بالاقتصاد من أجل أن يعيش الإنسان، ولم يعطي الفرصة لمصاصي الدماء وتجار الحرب، بأن ينتعشوا في هذا الزمن الصعب"[٢].

وساهمت النقابة الوطنية للصحافة المغربية ب : ٢٥ مليون سنتيم في صندوق كورونا، وتبرع رجال ونساء الأمن بكلميم بالدم. وقررت مجموعة القرض الفلاحي بتأجيل سداد أقساط قروض السكن والاستهلاك. كما تم تقديم تعويضات للمتوقفين عن العمل، و أيضا للمشتغلين في القطاع غير المهيكل، واعتبر يوم الجمعة، ثالث أبريل آخر أجل للتصريح بالأجراء المتوقفين مؤقتا عن العمل، حتى يتمكنوا من الاستفادة قبل سادس أبريل المقبل، من التعويضات الجزافية برسم شهر مارس، والمحددة في ألف درهم بالنسبة لكل أجير. كما تم توقيف العديد ممن خرقوا حالة الطوارئ في مناطق مختلفة[٣].

وقامت الحكومة بتأجيل ترقيات الموظفين في سياق تداعيات فيروس كورونا، وهو ما عرض رئيس الحكومة سعد الدين العثماني لانتقادات من قبل بعض النقابات، الأمر الذي جعله يستدعي يوم ٣٠ مارس ٢٠٢٠، ممثلي المركزيات النقابية الأكثر تمثيلية، وهي الاتحاد المغربي للشغل، والكونفديرالية الديموقراطية للشغل، والاتحاد العام للشغالين بالمغرب، والاتحاد الوطني للشغل بالمغرب، لطمأنتهم بخصوص هذا الإجراء من جهة، وإطلاعهم على الإجراءات التي اتخذتها الحكومة لمواجهة جائحة كورونا. وأشار العثماني حسب مصدر نقابي، إلى أن تأجيل الترقيات لسائر الموظفين، باستثناء الأمن وقطاع الصحة، لا يتعلق بالمساس بحقوق مكتسبة، إنما هو مجرد إرجاء ترتيب الأثر المالي لهذه الترقيات إلى حين تجاوز هذه الظرفية، مع الحفاظ على الحقوق المكتسبة[٤].

---

[١] . عزيز الساطوري، إيل إمبارسيل، الملك محمد السادس أكد مرة أخرى أنه الضامن الأساسي لاستقرار البلاد،جريدة، الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ: ١٣ . ٠٤ . ٢٠٢٠، على الرابط : https://www.alittihad.info/%D9%8A%D9%88%D8%

[٢] . عبد الكريم برشيد، الاهتمام، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠، على الرابط : http://ar.telquel.ma/%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D9%8A%

[٣] . جريدة رسالة الأمة، العدد، ١١٤٩٢، الأربعاء، ٠٧. شعبان، ١٤٤١/ ٠١. أبريل، ٢٠٢٠، ص. ٤

[٤] . انظر، جريدة، أخبار اليوم، الأربعاء، ٠١، أبريل، ٢٠٢٠م/ ٠٧، شعبان، ١٤٤١هـ

وسيبقى موعد السادسة من مساء كل يوم في فترة الحجر الصحي المغربي المرتبط بكورونا، موشوما في الأذهان إلى ما نهاية، حسب أحد الصحفيين، وهو الموعد الذي صارت له هيبة، منذ الإعلان عنه ليقدم فيه فريق من وزارة الصحة النتائج الرسمية لتطو وباء كورونا، وتخصيصا الحالات التي خضعت للمعاينة والتحليل، فضلا عن عدد الوفيات، وتلك التي شفيت[1].

وهكذا يرى صاحب هذا الرأي، أن المعركة الجارية ضد فيروس كورونا، سلطت الضوء على مشكلة على قدر شديد من الأهمية في البلاد، ويتعلق الأمر بتعدد الإعلام غير الجاد، والوسائل المستعملة لنشر التفاهة وصناعتها في الأساس. ومن ثم، يتساءل عن هذا النوع من الإعلام الذي لم يعد له دور بارز، هل يستطيع العودة بعد أن تنحصر الجائحة[2].

ب . الدولة الموحدية، وطرق تفاعلها مع بعض المجاعات والأوبئة في أواخر عهدها.

يكاد يشبه التفاعل الرسمي مع جائحة كورونا في صيغته العامة، بعض أشكال التعاطي مع الأوبئة القديمة[3] في مناطق مختلفة من العالم. ونكتفي في هذا الصدد بذكر نماذج من أشكال تدخل الدولة المغربية خلال حدوث بعض الأوبئة في الفترة الوسيطية والحديثة. وفي هذا السياق يرى أحد الدارسين أن سلاطين المغرب تمتعوا عموما، بهيبة روحية وتأثير كبير في مختلف فئات الشعب، بحيث نشأت عند السكان قناعة راسخة بأنهم ذوو بركة خارقة، تحيط بهم عناية خاصة. ومن هذا المنظور تبلورت في الذهنية الجماعية إيديولوجية ذات سمات واضحة جعلت الفلاحين ومختلف الفئات يرون فيهم حصنا منيعا من الجوائح. وهي صورة مثالية كثيرا ما كذبتها الوقائع[4].

فلا مندوحة، أن تحاول الدولة التدخل لمحاولة ضبط توازنات الأسعار لمحاولة لجم الفتن التي تهددها بسبب الغلاء الناجم عن انهيار قيمة النقود والضرائب والكوارث والأوبئة، وربما سوء التدبير. وخير مثال على ذلك، ما كانت تقوم به الدولة الموحدية من اقتطاع لمجموعة من الرسوم الجبائية

[1] . يونس الخراشي، عودة الإعلام الجاد إلى صدارة المشهد الصحفي المغربي، السادسة مساء بتوقيت كورونا، جريدة، أخبار اليوم، الأربعاء، ٠١، أبريل، ٢٠٢٠م/ ٠٧، شعبان، ١٤٤١هـ.

[2] . يونس الخراشي، عودة الإعلام الجاد إلى صدارة المشهد الصحفي المغربي، السادسة مساء بتوقيت كورونا، جريدة، أخبار اليوم، الأربعاء، ٠١، أبريل، ٢٠٢٠م/ ٠٧، شعبان، ١٤٤١هـ.

[3] . انظر المراجع الآتية:

. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين... م س.

. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨ و ١٩م... م س.

. عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان... م س.

[4] . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ... م س، ص. ٣٦١

العينية من مداخيل الفلاحين وتجار المواد الغذائية لتقوم بخزنها قصد التصرف فيها عند الحاجة. ولذلك لم يكن من الصدفة أن يطلق على الدولة لفظ المخزن[١].

وهو مصطلح يدل في أصله على جوانب من الوظيفة الاجتماعية للدولة المغربية، إذ كان السلاطين المغاربة يحرصون على بناء الأهراء الضخمة لتخزين المؤن، وكان أحد أغراض هذا التخزين الرسمي ضمان إمداد منتظم للأسواق للحد من موجة الغلاء في السنوات السيئة أو في حالة حصار، وأيضا لإغاثة المنكوبين في حالة مجاعة مفرطة[٢]. وأحيانا تم توزيع محتويات مخازن الدولة الموحدية مجانا على المستضعفين والجياع[٣].

فخلال سنة ٦١٦هـ كان الغلاء بالمغرب، وهي السنة ذاتها التي رفع خلالها المستنصر شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جديد، كما دعا إلى أخذ الناس بإقامة الدين. ويمكن تلمس خطورة هذا الغلاء على الوضع الاجتماعي والسياسي، في إقدام الخليفة المستنصر على فتح المخازن المعدة لاختزان الطعام، لاحتواء أزمة الغلاء، ففتحت للعامة وفرقت عليهم، وذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء[٤].

ونخالف أحد الدارسين الرأي[٥]، كون هذا التدخل أدى إلى تحسين أحوال الناس، بدليل أن الأزمة كانت هيكلية، وأن الغلاء استمر لأسباب متعددة، سببها الأعظم فساد أمر النقود وانهيار قيمتها، بفساد التدبير، والتزوير وكثرة الضرب مع ظهور الخارجين على الدولة، بل وتعددهم واستفحال أمرهم فيما بعد بالمغرب والأندلس و افريقية والجزائر وغيرها. الأمر الذي أوهن قوة الدولة وقلص ظلها، ورفع منسوب محنها وفتنها، وغلاء الأسعار بها وطول أمدها.

وساهم في استفحال ذلك ما حدث فيما بعد من كوارث طبيعية وأوبئة، سيما مجاعة ووباء سنة ٦٣٢ هـ، بمضاعفاتها الكارثية، كما تحدثنا عن ذلك من قبل. وإلى جانب هذا الإجراء الذي استهدف من قبل المستنصر، ضبط توازنات الأسعار وتحسين القدرة الشرائية ولو بصفة مؤقتة، سواء للخاصة أو العامة خلال هذه الأزمة، قام الخليفة المذكور أيضا بتفريق الأموال[٦]، لتحقيق الغاية السالفة الذكر، وهو ما لم يكن من عاداته، مثلما كان الحال مع جده يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله.

وبقدر ما يرى ابن عذاري في مبادرة المستنصر الرامية في العمق إلى الحفاظ على استقرار

---

[١]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٦٩

[٢]. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ... م س، ص. ٣٦٣.

[٣]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٦٩

[٤]. ابن عذاري، البيان المغرب، ج، ٤، ص. ٢٦٧.

[٥]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٧٠

[٦]. ابن عذاري، البيان المغرب، ج، ٤، ص. ٢٦٧.

قيمة العملة، وتحقيق التوازن الاقتصادي الذي لا يمكن أن يتأمن إلا إذا احتفظ النقد بقيمته طوال السنين ولو بصورة معقولة وتقريبية[١]، مجرد جميل وخير جزيل[٢] قام به السلطان المذكور تجاه الرعية إثر غلاء الأسعار سنة ٦١٦هـ، وهي مبادرة محمودة على كل حال، بيد أنها ليست بالضرورة كانت مقبولة من قبل الثوار، بقدر ما أرى فيها على غرار ما قام به أبو سعيد عثمان المريني سنة ٧٢٤هـ[٣]، مجرد حلول ترقيعية ومهدئات سياسية، غايتها شراء السلم الاجتماعي، واحتواء أزمات انهيار العملة وغلاء الأسعار من أجل ضمان استمرار نظام الحكم، وحماية مصالح المستفيدين من وجوده من الوزراء وغيرهم، وعلى رأسهم الوزير ابن جامع الذي كان يقاسم اللصوص وقطاع الطرق ما ينتهبونه من التجار والمسافرين[٤].

يعطي الشرعية لهذا التخريج فساد حاشية المستنصر ومدبري سياسته[٥]، والحال أنه لم لم يكن صاحب حكمة ولا تجربة[٦]، فحسب، بل وأعرض عن تدبير أمور الدولة[٧] واعتكف على اللعب واللهو والخمور، وسلم الملك إلى أعمامه وقرابته، وفوض أموره إلى وزرائه وأشياخ دولته، فتحاسدوا فيما بينهم على الرياسة... وجاروا في الأحكام[٨].

وحاولت دولة الموحدين توفير العلاجات الضرورية للمرضى والبحث عن الأدوية المناسبة للأمراض الواسعة الانتشار. وقد بلغ الطب على عهد الموحدين، سيما في عهد المنصور، درجة عالية من التطور كان معها الأطباء يجربون الأدوية في الحيوانات والطيور قبل إعطائها للمرضى الشيء الذي ينم عن وجود مختبرات ومعامل لصناعة الأدوية واللقحات[٩].

٢. على المستوى الشعبي

أ . جائحة كورونا وبعض ردود الأفعال الاجتماعية.

معلوم، أن وباء كورونا أصبح على المستوى الشعبي، حديث الناس على الصعيد العالمي، يتداولون أخباره ومآسيه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، هذه الوسيلة التي أضحت وسيلة للتعبير عن الرأي، وعما في كوامن الأنفس، سواء بالجد أو الهزل أو

[١]. بيار برجيه، العملة ودورها في الاقتصاد العالمي، ترجمة علي مقلد، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة١، ١٩٧٠م.، ص. ٨٦

[٢]. ابن عذاري، البيان المغرب... م.س ، ص. ٢٦٧

[٣]. عبد المجيد النوري، العملة وتأثيراتها السياسية في تاريخ الغرب الإسلامي، ص. ٨٩ وما بعدها.

[٤]. بن القطان ، مصدر سابق، ص. ١٨.

[٥]. بن القطان ، مصدر سابق، ص. ١٨.

[٦] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣١٨

[٧]. بن القطان ، مصدر سابق، ص. ١٨.

[٨]. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٣٦٨.

[٩]. الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٧١

السخرية والضحك والنكتة والطرفة، وترويج النصوص القديمة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها ذات الصلة بالمجاعات والكوارث والأوبئة. والحال أن الكثير من أخبارها زائفة، تماما مثلما كتب حوله الصحافيون وأهل التاريخ والسياسة والاقتصاد والأدب والفكر وعلم الاجتماع وغيرهم، فلا مندوحة أن الأوبئة الفتاكة، بل والفارقة بين مرحلة مدبرة، وبين مرحلة أخرى مقبلة، محفزة على الإبداع، إما بسبب صدمة الناس، أو بسبب استشعار تبدل الأحوال والقيم، ولا مناص من ذكر بعض آراء هؤلاء فيما سيأتي.

بداية، يرى أحدهم أنه مع انتشار هذا الوباء أصبح كل شيء معد حتى الأماكن والأشياء أصبحت موبوءة، الأمر الذي اقتضى الانفصال بين الناس، ومنع الأهل من التماس مع أبنائهم وأحفادهم، وحرم التزاور بين الأصدقاء، وحظر السفر بين البلدان والأمم، فأمسى الآخرون جحيما، كما قال سارتر، بل أصبحت حتى الأشياء والأماكن جحيما، وهذا ما جعل الحياة، حسب محمد المصباحي، تصل إلى ما يقارب الصفر[1]. ذلك؛ أننا لم نفقد فقط حريتنا في التنقل والعيش المشترك، بل أصبحنا تحت طائلة الرقابة والحجز والمنع والتحريم. هكذا تعطل كل شيء في الدولة تقريبا، ولم يفلت من العطالة والتعطيل إلا الدولة التي أثبتت من جديد أنها هي الفاعل السياسي والتاريخي الوحيد في هذه الأزمة[2].

والحال، أنه لم يعد سرا أن تفشي فيروس كورونا المستجد، فرض الحجر الصحي على المواطنين، خوفا من تفشي الوباء. كما أصبح يتهدد الروابط الاجتماعية، وأطلق العنان لما يشبه الحرب الأهلية، حيث يكون فيها الجميع حذرا من جاره. وقد أظهرت بعض صور التدافع في المتاجر لاقتناء الحاجيات الضرورية، خصوصا مع بداية هذه الجائحة، كيف طغت الشخصانية على الكثيرين. وزاد الأمر خطورة، لما اضطر بعض الأطباء في بعض دول أوربا، إلى اختيار مريض لإنقاذه، بدلا من آخر، بسبب نقص المعدات، تماما كما يحدث في زمن الحرب[3].

إضافة إلى ذلك، سجل أحد الإعلاميين، كيف هرع الناس إلى الأسواق وجففوها من كل المعروضات... وقاموا باكتناز المؤن

[1]. محمد المصباحي، درجة الحياة قاربت الصفر وأصبح كل شيء جحيما مع هذا الوباء، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٩، الأربعاء، ٠٩.٠٣.٢٠٢٠، ص. ٠٤ . ٠٥ على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w

[2]. محمد المصباحي، درجة الحياة قاربت الصفر وأصبح كل شيء جحيما ... م س، ص. ٠٤.٠٥.

[3]. أحمد أمشكح، هكذا يعيش العالم الوجه الآخر ل " كورونا"، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٩، الأربعاء، ٠٩.٠٣.٢٠٢٠، ص. ٠٧. على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w

لدوائر الزمن[1]. وما الزمن بغادر كما زعم صاحب هذا الرأي الأخير، إنما يجني الإنسان حصاد ما زرعت يداه من قيم وأعمال بين زمن وزمن. وتساءل هذا الإعلامي أيضا، كيف انتقل العالم من قيم التبذير، وارمه بعد الاستعمال، وذلك الاستعراض السحري الذي كانت تمارسه علينا المنتوجات والسلع بوفرة غير مسبوقة في تاريخ الجنس البشري، إلى عالم الندرة والخوف من الجوع والموت بالفيروس القاتل[2]. والحقيقة أن التساؤل يحمل في ذاته جوابه، ومضمونه يستخلص بشكل عام في ضوء ما سبق، فلا داع للرد عليه، وفي التاريخ عبرة لمن يتدبر ويعتبر، فقد مضى من الكوارث والأوبئة ما هو أسوء بكثير، وقد سبق القول أن تكرار الظواهر محكوم بقوانين.

وغير ذي شك، أنه عندما تمر هذه الأزمة، سننظر إليها، كما قال ديفد بروكس، باعتبارها واحدة من أكثر مراحل حياتنا غنى بالمعاني[3]. فالوباء اليوم وحش غير مرئي، ولكنه بادي عالما أفضل...ذلك، أنه فرض على الأمريكيين، حسب الشخص المذكور، معالجة مشاكلهم بطرق لم يكونوا مضطرين إليها من قبل، ولكن الوباء يخرج القدرة على الإبداع. كما أنه خلال الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، تولد أشكال التنظيم العظيم للمستقبل... والصورة النموذجية للتفاعل الاجتماعي الشعبي مع هذه الأزمة حسب رأيه، هي تلك الصور التي لاحظها على الانترنيت لأشخاص يجدون طرقا للغناء والرقص معا عبر المسافات"[4].

ويضيف أنه أجرى اتصالا على تطبيق "زوم" مع ثلاثين شخصا، وكان كل واحد منهم قد بدأ نشاطا جديدا لخدمة جيرانه"[5]. وفي ذلك دلالة كبرى على الإحساس الفطري بقيم التضامن والتعاون، باعتبارهما من مكارم الأخلاق، التي تممها وحث عليها الإسلام، والتي تظهر بشكل عفوي، ورد فعل شعوري لا شعوري، خلال الابتلاءات والأوبئة والمحن، رغم أن الرأسمالية الغربية، فككت الأسر، وهدمت الكثير من أخلاق وقيم التضامن والتعاون، وحفظ حقوق الجوار، سيما في المعاملات والعمران، في مقابل زرع ورعاية ثقافة الفردانية والمصلحة الذاتية.

[1]. عبد العزيز كوكاس، هكذا حول فيروس كورونا الإنسان المعولم إلى فارس بلا وجود، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٩، الأربعاء، ٠٩.٠٣.٢٠٢٠، ص.٠٩. على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w

[2]. عبد العزيز كوكاس، هكذا حول فيروس كورونا الإنسان المعولم إلى فارس ... م س.

[3]. ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٨.٠٣.٢٠٢٠، ص. ٠٦.

[4]. ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٨.٠٣.٢٠٢٠، ص. ٠٦.

[5]. ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٨.٠٣.٢٠٢٠، ص. ٠٦.

ولذلك، فمن الدروس المستفادة من هذا الوباء حسب عبد الكريم برشيد، هو تقوية حاسة التضامن والتكافل في المجتمع، إذ لا معنى أن يذهب أحدنا للسوق ويأخذ كل شيء ويترك جاره بلا شيء[١]. تماما مثلما نحن في حاجة كذلك، ليس إلى تطهير اليدين، بل إلى تطهير القلوب من الأحقاد والعقول من الفيروسات كذلك. كما أننا في حاجة إلى طهارة فكرية، وإلى عالم أكثر أخلاقا وأكثر جمالا، وغير ذي شك أن الجمال جمال، والحق حق، ولا يمكن أن يتناطح في ذلك كبشان[٢].

والجميل، بل الصورة النموذجية بالنسبة إلينا، فيما ذكره ديفيد بروكس عن بعض مظاهر التعاطي الاجتماعي الشعبي مع جائحة كورونا بأمريكا، هي ما قامت به إحدى السيدات التي عملت على توزيع بذور الخضار حتى تستطيع الأسر زرع حديقة خضر خاصة بها[٣]. ويستخلص من هذا السلوك النبيل، خوف الناس الفطري من فقدان القوت الغذائي، وهو خوف طبيعي فقد مر على الناس من الأحداث، ما اضطرهم خلال الكثير من الأوبئة والمجاعات، إلى أكل الحشائش والدواب والقطط والفئران، بل وجيف بني أدام وغيرها. فالجوع إذا ألم بالإنسان، يمكن أن يرتد به إلى بعده الحيواني، سيما إذا كان هناك ضعف في الإيمان.

ومن يقرأ التاريخ، يستخلص منه حكما وعبرا. و أفضل ما يستخلص من عبره في ضوء ما نحن فيه، ما قامت به السيدة التي وزعت بذور الخضار على جيرانها بأمريكا، وجوهر عبرته، كونه على صلة وثيقة باختطاط العمران، وتصميم الدوروالبنيان، كما سنفصله في موضعه فيما سيأتي من مقبل الكلام. و إلى جانب ما قامت به هذه السيدة، كان آخرون يحولون المكتبات الصغيرة التي على الحدائق الأمامية للمنازل إلى خزائن للمؤن الغذائية[٤]، وبعض الأشخاص يضعون على منازلهم أضواء الزينة التي توضع في الأعياد عادة من أجل إشاعة جو من البهجة والانشراح[٥]. وهو عمل عمل يسعى إلى طمأنة الإنسان بطرد الخوف والحزن. ولذلك نصوص وآيات كثيرة في السنة ولقرآن. كما ينصح به الفقهاء والعلماء والأطباء في كل البلدان.

[١] . عبد الكريم برشيد، الاهتمام، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠.

[٢] . عبد الكريم برشيد، الاهتمام، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، جيرة تيلكيل عربي من ١٠ إلى ١٦ أبريل ٢٠٢٠.

[٣] . ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٣.٠٨، ٢٠٢٠، ص. ٠٦.

[٤] . ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٣.٠٨، ٢٠٢٠، ص. ٠٦.

[٥] . ديفيد بروكس، البعد الأخلاقي للوباء تحولات في القيم، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٣.٠٨، ٢٠٢٠، ص. ٠٦.

والحال، أن الناس تداول بالمغرب وغيره عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والقنوات الرسمية العمومية ما يزرع الأمل ويطرد الخوف، لأنه أكبر قاتل للإنسان. وكان من بين الأشياء المتداولة عبر الوات ساب، بروسيا حسب ما قيل، وبالمغرب وبالعديد من البلدان، مقتطف من فيلم سينمائي حول الطبيب ابن سينا، يدعو فيه هذا الأخير الناس، على لسان السلطات الرسمية، إلى تحرير الناس من خوفهم من الوباء الذي حدث في زمنه، وربما كان من النوع الأسود الذي لا يفلت منه أحد، وإلى إغلاق الأسواق والمساجد لوقت ما، ليصلي كل في بيته، وبنقل التجار بضائعهم إلى البيوت، وتعقيم النقود في محلول الخل، وبتعقيم الأنف بالخل، وبمضغ أوراق الشيح في الفم، عند الاعتناء بالمريض، وبالمكوث في الدوروالمرح، وعدم الخوف من المرض، كونه سبب الموت والهلاك، لأن المرض يبحث عن الجبناء، ومن لا يخاف المرض، فالمرض يخافه، بل ويهرب من الموسيقى والمرح[1].

ويمكن العثور على مضمون هذا الكلام في أحد مؤلفات ابن سينا، وإن كانت فيه زيادة بحكم عمل السنيما، إلا أن ثقافة الصورة أصبحت طاغية في زمننا هذا، على عموم الناس، من غير أهل البحث وطلب العلم، وربما على بعض هؤلاء.

ومعلوم، أن معاني ودلالات القيم الاجتماعية تتحول مع التغيرات المناخية، وأن الكوارث الطبيعة كالمجاعات والقحوط والفيضانات والزلازل تفرز أنماطا سلوكية مختلفة وغريبة، تمزج فيها السلوكات العدوانية كالسلب والنهب والغصب والاحتكار، والارتداد نحو الطور الوحشي البدائي حيث يصبح الإنسان مفترسا وآكلا للنبتات والحشائش، ومستهلكا . بامتياز . لعالم الخرافة والسحر، بالسلوكات الإنسانية المؤسسة على إبداع التدابير العلمية والعملية لإدارة أزمة المناخ والكوارث الطبيعية، وإشاعة ثقافة التضامن والتكافل الاجتماعي لتجاوزها[2].

والحمد لله، إذ لم تصل بعد المجتمعات عامة، والمغرب منها على وجه الخصوص، في زمن كورونا، إلى أكل النبتات والحشائش والحيوانات وغيرها من المحظورات في المأكولات والأفعال، كما حدث في زمن بعض الأوبئة الماضية، مثل الطاعون الأسود وغيره. غير أن هذا لا ينفي القيام ببعض التجاوزات على مستوى السرقة من قبل اللصوص، وكذا الاحتكار من طرف تجار

[1] . انظر هذا المقتطف عبر اليوتوب على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=XfHkQEzaTHk

[2] . ابراهيم القادري بوتشيش، تقديم كتاب، عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها ... م س، ص. ٨

المأساة والكوارث والحروب والأوبئة والمجاعات والجشعين من التجار.

وفي سياق هذه الظروف التي نتحدث عنها، وجد مجموعة من المغاربة وغيرهم من باقي دول العالم أنفسهم ضحايا الخروج من الوطن، فتحولوا إلى لاجئين، لما وجدوا أنفسهم عالقين بالمطارات والحدود البرية بعد تعليق الرحلات[١]. والحقيقة أن هذا التفاعل الشعبي الاجتماعي مع جائحة كورونا له صور مشابهة في عمومها مع ما حدث في العهود الماضية في زمن المجاعات والأوبئة الفتاكة. ذلك لأن أحوال الدنيا متناسبة وأمورها متشابهة، وما من حدث، حدث، إلا وتقدم مثله أو شبهه، كما سيأتي بيانه

ب . المجاعات والأوبئة وبعض ردود الأفعال المغربية قبل جائحة كورونا

يعتبر استفحال التسول واللصوصية والصعلكة، من بين النتائج الاجتماعية للمجاعات والكوارث والأوبئة، في العهود الماضية[٢]. يؤكد ذلك، تمركز عصابات اللصوص، في المحاور الرئيسة التي كان يسلكها عادة المسافرون والتجار منتحلين أحيانا صفة المخزن[٣]، وقد حدث مثله في زمننا هذا. إضافة إلى ارتكاب الفاحشة، و افتراس الحيوانات الأليفة، والفرار والهجرة، وبيع الأولاد والنساء وغيرها. فالجوع قوة اجتماعية بوسعها أن تسلك بالجماعات البشرية مسالك غريبة وتجعلها تنساق على غير هدى إلى غايات مجهولة يحدوها الأمل الهاتف في أن يكون هناك وسيلة ما لإشباع الجوع القاتل [٤]. تماما مثلما يمكن أن يحدث في زمن كورونا، وهو ما نأمل ألا يصل إليه العباد، "ولكن الله يفعل ما يريد"[٥]، وله في خلقه شؤون.

وقام الفلاحون بذبح دوابهم أيام المجاعات، مما كان يعرض الثروة الحيوانية للإبادة، بل و أقدم الإنسان على أكل لحم أخيه الميت. وفي بعض المدن الساحلية كان الناس يسلمون أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام. وبالموازاة مع ذلك كثرت أعمال النهب والسرقة حتى أن ممتلكات الأولياء أنفسهم لم تسلم من السطو عليها من طرف بعض عناصر العامة[٦].

وفي زمن ترهل الدولة المغربية خلال فترة الحكم الوطاسي، ترك الناس وشأنهم خلال

[١] . إسماعيل روحي ، جريدة المساء، العدد، ٤١٥٨، الأربعاء، ٠٨..٠٣.، ٢٠٢٠، ص. ٠٦ على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=m0VNTN3m35w

[٢] . إبراهيم القادري بوتشيش، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من كمنتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة، ٢٥٠هـ / ٣١٦هـ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٢، ص ٢٦٢

[٣] . عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك ... م س، ص. ٨٠

[٤] . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات ... م س، ص. ٣٥٩

[٥] . سورة البقرة، آية، ٢٥٣

[٦] . الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص. ٦٧

المجاعة التي ضربت المغرب سنة ١٥٢٥م، ولم يجدوا سبيلا للخلاص إلا ببيع أنفسهم وأولادهم للاسبانيين والبرتغاليين في أصيلة وأسفي وأزمور، بل وعمد بعضهم إلى اعتناق المسيحية أملا في الحصول على لقمة عيش، مفكرين بذلك بوحي من بطونهم لا من عقيدتهم.[١]

وإذا كان هذا الواقع مفهوما إلى حد ما خلال الفترة السالفة الذكر، عندما كان الحكم المركزي مهزوزا وعاجزا عن التدخل لتطويق الكارثة، فإن أحد الدارسين يستغرب تكرار هذه الظاهرة نفسها في عهد مولاي إسماعيل. ذلك، أن الناس بنواحي الجديدة التي كانت تحت الاحتلال البرتغالي، قاموا ببيع أبنائهم ونسائهم، خلال المجاعة التي أصابتها في عهد عاملها دوارتي سوردريبريرا الذي كانت مدة ولايته على المدينة تعود إلى ١٧١٩م . ١٧٢٤ ، فاغتنم البرتغاليون فرصة هذه الظروف العصيبة لاسترقاق الناس، فراحوا يشترون أبناء القبائل ونساءها للنجاة من الجوع مقابل حفنة دقيق أو قمح.[٢]

٢ . استخلاص عبر، وتقاسم أفكار في ضوء جائحة كورونا.

بات واضحا أن جائحة كورونا أثرت تأثيرا كبيرا في نمط العيش والسلوك والغذاء اليومي والعلاقات الاجتماعية، سيما مع الحجر الصحي والتوقف عن العمل وحظر التجوال، وفي ذلك حكم وعبر، والدهر ذو عبرة لمن يتدبر. وطبعي أن يفكر أصحاب مكارم الأخلاق في ما يمكن تقديمه من خدمة للغير، وإن اقتصر الأمر على طمأنة الأنفس وزرع الأمل، بله الوصول إلى دواء لهذا البلاء، وهذا اختصاص الأطباء، وأهل الصلاح والتقوى في المجتمع بالرؤيا الصادقة والدعاء، وأهل البحث والتاريخ بالنبش في الكتب غير الاحترافية للأمراض والعلاج، علهم يجدون فيها من الأفكار الشاردة العابرة في سياق الأحداث، ما يساعد الأطباء على فك لغز هذا الوباء الذي يستهدف الرئة شأن الأوبئة القديمة، كما قال الأطباء أمثال بان سينا وغيره.

وما نستطيع أن نقدمه نحن إلى حدود الآن، على أن يكون هذا الاقتراح الأخير من بين اهتماماتنا في المستقبل، هو أن نتقاسم مع القراء بعض الأفكار، وما يمكن استخلاصه في ضوء هذه الجائحة من عبر، بهدف زرع الأمل، وحسن التعامل مع هذا الوباء، ونذكر من بين ذلك ما يلي:

أيها الناس تفاءلوا بالخير تجدوه، ولا تخفوا ولا تحزنوا، وفوضوا الأمر إلى الله، فلن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، وما الأمر إلا بقاء أو رحيل، وكل منهما خير، سيما لمن

[١] محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ... م س، ص. ٤٠.

[٢] . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ... م س، ص. ٤٠.

صلح عمله من أهل التقوى والإيمان، الذين يرجون رحمة الله، كي ينقلبون من حال إلى حال أفضل منه، بعد فراق النفس للبدن. قال تعالى"وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون". فإذا تيقنت بذلك، . كما جاء في سياق الحديث عند إخوان الصفاء ،. سكنت نفسك، وطاب لها الصبر على الأسقام النازلة والأعلال الواصلة إلى الجسم، واجعل أكثر شوقك إلى الخلاص من هذه الدار ومفارقة هذا السجن، لأنك إذا خرجت منه قدمت على ربك[1].

. يجب الإصغاء في العلاج وأخذ الدواء، لما يقوله أهل الحكمة والاختصاص من الأطباء، المشهود لهم بالخبرة والكفاءة في الأمراض والدواء. وهذه نصيحة قديمة حديثة، متكررة عبر الأزمان، ينبغي الأخذ بها، وعدم إتباع الهوى، و أقوال أهل الشعوذة والدجل، الجهال بعلم الوباء والأمراض، "بل ينبغي الاقتداء بأهل الدين والفضل الذين هم مصابيح الهدى والأئمة لمن بهم اقتدي"[2].

واعلم أن كثيرا من الأطباء المبتدئين، وغير المجربين، . ما بالك بأهل الجهل والخرافة والشعوذة . يقتلون العليل، ويزيدون المرض بالمرضى، فيخطئون من حيث ظنوا أنهم قد أصابوا، فكم من عليل قتلوه، ومن صحيح أسقموه، ومن ذي سلامة أعطبوه، والتفقد لهذا الباب، والتحرز منه، والتنبيه عليه، والإرشاد إليه، فيه فائدة جليلة[3].

وإذ خلقت هذه الجائحة هلعا في الأنفس الضعيفة، وجشعا لأصحاب البطون والموائد الكبيرة، فإننا ننصح بحسن تدبير القوت والأكل اليومي، والنقص في ذلك بالتدريج قدر الإمكان، مع مراعاة حال المرضى والنساء والصبيان، في ضوء تحكيم أصول العادة قبل نزول هذا البلاء. تحسبا لطول مدة الوباء، في زمن غياب الدواء وتضارب الآراء، وربما إخفاء الحقيقة. وغير ذي شك، أن حسن تدبير الأكل والشرب، وفق الضوابط الشرعية والعلمية الطبية، من دون إسراف ولا تبذير، مفيد للبدن البشري، عضويا وفكريا وربما خلقيا.

لذلك، نأمل أن يحظى هذا الموضوع بالاهتمام، لما فيه من السلامة الصحية والعقلية للإنسان. بل ونأمل أن يصبح عادة متبعة، داخل كل أسرة، من دون تربية على الشح والبخل، لما فيهما من المضار والطباع السيئة. وهذا من مسؤوليات الدولة والأسر، سواء بسواء. واعلم كذلك، أن الجوع، حسب زعم ابن خلدون، أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه، أو على

[1]. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الرابع، ص .٢٥٥

[2]. أبو عبد الله محمد بن على اللخمي الشقوري، في الوباء، على الرابط file:///C:/Users/TOSHIBA/Downloads/MSS_5067_8.pdf

[3]. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الرابع، ص .٣٢٨

الإقلال منها، وأن له أثراً في الأجسام و العقول في صفاتها و صلاحها، كما أن الهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق[1].

وللاستفادة في هذا الموضوع أكثر، انظر ما قاله ابن خلدون، والأطباء القدامى في هذا الشأن[2]، وسنذكر لك بعضه، قصد العبرة والفائدة، إنما بعد الإشارة إلى ضرورة إعمال رأي، ما نصح، بل وأمر به أطباء العصر، مما هو ملائم لفيروس كورونا المستجد. و افق ذلك، ما وصفه القدامى لوباء زمنهم، أو خالفه، باختلاف طبيعته، وتفاعلاته مع نوع المأكول والمشروب، والمواد الصالحة لتطيب الهواء، وهذا أمر ضروري لا ينبغي التلاعب فيه.

والحقيقة، "أنه من الواجب على أهل الدين والعقل، ممن أسند إليه أمر من أمور المسلمين، أن يمنع أهل الجهل والإقدام، من مضرة المسلمين، بإعطائه الأدوية دون مشورة الأطباء، واستعمال الفصد كذلك، فإن هذا متلف لا معفي"[3]. ولاجرم، "أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا"[4]، كما تعالى.

ومما نذكره لك في هذا السياق من أقوال القدامى، أن الطبيب صاحب النصيحة المذكورة أعلاه، وهي نصيحة لابد من الأخذ بها في زمننا هذا، وفي مقبل الزمان، ميز خلال الطاعون الأسود، بين المجتنب، وبين المستعمل في الغذاء، لإصلاح الأبدان. "فالمجتنب كثرة الأكل وقلة الشرب ومصابرة العطش، .وفي زمن كورونا ينصح أيضا بكثرة شرب الماء، وتنظيف اليدين ،. ودخول الحمام، والتخليط في الأكل، مثل أن يجمع بين أغذية كثيرة في مرة واحدة، وأن يدخل طعاما على طعام آخر، فإن هذا مما يجلب الأمراض الصعبة مع صلاح الهواء، فكيف مع فساده، وأن يمعن في الأغذية الردية المنحرفة، مثل الموالح والحلاوات والحوامض، بل يأخذ من ذلك بقدر الحاجة، وعند الضرورة إليه، فإن الزيادة من الغذاء النافع، ضارة، فما ظنك به إذا كان رديا، واستعمل منه أكثر من الحاجة... ما خلا الحامض بأنه نافع جدا، وموافق في هذا العارض، . يقصد الطاعون الأسود . لكن الإكثار منه ردي، ولاسيما مع وجود الصحة، فإن الغذاء يحتاج أن يكون أميل إلى المو افقة للمزاج، وفي المرض يحتاج إلى ما

[1]. ابن خلدون، المقدمة، ج، ١، ص. ١٩٨. ١٩٩.

[2]. انظر في مقدمة ابن خلدون الفصل الخاص باختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم، ج،١، ص. ١٩٦

. انظر، رسالة، في الوباء، لأبي عبد الله محمد بن على اللخمي الشقوري.

[3]. الشقوري، في الوباء، على الرابط : file:///C:/Users/TOSHIBA/Downloads/MSS_5067_8.pd

[4]. سورة المائدة، آية، ٣٢.

يضاده وينافره، فيكون استعمال الحامض في المرض دواء، فيكثر من استعماله، ما لم يكن هناك سعال، أو وجع في المتانة، أو قروح، فإن الحامض يجتنب في هذه الأمراض، وكذلك البصل والثوم، إلا ما قيل في البصل، إنها تدفع وباء الماء، فإن القليل منها لا يضر، وقد ينفع بعض النفع، وأما سائر الفواكه فقليلها خير من كثيرها. وأما المستعمل فالخبز من القمح الطيب النقي، معتدلا في الملح والخمير، ويعجن بقليل من خل طيب مع الماء. وأما اللحم فلابد منه، إذ هو مواد القوى، لكن دون الكثرة، و أفضله الطير، و أفضله الدجاج والحجل، مخللات وبالتفاح الحامض والسماق الشامي وخل الليمون و... أما الشرب ...[1]

. ومن العبر المستخلصة، والقضايا التي تستحق التساؤل والنظر في زمن كورونا، مسألة السكن، وفلسفة العمران، ومدى مو افقته من حيث التصميم والاختطاط في زمننا هذا، للبدن وحفظ صحة الإنسان. ومن عوامل ذلك، حسن اختيار موضعه، ودقة تصميمه، وتوفره على مجال أخضر قابل للحرث والزرع فيه، الأمر الذي يوفر راحة نفسية ومواد غذائية لأهله، سيما في زمن المجاعات والأوبئة الفتاكة، تماما مثلما هو الحال في زمن كورونا، زمن الهلع، ونقص الغذاء في بعض البلدان، والخوف من الموت بسبب الجوع أو الوباء.

واعتبروا في ذلك بما هو موجود في ماضينا وتراثنا، وبما قامت به السيدة التي وزعت على جيرانها، بذور الخضار لزرع حدائقهم الخاصة بأمريكا في زمن كورونا، وكأننا في زمن جائحة خلال العصور الوسطى، نسأل الله ألا نرتكس ولو إلى قليل مما ذكرنا عن حال الناس حينها، وما يدريك، إن صح ما يقال، ولم يتوصل الأطباء سريعا إلى دواء مناسب للعلاج؟ والحال، أن الناس في بعض البلدان، بدأت تحزم بطونها بسبب الجوع، بل وتخشى من الموت بسببه، أو بسبب فيروس كورونا، حسب ما أذيع في قناة الجزيرة. والسؤال المطروح، هو هل كان بالإمكان التفكير في مثل هذا العمل، الذي قامت به هذه السيدة في أمريكا، لولا توفر الدور على مجال قابل للحرث والزرع بداخلها؟

إنه موضوع نحسبه جدير بالتدبر والنظر والاهتمام، لاستخلاص العبر، كونه على صلة بفن وفلسفة العمران في علاقته بمو افقة البدن وضمان السلامة الصحية للإنسان، سيما في زمن الوباء، وهو موضوع أصيل وله ضو ابط أساس في الثقافة وفن العمارة الإسلاميتين، ما جعل العالم الإسلامي، خصوصا في العصور الوسطى،

[1] . الشقوري، في الوباء، غير مرقم على الرابط : file:///C:/Users/TOSHIBA/Downloads/MSS_5067_8.pd

يتفرد بنموذج معماري له أصالته وهويته ومقوماته وجماليته... التي تميزه عن غير من أشكال العمارة، سواء على مستوى اختيار مواضع المأوى والقرار، أم على مستوى تخطيط المدن والقصبات والقصور، وكذلك الحال تصميم الدور وغير ذلك.

وحسبك، أنه لم يكن من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا هدي أصحابه، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر، تقي الحر والبرد، وتستر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها، ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤذي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليه، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلها حرا وبردا... ولم يكن فيها كنف فتؤذي ساكنها برائحتها...[1].

ولعل ما يروق في هذه الخصائص، وغيرها مما لا يسمح المقام بذكره هنا، بل ويروق كل باحث عن أفضل نموذج معماري للمأوى البشري، كون رهان الالتزام بها، هو حفظ السلامة الصحية للإنسان، لأنها "من دون ريب من أعدل المساكن وأنفعها، وأوفقها للبدن، وحفظ صحته"[2]. ويمكن للدراسات العلمية المعاصرة أن تثبت أو تنفي هذه الحكمة التاريخية، المشتقة من أصالة العمارة الإسلامية الطينية، التي تنشد تحقيق السلامة الصحية، لأن الإسلام رسالة عالمية، غايته إسعاد البشرية. وتعرف حقيقة هذه الأمور وحاجة الناس إليها بكثرة في زمن الأوبئة الفتاك والأمراض المزمنة المستعصية، مثل أمراض التنفس والضيقة وغيرها.

والمؤسف أن الكثير من هذه القيم الإسلامية ذات الصلة باختطاط العمران، وكذلك الحال، بناء الأسر وزرع القيم وغيرها، أتلف بمد الأمواج العاتية لبحر أوهام الحداثة، وما بعد الحداثة، وقيم الحضارة الغربية الرأسمالية الواهية، بل والعنصرية[3]، التي سممت عقول كثير من العوام والمثقفين. وساهم في ذلك، واقع التبعية من قبل البلدان الضعيفة. ويأبى الله إلا استحضارها والتذكير بها، خصوصا في زمن المجاعات والأوبئة. وقد قيل: رب ضارة نافعة.

[1]. ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج، ٤، ص. ٢١٨ ٢١٩.

[2]. ابن القيم الجوزية ، نفسه، ص. ٢١٨ . ٢١٩.

[3] . من مظاهر هذه العنصرية التي ما تزال مستمرة عند بعض الأوربيين إلى يومنا هذا، كما كشفت عن ذلك جائحة كورونا، دعوة بعض الأطباء، وعلى رأسهم جان بول ميرا، رئيس فسم العناية المركزة بمستشفى " كوشن" الباريزي، الذي قال أنه يمكن القيام بتجارب في إفريقيا لاختبارات لقاح ضد فيروس كورونا، باعتبارها حقل تجارب سابقة. حول باقي ردود الأفعال حول هذا الموقف العنصري أللإنساني انظر جريدة المساء المغربية، العدد، ٤١٦١، السبت والأحد، ١١ .١٢، أبريل، ٢٠٢٠.

وفي ضوء ذلك، نرجو من الله، أن يخرج للناس من مأساتها هذه الجائحة ومصائبها، خيرا كثيرا، كما يخرج الحي من الميت، ويسلخ النهار من الليل. خير، أقل ما فيه، مراجعة الذات في علاقتها بالخلق، وبخالق الكون والخلق، ناهيك عن تطور الطب والعلوم، وإحساس الناس بأهمية مكارم الأخلاق والعدل والتضامن، وإنصاف المظلومين والمقهورون، بهلاك بعض الظلمة والطغاة والمفسدين. ومن هلك معهم من الصالحين، فنعم الرحيل. قال تعالى: "وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون"[١]، وقال جل علاه: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزولا، خالدين فيها لايبغون عنها حولا"[٢].

. وإذا كان من حسنات جائحة كورونا، طرح مسألة اختطاط العمران، في علاقته بمو افقة البدن، وضمان السلامة الصحية للإنسان، فاعلم أن المسألة ذاتها طرحت خلال الطاعون الأسود، ذكرها ابن خلدون في مقدمته، باعتبارها من و اقعات العمران البشري، ذلك أن سبب هذا الوباء يرجع في الغالب إلى كثرة العمران، لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة... ولهذا تبين من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيو انات، ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا أيضا يكون الموتان في المدن الموفور العمران أكثر بكثير[٣].

تماما مثلما تنتقل فيها الأمراض المعدية، مثل الجذام والجرب والجدري والحمى الوبائية والقروح العفنة، بسرعة، كما قال ابن سينا ، خصوصا إذا ضاقت المساكن، وكذلك إذا كان المجاور في أسفل الريح. تماما مثلما أشار إلى أن أحوال المساكن تختلف في الأبدان، بسبب ارتفاعها و انخفاضها في أنفسها، ولحال ما يجاورها من ذلك، ومن الجبال، ولحال تربتها، ولحال كثرة المياه وقلتها، ولحال ما يجاورها من الأشجار والمعادن والمقابر والجيف ونحوها.[٤]

لذلك، نصح من يريد أن يختار المساكن، أن يعرف تربة الأرض وحالها في الارتفاع والانخفاض والانكشاف والاستتار... وهل هي معرضة للرياح أو غائرة في الأرض، ويتعرف حال أهل البلد في الصحة والأمراض... ، كما يجب أن يجعل الكوى . النو افذ . والأبواب شرقية شمالية.[٥]

وفي ضوء هذا تتجلى بما لا يدع مجالا للشك، أهمية ما قلناه عن فلسفة العمران، سواء على مستوى اختيار مواضع المأوى

[١]. سورة الأنعام، آية، ٣٢.

[٢]. سورة الكهف، آيتان، ١٠٧. ١٠٨.

[٣]، ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، جد، ١، ص. ٤٩٩. . . ٥٠٠.

[٤] ابن سينا، القانون في الطب، ج، ١، ط، ١، ١٢٦. ١٢٧.

[٥] ابن سينا، القانون في الطب، ، ج، ١، ص. ١٢٩.

والقرار، أو تصميم الدور، بما يوافق الأبدان ويحفظ صحة الإنسان، سيما ما يتعلق منه بمقاسات الطول والعرض والارتفاع ، والمجال القابل للحرث والزرع، ووجهات الكوى والأبواب، وغير ذلك.

والهدف من جعل الكوى والأبواب شرقية شمالية، حسب ابن سينا رحمه الله، "تمكين الرياح المشرقية من مداخلة الأبنية، وتمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها، فإنها هي المصلحة للهواء.[1] وهو عنصر ضروري لأبداننا وأرواحنا . وبفساده يحصل المرض والوباء

ويدعم قول ابن سينا، ما اقترحه أحد الأطباء خلال القرن الثامن الهجري، لإصلاح الهواء، الذي كان فساده سبب الوباء المسمى بالطاعون الأسود، إذ نصح بالتبخير، وباختيار المسكن، بأن يجلس المرء بالنهار في البيوت المنخفضة والمواضيع الباردة، وبالليل في المواضيع المرتفعة ومهاب الرياح، ومن لم يكن له ذلك، سكن في موضع يكون مفتوحا للشمال، مسدودا من جهة الجنوب، ويستعمل من المشمومات ماء الورد..." [2]. وحسبك، أن المدينة المفتوحة على سبيل المثال إلى المشرق، الموضوعة بحذائه، صحيحة جيدة الهواء[3].

ولا مندوحة أن جل هذه الضوابط وغيرها مما هو أصيل في العمارة الإسلامية، دمرتها قيم الحضارة الغربية الرأسمالية العمرانية اللاإنسانية. لذلك؛ بدهي، أن تنتشر الأوبئة بسرعة في المدن المعاصرة، مثل انتشار جائحة كورونا، بسبب ضيق المساكن والعمارات الشاهقة، ومساوئ اختيار مواضع المأوى والقرار واختطاط العمران، وتدمير الغابات والأشجار والمجال الزراعي المحيطة به...، بل وعدم توفر جل الدور على مجال أخضر في داخلها.

وقبل أيام من قراءة مقال ديفد بروكس، الذي أشار فيه إلى السيدة التي وزعت بذور الخضار على جيرانها، حتى تستطيع الأسر زرع حديقة خضر خاصة بها، نصحت أحد أصدقائي بحرث حديقة منزله، فبدأ يضحك، تماما كما كان يفعل، ومعه باقي أصدقائي المقربين، لما كنت أحدثهم بخطورة هذا الوباء الذي بدأ ظهوره في الصين، وبضرورة التزود له، والاستعداد للتعامل معه، قبل أن ظهور عدواه بالمغرب، وبعدم التصافح بالأيدي، على غير المعهود بيننا في سالف الأيام، سيما ونحن بالمقهى نتناول كل أحد، بعد صلاة الصبح، وجبة الفطور بكل

[1] ابن سينا، القانون في الطب، ج، ١، ط، ١، ص. ١٢٩.

[2] . الشقوري، في الوباء، غير مرقم على الرابط: file:///C:/Users/TOSHIBA/Downloads/MSS_5067_8.pd

[3] .ابن سينا، القانون في الطب، ج، ١، ص. ١٢٩

فرح وسرور، أو عندما نكون بداخل محله التجاري، نشرب الشاي مع الحلوى أو بعض الكاكاو. وقد ذكرت لكم هذا القسط من تاريخنا الاجتماعي في مجال الصحبة والصداقة، لأصف لكم جزء من واقع العلاقات الاجتماعية بين الناس قبل كورونا، وكيف انقلبت بعدها، ثم لأتقاسم معكم فرحتي ونصيحتي أيضا، لما أخبرني بعدما سألته أثناء قراءة المقال المذكور، أنه حرث فعلا حديقة بيته، عملا بنصيحتي، وهي من النصائح التي أوجهها لقراء هذا العمل في كل زمن، خصوصا في زمن المجاعت والأوبئة، ونسأل الله أن يرفع عن عباده هذا البلاء.

ويشرفني أن أختم هذه الورقة بكلمة وجهتها في زمن كورونا، إلى أبنائي التلاميذ، قصد التواصل معهم، لمواساتهم والاطمئنان على حالهم، وقد أحببت أن أتقاسم مضمونها مع قراء هذا المجهود المتواضع، سيما لمن كان منهم طالبا أو تلميذا آنيا أو في المستقبل، سواء داخل المغرب أو خارجه، ومما جاء فيها بعدما حييتهم، وأحييكم أيضا، بتحية الإسلام، ونصحتهم، كما أنصحكم، مرة ثانية، بالتفاؤل وعدم الخوف والحزن، ما يلي:

. أبنائي التلاميذ، أتمنى أن تكونوا في أحسن الظروف والأحوال، كما أسأل الله أن يحفظكم، ويحفظ عباده جميعا من هذا البلاء والوباء الذي نزل بالبلدان والعباد، وأن يخرج لكم من صلب مأساته خيرا ورحمة، كما يخرج الحي من الميت، ويسلخ النهار من الليل. فتفاءلوا بالخير تجدوه.

. بعد هذه النصيحة، أحببت أن أخبركم، أنني أحبكم جميعا، حب الأب في العلم لأبنائه. وإذ عز علينا فراقكم، وتعذر اللقاء بكم، فقد اخترنا أن نتواصل ونتقاسم معكم عبر وسائل الاتصال المتاحة ،. بعض الكلمات والدروس والمعلومات. أما الكلمات، فهي في حقيقة أمرها عبارة عن نصائح من أب لأبنائه، وأذكر لكم منها ما يلي:

. امكثوا في بيوتكم ولا تخفوا ولا تحزنوا، وفوضوا الأمر إلى الله، فلن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم.

. عليكم بالصبر وحسن التعامل مع الإخوة والآباء، وكذلك الحال حسن تنظيم الأكل والنوم والعمل.

. حولوا الدور إلى فضاء للحوار والتعليم والتعلم باستعمال وسائلكم المتاحة.

. اعلموا أن المجهود الذاتي هو أفضل وسيلة لتطوير قدراتكم التواصلية والثقافية والمنهجية... نحو الأفضل، بل ورسم معالم آفاقكم العلمية والمادية في المستقبل. ولعلني

حدثتكم سابقا أن اينشتاين قال: إن سر تفوقي لا يرجع إلى كثرة ذكائي ولكن إلى كثرة حلي للتمارين. وغير ذي شك أن من جد وجد، ومن زرع حصد، وأن "من أسهر عين فكرته بلغ كنه أمنيته"[1]. واعتبروا ذلك بحال سائر العلماء والأذكياء. ويروى أن إسحاق نيوتن دخل في عزلة عام ١٦٦٥م لتفادي الطاعون الذي انتشر في بريطانيا، وبعد خروجه من عزلته كان قد اخترع حساب التفاضل والتكامل، واكتشف قانون التجاذب الكوني والحركة[2].

. استفيدوا من تجربة نيوتن، واستغلوا عزلة الدور لتفادي فيروس كورونا الذي يقتل ويضر، وحاولوا صقل قدراتكم للحصول على نتائج تشرفكم وتسروا عائلاتكم.

. اعلموا يا أبنائي، "أن كل متعلم علمًا فإن صورة المعلوم في نفسه بالقوة، فإذا تعلمها صارت فيها بالفعل. وهكذا كل متعلم صنعة فإن صور المصنوعات في نفسه بالقوة، فإذا تَعَلَّمَها صارتْ فيها بالفعل، والتعلم ليس شيئًا سوى الطريق من القوة إلى الفعل، والتعليم ليس شيئًا سوى الدلالة على الطريق. والأستاذون هم الأدلاء وتعليمهم هو الدلالة، والتعلم هو الطريق، والمعلوم هو المطلوب المدلول عليه، فنفوس الصبيان علامة بالقوة، ونفوس الأستاذين علامة بالفعل، وكل نفس علامة بالقوة لا بد لها من نفس علامة بالفعل تخرجها من القوة إلى الفعل"[3] ""

لأجل ذلك، أنصحكم بالتواصل والاستفسار بخصوص ما يهمكم، ولا تتحرجوا من الخطأ أوتترددوا في طرح السؤال.

. ختاما أتمنى لكم التوفيق والسداد والنجاح في المستقبل.

خاتمة

خلاصة القول، بات واضحا أن الكوارث والأوبئة، تعتبر حقيقة من بين الظواهر التاريخية الطبيعية التي تساهم بنسبة معينة في استفحال المحن والفتن التي تعيشها الأمم والحضارات والدول في بعض فترات الزمن، نتيجة فساد النقود وغلاء الأسعار، بفساد السياسة وسوء تدبير الحكام. وتساهم في استفحال هذا الغلاء، الكوارث والأوبئة، باعتبارها من واقعات العمران، التي تتكرر عبر الأزمان، بسبب عدمية الأخلاق وانحطاط القيم، سيما في زمن استفحال الظلم والفساد والاستبداد والخبث والطغيان، فتتبدل الأحوال،

[1]. علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، ص. ١٣٥

[2] . يمكن الحصول على المعلومة عبر تحريك البحث عبر محرك: google

[3] رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الأول القسم الرياضي، ص. ٢٩٤.

وتنقلب بالجملة، مع صيرورة وطول أمد الزمن، خصوصا مع هرم الحضارات والدول

فلا مشاحة، أنها تساهم، حسب درجة خطورتها، في تدمير القوى المنتجة، وتراجع الإنتاج وركود الاقتصاد، وربما العجز في ميزانية الدول. وبذلك يتراجع حجم المعروضات من السلع والحاجيات والخدمات، فيستفحل غلاء الأسعار، وتندلع الثورات، وتكثر الفتن، وتتعرض البلدان للخراب والدمار. فتزول الحضارات والدول، في سياق تاريخي درامي، تحكمه قواعد وسنن، يمكن ضبط بعضها أثناء مطالعة أخبار الماضي البشري، قصد فهم الحاضر، ومحاولة رسم معالم المستقبل.

ذلك؛ من خلال تركيز الاهتمام على ما يتكرر من الظواهر والأحداث، وعلى رأسها ظاهرة الكوارث والأوبئة، التي تجسدها في زمننا هذا جائحة كورونا، ويغلب على الظن أنها ستكون على غرار سابقتها، إن صح أمرها وما يقال عنها، من الأنواع الفارقة بين مرحلة قديمة، وبين مرحلة أخرى جديدة. بين حضارة هرمة مدبرة، وبين حضارة صاعدة مقبلة. تماما مثلما كانت المجاعات والأوبئة التي جاءت لدولة بني العباس بالمشرق، ولدولة الموحدين بالمغرب الإسلاميين، على سبيل المثال، على حين هرمهما، فزال ملكهما وحضارتهما، وتبدلت أحوالهما، بل وانقلبت بالجملة، كما انقلبت أحوال العالم بعد ذلك في زمن طاعون المائة الثامنة. فغابت شمس حضارة العرب، وطلع ضوء فجر حضارة الغرب، والراجح أنه بدأ يغرب بعد مضي ما يقرب من ستمائة سنة ونيف. وسيقبل على الناس زمن جديد، تحكمه قوانين تكرار وقائع العمران، زمن نحسب أن ضوء فجره لاح مع محنة ٢٠٠٨م، وربما تشرق شمس صبحه بعد جائحة كورونا، إن كانت في ضوء نتائجها غير المكتملة، من أنواع الأوبئة التي وصفناها بالفارقة، سنة الله في الخلق. ونختم الكلام، بفتح مشروع جديد للعمل، بطرح التساؤل عن مستقبل الحضارة الغربية الرأسمالية، ، وآليات التموقع العربي في عالم الغد؟.